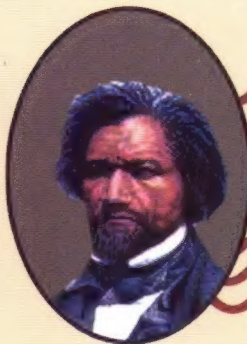


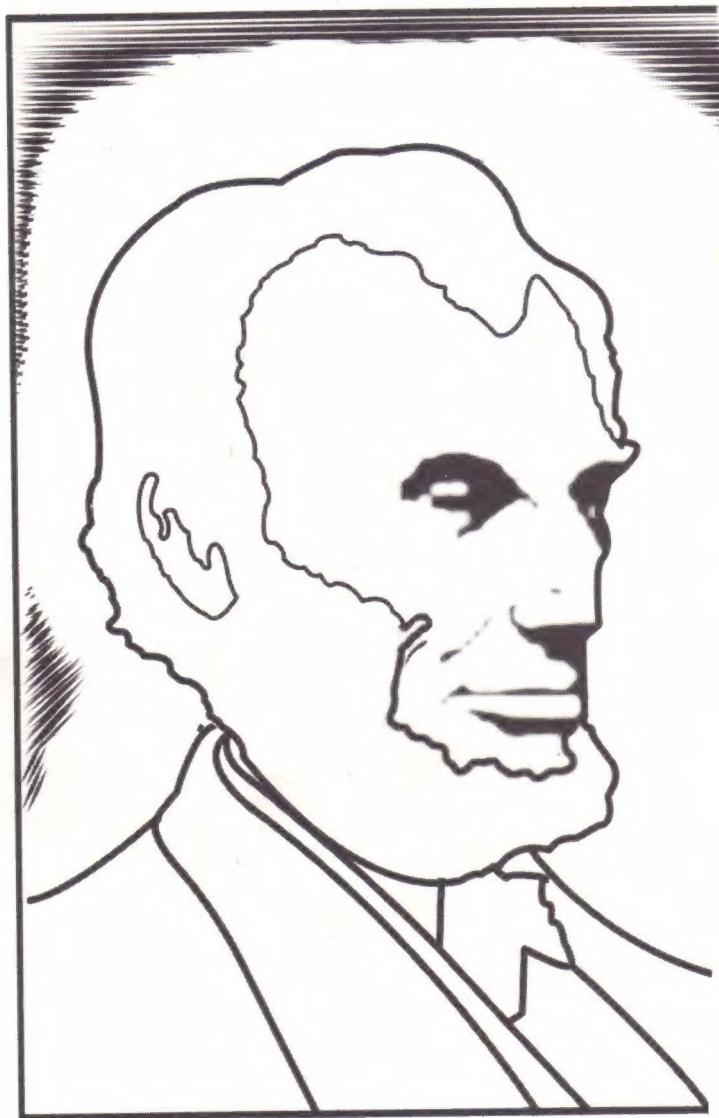
العهدة

جون ستوتوفر

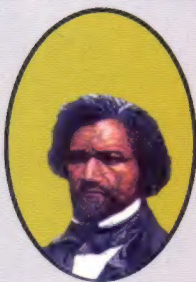
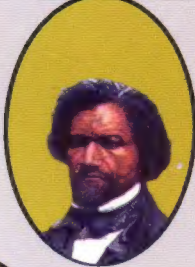


وكالة سفينكس





كتاب
من
الولايات
المتحدة



وكالة سفنكس

العمالة

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

John Stuffer

Giants

The parallel Lives of Fredrick Douglas and Abraham Lincoln

صدر العمل الأصلي عن دار نشر
Grand Central Publishing

جون شتوفر

العمالة

ترجمة / محمد المغربي
الغلاف / هانيبال - هيبو
سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من الولايات المتحدة الامريكية
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع: ١٣٤١٢/ ٢٠١٠
ISBN: 978 - 977 - 6299 -27-6



وكالة سفينكس

٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد - القاهرة

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للنشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي
وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على
أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن
كتلي من النشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2010

Arabic language translation copyright © by SPHINX LITERARY
AGENCY with collaboration of the Arabic Book Program of the
U.S. Embassy in Cairo.

This edition published by arrangement with Grand Central Publishing,
Inc., New York, New York, USA. All rights reserved.

جون ستوفر

العمالة



وكالة سننكس

مفتّح

أود أن أشير بالنسبة لأبراهيم لتكون . أن الأمر كان مسألة حفظ للتوازن داخل ذاته بين فكرتين متناقضين، أولاهما أننا يجب أن نتحاور وإن نصل لدرجة من التفاهم المشترك، وتحديدًا لأننا جميعاً غير كاملين ولا يمكننا العمل مطلقاً ونحن على يقين كامل بأن الله معنا، ومع ذلك فإنه يتعين علينا أن نتصرف - في بعض الأحيان وبالضرورة - كما لو أننا على يقين وأن العناية الإلهية وحدها تحميّننا من الخطأ .

إن أفضل ما يمكنني عمله في مواجهة تاريخنا هو أن أذكر نفسي أن النزعة العملية رحمة لم تكن أبداً ولا صوت المنطق، ولا قوة التوافق هي التي خلقت الظروف المواتية من أجل الحرية، إذ إن الحقائق القاسية الباردة هي التي تذكرني بما كان عليه رجال مثل فردريك دوجلاس الذي أدرك أن القوة لن تشر دون كفاح .

باراك أوباما

جراًة الأمل . . أفكار حول استرداد الحلم الأمريكي ٢٠٠٦

تمهيد

بعد كل من فردريك دوجلاس وأبراهام لنكولن أبرز رجلين عصامين في التاريخ الأمريكي، حيث ولد لنكولن في فقر مدقع، ولم يحصل إلا على أقل من عام واحد من التعليم الرسمي، ثم أصبح واحداً من أعظم رؤساء الأمة الأمريكية . في حين قضى دوجلاس أول عشرين سنة من حياته عبداً، ولم يحصل على أي مستوى من التعليم الرسمي، أصبح أكثر الرجال السود شهرة في العالم الغربي وواحداً من أعظم حملة الأقلام في الأمة.

ما كنت لأحلم - بأية صورة - قبل بداية مشروعني هذا أن أجدهما قد عاشا حياتين متماثلتين بشكل مذهل، فقد تعلما القراءة وصنعا نفسيهما من نفس المنهل ونفس مجموعة الكتب كالكتاب المقدس، وما كتبه شكسبير ولورد بايرون وروبرت بيرنز، وخرافات يعسوب ومجموعة موضوعات "الخطيب الكولومبي"؛ وهى مختارات من الخطب الملائمة للنشء، وقد اجتنبا - معا - تدخين التبغ وشرب الكحول في عصر كان الناس فيه يحسسون الخمر ويمضغون

التبغ أثناء عملهم . . صباحا - معا - أكثر خطباء المجتمع إيهارا
حينما كان الخطاب العام واحداً من الأشكال القليلة للترفيه
"الاجتماعي"، مساوياً لرياضة المحترفين أو الموسيقى الشعبية اليوم.
كانا - كذلك - من أطول الرجال قامّة على الأقل بنصف قدم أطول
من نظرائهم، حينما كان التكوين الجسماني هو الذي يحدد النجاح أو
الفشل أو حتى الحياة والموت . . وحينما يقوم بتفسير قدريهما نجد
أن كليهما قد اقتبس نفس السطر الذي كُتب شكسبير في هاملت:
"هناك يد إلهية تشكل غاياتنا وتحتها بدقة للشكل الذي تصير
إليه". كما جسدا - معا - حلم أمريكا بالتمسك بحقوقهما الشخصية
الفردية وإعادة صياغة نفسيهما باستمرار، وقاما بالغوص في الماضي
لتشكيل طريقتهما قدماً للأمام ، إذ كانا مصلحين يؤمنان بأن التاريخ
هو ملهم نشطاء المجتمع ومحركه.

خلال تقدمهما، خاضا في وحل التفرقة العنصرية. وبالتالي،
أصبحا أعداء تارة وأصدقاء تارة أخرى، فأكثر من مرة أطلق
دوجلاس على لنكولن مسمى "ممثل العنصرية" و"أكبر عقبة أمام
الحرية في أمريكا"، حيث عرض بذلك حدود قدرات لنكولن كبطل
للحرية، في حين قضى لنكولن معظم حياته مؤملاً في تخليص بلاده من
السود والعبودية معا . . كانا أيضاً برجمائين، قادرين على التجاوز
عن الاختلافات الهائلة ليقتربا من بعضهما كأصدقاء . . في عام

١٨٦٠م ساعد دوجلاس في انتخاب لنكولن رئيساً، وفي زمن كان معظم البيض لا يمكن أن يدعوا رجلاً اسود يمر عبر عتبات بيوتهم، قام لنكولن باستقبال دوجلاس ثلاث مرات بالبيت الأبيض . . كانت صداقتهما قائمة على المنفعة بصورة أساسية حيث احتاج لنكولن لـ دوجلاس في تحطيم اتحاد الولايات الإحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ ، وعرف دوجلاس أن لنكولن يستطيع معاوته في إنهاء العبودية، وأيضاً كانا يحملان التقدير لبعضهما البعض . . وعند مقارنة حياتيهما واحدة مقابل الأخرى، وتتميز إحداهما عن الثانية، فإننا نحصل على صورة أكثر اكتمالاً لمسيرة كل منهما وشخصيته ، وكذلك نصل لفهم أفضل لتأثير الأصدقاء والخصماء والمستشارين بل والمنافسين في تشكيل حياتيهما، كما نكتسب إحساساً أكثر ثراءً بطبيعة تحولاتهما الشخصية وحدودها، وبعدئذ فإن الاعتماد على كلماتهما وتصرفاتهما يوفر منظوراً واقعياً يبين كيف أثر الاختلاف العرقي في تشكيل النسيج العام لحياتيهما وزمنيهما .

وتعتقد بعض المفارقات العنيفة أفكارنا المسبقة سلفاً حول هذين الرجلين، وحول الرجال العصامين بوجه عام، فدوجلاس ولنكولن من بين أعظم مفكري أمريكا، رغم أنهما نشأ وسط عالمين فاسدين وكان يشار إليهما شكلاً نقطة تحول في مسرتيهما . . كانا من

صناع الكلمة الذين لم يتعلموا مطلقاً لغة أجنبية واحدة. وبدلاً من ذلك، تطورا من الحديث بلهجة محلية - تكاد تكون بلسان أجنبي - إلى التحدث بلغة إنجليزية مهذبة رغم أن أغلب الناس اليوم يظنون أن لتكوين واحداً من أعظم خطباء الأمة حيث كان دوجلاس - في وقته - يُعدّ نموذجاً للأدب. أقر كلا الرجلان بأن الخطاب العام يهتم المجتمع أكثر من صلات النسب أو العلاقات الشخصية كمدخل للحياة العامة . . كما اتصرا على اليأس بمزاجهما المرح. كما أن كلاهما تزوج، وأصبحت المرأة - جزئياً - مسؤولة عن نجاح كل منهما .

جستد دوجلاس ولتكوين مفهوم الإنسان العصامي حتى قبل ابتداء هذا المصطلح عام ١٨٣٢ إذ بينما كانا يقومان بصنع مكاتهما دفعا الآخرين للاقتداء بهما، فهما يتفصلان عن الناس عندما يستغنيان عنهما ، ثم يعودان للتواصل معهم عندما تتلاقى طرقهم، حيث لاشيء ساكن وثابت بالنسبة لهما في أمور الصداقة أو المصلحة الشخصية . . تسمى واحدة من أشهر خطب دوجلاس "الرجال العصاميون" ألقاها أكثر من خمسين مرة وكان يفتحها باستمرار خلال تطور حياته، مثلما كتب سيرته الذاتية ثلاث مرات. كان صلب الخطاب يدور حول كيف يمكن للرجال والنساء تحسين ظروفهم عبر العمل الجاد والتعلم الذاتي . . وقد آمن لتكوين

أيضا بتلك المبادئ باعتبارها الوسائل الأولى المرء لنفسه بمجده الخاص . . لكن الهدف النهائي لتلك التحولات كان تحسين المجتمع لا الوصول للثراء، ففي إعادة صنع النفس إصلاح للمجتمع .

كان وجود العبودية - سواء في صورة "عبودية الأجور المدنية" بالنسبة إلى الرجال البيض أو عبودية الأتقان بالنسبة إلى السود - يقف حائلاً أمام إمكانية صنع المرء لنفسه إذ شكل وجود المرء ثابتاً وساكناً من الناحية الاجتماعية مدى حياته مأساة قومية في قناعة كل منهما . لقد ضم لتكوين السود إلى حلمه في إتاحة الفرصة للمرء لصنع نفسه قبل أن يصادق ودجلاس بزم طويل : "أريد لكل إنسان فرصته . . والإنسان الأسود يستحق ذلك في اعتقادي أيضاً، حيث يقوم من خلال هذه الفرصة بتحسين أوضاعه" . . لكن لتكوين كانت لديه قناعة أيضاً بأن على السود مغادرة البلاد لتحسين أحوالهم ، وساعده ودجلاس على تغيير وجهة نظره .

أدرك لتكوين ودجلاس أن صناعة النفس "العصامية" تتناقض مع العنصرية، وكان ذلك لأن فكرة "بياض البشرة" كعلامة على التفوق ومبرر لقمع السود اعتمدت على الإيمان بأن الذات ثابتة لا تتغير . لقد تجاوز ودجلاس ولتكوين الفكرة التقليدية التي تعد "الشخصية" ظاهرة ساكنة ثابتة ومؤسسة على الوراثة والمكانة الاجتماعية، إذ رأيا بدلاً من ذلك أن الذات في حالة من التدفق

الدائم . . وقد تمسك دوجلاس بأهمية ذلك التطور في مدح لنكولن:
"كلما ارتقينا في المرتبة الإنسانية والسمو الأخلاقي، ابتعدنا عن
الأحكام المسبقة، فالجمود يقود لضيق الأفق والتفاهة."

كلاهما وقف في مقدمة النقطة الرئيسية في تاريخ الثقافة التي
رفضت الوضع القائم بشأن الأوضاع الاجتماعية الثابتة وأدرجت
السود والبيض - والنساء نادرا - في إطار المثل القومية للحرية
والمساواة. لكن ذلك التحول كانت له حدوده، إذ ظهر دوجلاس
ولنكولن في عصر الاحتفاء بالعصامين. في الوقت الذي كانت
حكايات " القفز من الفقر إلى الغنى " وقائع حقيقية تروى، ومع ذلك
فقد كان امتلاك العبيد في الجنوب أضمن طريقة لصناعة الذات . .
ولسخرية القدر، برز لنكولن ودوجلاس كأصدقاء خلال حرب
غيرت المجتمع الأمريكي، وأعادت أثناء مسيرتها احتمالات صناعة
الذات، فالحرب أنهت العبودية ومنحت الرجال السود حق التصويت
اسمياً، لكنها جلبت موجة عارمة من العنصرية، واتكاسة آئمة ضد
السود، كوسيلة لإعادة توحيد الشمال والجنوب، مع كم هائل من
البيروقراطية وسوء توزيع الثروة مما أعاق الحراك الاجتماعي بين
الطبقات الدنيا، ففي عصر ما بعد الحرب الأهلية أضحت فكرة
الإنسان العصامي أسطورة عامة ، وبهذا المعنى صعد دوجلاس

ولنكون من قاع المجتمع إلى قمته بطرق أصبح من الصعب بعد ذلك تصديقها بمجسدين عاما .

تفتح تلك السيرة الذاتية الجماعية نافذة على تحول المجتمع الأمريكي بسبب الحرب الأهلية حيث تتوازي صراعات الرجلين - غالبا - مع صراعات الأمة، ويعكس اضطرابهما الداخلي الإضطراب الذي ساد أمتها، وفي الواقع يزودنا تفاعل الرجلين مع مجارطة طريق للمشهد السياسي المتغير، فقد تكرر فقدان دوجلاس لثقة في لنكون لكي يستعيدوها مره أخرى، إذ لا ترسم رؤاه المتغيرة المسيرات السياسية لكلا الرجلين، وإنما تبرز مسيرة الأمة نحو الثورة الثانية، وتعد قصتهما المتشابهة في التغير وصناعة الذات وتحالفهما وصراعاتهما قصة الأمة.

مقدمة

لقاء الرئيس

١٠ أغسطس ١٨٦٣

حلم فريدريك دوجلاس بعودة حميدة لموطنه أفضل من تلك التي رآها . ففي الليلة الحارة الرطبة من العاشر من أغسطس عام ١٨٦٣ ، دلف قطاره إلى محطة بالتيمور ، المدينة التي هرب منها على نفس الطريق قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً . غادرها متكرراً بواسطة قطار الاتفاق ليعود إلى بالتيمور وأوهايو في قطار النوم بالدرجة الأولى ، وبينما كان يقترب قطاره من محطة برينزنت ستريت ، تطلع بشغف عبر "شيش" النافذة نحو الشوارع المألوفة - الحالية الآن - والحدود القائمة للملاح المباني ، وعقد أمله على وقفة قصيرة ، فالعبودية مازلت قانونية في ماريلاند ، وكان قد قرأ عن المزارعين الذين يخطفون السود الأحرار ويقومون بتشغيلهم كعبيد .

كان يمر مروراً عابراً متجهاً نحو واشنطن إلى العاصمة ، حيث كان الكونجرس قد قام بإلغاء العبودية هناك منذ عام . كان البيت الأبيض هو مقصده ، وكان أمل ذلك العبد السابق مقابلة الرئيس لنكولن . لم يكن لدى دوجلاس موعد محدد مع الرئيس ، وفي الحقيقة كانت رحلته عفوية التخطيط . لكنه رغم ذلك سعى لمواجهة لنكولن لإبلاغه شكاواه حول سوء معاملة الإدارة للجنود السود . إذ كان يُخطر لنكولن منذ بداية الحرب من خلال خطبه وكتاباتاته الصحفية بضرورة تسليح السود ، وظل خلال الأشهر الست السابقة - بعدما

سمحت الحكومة أخيراً للسود بالخدمة في الجيش - يحرض ويحشد "الملونين" للانضمام للقوات المسلحة كوسيلة للقضاء على المتمردين وتحقيق حرية السود وحقوق المواطنين ، فساعد على حشد سجلات متطوعي القوة الرابعة والخمسين لولاية ماساتشوستس وهي أول كتيبة من السود من ولاية حرة . . وكان اثنان من أبنائه من أوائل المسجلين بها ، وجرح ابنه الأكبر خلال هجوم يائس على حصن فورت واجنر . لكن الجنود السود كانوا يتقاضون نصف أجر الجندي الأبيض ، ولم يكن يسمح لهم بالترقية للمراتب المميزة . بل الأسوء أن السجناء السود كانوا يُقتالون أو يُستعبدون بواسطة الاتحاديين . وبسبب هذا الظلم هجر دوجلاس مسألة تجنيد السود وقرر الذهاب إلى واشنطن لتقديم شكواه للرئيس . فقد تلاشى إيمانه تقريباً - بأن لنكون رجل أعمال لا أقوال ، كما أعلن أنه كان يأمل أن يستعيد إيمانه بذلك الرجل "الرئيس" وبالأمة .

كانت الرحلة الطويلة من روشيستر على وشك الانتهاء ، ورغم اعتياد دوجلاس على السفر بالقطارات وتحسن الخدمة بشكل ملحوظ منذ ركوبه الأول في باليمور عام ١٨٣٨ ، فقد كانت رحلة غير مريحة . فالأسرة في كبائن النوم كانت أساساً مقاعد قُلبت إلى ألواح ضيقة ، ومع الاهتزازات المستمرة وتأرجح العربات أصبحت النتيجة "كمحاولة للنوم على ظهر حصان هارب" ، إذ كان الاهتزاز

حاداً لدرجة أن القراءة والكتابة - عملياً أصبحت مستحيلة،
وانهمرت خلال الرحلة الأتربة والشرر ودخان الفحم عبر فتحات
التهوية . وبينما اقترب دوجلاس من نهاية رحلته التي استغرقت عدة
أيام، كان التعب قد أنهك قواه وآلمته عضلات جسمه من قلة
حركتها، وغطته طبقة رقيقة من السناج - الهباب الأسود - إلا أن
ملابسه القاتمة وسحنه "السوداء" أخفيا ذلك . كانت هذه إحدى
اللحظات القليلة التي تشكل فيها البشرة السوداء ميزة ما . ومع نهاية
الرحلة، بدا كل واحد "أكثر سواداً من حبشى أسود"، مثلما ذكر
أحد المعاصرين، ولم يكن هناك مكان "لفصل أنفسكم مثل كل
الناس".

ومع اقتراب القطار من واشنطن، تساءل دوجلاس عما إذا كان
يجب عليه القدوم لهذه الزيارة أم لا، حيث كان من الخطر على رجل
أسود السفر إلى بلاد مازالت العبودية قائمة بها . عندئذ، هدأت
حدة غضبه وضيقه إلى حد ما، لأنه عندما ترك مسألة تجنيد
السود علم أن لنكون وقع على أمر يستهدف منع الاتحاديين من
اغتيال السود، ينص على "أن كل جندي يقتل - منتهكاً لقوانين الحرب
- جندياً متربداً سوف يُنفذ فيه حكم الإعدام." كان يجب إصدار
هذا الأمر قبل عدة أشهر من اغتيال المئات من الجنود السود . "لقد
صدر متأخراً، لكنه صدر على أية حال."

كان الوقت يوشك على الفجر عندما غادر دوجلاس محطة بي
آند أو ، عند ميدان نيوجيرسي وشارع سى ، على بعد عدة بنايات
من مبنى الكابيتول، إلا أن المدينة كانت مزدحمة، ولم يملك نفسه من
ملاحظة الأعداد الكبيرة من السود . بعضهم آخذون في العمل فعلاً،
والقليل منهم كانوا ينامون في العراء . إذ خلال فترة تزيد قليلاً عن
العام تدفق أكثر من أحد عشر ألفاً من السود المحررين، رجالاً
ونساء - وكانوا يسمونهم مهرجات الحرب - إلى وسط المدينة بينما
قطن ثلاثة آلاف آخرون ضاحية الإسكندرية "بالقرب من
نيوجيرسي".

لم يشبه دوجلاس أيّاً من أولئك السود "المسمون مهرجات الحرب"،
فهو - صاحب الخمسة وأربعين عاماً - كان يحمل شكلاً مميزاً . فهو
طويل يتجاوز الستة أقدام ورياضي ويرتدى زياً رسمياً مع معطف
داكن اللون وقميصاً أبيض ذا ياقة عالية، وقد اختلط اللون الرمادي
بشعره الذي يحيط برأسه مثل كرة أرضية سوداء رغم أنه قام
بتصفيفه للخلف وتمتد أعلى عينه اليمنى من فروة رأسه خصلات
بيضاء تبرز بانتظام حتى تحول اللون الرمادي عند مؤخرة الرأس،
ولحيته رفيعة مشذبة بعناية فحمية اللون، تضيف جاذبية لحيته
ويبدو بها كلها "عظيماً في هيئته" وفقاً لما ذكره أحد الراقين . في
المقابل، كان بقية السود يرتدون خرقاً بالية وملابس مهلهلة

أخذوها حينما هربوا من أسيادهم السابقين، وكان بعضهم عارياً،
وأغلبهم حافياً، وبدأ على العديد منهم المرض والإعياء . . كان
دوجلاس يعرف أن الجدري قد انتشر بين هذه الجماعات التي كانت
تقطن ثكنات للجيش تسمى داف جرينز رو و تقع إلى شرق مبنى
الكابيتول، وانتشرت بينهم الحصبة كذلك والدفتريا والحمى القرمزية
وحمى التيفود . كانت تسجل - في بعض الأيام - عشرات الموتى
بديف جرينز خلال أربع وعشرين ساعة . ومقارنة بدوجلاس،
كانت تلك الجماعات صنفاً مختلفاً من البشر . كان يعلم أن معظم
البيض يربطون بينه وبين أولئك بسبب لون بشرته فحسب . كانت
جميع من يعتبرن من المهربات قد اختلطن بجنود الاتحاد في
الشوارع . كان بعضهم في نوبة عمله، والبعض الآخر يمضى بجراحه
الواضحة أو بساق أو ذراع مبتورة ولا يزال مع ذلك مرتدياً بذلته
الرسمية، ويظهر على البعض الآخر معالم المرض أو التشرذ . كانت
المدينة تعج بالمستشفيات، التي كانت من قبل كنائس وكليات وفنادق
مع مجمعات أضخم على ميداني آموري وجودتشياري . حتى
مكاتب براءات الاختراع تحولت إلى مستشفيات . وفيما بين
تجمعات "المهربات" وبين المستشفيات، بدت المدينة مدينة للموتى
والمحتضرين .

لم يكن في الأرجاء سوى قلة من البيض الذين يملكون مالا، إذ ساهمت درجة الحرارة المرتفعة والرطوبة تدفق مئات من المحررين الجدد رجالاً ونساءً في جعل المدينة حضانة للأمراض . وقد غادر الأثرياء المدينة إلى منتجعاتهم الصيفية. كتب جون هاى - سكرتير لنكولن - لأحد أصدقائه قبل وصول دوجلاس بثلاثة أيام عن ذلك قائلاً: "أصبحت هذه المدينة كثيفة كشاهد قبر مشوه، فالجميع رحلوا بعيداً، إذا ما توافرت لهم الوسيلة للرحيل . " مما يعنى أن كل إنسان كان يجد مكاناً آخر فإنه يغادر على الفور، وكان هؤلاء يشكلون نسبة ضئيلة وسط مواطني واشنطن البالغ عددهم خمساً وسبعين ألف نسمة .

بينما كان دوجلاس يمضى قاصداً البيت الأبيض، لم تكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان سيحصل على موافقة على اللقاء أم لا، وإذا ما تم ذلك اللقاء فما نوع الاستقبال الذي سيلقاه . لأن كل ما كان يملكه كوسيلة لتحقيق هذا كان مجرد علاقات واهية مع قليل من أعضاء الكونجرس المناهضين للعبودية، وسمعته كداعية لإبطال الرق ومؤلف وصحفي مع خطاب يحمله في جيبه من جورج سترينز، وهو متقف من الطبقة العليا كان يقود حركة التجنيد في الشمال وله علاقات جيدة بالمسؤولين في واشنطن، ويصرح جورج لدوجلاس في خطابه بأن يذهب لواشنطن "كوكيل عنه للقيام بالأعمال المتعلقة

بالتجنيد ولم يكن ذلك أكثر من مجرد خطاب للتعريف والرعاية يشمله
القموض حيث كان جورج لا يعرف لنكون جيداً، وبالنسبة
للتصريح بدخول البيت الأبيض، كان دوجلاس يأمل في أن يحدث
اسمه تأثيراً أكبر من خطاب ذلك المتقف، واقلب حظه فجأة
عندما التقى مصادفة بـ صامويل بوميروي - عضو الكونجرس
المعارض للعبودية عن ولاية كانساس والمولود في ماساتشوستس
والذي تلقى تعليمه في كلية أمهرست. كان بوميروي خليطاً من
التهديب السائد في نيو إنجلاند وبدائية مدينة دودج. وكان ضخماً
وسميناً بالرغم من عدم طوله، برأس أصلع عدا بضع شعيرات تمتد
عبر فروة رأسه إلى الخلف حيث تنثر في تعرجات من الخصل حول
أذنيه ولحية مكتملة تكاد تخفى شففيه الرقيقتين، اللتين حينما كان
يفلقهما تبدوان كابتسامة باهتة أو ساخرة لا يمكن تحديدها.

صنع بوميروي لنفسه اسماً - في البداية - كوكيل تمويلي لشركة
تقديم العون لمهاجري نيو إنجلاند، التي كانت تصرف ما يربو على مائة
ألف دولار على المستوطنين الذين كانوا يرغبون في الاحتفاظ
بكانساس آمنة من العبودية. والتقى بدوجلاس في العقد السادس من
القرن التاسع عشر عندما كان يحاول "انقاذ" كانساس من العبودية.
كان دوجلاس وبوميروي يشاركان الهدف مع جون براون. لكن
بينما كان دوجلاس وبراون صديقين حميمين كان الحب مفقوداً بين

بوميروى وبراون إذ كان الأخير نافذ الصبر مع الرجال الثرائين، ومن هنا شبه بوميروى بديك يمشى محتالاً.

لكونه سيناتوراً تمتع بوميروى بسمعة هى أنه ذو وجهين ، فمن ناحية كان معروفاً بمعارضته العنيدة والضارية للعبودية، لأنه بالفعل كان قد قدم مشروع القانون الذي أصبح قانون المصادرة في السابع عشر من يوليو عام ١٨٦٢، والذي أدى تحرير العبيد الذين هربوا من سادتهم الذين خافوا الإتحاد إلى حدود ولايات الاتحاد، وقام بتشجيع لنكون لإصدار إعلان التحرير من الرق في الأول من يناير عام ١٨٦٣ الذي أكد أن العبيد في الولايات المتحدة هم "دوماً أحرار". من ناحية أخرى، كان اسمه قد ارتبط في الآونة الأخيرة بالصفقات السرية والفساد والرشوة. وسواء عرف دوجلاس ذلك الجانب السيئ لبوميروى أم لا، فقد قبل بسرور عرض السناتور بمرافقته في مهمته .

ذهبا أولاً إلى مبنى وزارة الحرب بالقرب من البيت الأبيض في منزله الرئيس، حيث طلب دوجلاس لقاء إيدوين ستاتون " وزير الحرب " وكان مشهوراً بإجراء مقابلات "طيارى ان ام قل جافة " ، وكان موظفاً كتماً بارعاً يشبه أساتذة الجامعة ويسهل التعرف عليه بسبب بدائه المائلة لشرايح اللحم السميك ولحيته الطويلة المستقيمة المتأرجحة فوق صدره. كان يعرف دوجلاس،

فاتاح له مقابلة تمت لثلاثين دقيقة اعتبرها دوجلاس ميزة خاصة.

وجد دوجلاس ستاتون "رجلاً بارداً وعملياً لكنه جاد". شرح دوجلاس له أن على الحكومة أن تفهم أمراً تبين له أثناء عمله في تجنيد واستخدام السود وهو أن "الزنجي كان ضحية لرأين متطرفين"، ففي النموذج الايجابي فاق السود البيض في ورعهم وطبيعتهم وسماحتهم وإيثارهم . لذا كانوا يمثلون العم توم، وبعبارة أخرى يشلهون المسيح . بذلك أصبحوا مصدراً للخلاص الفردي والوطني بالتضحية بأنفسهم . وفي النموذج السلبي، كان السود هم الشيطان مجسداً، إذا ما تم تسليحهم سوف يقتلون الرجال البيض ويقتصبون نساتهم . يتجه النموذجان نحو اعتبار السود عديمي الكفاءة أو الشجاعة كجنود .

رأى ستاتون أنه ينبغي أن لا يُنظر إلى الرجل الأسود باعتباره شيطانياً أو ملاكاً، ويضيف دوجلاس مؤكداً على ذلك بقوله:
" إنه إنسان ويجب أن يُعامل على أنه كذلك بصورة مجردة"
فالجنود السود - شأنهم شأن البيض - بعضهم شجاع، والبعض الآخر جبناء، بعضهم طموح وملهم، والبعض الآخر متبلد الإحساس، وعند تشكيل قوات من السود، على الحكومة أن تتوافق مع تلك "الحقائق الجوهرية".

هنا قاطعه ستاتون فجأة متساثلا:

- كيف تعارض الظروف الحالية المحيطة بقوات الجنود السود مع ما تبينه من آراء؟
وكان رد دوجلاس بهدوء:

لدى الجنود السود مشكلات في الأجر غير المتساوي الذي يتقاضونه، ولا يوجد ما يحفزهم. كما أن التنظيمات تحصرهم عند مستوى "النفر" - الجندي العادي - أو مستوى صف الضباط.

وجد ستاتون نفسه الآن في موقف دفاعي قاضطر لشرح الصعوبات والأحكام المسبقة التي يجب تخطيطها قبل تحقيق المساواة المطلوبة، وقدم وصفاً لجهوده في سبيل صرف نفس المرتبات والمقتنيات والملابس النظامية والمعدات للسود مثل البيض. وبالفعل ادعى أنه قدم مشروعاً للكونجرس بنفسه في هذا الشأن وقبله البيت الأبيض، لكنه حُزم في تصويت مجلس الشيوخ. وهنا كان ستاتون يكذب فلم يكن هناك مثل هذا القانون مقدماً منه في السجلات. الأكثر من ذلك، لم يخبر ستاتون دوجلاس بأنه في أغسطس

سنة ١٨٦٢ منح الجنرال روفروس ساكستون في جنوب كارولينا صلاحية حشد وتجميع خمسة آلاف جندي أسود سوف يتلقون "نفس راتب ودرجات الجنود البيض"، وكان من الواضح أنه كان عصبياً عند إصدار القرار لأنه ألحقه بمذكرة يصر فيها على "أن ذلك

القرار لا يجب أن يرى النور لأنه يتقدم الرأي العام بدرجة كبيرة لا يتحملها. " وكما لو كان يقدم نصيحته الخاصة، تراجع أمره بمنح "الراتب المتساوي" لآنذا بقانون الميلشيا الأهلية الصادر في يوليو عام ١٨٦٢ الذي يمارس التفرقة ضد المتطوعين السود بمنحهم راتبا كعمال فقط (وهو سبعة دولارات في الشهر)، لا كجنود (ثلاثة عشر دولاراً شهرياً) . ولو كان صريحاً مع دوجلاس لأخبره بما قاله لمنتقديه من البيض : "إن بعض سرايا الجنود البيض قد شكوا من مساواتهم بالجنود الزنوج وإن ذلك (الراتب المتساوي) سيمنع تطوع الجنود البيض. " وادعى - بدلاً من ذلك - أنه كان يبذل كل ما في وسعه لمنح السود نفس راتب البيض.

شعر دوجلاس بأن ستاتون يراوغه في الحديث وأن مجرى الحديث قد يتحول إلى عراك، ولإنجاح مهمته قرر التوافق . لذا أخبر ستاتون أن الراتب على المدى البعيد ليس له أولوية حالية، فالجنود السود لهم قضية بعيدة تماماً عن الراتب أو الرتبة ، فإنهم يسعون لنيل حرية جنسهم والإقرار بأنهم مواطنون أمريكيون.

هنا جاء دور ستاتون ليتوافق مع ضيفه، فهو يرغب حقيقة في توفير أجور متساوية من أجل السود - وكرر ذلك مرات - وسعى لجعل الكفاءة معياراً للترقية بغض النظر عن الجنس، وقد أقسم على ترقية كل رجل أسود يوصى به ضابطه الأعلى . عندئذٍ، وليبين

لدوجلاس كم كان صادقاً ، عرض عليه العمل معه كضابط يحمل رتبة ووعدته بوظيفة مساعد للقائد للمعاونة في تجنيد الرجال المحررين في الجنوب .

وأكد ستاتون لدوجلاس احتياجه له وتساءل متى يكون جاهزاً للعمل ، فأجابه دوجلاس "خلال أسبوعين " و "يمكن لك أن ترسل لي التكليف في روشيستر" .

عندئذ ، أمره ستاتون "بتقديم نفسه إلى: الجنرال لورنزو توماس" المسئول عن تنظيم القوات السوداء في فيكسبرج بولاية مسيسيبي والتعاون معه في حشد هذه القوات . كما أمره بلقاء جون أشر وزير الداخلية للحصول على تصريح مرور يسمح له بالسفر بحرية عبر خطوط الاتحاد . بهذا ، أنهى ستاتون المقابلة .

أصاب دوجلاس الذهول ، فهو قد ناقش وجادل عشرات من المسئولين لكنه لم ير مثل ستاتون رجلاً نافذاً ، إذ لم يمدحه ستاتون حتى ولا مرة واحدة ، وإنما طلب منه أن يصبح أول ضابط مساعد للقائد أسود في تاريخ الجيش الأمريكي ، وكان ذلك أقصى تقدير يمكن لستاتون تقديمه ، وبذلك يمكن للشرائط الذهبية - رتبة الضابط - على أرضيتها الزرقاء أن تعلق كرف رجل أسود !

تمالك دوجلاس نفسه بصعوبة بينما أصابت الدهشة بوميروى الذي كان حاضراً طوال اللقاء ، والذي أدرك أنه ليس له مكان

بجانب مهارة دوجلاس في مخاطبة الجماهير في عصر كان الخطباء
العظام يتساوون مع نجوم الرياضة، فقام بتدوين بعض الملاحظات
الفكرية بشأن تحسين وتطوير أسلوبه الخطابى .

ثم اقتاد دوجلاس إلى مكتب أشر رغم أنه كان لا يزال تحت
تأثير صدمة ذلك الرجل الأسود، في حين قام أشر - الذي كان قد
أخطر بزيارة دوجلاس من أحد المساعدين - ليقابلهما في الحال
وكتب المذكرة التالية:

"وزارة الداخلية

واشنطن العاصمة . العاشر من أغسطس ١٨٦٣

إلى من يهمه الأمر / —————

حامل هذا التصريح، فردريك دوجلاس معروف لنا كرجل حر
مخلص . لذا، فهو مخول بالسفر دون إعاقة، ونحن واثقون أنه سيكون
محل ترحيب في كل مكان كرجل حر وسيد مهذب .

مع وافر احتراماتي

ج . ب . أشر

وزير الداخلية

أضاف بوميروى اسمه وتوقيعه لذلك التصريح شاعراً أنه قد أهمل
في هذا اللقاء في وثيقة يمثل تلك الأهمية .

وبينما كانا يغادران وزارة الداخلية التقيا بموتجومي بليز مدير عام البريد فشرح له دوجلاس ما حصل عليه من تفويض وأراه التصريح فأضاف بليز اسمه للوثيقة مع تذييل مختصر يقول: "اسمحوا بمرور حامله، فردريك دوجلاس، الذي أعرفه كرجل حر!" وبذلك حصل دوجلاس خلال ساعة أو نحوها على إقرار وتأيد ثلاثة من أكثر رجال الأمة قوة.

أصبح دوجلاس الآن أكثر إصراراً - عن ذي قبل - على مقابلة الرئيس فأسرع إلى البيت الأبيض، ومعه بوميروي ينفخ ويتعرق محاولاً مجاراته. رغم أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فإن الطريق إلى مكتب لنكولن كان قد امتلأ فعلاً بالساعين للحصول على رعاية الرئيس، وكانوا جميعهم من الرجال البيض، ولم يبدُ عليهم السرور لوجود رجل أسود بينهم. أرسل دوجلاس بطاقة تعريفه وجلس على السلم، كان قد اجتاز بالكاد عائقاً حاسماً. لكن القادم أكثر اختلافاً تماماً في الأهمية، فقد يطول الانتظار كثيراً.

كان لنكولن يغادر البيت الأبيض أثناء تلك الليالي الحارة من أغسطس لقضاء المساء في "بيت الجنود"، وهو منتجع لقدامى المحاربين يقع في التلال المشجرة شمال شارع باونداري. ورغم أنه يبعد أميالاً قليلة فقط، فإنه يوفر راحة قصيرة من روائح وعرق المدينة ومن تلك الصفوف التي لا تنتهي من طالبي لقاء الرئيس. الذين

كان بعضهم ينتظر طوال الليل، وكان الرئيس يعود أغلب الأيام صباحاً وسط كوكبة من الفرسان "شاهري السيوف المرفوعة عالياً فوق أكافهم".

لقد كان والت وإيمان - الذي يعمل كمرض خاص وكان بينه يطل على نفس الطريق - يشاهد هذه المسيرة الرئاسية "يومياً تقريباً"، ولم يبدِ لنكولن وإيمان كرئيس لأنه كان يرتدى معطفاً أسود اللون صدئاً ومعقراً بالتراب إلى حد ما، وقبعة جافة سوداء، وبدأ عادياً في مظهره "مثل" عامة الناس". ذكر وإيمان ذلك ككوع من المدح، وعلى أية حال بعد كل ذلك دعا وإيمان نفسه بأنه "واحد من الرجال ذوي المشاعر الصلبة". وفي الواقع، كان وإيمان مسرفاً في عاطفته لتقدير شخص لنكولن، يلتصص عليه ويدون آراءه في يومياته. وكان وصفه للرئيس يشير أحياناً إلى ولعه به: "وجاءت سحابة فريدة صغيرة بيضاء، الوحيدة الموجودة في ذلك الجزء من السماء وحلقت كالطائر فوقه تماماً." وادعى وإيمان وجود علاقة حميمة مع لنكولن بدرجة معينة: "كانت بيننا علاقة حتى أننا كنا نتبادل الانحناءات الترحيب، الانحناءات ودودة جداً." لكن الشاعر والرئيس لم يلتقيا أبداً.

ربما لم يعرف لنكولن وإيمان وإن كان قد قرأ له، وكانت الانحناءات الودودة - ربما - ميلاً لدى لنكولن اعتاده لإمالة رأسه

للأمام . إذ كان قبلها بيوم- أي في التاسع من أغسطس عام ١٨٦٣- يجلس في استديو أليكساندر جاردنر لالتقاط صورة له وقد أحنى رأسه فوق يده، وهو وضع كان يحب تكراره كثيرا . وربما كانت تلك العادات ناتجة عن الإرهاق حيث كان ينام ساعات قليلة أثناء الليل، وقد أجهدته الحرب تماما . ووفقاً لما ذكره أحد رفاقه من قدامى أصدقائه، فإن "الحامي البشوش" لنكون "يدو الآن شاحبا، وهيته أكثر انحناء، وسحنه باهتة، وتبدو نظراته خارجة من عينيه الجوفتين الواسعتين ."

كانت الأسابيع الستة الأخيرة مزعجة على وجه الخصوص، إذ كان لنكون قلقا لتوقف الجنرال مييد عن التحرك عقب هزيمة الجنرال "لي" عند جيتسبرج يوم الرابع من يوليو، تاركا "لي" ينسحب متراجعا إلى فيرجينيا وتلك سقطة من أعظم أخطاء الحروب . كتب لنكون خطابا إلى الجنرال مييد، لكنه لم يرسله أبداً إليه قال فيه: "لقد كان "لي" في قبضتك وكان بإمكانك أن تسد عليه المنافذ، فذلك كان سينهى الحرب، ولكن ما ألت إليه الأمور الآن سيجعل الحرب تمتد بلا نهاية . " بل، وعبر عن إحباطه الأكبر لابنه روبرت بقوله: "لو كنت هناك . . لأهبت ظهورهم بالسياط بنفسي . " ثم قال لجون هاي: "لقد أمسك جنود جيشنا الحرب في قبضة يدهم، ولم يفلقوها جيذا ."

أما الانتصار العسكري الآخر في يوم الرابع من يوليو باستيلاء
جرانت على فيكسبرج، فقد كان أكثر مدعاة للتشجيع إذ كان
واحداً من أهم انتصارات الحرب، حيث أثنى جرانت حوض نهر
الميسيسيبي قاسماً الجنوب إلى جزئين، واضطر ثلاثون ألفاً من جنود
قوات الولايات المنشقة إلى الاستسلام غير المشروط، وأخبر لينكولن
جرانت بأنه قد قدم للبلاد خدمة لا تقدر وقال لهاي: "إن جرانت
هو رجلى وأنا رجله لبقية أيام الحرب."

وعقب هذين الانتصارين مباشرة، أعلن لنكولن الاحتفال بيوم
قومي "هو عيد الشكر" دعا فيه الأميركيان للإقرار بدور الله في
تحقيق الانتصارات الحالية وللصلاة من أجل هؤلاء الذين عانوا في
سبيل وضع نهاية سريعة للحرب.

وأصبح اقتراحه بيوم الشكر تظاهرة دعائية نوعاً ما، وذلك لأنه
في اليوم الذي اتخذ فيه القرار وهو الخامس عشر من يوليو أطلقت
الطبقة العاملة في نيويورك عنان غضبها العام ضد قانون الحكومة
بالتجنيد الإجباري، وقتلت واعتدت على السود فقد اشتكى
الدهماء - غالباً من الديمقراطيين الأيرلنديين - من أنهم يجذبون
"القتال من أجل الزوج" الذين قد يأتون إلى الشمال ويحتلون أماكنهم
في العمل، إذ بدأ ضباط التجنيد في اختيار أسماء المستجدين، فقد
أشعلوا ثورة وهياجاً استمر أربعة أيام يقتلون ويمزقون كل أسود تصل

أيديهم إليه، قشتقوا بعضهم بجوار أعمدة النور بدم بارد، بل أنهم قاموا بشي أسود آخر حيا في ميدان ماديسون .

ثم أحرقوا ملجأ للأيام الملونين وسووه بالأرض، وهي أحداث قتل فيها أكثر من مائة نفس (معظمهم من السود) قبل أن تتمكن قوات الاتحاد من فرض النظام في المدينة.

وقد لخص فريدريك دوجلاس المزاج العام وقتها بأن صرخة العامة كانت "اضرب .. أطلق النار .. اشنق .. اطعن .. اقتل .. احرق ودمر كل زنجي" ، وحث الحكومة على تقديم الحماية للسود ومطاردة المجرمين وعقابهم، ولكن لتكوين شعر بالعجز عن فعل أي شيء حيال أسوأ شغب في تاريخ أمريكا. لقد كانت معارضة الطبقة العاملة للتجنيد الإجباري والحرب التي جعلت السود أحراراً ، عنيقة لحد جعلته يقرر عدم اعلان قانون الطوارئ أو عدم مطاردة المجرمين. وقال "إن تحركاً كهذا سيكون بمثابة إلقاء عود كبريت على برميل بارود . لذا لم يفعل شيئاً لأن: "تمرداً واحداً فقط هو كل ما يمكننا التعامل معه في وقت واحد" .

لكن، أضحت الأمور أكثر هدوءاً الآن، وتم تأجيل اجتماعات الكونجرس. كان عدد قليل من الناس هم فقط الذين يقلقونه الآن . لذا، كان في حاله معنوية أفضل، فعندما ذهب إلى استوديو جاردنر لالتقاط صور له، أخبر جون هاى أن "قوى التمرد بدأت أخيراً في

التشمت"، و"أنهم سوف يتساقطون لو بقينا صامدين"، وبدأ حينئذ في التركيز بصورة أشد على دور السود في الحرب والأمة لأن مصير العبيد السابقين - كما كان يعتقد - كان "أكبر قضية تواجه قيادة الدولة عملياً".

بعد عامين ونصف العام على انتهاء الحرب، قدر لنكولن قيمة السود في دولة الاتحاد، فقبل أسبوع كان جرانت قد كتب يقول: "إن تسليح السود وإعلان تحريرهم معا كانت الضربة القاصمة الموجهة لقوة الولايات المنشقة في الجنوب"، وقد وافقه لنكولن وأضاف أنه "والآن قد أصبح نهر المسيسيبي مفتوحاً لآخره....". "أظن أن مائه ألف (من القوات السوداء) على الأقل يمكن - بل ويجب - تنظيمها بسرعة على ضفافه". وأضاف: "إن الجنود السود يمثلون مورداً إذا ما تم استخدامه بهمة، سوف ينتهي ذلك الصراع عاجلاً بأضعاف ذلك العدو وتقوية صفوفنا". "لقد كان ذلك بياناً مدهشاً: السود يمكنهم كسب الحرب من أجلنا، وتأكيد حريتهم الشخصية كما كان يقول.

رغم الثقة الجمة التي وضعها لنكولن في السود، فإنه ظل متشككاً في قدرتهم على العيش كمواطنين متساوين وأحرار في الولايات المتحدة. ذلك أنه ظل لعدة سنوات يشجع حركة الاستعمار كحل لمشكلات العبودية والعنصرية، لأن إرسال السود إلى أراضٍ بعيدة قد

يحرر الأمة من مشكلة العبودية والأحكام المسبقة، وقد خصص مبلغ ٦٠٠٠٠٠ دولار لتوطين السود في مستعمرات، وكان يعلم أنه يستطيع الحصول على أموال أكثر إذا احتاج لذلك. لكن المشكلة أن معظم السود لم يرغبوا في الرحيل .

في عام ١٨٦٢ قام بتوقيع عقد بين الولايات المتحدة وبين شركة تسمى "شيريكي للتحسين والتقدم" على أمل إرسال السود إلى جمهورية كولومبيا. وعين صامويل بوميرو كوكيل رئيسي لتنفيذ الخطة، وذلك بسبب نجاح بوميرو في إرسال مستوطنين إلى ولاية كانساس، وقد سلم لنكون ٢٥,٠٠٠ دولار لبوميرو لتطبيق هذه الخطة وبحلول شهر أغسطس ١٨٦٢، رتب بوميرو أموره لإرسال خمسمائة مواطن أسود إلى برنج شريكي (الآن هو جزء من بنما) . وللترويج لمشروعه، قام لنكون بدعوة مجموعة من أهالي واشنطن من السود إلى البيت الأبيض لتشجيعهم على مغادرة الولايات المتحدة ليصبحوا عمالاً بمناجم الفحم بمنطقة شريكي قائلاً: "نحن وأنتم من جنسين مختلفين، إن ما بيننا هو اختلاف واسع أكثر مما يوجد بين أي جنسين آخرين . . فجنسكم يعاني - في رأيي - من أعظم خطأ يقع على أي شعب آخر، لكن وإن لم تعودوا عبيداً فقد نحيتُم بعيداً جداً عن أي موقع للمساواة بالجنس الأبيض"، وأضاف لنكون أن وجود السود ذاته في البلاد كان هو السبب في نشوب

الحرب بالرغم من أن الناس على كلا الجانبين لا يهتمون بكم بصورة أو بأخرى محتماً كلامه قائلاً: "من الأفضل لكيّنا ان نفصل." وقد نشر كلامه على مدى واسع - وفقاً لما اتواء - ولكن معظم السود سخرُوا منه، وجاءت أقسى صورة للنقد من فردريك دوجلاس الذي دَبج حملة معارضة ضده. ففي أمريكا الجنوبية والوسطى تعيش أجناس مختلفة معاً بسلام مستمتعين بحقوق متساوية دونما حرب أهلية، كما سخر من فكرة أن السود كانوا سبباً للحرب، فقص الجياد لا يعتذر عن سرقة بالقاء اللوم على الجواد.

لذا دعى لنكون قائلاً "لا.. يا سيدي الرئيس، ليس الجواد البري هو الذي صنع لص الجياد، لكن الشراة القاسية والوحشية لأولئك الذين طمعوا في امتلاك الجياد والنقود والزنج بواسطة السرقة واللصوصية والتمرد. وأطلق على لنكون أنه نموذج أصيل للأحكام المسبقة للأمريكي الذي يملك قليلاً من مبادئ العدالة والإنسانية. لذا، كان الشكل مغلوطاً مثل المحتوى" فالسيد لنكون أظهر خلطاً شديداً في تمككه من اللغة الإنجليزية في كل ما كتب. "كان على لنكون أن يهجر المشروع بعدما اعترضت عليه البلدان المجاورة مثل هندوراس ونيكاراجوا وكوستاريكا، هددت بإرسال قواتها لمنع المستوطنين. ولم يسترد لنكون مبلغ الـ ٢٥,٠٠٠ دولار التي أعطاهها لبويرى لتنفيذ المشروع أبداً. ومع ذلك سرعان ما تشبث بموقع

آخر هو كاو آيلاند (جزيرة البقر) جنوب شبه جزيرة هايتي . إذ كان
بائساً جداً لإيجاد مكان للسود لدرجة أنه تجاهل ما ترمز إليه عملية
شحن "السود" إلى مكان فحص حيوانات النقل "جزيرة البقر" . وقد
عرض بعض رجال المال بنيويورك تمويل عملية شحن خمسمائة مواطن
أسود إلى جزيرة البقر هذه مع توفير بيوت ومدارس ورعاية صحية
وأراض زراعية لهم مقابل رسم قدره خمسين دولاراً لكل مهاجر أي
ما جملته ٢٥,٠٠٠ دولار . ورغم أن معظم مستشاريه قد عارضوا
تلك الخطة، فقد وافق عليها لنكون، وفي منتصف ابريل ١٨٦٣ أبحر
٤٥٣ عبد سابق على السفينة أوغن رانجر تنفيذاً لذلك .

بدا كل شيء خطأ، فطوال الشهر الماضي علم لنكون أن مرض
الجدري قد انتشر فوق السفينة، وعندما وصل المهاجرون حوصروا
بجمي الملاييا التي تسببها الحشرات . وفوق كل ذلك فقد خدع
المولون لنكون والمهاجرين معاً، إذ لم يحدوا بيوتاً ولا مدارس ولا
مراكز صحية فوق أرض الجزيرة، وكانت التربة فقيرة، ولم يحصلوا
على موافقة على ذلك من حكومة هايتي .

بعد سماع تلك الأنباء من جزيرة الكاو، هجر لنكون فكرة
الاستعمار، ففي منتصف يوليو اخبر لنكون جون إيتون - وهو قس
يقوم بتنظيم الرجال المحررين حديثاً - كيف أن مهاجري الكاو آيلاند
كانوا يعانون بشدة من وباء الطفيليات البحرية الذي لا فكاك منه ولا

حماية. كان حزن لنكولن حاداً وصادقاً واعتبره إيتون "دلالة على طيبة قلبه" وحقيقة، أثاره مشهد رئيس الولايات الذي حزن للاضطراب الذي أصاب مجموعة صغيرة من الزنوج بسبب حشرة لا تزيد عن رأس الدبوس. وبدا ذنب لنكولن من كارثة المهاجرين ملموساً حيث أمر بإعادة نقل المهاجرين إلى الوطن.

كان لنكولن يحاول الحلم بمجتمع يمكن للسود والبيض الحياة فيه معاً في حرية وسلام ومساواة. لقد وافق إيتون على أن الاستعمار فشل في حل مشكلة الزنوج، وسأل القس أسئلة عديدة حول الناس المحررين الذين أتوا داخل حدود اتحاد الولايات مثل: ماذا كان هدفهم؟ كيف كانوا يفهمون الحرية؟ وماذا يمكنهم أن يفعلوا من أجل أنفسهم؟ وقبل ذلك بأيام كان ناثانييل بانكس، وهو قائد منطقة لويزيانا التي يحتلها الاتحاد معبراً عن آماله بأن الولاية "سوف تبني نظاماً عملياً، يتمكن من خلاله الجنسسان من العيش معاً بالتدرج بعيداً عن علاقاتهم القديمة تجاه بعضهم البعض." يجب أن تشمل الخطوة تعليم السود، بما في ذلك التدريب على العمل بموجب عقود بدلاً من السياط. لكن بعيداً عن ذلك، ظل غير متأكد من شكل العلاقة الجديدة بين السود والبيض. إذ اعتقد أن الزنوج - شأنهم شأن الناس الآخرين - يتصرفون وفقاً لدوافع، فلماذا إذن سيفعلون شيئاً من أجلنا بينما لا نفعل نحن شيئاً من أجلهم؟

ربما كانت تلك القضية تحت مكاناً في ذهن لنكون عندما أخبره
حارس بابه أن فريدريك دوجلاس قد أرسل بطاقة تعريف توأ وأنه
مع زميله بوميروي ينتظران عند الطابق الأول للقاء، فأمر لنكون
بإدخالهم فوراً.



سمع دوجلاس عن أناس انتظروا أسبوعاً كي يروا الرئيس. وبدأ
بعض طالبي اللقاء أمامه في الصف منتظرين هذه المدة بالفعل،
وبعضهم الآخر بدا متشوقاً وقادماً لتوه. وتوقع أن ينتظر نصف يوم
على الأقل، لكن ما حدث هو أنه خلال دقيقتين من إرساله بطاقة
التعرف عاد الساعي ليطلبه. وبينما كان دوجلاس يشق طريقه
عبر السلم يتبعه بوميروي، سمع أحدهم يعلق على الموقف بقوله:
"نعم... اللعنة!.. كنت أعلم أنهم سيسمحون للزنجي أولاً."

عندما دخل دوجلاس وبوميروي مكتب الرئيس لنكون، كان
الرئيس جالساً بشكل غير رسمي على مقعد يصغر كثيراً عن
جسمه البالغ ستة أقدام وأربع بوصات طولاً، وكان يحرك قدميه
ببساطة في عدة اتجاهات داخل الحجرة. هذا ما لاحظته
دوجلاس. نهض لنكون لتحية مada يده قائلاً: "سيد دوجلاس!
إني أعرفك... لقد قرأت عنك. اجلس! أنا مسرور لرؤيتك."

وبالتالي وضع دوجلاس في حالة ارتياح في الحال . لكنه تجاهل
بومبروي - عملياً - وهو ما جعله يظل صامتاً خلال معظم اللقاء .
انتقل لنكون في الحال إلى موقف الدفاع وهو يعلم أن دوجلاس
كثيراً ما انتقده . لذا، سعى إلى توضيح موقفه، فرغم أن الرئيس لم
يشر إلى مستعمرات للسود ولا دوجلاس انتقدها، فقد أشار إلى
خطاب لدوجلاس كان قد ألقاه في بوسطن في بدايات عام ١٦٨٢-
واتشر سريعاً قال فيه: "إن معظم الملاح التي تدعو للأسى للحرب
لم تكن في الكوارث الحربية، ولكن في السياسة المترددة البطيئة وغير
الثابتة للرئيس، خاصة سياسات الرئيس حول تسليح وتحرير
السود . " وقد أقر لنكون بأنه أحياناً كان بطيئاً في اتخاذ القرار .
لكنه أنكر عدم ثبات قراراته: "عندما أتخذ قراراً، لا أراجع عنه ."
وذلك ما منح دوجلاس ثقة إذ شعر بأن "أي شخص آخر يمكنه
التخلي عن سياسة تحرير العبيد لكن الرئيس سيمسك بها
بجسم . " ولم يفكر لحظة في وقت قد يتراجع فيه لنكون عن موقفه .
وقدم دوجلاس الشكر للرئيس على إصداره أوامر بالرد الفوري على
المتمردين الذين قتلوا أو استعبدوا الأسرى من الجنود السود، وسأله
لماذا استغرق إصدار الأمر كل هذا الوقت، فأجابته لنكون: "لأن
الوطن كان يحتاج لمناقشة الأمر، فلو أنه أصدره في عجلة قلق هي
اللحظة التي سيرتفع فيها صوت العامة بأحكامهم مسبقة وكان الناس

سيقولون: "آه . . . لقد قدرنا أن المسألة ستصل لهذا الحد، سيقتل البيض من أجل الزنج." لذا انتظر لتكون حتى يثبت أن الجنود السود الذين قتلوا أو استعبدوا كانوا - من هنا - أضحيات ضرورية. "إذ مهدوا الطريق لصدور قراره بملاحقة المتمردين.

عندما أثار دوجلاس قضية الأجور غير المتساوية برر لتكون ذلك بأن وجود الجنود السود أثار "تعصب العامة". لذا فالأجر غير المتساوي - وقتها - كان تنازلاً ضرورياً "لتسجيل السود في الجيش. الأكثر من ذلك أنه كان لدى السود من الدوافع والحوافز ما يحضهم على أن يكونوا جنوداً أكثر من البيض، و"كان عليهم أن يكونوا راغبين في الخدمة تحت أي ظروف". إلا إن لتكون أكد لدوجلاس أن الجنود السود - مستقبلاً - سيتقاضون نفس الأجر مثل البيض، ووعد بتوقيع أية ترقية لهم يرفعها إليه الجنرال ستاتون.

على الرغم من أن دوجلاس لم يكن راضياً تماماً عن آراء لتكون، فقد ذهل لصدق وإخلاص الرئيس فقال: "لم أر أبداً محياً شفافاً مثله، إذ لم يخامره أدنى ظل من الشك بعد أول لحظة من اللقاء." لم يتصرف لتكون بعال، لأنه كان ببساطة من البيض.

"لم يذكرني - بأية صورة - بأصلي المتواضع أو بلسوني المختلف". . . لان افتقاد لتكون للمشاعر العنصرية كان بادياً عليه

بصورة ملحوظة وذلك لأنه لم يعتبر نفسه راديكالياً أو من دعاة تحرير العبيد أبداً، وعلى العكس، فقد كانت تظهر بين أصدقاء دوجلاس البيض من هم من دعاة إلغاء الرق، لحظات ضعف وتخاذل - خاصة خلال لحظات الجدل في القضية - ينسبها دوجلاس إلى الاختلافات العرقية كما أدهشته طلاقة لنكونين بقوله: "لقد تحدث بحماسة وطلاقة لم تثر في نفسي أية ريبة منه."

بدا على الرئيس ارياح عميق لدوجلاس، وذلك ما دعا دوجلاس للارتياح أيضاً، وفعلاً في نهاية اللقاء أخبر دوجلاس الرئيس بأن الجنرال ستاتون قد أناط به تفويضاً وظيفياً، وأنه "يتوى الذهاب للجنوب والمعاونة في عمليات تجنيد الرجال المحررين." ثم اظهر - بفخر - تصريحه الرئاسي للمرور فقرأه. ثم أخذه وأداره جانباً ليكتب عليه "أوافق. أ. لينكون في العاشر من أغسطس ١٨٦٣." في صبيحة ذلك اليوم، تلقى دوجلاس توقيعات من الرئيس، وعضوين من مجلس الوزراء، ونائب من الكونجرس على تصريح بالسفر عبر خطوط ولايات الاتحاد ممثلاً لجيش الولايات المتحدة. استقل دوجلاس القطار التالي من واشنطن، إذ لم يكن يريد إطالة مكوثه ضعيفاً ورغب بشدة في الاستعداد للسفر جنوباً، وحالما وصل إلى منزله تسلم خطاباً من ستاتون يأمره بالتوجه إلى فيكسبرج وتقديم نفسه إلى الجنرال توماس، فرد عليه دوجلاس يوم

الرابع عشر من أغسطس طالبا بعض الإيضاحات بشأن مهمته
ومعرفة رتبته وراتبه وما ستكون عليه واجباته.

وبعد يومين ودّع قراء الجريدة، إذ ظل طوال عشرة أعوام مكرساً
نفسه لجريدته الأسبوعية ذات الصفحات الأربعة التي أصبحت
شهيرة عام ١٨٦٠، وبرغم مشكلات التمويل وجدول الندوات
المكثف، أصبحت جريدته من أشهر دعاة إلغاء الرق في البلاد.
وكان ذلك الجزء العاطفي حيث كتب لقرائه: "لن أتوقف مطلقاً عن
اعتبار تلك السنوات، سنوات الكدح في تحرير الجريدة من جانبي،
والتعاطف والدعم من جانبكم، أكثر سنوات السعادة والفرح في
حياتي." ذلك ما تضمنه موضوع بعنوان "الوداع" الذي ألحقه
بالصفحة الأخيرة من عدد أغسطس لذلك العام. ثم شرح باعتزاز
لماذا سينقطع عن صحيفته: "إنني ذاهب للجنوب لمساعدة ضابط
التجنيد الجنرال توماس في تنظيم قوات السود الذين سوف ينتصرون
من أجل أن يحظى الملايين المستعبدين بالخير الذي لا يقدر في الحرية
لهم وللوطن."

بدأ دوغلاس يلقّ في الأيام القليلة التالية، لأن ستاتون لم يرد
على طلبه بشأن المعلومات التي سعى إليها، وقد قال دوغلاس في
أحد خطاباته لأصدقائه أن ستاتون أبقاء بعيداً عن المعلومات
الأساسية فظل في "الظلام بشأن كل الأمور الأساسية.. وكل ما

فعله أن أمرني بالذهاب مثلما فعل الملك لويس (في مسرحية شكسبير "هنري السادس") إذ كان يعتقد أن أي مواطن عليه واجبات وليس له حقوق، ولسوف أطيعه على أي حال أملاً في أن يتم كل شيء على خير. "بعد عدة أيام، تسلم الخطاب المنتظر، وبموجب واجباته طلب منه ستاتون "مساعدة الجنرال توماس بأية صورة تجعل نفوذك بين الملونين (السود) جاهزاً للتأثير في مجال جهود التجنيد"، وكان هذا أمراً صاعداً غامضاً بالتأكيد، ولم يأت ذكر في الخطاب عن مهمته أو رتبته العسكرية. أما بالنسبة للأجر، فقد أفاد الخطاب دوغلاس بأنه سوف يستمر في تلقي راتبه من جورج ستيرنز الذي كان مستمراً في إرساله له من تبرع خاص مخصص لعمليات التجنيد للسود في الشمال. وكان ذلك أمراً غريباً، فلماذا لا يأتي راتبه مباشرة من مكتب وزارة الحرب؟

لم يأت تكليف دوغلاس أبداً ولم تصدر أية كلمات بشأن وزارة الحرب ولا حتى كلمة واحدة من البيت الأبيض، إذ إنه مع وجود مثل هذا الكم من البيروقراطيين كان الرفض يأتي في صورة صمت مطبق، لذا قرر ألا يذهب للجنوب على الرغم من عرض ستيرنز له بإرسال راتب قدره ١٠٠ دولار شهرياً مضافاً إليه النفقات الشخصية مما يصل تماماً لراتب ملازم أول. لقد أنعشه الأمل. لكن نظراً للخطر المتزايد، رفض أن يكون خلباً للحكومة التي خدعته،

وأن يذهب فقط كضابط متجنيد خاص. "أنا أعلم كثيراً جداً عن حياة المعسكرات وقيمة تلك الشرائط على الأكاف داخل الجيش مما لا يجعلني أذهب للخدمة العسكرية دون إشارة واضحة لرتبتي. "واستنتج دوجلاس أن ستاتون قد تغير كلية وقرر أن "الوقت لم يحن بعد لاتخاذ خطوة جذرية". كان ستاتون رجلاً "ذا طبيعة هوائية، يعطي وعوداً متعجلة سرعان ما يتراجع عنها دون أسف أو اعتذار."

لم يلق دوجلاس لوماً على لتكون مطلقاً رغم أن الرئيس علم بالمهمة وكان يجب عليه أن ينتظر خطاباً من ستاتون لإقراره، وفي محاضرته في شهر ديسمبر ١٨٦٣ أشار دوجلاس بفخر إلى لقائه مع الرئيس، وبدلاً من انتقاده في مسألة "التردد" بشأن مهمته أو ارتكابه لكذبة ما بشأن إهماله الاتفاق أعلن أنه كان هناك يوماً للقاء الرئيس واعتبر رسوخ اسم لتكون شعبياً مسألة صحيحة: "لسوف يتقدم نحو النجاح وعند تمام إقناذ البلاد باسم (أبراهام الأمين)."

وفجأة، بدا الأمر كما لو أن دوجلاس تذكر ما حدث له فعلاً في قلب واشنطن، لأنه مع أول كلمة تالية قال: "لن يسم إقناذنا على يد أبراهام لتكون، وإنما بواسطة تلك القوى الكامنة خلف سدة الحكم"، قاصداً بذلك السود ودعاة إلغاء الرق،

إن الاتحاد كما كان لا يمكن ولا يجب إنقاذه "إننا لا نريده. لقد تجاوزنا الاتحاد القديم". كان دوجلاس قد تجاوز الاتحاد القديم منذ زمن طويل، الذي كان قد أقر العبودية والأحكام المسبقة العنصرية الرهيبة، وكان "يشعر بالخجل منه".

ومع ذلك كان من المدهش أن يبري دوجلاس لنكون ويتذكر لقاءه به بإعجاب. وعلى الرغم من خلافاتهما الكبيرة الاستراتيجية والرأي وخلف الوعد، فقد كان دوجلاس يشعر دوما بالراحة إزاء لنكون أكثر من أي أبيض آخر، بمن فيهم دعاة إلغاء الرق.

وبالفعل لمس دوجلاس روحا طيبة في لنكون كما لو كان الإعجاب متبادلاً. "سيد دوجلاس، لا تأت لواشنطن دون الاتصال بي أبداً!" هكذا طلب منه لنكون عند لقائهما الأول في العاشر من أغسطس عام ١٨٦٣، إذ كان يعتبره "واحداً من أكثر الناس جدارة، إن لم يكن أجدرهم على الإطلاق في الولايات المتحدة." في حين دعا دوجلاس لنكون بلقب "ملك رجال أمريكا العصامين".

والسؤال هو لماذا قام الإعجاب والود والاحترام المتبادل رغم وجود الفروق الشاسعة بينهما؟ فلقاؤهما كان الأول، حيث يقابل فيه رجل أفريقي أمريكي رئيس الولايات المتحدة عن قرب. تساوى فيه الإثنين بمعنى أن كلا منهما كان سفيراً ثقافياً لنفسه، واستطاعا مساعدة بعضهما لتهرب العبودية وخلق وحدة جديدة، إذ أرادا أن

يحب كل منهما الآخر ويحترمه. كانا متشابهين في العديد من الجوانب
وتشاركنا بصورة غريبة في خلفية ثقافية متشابهة ..



الفصل الأول

عبدٌ مميزٌ وأبيضٌ بائس

{ { قفز الصبي للرجولة في البرية، وصنع لنفسه بيتاً من بلاد خيالية

فشربت روحه أشعة شمسها . } }

لورد بايرون^١ من قصيدته (الحلم) ١٨١٦

في عيد رأس السنة الجديدة عام ١٨٣٤، مشى صبي متمرد عمره
١٥ سنة سبعة أميال إلى مزرعة قمح فقيرة في مقاطعة تالبوت على
الشاطئ الشرقي لولاية ماري لاند، وأثناء مروره بطريق قذر ممهد
على شبه جزيرة مثل مخلب ثلاثي الأنظار، شعر بقلق وإحباط.
تردد صدى ربح يناير القارصة مع شتاء نفسه الشاحبة، وشبه
نفسه بسمكة وقعت في الشباك "وسُح لها باللعب لوقت ما" لكنها
الآن "يتم سحبها نحو الشاطئ بسرعة، والشبكة مؤمنة من جميع
أركانها."

^١ جورج جوردون بايرون "لورد بايرون ولد عام ١٧٨٨ وتوفي عام ١٨٢٤،
شاعر إنجليزي، أول أعماله "ساعات الفراغ" وآخرها "رؤى الآخرة" عام
١٨٢٣ - المترجم

كان فريدريك على وشك أن يبدأ حياته كعامل زراعي، وهو أكثر صور العبودية شيوعاً وأشدّها وحشية في الولايات المتحدة، كان قوياً وسليماً و طوله حوالي ستة أقدام، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الزراعة إذ كان يعتبر نفسه "ابن المدينة" الذي مازال يرتدي ملابس قطنية من بالعمور، وإن كانت حينذاك قد تهلّلت وتمزقت من طول الاستعمال بدلاً من القميص الكتان الجمعد والبنتلون الذان يشترهما العامل الزراعي. وبينما كان يقترب من مزرعة القمح، شعر بنفسه صيباً ريفياً أخضر العود يدخل المشاهد المفزعة للمدينة للمرة الأولى.

كان استهلاك عمله الزراعي تعميذاً بالدم، لأنه في اليوم الثالث لعمله، أمره سيده الجديد إدوارد كوفى بربط إحدى العربات بثورين وجلب حمل من الخشب من الغابة. بدأ العمل مهمة بسيطة بصورة كافية، لكنه لم يكن قد اقترب من أي ثور من قبل، كان الثوران غير مروضين تقريباً، وأعطوا له تعليمات بالسيطرة عليها بواسطة الفاظ مثل "وا"، "باك"، "جى"، "و" هيزر"، وكان الثور "باك" هو الذي يتم ربطه أمام العربة والثور "داربى" هو الذي يتم ربطه بجانبه، وبدأت كل تلك الألفاظ مثل اللغة اليونانية على سمعه. وما أن بدأ قيادة العربة، حتى انطلق باك وداربى بأقصى سرعة نحو الغابة، متعشرين بالشجيرات، مصطدمين ببعض الفروع والأوراق فتفككت العربة عن

هيكلا ، وأخيراً أوقعتها شجرة ضخمة، واستغرقت إعادة تجميع
العربة وتخليص الثورين من شراكهما عدة ساعات، فقام بتحميل
العربة بشحنة ثقيلة لمنعها من الاندفاع الطائش، وعاد قاصداً طريق
المزرعة. لكن لم تكن لديه أدنى فكرة عن مدى قوة الثورين؛ فعندما
اقتربا من البوابة بدأ الاندفاع من جديد وهجم الثوران محطمين البوابة
والعربة معاً، بل وسحقها تقريباً.

حاول فريدريك شرح ما حدث. لكن السيد كوفي لم يلق بالأسرار
لشرحه، وإنما أمره بالعودة إلى الغابة معه حيث لاحظ فريدريك -
أثناء قيامه بقطع الحطب - وجود ثلاثة أفرع ضخمة لشجرة صمغ
تمثل عصياً مصقولة وقوية نزع عنها لحاؤها بمهارة ومعقودة عند
أطرافها. هنا أمر السيد الصبي بخلع ملابسه، وعندما رفض
فريدريك الأمر انتحى السيد في هياج مندفعاً نحوه كذئب ضار ومزق
ملابسه وألمبه ضرباً على فقرات حتى أبلى عقد العصا كلها على
ظهر الصبي، ويتذكر فريدريك أن "تحت ضرباته العنيفة تدفق الدم
غزيراً تاركاً ندوباً بارزة على ظهري بحجم إصبعي الصغير".

كانت تلك هي أقسى ضربات تلقاها في حياته، فبدأ يتعاطف
مع الثورين رغم أنهما السبب في جلده، لأن هذه الحيوانات كانت
عبيداً بائسة للإنسان وفقاً لأعراف تعود قديماً حتى أرسطو. هنا
يخلص فريدريك إلى قول: "إنهم من ملكية الإنسان، وهكذا أنا

أيضاً، وهى مخلوقة للانكسار وهكذا أنا، كاسراً ومكسوراً. هذه هي الحياة!" هو أيضاً حيوان قتل، ورياضة لآلهة العبيد، لم يعرف كثيراً أن التعبد بالدم سيضعه على طريق الحرية، فتراه يمزق قميصه ويعرض ظهره المشتق عارياً أمام المشاهدين البيض الذين يصددهم المشهد، مييناً "البرهان الذي لا يدحض" مؤكداً على مروره بخبرة "الجحيم الحي" للعبودية. لكنه كان في ذلك اليوم مجرد عبد آخر سيجلد.

وحسب تلك اللحظة كان فريدريك عبداً مميزاً، لأن سنواته الست الأولى تماثلت مع سنوات ولد أبيض بائس، إذ عاش في كوخ خشبي مع جدته عند حافة خليج صغير يدعى توكاهو بمقاطعة تالبوت حيث نشأ في البرية، ونادراً ما رآها ناساً من البيض، وكان "متحرراً من أية ضغوط". أما الشيء الوحيد الذي كان يميزه عن أي طفل أبيض فقير، فهو أنه لم يكن يعرف تاريخ ميلاده. (وفقاً لسجلات مالكة، كان ميلاده في فبراير ١٨١٨)

كان مالكة الأول آرون أتوني نسخة جنوبية للرجل العصامي، فهو ابن يتيم لمزارع أمي. أصبح أتوني رباناً لسفينة، ثم مشوقاً رئيسياً في إحدى شركات أسرة إدوارد لويد وهى عائلة كبيرة من ماري لاند. وكان إدوارد لويد الخامس رب عمل إدوارد واحداً من أغنى أغنياء الولايات المتحدة، فهو يمتلك ١٣ مزرعة وخمسمائة عبد ينتشرون على

مساحة عشرة آلاف هكتار. وقد ارتقى أنتوني لطبقة السادة في الوقت الذي ولد فيه فردريك، فكان يمتلك مائتي هكتار وحوالي ثلاثين عبداً، وفي تلك الضيعة يمكن لأصحاب المزارع ترك أطفال عبيدهم ينشأون في البرية تحت إشراف امرأة عجوز منهم حتى يصبحوا كباراً بما يكفي لقيامهم بالعمل.

كانت أول وظيفة لفردريك هي خادم منزلي يتركز عمله حول البيت الكبير في حدائقه واسطبلاته. كان ذلك العمل من الأعمال الحبية في التسلسل الهرمي في المزارع. وبعد سنوات قليلة، انتقل لموقع أفضل إذ أرسلوه إلى باليمور ليكون رفيقاً في اللعب لولد أبيض قريب لأنتوني. هناك، كان يأكل أكلاً جيداً ويلبس جيداً، حتى أنه تعلم القراءة، وإلى أن وصلت به الحياة إلى مزرعة القمح كان نادراً ما يُجلد، وكان يمكنه أن يفخر بأنه لم ينتقل سوى بين ثلاثة ملاك؛ كلهم من نفس الأسرة، ولم ير مطلقاً مزاداً للعبيد. كان ذلك نادراً بالفعل بالنسبة لعبيد منطقة تشيسابيك حيث كان من الشائع أن يباعوا مثل بالات القطن في أسواق ألاباما والميسيسيبي ولويسيانا المزدهرة حيث لا توقف الطلبات على العبيد

حتى اسمه تمتع برتبة مميزة: فردريك أوجسطلوس واشطن بيلي. كان لقبه غير عادي بين العبيد يعود إلى القرن الثامن عشر، فوجد أن اسمه الأوسطين عكسا تقاليد القادة الجمهوريين العظام. كانت

أمه - هاربيت بيللي - سيدة غير أمية معترّة بنفسها، تحمل آمالاً كبيرة لمستقبل ابنتها - على الرغم من أنه كان يعرفها بالكاد. كانت تعمل مزارعة في مزرعة تبعد ١٢ ميلاً، وماتت وهو في السابعة من العمر، وقد سرت بعض الشائعات بأن هاربيت كانت من أصل هندي، وقد ألح فردريك لذلك في وصفه الغريب لها "إنها تبدو رزينة ومعترّة بكرامتها على نحو ملحوظ، تماماً كهندية من الهند." في وقت ساد الاعتقاد خلاله أن الهودوس ذوو قرابة عرقية وثيقة بالسكان الأصليين لأمريكا. وعندما بلغ النضج، كانوا يسألونه "إذا ما كانت له جذور هندية أو أفريقية أو قوقازية؟" في إحدى خطبه أمام السكان الأصليين لأمريكا صرح بقوله: "لقد اشتهرت بكوني زنجياً، لكنني أتمنى أن تعرفوني هنا والآن كهندي!" بعيداً عن تلك الإيماءات الخطابية، كان فردريك دائماً ما يُقدّم نفسه إلى الجمهور كرجل أسود، وكانت التقاليد الاجتماعية في ذلك الوقت تمنع الناس من التصريح بأنهم سود تارة، ثم إعلان أنهم هنود حمرة تارة أخرى؛ أو تمنعهم من توصيف أنفسهم سوداً وهنوداً معاً، فالعرق يحدد بالعرف الاجتماعي ويعتبر ثابتاً لا يتغير. وعلاوة على ذلك، نزع الهنود والسود للإحتفاظ بمسافة بينهما، إذ إن معظم الهنود أعلنوا أنهم يفضلون الموت على الاستسلام لقيود العبودية، ومعظم السود اعتقدوا أن الهنود ينقرضون لأنهم غير قادرين على

التعايش مع الحضارة، ودون إقرار صريح بأي نسب هندي . عبر
فردريك عن فخره بأمه ويحنسها، وغالباً ما صرح بأن ما ورثه من
خصال كان منها .

لم يعرف أبداً من كان والده، لكن بعض الحمسات ترددت بين
العبيد، بأن أبيه كان آرون أنتوني نفسه، فلم يقم أنتوني بجلده أبداً،
وإنما كان يعامله بشكل أبوي كما يذكر فردريك: "كان يقودني بيده
بلطف، ويربت على رأسي، ويخاطبني بصوت ودود ناعم، ويناديني
باسم (الهندي الصغير) . " كما عرف فردريك أن أنتوني كان يقرب
من النساء من العبيد وكان يضربهن عندما يقمن برفضه . وتلك
المعاملة الأبوية فسرت المنزلة المتميزة التي تمتع بها فردريك، وعندما
مات أنتوني أصبح فردريك من أملاك ابنته لوكرشيا التي ماتت
١٨٢٧ . ومن لحظتها، انتقل للملكية توماس أولد - زوج لوكرشيا -
وكان واضحاً أن أنتوني ولوكرشيا ، اللذان رعا كاتا ابن واخته غير
الشقيقة قد عاملاه بعطف ورعاية .

لم يعترف فردريك دوجلاس الشهير بأنه كان عبداً مميزاً أبداً لأن
تلك الصفة "عبدٌ مميزٌ" تحمل تناقضاً معنوياً كمصطلح، إذ تعني ضمناً
أن "سيداً ما" يمكن أن يكون إنساناً، في حين سعى دوجلاس لإقناع
قرائه أن العبودية شر أينما كانت وحتى "السادة الطيبون" هم وحوش
يعتمدون على التعذيب للحفاظ على النظام القائم، وكان أقرب إقرار

بما امتاز به كعبد حين صرح: "إن مشاكله منذ البداية كانت أقل من
 الناحية البدنية المادية منها من الناحية المعنوية"، ذلك أن رعب
 العبودية بالنسبة لشاب قوى سليم أشد على العقل منه على البدن.
 بيد أنه فجأة أصبحت مشكلات فردريك جسمانية فعلاً.
 فوضعه المميز وصل لنهاية مفاجئة. فقد تلقى قبل تسعة أشهر
 مضت أمراً بالعودة إلى بلده سانت مايكل على شبه جزيرة يشله
 المخلب على الشاطئ الشرقي ليعيش مع توماس أولد. كان قبل
 ذلك، قد أمضى سبع سنوات في بالتيور يعمل لصالح شقيق توماس
 هيو أولد وزوجته صوفيا. لكن عراكاً نشب بين الأخوين، وطلب
 توماس استعادة عبده. كره فردريك العودة للشاطئ الشرقي لأن
 سانت مايكل بدت مملوءة بالجهلة والرعاع البيض الذين افترضوا
 للطموح والذين يتجولون حاملين زجاجة من الخمر إلى كل مكان
 يقصدونه، ويعيشون في بيوت قبيحة غير مطلية، وباله من تناقض مع
 بالتيور حيث تعامل مع أناس كانوا يسعون لتحسين أحوالهم بالعمل
 الجاد والملابس الخشنة والقراءة! كره الحياة مع توماس أولد وهو
 رجل رقيق الشفتين أبيض الشعر في الأربعين من عمره. كانت من
 خصاله -حسب رأي فريدريك- "الأنانية الشديدة" والتناق الدني،
 ففي كل صباح يصلى داعياً الرب أن يبارك بيته بالخير والخبز، ثم
 يترك فردريك ليعانى الجوع بينما يتغنى الطعام في مخزن اللحوم.

ظن توماس أولد أن الحياة في المدينة قد أفسدت فردريك، فالعبد السعيد الذي أرسله لأخيه عاد وقحاً وغاضباً حيث رفض فردريك مخاطبته "بالسيد"، ودائماً ما كان ينسى اتباع الأوامر، وواته الجرأة لينظر في عينه مباشرة تحدياً، ولم يكن لدى أولد أدنى فكرة عن كيفية ضبط سلوك فردريك لأنه قضى فترة طويلة من حياته يعمل مع البيض ولم يكن قد استوعب بروتوكول إدارة العبيد، ولأنه تردد في جلد فردريك قرر تأجيله لمدة سنة إلى سيد يحيد فن ضبط سلوك العبيد .

اشتهر سيد فردريك الجديد - السيد إدوارد كوفي بأنه "كسارة العبيد"، وكانت حيلته السادية هي أن يأمره بإحضار الخشب من الغابة باستخدام ثورين غير مروضين، نموذجاً لأساليبه السادية. وبمعكس أقرانه، كان كوفي رجلاً عملياً هدفه أن يحقق الثراء عبر ممارساته المشهورة. كان في أواخر العشرينيات من عمره حين تزوج، كان أفقر من أن تكون لديه مزرعته الخاصة. لذلك، عمل بجهد قاس واستغل تأجير العبيد جيداً في زراعة محصول القمح في مزارع الجيران، امتلك عبداً واحداً وكانت أمي، واستنسلها بجسها مع عبدٍ مستأجر آخر كل ليلة، فولدت توأماً، وهكذا ضاعف استثماره ثلاث مرات .

كان لكوفي دهاء الحية وبراعة الثعلب وذلك وفقاً لوصف

فردريك. كان كوفي معروفاً بين السود باسم "الثعبان" وهو أشبه به جزئياً. كان أقصر من فردريك ببضع بوصات، نحيلاً لكنه قوي، بعينين صغيرتين يختلط فيهما الرمادي بالأخضر غائرتين في تجويف جبهته. يقول فردريك إنه بدلاً من أن يصدر هسيساً كالثعبان كان يتحدث من جانب فمه محدثاً زجاجة منخفضة ككلب ينبج "عندما يحاول أحد الاستيلاء على عظمته". كان كوفي - في جوهره - أستاذاً في تعذيب وإرهاب العبيد، واعتبره أولد مستأجراً مثالياً "للملكية"، وكان يتقاضى ١٠٠ دولار سنوياً من الإيجار وهو ما يعادل ٧٥٠٠ دولار اليوم، وما كان كوفي ليتورع عن كسر إرادة فردريك من أجله.

في البدء تحققت آمال أولد. إذ كان فردريك يُجلد كل أسبوع لمدة ستة أشهر بصورة طقسية سواءً بسوط مجدول من جلد البقر معقود عند أطرافه مُلحق بيد طويلة لتسرع عملية الجلد، أو بواسطة هراوة خشبية غير مستوية بطول مضرب كرة البيسبول لكنها أخف وزناً، وغالباً ما كانت الضربات أكثر إبلاماً من ضربات المواجهة الأولى في واقعة الثورين، إذ لم يتوافر للجروح القديمة وقت كافٍ للشفاء قبل أن يتحول لحم فردريك كله إلى جروح دائمة من جديد. كان يعمل ستة أيام في الأسبوع من الفجر حتى الغروب وأكثر، تبعاً لموسم العمل، وجعله كوفي يشعر أنه مراقب باستمرار من خلف

الشجيرات أو من وراء الأشجار الكبيرة ليؤكد أنه لا يتباطأ في العمل.
هنا يقول فردريك: "بعد أشهر قليلة تحت هذا التهذيب تم ترويضى،
حيث نجح كوفي في كسر إرادتي. لقد كسر في جسدى ونفسى
وروحى". أفكر أحياناً في قتل كوفى وقتل نفسه. لكن منعه
مجموعة من الآمال والمخاوف "إذ أمل في شيء أفضل في الحياة
وخاف من الموت".

كان يوم الأحد يوم راحته الوحيد، كان يقضيه في إغفاءة شبه
حيوانية بين النوم واليقظة في ظل شجرة ضخمة "وغالباً ما كان يبدو
متريحاً مثلاً، لأن السادة كان من عاداتهم مسح عما لهم بعضاً من
الويسكى والخمر طيلة السبت وخلال الأسبوع فيما عدا
الكرسماس ويوم رأس السنة، وكان فردريك "يحب الشراب" لأن
هذا كان واحداً من مجالات منعه، فاستهلك أكثر من نصيبه خمراً.
فبعد أن يعمل من أجل كوفي طوال الأسبوع، كانت ليلة السبت هى
الشيء الوحيد الذى كان يتطلع إليه متشوقاً، فالخمر يشعره بأنه
"كالرئيس" واثقاً من نفسه و"مستقلاً". ذات ليلة، شرب كثيراً وكان
يمر بجوار حظيرة للخنازير، وغفا عندها قليلاً ليصحو مرتعشاً من
البرد "فزحف إلى داخل الحظيرة" وعاد للنوم، وعندما عادت الحظيرة
ورضيعها حاولا إزاحته خارجها فاستيقظ متزعجاً وهو يصرخ:
"النظام!.. النظام!" كما لو كان مشرفاً أو رئيساً لاجتماع غير

منظم، وبعد سنوات عندما أصبح من معارضى الخمر أدرك سبب منح السادة الخمر لعبيدهم؛ لأنها تبقى أولئك العمال "فى حالة من البلاء" خلال أيام إجازتهم كيما لا يفكروا فى حرمتهم، أو يقارنوا بينها وبين السكر والترف، وعلى أية حال فإن الخمر تكبح الباعث على الهرب.

وبعيداً عن الخمر، كان عزاؤه الوحيد الآخر أن يذهب لضاف تشيسابيك قرب منزل كوفي فى أيام الأحاد صيفاً ويشاهد السفن تبحر عبر الخليج نحو كل أركان من الكرة الأرضية. لقد هزه التناقض بين جسده المقرح وحالته فى العبودية وبين تلك السفن الجميلة المرسلّة، المتحركة بحرية مثل "ملائكة مجتحة سريعة"، وكان غالباً ما يتحدث للسفن يشأ شكوى روحه لها مغمضاً: "أنتم تتحركون بمرح أمام الرياح الناعمة، وأنا أسعى للأسف أمام سوطٍ دام. "كانت تبدو جميعاً كالأثير وهو يشاهدها تنزلق يحواره، تلهمه الصلاة ليقول: "يا إلهى، أنقذنى! يا إلهى، مساعدنى! دعنى أتححر!" كانت صلاته للسفن أشبه برثاء عميق ومصدراً للعزاء والأمل. وفى حديثه إليهم، أقسم أن يصبح مثلهم ويبحر بعيداً، فصرخ بقوله: "سوف أهرب، وليساعدنى الله! سوف أفعل. لا يمكن أبداً أن أحيأ وأموت عبداً." وصفى هذا التصريح ذهنه، وأوضح له مستقبله، إلا أن تلك الصلاة - شأنها شأن بقية الصلوات - بقيت

مجرد صلاة غير مرئية مثل قطرة دمع وسط مطر غزير، وأحياناً ما
 تساءل هل سمع صلاته أحد؟ وإذا حدث ذلك، فهل أُجيبَتْ؟
 ذات يوم من شهر أغسطس عام ١٨٣٤، كان فردريك وثلاثة
 آخرون يدرسون القمح. كان ذلك على شكل خط تجميع يحتاج
 يتطلب من الجميع العمل معاً؛ إذ كان واحد منهم ينشر القمح فوق
 الأرض بشكل مستوي في فناء الدّراس ويقود آخر جواداً فوق حبات
 القمح ليفصل بين الحبوب وسيقانها، ويذري الثالث الحبوب ثم ينخلها
 من خلال سلة كبيرة مخصصة لفصل الحبوب عن قشورها، وكانت
 مهمة فردريك جمع الحبوب المنفصلة من فناء الدّراس وجلبها إلى
 المذراه، كان كوفي قد وعد الرجال بأنهم إذا ما أنهوا عملهم قبل
 الغروب يمكنهم عندئذ الذهاب للصيد وذلك ما حفزهم للإسراع.
 وعند منتصف الأصيل، حيث لم يكن يبق على نهاية العمل سوى
 ساعات قليلة، شعر فردريك بالإعياء فجأة حيث كان الطقس
 حاراً جداً. كان واحداً من أشد أيام السنة حرارة، وأصابه الدوار
 وارتعد بدنه بشدة، ودقت رأسه بقوة حتى إنه لم يعد قادراً على
 الرؤية إلا بصعوبة. حاول الاستمرار في العمل. لكنه انهار تحت
 ضربة الشمس. تساند ليقف، فترنح قليلاً ثم سقط في النهاية
 وزحف التماساً لظل قريب من السور، وأدى مرضه إلى توقف العمل
 كله.

أسرع كوفي الذي كان يتابع المشهد من منزله المريح وسأل عما يحدث، وبينما حاول فردريك شرح المسألة، ركله كوفي بوحشية وأمره بالعودة للعمل. حاول فردريك النهوض لكنه لم يستطع، فركله كوفي ثانية والتقط قطعة ثقيلة من شجر الجوز وضربه بها على رأسه وهو يزوم: "إذا كنت تعاني من الصداع، لسوف أشفيك منه." وبينما كان الدم يتدفق على وجهه وملابسه، تركه كوفي لمصيره وحل محله في درّاس القمح.

سرعان ما شعر فردريك بالتحسن، فالضربات أزالّت أثر الألم من رأسه بصورة غريبة، وقرر أن يعود ماشياً الأميال السبعة عائداً لمنزل توماس أولد ليخبره بوحشية كوفي وسادته، طالباً مسيلاً جديداً، وقد ملأه الأمل أن أولد حين يراه دامياً ومضروباً هكذا ستأخذه الحشية على فقد ما يملك ويوافق على عتقه من سيطرة كوفي. كان الظلام قد حل عندما وصل الفتى لمنزل أولد. لقد حاول كوفي مطاردته، لكن فردريك التزم السير في الغابة ليتجنب كشف مكانه. بدا كما لو كان هارباً في التومن وكر للنمور؛ وقد اختلط شعره وقميصه بالدم الجاف، وكانت دماء جديدة تتقاطر على ساقيه من الأشواك والنباتات البرية. صدم أولد لمراى الصبي، ولح فردريك لمسة إنسانية في عيني مالكه، فعاوده الأمل من أجل نفسه؛ وبينما كان أولد يخطو عبر المساحة ظهرت عليه بصورة

واضحة معاناة أزمة أخلاقية عميقة، ثم وقف فجأة فقد توصل
لقرار حاسم.

قال أولد:

إنك تستحق الجلد، لأن مرضك كان ادعاءً، والدوار الذي
أصابك كان كسلاً.

أجابه فردريك:

- المؤكد أن عودتي للحياة مع السيد كوفي ثانية تعني أنني سوف
أقتل على يديه ... إن كوفي لن يغفر لي أبداً مجيئى اليك لأشكو
منه .. لقد حطم روحي تقريباً . لو عدت إليه سوف يدمرنى في
الخدمة مستقبلاً، فحياتى لم تعد آمنة بين يديه .

قال أولد:

- هراء ! ليس هناك خطر باحتمال قيام السيد كوفي بقتلك . إنه
رجل طيب، مجتهد ومتدين، وماكنت لأفكر في إبعادك عن بيت
كوفي، لأنك تخص السيد كوفي لمدة عام وعليك العودة إليه مهما
حدث . بالإضافة إلى أنك لو تركت كوفي الآن، ولم يمر من العام سوى
نصفه، سوف أفقد أجرك عن العام كله .

كان أولد يميل إلى المخاطرة بما يملك مقابل الإيجار السنوي الذي
يتقاضاه عن ذلك العبد . كما لم يكن يريد إلغاء العقد مع رجل طيب
مجتهد ومتدين وجار له في نفس الوقت . بيد أنه قرر أن يترك

فردريك للبقاء هذه الليلة وأمره أن يشرب جرعة كبيرة من "شربة الملح الإنجليزي" وهو تقريباً الدواء الوحيد الذى يُصرف للعبيد " ثم عُذ لكوفى في الصباح قبل أي شيء! "

رغم الإرهاق الذى طغى عليه، لم يستطع فردريك النوم ليلته تلك. كان متأكداً، مثلما هو متأكد أن الليل يلي النهار، أن كوفى سيقوم بضربه بوحشية تبدو معها كل مرات الجلد السابقة تافهة، وشعر كأنه سجينٌ مدان يواجه لحظة إعدامه. ملأه ذلك بالإشفاق على نفسه، وأحس بكراهية للعالم بسبب كونه بلا مستقبل واستخلص العبرة: "إن محاصرة المرء كلية في ماضيه وحاضره مسألة تثير اشتزاز العقل الإنسانى ... "و "ذلك كالسجن للجسد، بالنسبة للروح التى لا تتوقف حياتها وسعادتها عن التطور، مأساة ودمار. جحيم من الرعب. "حتى عند احتمال مواجهة ضربات تهدد حياته، بدا أكثر اهتماماً بعذاباته الذهنية عن اهتمامه بسلامته الجسمانية، وما كان ليحب شيئاً أكثر من حبه لزجاجة ويسكى تلك الليلة حتى يدفع روحه للصمت وأحاسيسه للتبلد. لكن لم يبدُ بصيص من الأمل في جرعة منسية من الشراب لأن تلك الليلة كانت الجمعة لا السبت ولا يوجد أي أثر للشراب في المكان.

² "شربة ملح" Epsom salt: مركب دوائي يستخدم لإفراغ الأمعاء تملأ من أي طعام مع البراز كنوع من التطهير الداخلى. المترجم.

في الصباح التالي، كان كوفي ينتظره، يحمل حبلاً في يد وبالأخرى سوطاً من جلد البقر. عندما رآه فردريك، انطلق كالسهم نحو الغابة واختفى طوال اليوم وسط أحد حقول القمح. حاول الصلاة فلم يستطع، وفكر في كل من كوفي وأولد، فوجدهما متدينين، يصليان لنفس الإله الذي يصلى له أيضاً. صعب عليه أن يتجاهل أن الإله كان إلى جانبيهما وأدى به "تدينهم الزائف" إلى الشك في "جميع الاديان". مازال جسده ملطخاً بالدماء ولم يذق طعم النوم طوال ثمان وأربعين ساعة. منذ تناول شربة الملح لم يأكل شيئاً، وكان يعلم بما فيه الكفاية أن أكل القمح غير الناضج سيصيبه بالإسهال. إذا بقي داخل الغابة قد يموت جوعاً، وإذا ما عاد إلى المزرعة فسيجد جسده قد تمزق إرباً، فكثت هناك آملاً لو يستطيع تبادل بشرته "مقابل حيوان أو ثور". عندما حل الليل صنع لنفسه فراشاً من أوراق الشجر محاولاً أن ينام.

عددتُ بدأ حظه في التغير. إذ كان ساندى جنكيز - وهو عبدٌ يعمل في مزرعة مجاورة - في طريقه لقضاء ليلة السبت مع زوجته التي كانت امرأة سوداء حرة، وعندما لمح فردريك راقداً وسط أوراق الشجر عرفه فمال نحوه عارضاً إيواءه. كان ذلك موقفاً نبيلًا وخطراً في الوقت نفسه فلو قبضَ عليه سوف يتلقى تسعاً وثلاثين ضربة سوط وتُسجن امرأته. وبينما كان فردريك يفصل دمائه من

جسمه، قامت زوجة ساندى بظهو وجبةً من فطيرة تخبز على الرماد مصنوعة من دقيق القمح والماء والملح، عليها شذرات رقيقة من الرماد، والتمهما فردريك. كان دائماً ما يتذكرها كألذ وجبة تناولها في حياته.

وعندما امتلأت معدته عاد إليه الأمل وسأل ساندى عن فرصة للهرب إلى الشمال سعياً للحرية. ولما كان ساندى يعرف المنطقة جيداً، فقد أخبره استحالة ذلك، فلا مجال للهرب من مطاردة صاندى العبيد في تلك الأرض الضيقة كالمخلب من شبه الجزيرة هذه. لكن ساندى لم يعدم حلاً لمازق فردريك، فقام باعطاء فردريك - باعتباره من المؤمنين بالسحرا الأفرقى - جزءاً من جذور عشب شائع قاتلاً:

ارتد هذا على جانبك الأيمن، وسيكون من المستحيل أن يستطيع كوفى ضربك ثانية.

رأها فردريك نصيحة سخيفة، لكن ساندى بدا صادقاً في إيمانه وممتلاً بحب الخير لدرجة أن فردريك وضع الجذور في جيبيه ليسعده. ومن يدري؟ ربما قادته العناية الإلهية لمساعدته وربما "كانت بركة الله في تلك الجذور". هكذا كان تفكيره إذ إن الله يُدبر الأمر بطرقٍ لا ندركها ولها أشكال شتى.

ويبدو أن الجذور آتت أكلها، ففي صباح يوم الأحد سار فردريك

بجراً عائداً إلى المزرعة وقابل كوفي وزوجته اللذين كانا في طريقهما إلى الكنيسة، وسأله كوفي - وابتهامة تعلو وجهه كالملك - باهتمام حقيقي "كيف حالك ؟" وطلب منه بأدب شديد أن يقود الخنازير إلى حظيرتها . أدهش سلوك كوفي المهذب فردريك . لقد جعل سلوكه غير المعتاد فردريك يظن أن في جذور ساندى شيئاً ما . لكنه تذكر أن كوفي يعتبر نفسه مسيحياً طيباً ، وذلك يعنى أنه رفض جلد عبده في العطلة المقدسة .

قرر فردريك - متشجعاً بالجذور التى يحملها وبالتغير الطارئ في سلوك كوفي - أن يضع "ربه" في اختبار وأن يقوم بتخيره بين مالك العبد والعبد ، فهو سوف يطيع كل أمر يصدر مهما كان غير معقول ، إذا كان ممكناً لكنه أقسم لو استمر كوفي في محاولات ضربه "لأدافع عن نفسي وأحميها لأقصى حدود طاقتي" . بمعنى آخر ، سوف يرفض مبدأ رئيسياً من مبادئ العقيدة المسيحية عند ملاك العبيد يقول : "لا تقاوم سيدك أبداً !" لكنه سوف يتصرف وفقاً للمبدأ الذى ينص على أن عين الله ترى كل البشر متساوين .

مع صباح يوم الإثنين والوقت مازال مبكراً ، عادت الزبجرة المنخفضة بصوت كوفي . كان فردريك في الاسطبل يطعم الخيول وفقاً للأوامر عندما هبط عليه كوفي وأمسكه من قدمه محاولاً تقييده وتراجع فردريك موقعاً بكوفي أرضاً . كتب فردريك ملحوظة هنا :

"استولى على جنون القتال، ووجدت أصابعي القوية ممسكة بزور
كوفي بشدة، ذلك الجبان الذي عذبنى كثيراً، متجاهلاً كل النتائج كما
لو كنا نتواجه ندين متساويين أمام القانون."

كان يدرك جيداً أن عقوبة مقاومة السيد هي الموت. لكنه يقول:
"لقد وصلت إلى مرحلة لا أخشى معها الموت." "لقد شعر بأنه مرن
كالقطن وجاهز لمواجهة ذلك المخلوق الثعباني عند كل محاولة." "كان
يمكنه قتل كوفي بسهولة لأنه كان أكبر حجماً وأقوى وأفضل هيئة،
لكنه التزم مباشرة "تكتيك الدفاع ليمنعه من إلحاق أي إذى به"،
وبدلاً من أن يؤذيه هو قام بإلقاء كوفي أرضاً عدة مرات كصارع
يحتر خصمه أو كقط يلعب بفأره، وذات مرة ألقى بكوفي على روث
إحدى الأبقار، ومرة أخرى "أسكت به من زوره بشدة لدرجة أن
دماءه سالت على أظافري." "لكنه لم يؤذ به بدرجة خطيرة.

استمر القتال ساعتين، قتالاً غريباً وملحمياً دونما انتصار أحدهما
منهما. "كنت أمسك به وكان يمسك بي." "سأله كوفي وهو يرتعد
خوفاً وإرهاقاً:

هل ستستمر في المقاومة؟

أجاب فريدريك بأدب:

- نعم يا سيدي.

في منتصف المعركة طلب كوفي المساعدة مدركاً أنه لن يتمكن من

هزيمة فريدريك وحده، فأتى ابن عمه بيل هيوز - الذي يعمل ويعيش معه - لكن فريدريك اتابه هياج العدا وركل هيوز في خصيته "فأقعده"، وابتعد مترخاً ثم تكوّم من الألم الشديد ولم يتدخل بعدها . هنا صرخ كوفي مستجداً ببيل سميث - وهو عبد مستأجر آخر - آمراً بقوله : "أمسكه ! أمسكه !" لكن بيل لم يكن مستعداً لقتال فريدريك لصالح كوفي فأجابه :

إن سيدي أجرني لك للعمل وليس لمعاوتك في جلد فريدريك . وعندما رأى كوفي خادمته الخاصة كارولين، أمرها صارخاً "أمسكه !" لاحظ فريدريك أنها كانت امرأة ضخمة وقوية "يمكنها السيطرة عليّ" - خاصة أنه أصبح مرهقاً من قتال دام أكثر من ساعتين - لكنها رفضت التدخل كذلك . وهذا التضامن الزنجي جعل فريدريك فخوراً باتمائه لذلك الجنس الأسود، ودفعه ذلك قدماً .

بعد ساعتين كان على كوفي أن يتوقف من الإجهاد محاولاً التقاط أنفاسه قائلاً: أيها الوغد، عليك الآن أن تعود لعملك ! أنا ما كنت لأجلدك نصف ما فعلته بك الآن لو أنك توقفت عن المقاومة . ملأت فريدريك الرغبة في الضحك من ذلك الادعاء إذ إن "الحقيقة أنه ما استطاع جلدي أبداً يومها . كان هذا أسلوب كوفي في حفظ ماء وجهه، وقد عنم تماماً أنه هُزم ولم يلمس الفتى بعدها .

وغالباً ما كان فريدريك يقول إن قتاله مع كوفي كان نقطة تحول في حياته كعبد، ثم يشرح: "لقد شعرت بما لم أشعر به في حياتي. إنها قيامة مجيدة من مقبرة العبودية إلى سماوات الحرية النسبية. لقد ارتفعت روحي التي تحطمت كثيراً، وارتحل الجبن ليحل محله تحدٍ مقام. لقد قررت أنه مهما طال زمن بقائي في العبودية شكلاً، فإن زمن بقائي عبداً في الحقيقة قد ولى، فالعبد الذي يرفض الجلد والضرب أصبح الآن أكثر من نصف حر."

بالطبع كان وصف فريدريك للحظة قتاله أنها "نقطة تحول في حياته" مسألة إعادة نظر أساسية في الماضي متطوعاً من ميزة تحطيمه لقيود العبودية باحثاً في ماضيه عن مفتاح يفسر سطوع نجمه. ففي ذلك الوقت، أمدته القتال بالأمل. إن ذلك النصر قد يصبح المد الجديد بعد سلسلة من الهزائم، وأشبه كثيراً بما يحسه الرياضي عقب تحقيقه فوزاً كبيراً. كان ذلك الأمل "أو الإيمان" بهم فريدريك كثيراً، بشكل سلوكه ويث فيه الثقة في مواجهة لحظات الضعف.

تلقى فريدريك من ذلك الشجار درساً قيماً سيبقى معه طوال الحياة، دائماً عليك بمقاومة الطاغية ولا تخش الموت من المحاولة، لكن كن براجماتياً في مواجهة ذلك! لم يقم كوفي بإخطار السلطات بموضوع عبده المتورد الخاضع لمسؤوليته إذ كان يستطيع إخضاع فريدريك للجلد العلني أو قتله أو كليهما معاً. لكنه سعى لإبقاء القتال سرا،

وقد اتاب فريدريك الشك أن كوفي خجل من التصريح "بأن ولداً صغيراً في السادسة عشرة تمكن من السيطرة عليه." "فوق كل ذلك، أراد كوفي الحفاظ على سمعته المعروفة باعتباره "كسارة العبيد" التي مكنته من استئجار العبيد بأسعار متدنية عن أسعار السوق، كما حاول أيضاً الحفاظ على كرامته؛ فالرجل الأبيض لا يفترض أن يهزمه فتى أسود في عراكٍ ما. خلال الفترة المتبقية له مع كوفي، كان فريدريك يرمقه باحتقار محاولاً إثارتَه للعراك، وقال في نفسه مرة أن المرة القادمة سوف يؤذيه حقاً. لكنه في الواقع كان يتباهى فقط، فلو وقعت مواجهة أخرى فلا شك أنه كان سيعارك كوفي بنفس الأسلوب الدفاعي بتجنب الضربات والرد على القليل منها فقط إذ كان يعلم أن كوفي إذا ما قُتل أو جُرح، لن تكون هناك وسيلة للتكلم على خبر العراك الذي لو وصل للعامة لأدى ذلك إلى التعذيب أو الموت، وكما حدث فقد تركه كوفي لحاله وتظاهر بأن شيئاً لم يتغير في حين بدا عالم فريدريك أكثر إشراقاً بالفعل.

وعلم العراك فريدريك درساً قيماً بقي معه طوال حياته: "قاوم الطاغية دوماً، لا تخف من الموت وأنت تحاول. لكن كن عملياً في ذلك"، لأن الهدف هو أن تكسب احترام عدوك وأن ترسخ الكرامة في ذاتك، إذ عندما يحترمك العدو فإنه يخشاك أيضاً. لذا، لاتدرُ خدك الأيمن وتسلم مبكراً، أو تصادق عدوك (ما لم يتحول هو أولاً

لصف قضيتك) ! إذ سيؤدى ذلك إلى الرضا بالواقع من جانبك وإلى فقدان السيطرة عليه. ومثلما حدد فردريك فإن "إنسان بلا قوة، هو إنسان بلا كرامة." فالسادة يهينون العبيد بعدم السماح لهم باستخدام القوة. لذا، على العبيد أن يقاوموا دائماً باستخدام القوة.

وقد قام فردريك باختبار فلسفته هذه مع سيده الجديد، فبعدما انتهت فترة عقده مع كوفي تم تأجيله لمزارع قمح آخر يدعى ويليام فريلاند، الذى كان عكس كوفي في صفاته، ففى حين كان كوفي فقيراً ووضيعاً وفاسداً، كان فريلاند "سيداً مهذباً طيب النشأة" وكما يقول فردريك كان صاحب سلوك جيد لا أموال جيدة. كان صريحاً وأميناً مع عبيده يقوم بإطعامهم جيداً ولا يرهقهم بالعمل، ولما لم يكن من رواد الكنيسة لم يحاول تغطية الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية باسم الدين المسيحى لأبناء الجنوب. كان سيداً مثالياً بالفعل ولم يضرب فردريك أو يجلده مطلقاً. لكنه مازال سيداً، ولذا يُعد طاغية تجب مقاومته، ولكونه مختلفاً في أسلوب تسيده عن كوفي، كان يقتضى ذلك شكلاً جديداً من أشكال المقاومة، وهو الشكل الذى لخصه فردريك في الآتى: "امح العبد سيداً ستره يأمل في سيد طيب، واعطه لسيد طيب، هنا سيتمنى أن يكون سيد نفسه. هذه هى الطبيعة الإنسانية."

ما أن بدأ العمل مع فريلاندر حتى أقسم على الحرب. كان ذلك أشبه بنوع من القرارات المتأخرة للعام الجديد عام ١٨٣٦، وخلال الشهور الأربعة التالية خطط للهروب وأقنع خمساً من العبيد بالتعاون معه، بمن فيهم "ساندي جنكيز" رجل الجذور الذي سبق الحديث عنه.

كانت الخطة بسيطة نسبياً. في ليلة السبت المقدسة والبيض مشغولون بالإعداد لمناسبة عيد الفصح، سيقومون بسرقة قارب صغير والتجديف عبر تشيسابيك متجهين إلى بالتيمور. ثم يرحلون مشياً حتى يصلوا إلى أراضي بنسلفانيا الحرة، وحيث أنه لم يكن معهم خريطة للطريق، ولم يدروا أين سيقودهم ذلك، قام فريدريك بكتابة تصريح مرور لكل واحد منهم يقول إن السيد قد أعطاهم كامل الحرية للذهاب إلى بالتيمور للاحتفال بالفصح. كادت الخطة أن تنجح لولا وجود خائن. لم يعرف فريدريك من كان ذلك الواشى، ولكنه شك في رجل الجذور، ساندي، لأنه قد انسحب من المشروع ليلة إحدى أيام الجمع بعدما غشيه حلم سييء رأى فيه "فريدريك يطير به طائر ضخم يمسكه بين مخالبه متوجهاً نحو الجنوب"، وقد عدها قائلاً شيئاً فقال لفريدريك: "يا عزيزي، انتبه لحلم يوم الجمعة! هناك مخاطرة كبرى. اختر حياتك، لأن الخطر هناك يا عزيزي! دعك من الخطة!" وأضاف: "والأمر سوف يقبضون عليك ويرسلونك

إلى آخر الجنوب. "من المحتمل هنا أن يكون ساندي قد قام بإفشاء سر الخطة لسيدته ويحاول الآن أن يحمي فريدريك. لم تكن مثل تلك المخادعات أمراً نادراً، فأيسر وسيلة في الجنوب الأمريكي أمام العبد ليصبح حراً ليس المشاركة في خطة للهروب ولكن إفشاء سر تلك الخطة لسيدته. فالواشى عندئذ إما أن ينال حريته أو يتلقى معاملة خاصة نظير إخلاصه.

كان واضحاً لفريدريك أن شخصاً ما قد خانته، ففي يوم تنفيذ خطة الهروب أحبط به وبرفاقه الأربعة. وألقى بهم في السجن. قماموا بتمزيق تصاريح مرورهم وأنكروا محاولة الهرب. لكن كل الرجال البيض تقريباً أكدوا أن هذه الجماعة مذنبه وأن فريدريك هو زعيم الجماعة إذ صرخت امرأة بيضاء في وجهه: "أيها الشيطان الأصفر طويل الساقين! أنت من زرعت في رؤس العبيد الآخرين تلك الفكرة كيما يهربوا." ورأى بعض البيض أن فريدريك "يجب أن يُشنق" وقال آخرون: "اشووه حياً، فتلک هي العقوبة الصحيحة." واتفق الجميع على أنه إذا لم يُقتل، فيجب أن يُباع في حقول القطن في منطقة المسيسيبي أو الألباما حيث يستحيل الهرب هناك. وفي الواقع، قام أحد الجيران بتحذير توماس أولد أنه إذا لم يبعد فريدريك فوراً من الشاطيء الشرقي فإنه سوف "يطلق عليه النار بنفسه"، لأن فريدريك كان خطراً جداً حين يُسمح له بالتأثير على العبيد

الآخرين .

عندما استعاد توماس أولد فريدريك من الحبس أخبره - في الحال - بأنه يخطط لإرساله إلى ألاباما . لكن ذلك كان إما كذباً أو أنه غير رأيه فيما بعد لأنه أمره - فجاء - بالعودة إلى بالتيمور للعيش مع هيو وصوفيا أولد كيما يتعلم "حرفة" كما قال . الأكثر من ذلك أنه إذا ما سلك فريدريك سلوكاً طيباً فإن توماس "سوف يعتقه عند بلوغه سن الخامسة والعشرين" . لم يصدق فريدريك حظه إذ بدا ذلك أروع من أن يكون حقيقياً . "لأن أغلب السادة كانوا ليقتلوه أو يحطموا إرادته أو يقوموا ببيعه عند مصب النهر، وعامل زراعى مثل فريدريك يساوي حوالي ١,٠٠٠ دولار (أي يساوي ٧٥٠٠٠ دولار اليوم) . وبينما كان فريدريك يبحر عبر تشيسابك متوجهاً لبالتيمور، بدأ يشعر بوجود ما هو أكثر من الحظ ووجود ما هو أكثر من الصدفة "تفسيراً للظروف التى تحيط به، وذات يوم اقتبس من شكسبير قوله إن هناك "عناية إلهية تقرر مصائرنا" . لكن في تلك اللحظة كان سعيداً مجرد أنه رحل إلى الشاطئ الشرقى .

بدأت بالتيمور عالماً جديداً يمتلئ بالحركة جزئياً، وكان هيو وأولد - كعرب أغنام محترف - جاف الطباع لكنه يمتلك قلب الإنسان الحق ، كما وصفه فريدريك . كان يحمل هيئة الأب إلى حد ما ، في حين

كانت صوفيا (التي كان يناديها بالآنسة صوفا) امرأة طيبة القلب عاملته - عادة - كابن لها . لا ريب أن هيو و صوفيا كانا لهما عيوباً إذ : كان هيو يشرب كثيراً مما يجعله مزاجياً ومتهوراً ، وحاول أن يمنع فردريك من القراءة والكتابة . كذلك ، عندما يتأجج مزاج الآنسة صوفيا غضباً تصبح عندئذٍ سليطة اللسان . لكنهما لم يقوما بضرب فردريك ولا بتبرير سيطرتهما عليه بأسباب دينية ورعة . وأظهرا قدراً من التواضع يقتدر إليه أغلب ملاك العبيد .

حصل هيو لفردريك على عمل كصبي للعامل الذي يسد ثقب السفن بالقار في حوض بناء السفن بباتيمور . كان عملاً سهلاً نسبياً يحتاج إلى القوة الجسدية والتحمل أكثر مما يحتاج إلى المهارة ، وفردريك الآن يصل طوله إلى ستة أقدام مع صدرٍ مقنول وساقين قويتين من العمل بالحقول لثلاث سنوات طوال . تعلم فردريك بسرعة كيف يخلط الزيت "القطران" مع الألياف ويسد بها الثغرات في السفينة لمنع التسرب ، وأصبح عاملاً ماهراً في هذا المجال خلال عام عمل فيه في حوض السفن حيث كان هيو يعمل مشرفاً للعمال . كان يكسب أكثر من تسعة دولارات في الأسبوع أكثر من أي "صناعي" آخر ، مقرباً من أجور الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى . لكنه مع نهاية الأسبوع كان عليه أن يُسلم كل "مليم" قبضه لسيد هيو ، وعندما كان هيو يمنحه منها البنسات الستة علامة على شكره ،

كان يفسر تلك الهبة بأنها الإقرار بحقه في امتلاك المبلغ كاملاً، "فرغم إنسانية هيو النسبية فقد رآه فردريك لصاً وطاغية.

"كره فردريك العيش مع هيو وصوفيا، فاتخذ خطوة جديدة في مايو ١٨٣٨ "باتجاه تحديد مستقبله في عالم الحرية" وفقاً لنص كلماته. لم يكن نادراً ف بالتيور، كعاصمة سوداء تحوى نحو ١٠٠٠٠ آلاف من العبيد السود، أن يكون للأرقاء - رجالاً ونساءً - الحق في تأجير أنفسهم في أوقاتهم إذ كان لهم أن يعيشوا ويعملوا حيثما شاءوا ويتمتعوا بحرية نسبية طالما يسددون لملاكهم مبلغاً متفقاً عليه كل أسبوع. وكل دخل إضافي زائد كان لهم أن يحتفظوا به، واستطاع بعض العبيد ادخار مبلغ كافٍ لشراء حريتهم، فنظام المجتمع حفز العبيد على العمل الشاق لإمداد ساداتهم بدخل مضمون. لكن ذلك كله يعتمد على ثقة السادة في عبيدهم. هنا يقول فردريك عن سمعته بين السادة: "لم تكن سمعتي جيدة جداً" وبالعجب! وافق هيو على ترك فردريك كي يوجر نفسه طالما كان قادراً على سداد ثلاثة دولارات مساء كل سبت مع تغطية جميع نفقاته.

سار النظام لأربعة أشهر على خير ما يرام، وتمتع فردريك بمزيد من الاستقلال أكثر مما شعر من قبل. "ثم انزلق في الخطأ"، ففى أغسطس ذهب مع أصدقائه من الأحرار السود للقاء عقد بأحد المخيمات، وهو شكل شعبي من أشكال التعبير الديني والترفيهي

يشمل الغناء والاعترافات وحضور المؤمنين حديثاً ممن يرتعشون ويتأيلون ويتمددون أرضاً مُسَلِّمين أرواحهم وأجسادهم لله. ورغم أن فردريك كان يعتبر مُلاك العبيد من المسيحيين أكثر السادة وحشية، كان هو نفسه مسيحياً والتحق بالكنيسة الوطنية، وكانت بؤرة إيمانه رسالة المسيح حول الحرية، وأتاح له لقاء المخيم الانضمام لمجموعة من الأخوة المسيحية من مثابهي الإيمان. لكن ذهابه لحضور اللقاء آخره يومين عن تسليم عوائد عمله لهيو واتهك عقده معه. انتاب هيو غضب شديد وعامل فردريك كابنٍ عاق غادر منزله لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، لكنه عاد متأخراً عن مواعده ودون كلمة اعتذار، والأب وهو يتخيل أسوأ مصير لابنه لا يكاد يلمس النوم عينيه إذ ظن أن فردريك قد فر بنفسه بعيداً فصرخ فيه: "أيها الوغد! الآن تسيطر على فكرة ضريك بالسياط، لن أسمع لك بتأجير نفسك بعد الآن، وأول شيء أتوقع أن أسمعه بعد الآن سيكون هروبك."

كانت لمخاوف هيو مبرراتها إذ بمجرد حرمان فردريك من حريته الجزئية حاول الهروب مرة أخرى. فقبل ذلك بعام - أي سنة ١٨٣٧ - كانت شركة بالتيمور وأوهايو للسكة الحديد قد أكملت خطأً جديداً يشق طريقه شمالاً من بالتيمور إلى ويلينجتون بولاية ديلاور وهي ولاية تفر العبودية" مارا بوصلة مع فيلا دنيا بواسطة

سفينة تجارية. وكانت شركة بالتي مور أوهايو تحمي أملاك السادة
حماية شرسة كما ذكر فردريك "فحتى المسافرين السود الأحرار
كانت الشركة تستبعدهم"، وكان على أي مسافر أسود مغادرة
بالتيمور نهراً وتقديم "مستندات حرته" وهي تماثل جواز سفر
يحوي تفاصيل عن المالك الأصلي. رغم تلك الصعوبات أدرك
فردريك أن خط الشركة يوفر أكثر الطرق أماناً نحو الحرية، فاستعار
تصرّح مرور خاص بأحد البحارة "مبيناً أن حامله يحظى بمنزلة
الحر" من صديق يشابهه إلى حد ما. ثم اشترى قميصاً أحمر، وربطة
عنق سوداء، وقبعة "البحارة" ليبدو مثلهم، وكذلك تذكرة قطار،
واستأجر حملاً لتوصيل أمتعته إلى المحطة صباح يوم الإثنين ٣
سبتمبر

ورغم أن فردريك لم يرتحل يوماً بالقطار إلا أنه سمع عنه كثيراً بما
يكفي توقع كل الاحتمالات. كانت خدمة المسافرين لاتزال في
مهداها، ولم تكن هناك درجة أولى للسفر أو مركبات نوم بعد، ولم
يدع أحداً أن ركوب القطار مريح، إذ كان يجلس بكل عربة حوالى
ثلاثين شخصاً في صفتين متقابلين على مقاعد خشبية. كانت تبدو
كالصندوق الخشبي المستطيل معتم به فتحات قليلة بمثابة
النوافذ. وكان هناك أيضاً الاهتزاز والتمايل الذي يجعل القراءة أمراً
مستحيلاً تماماً، وكانت الضجة المباشرة عالية لدرجة تجبرك على

الصراخ عندما تتكلم، وقد قال أحد المعاصرين حينها أن تلك العربات أكثر ملاءمة للماشية عنها للناس، كما لاحظ مسافر آخر أن غبار الفحم المتطاير عبر النوافذ كان كثيفاً لدرجة تعوق التنفس، وعلى عكس سنوات الحرب الأهلية، فرضت الشركة العزل مع عزل السود في أكثر العربات صخباً وقذارة.

استغل فردريك اهتزازات القطار وتعبّل "كسارى" القطار في عمله لصالحه. وصل إلى المحطة يوم ٣ سبتمبر قبل دقائق قليلة من قيام القطار ليتجنب تدقيقات عامل التذاكر. وبينما كان القطار يطلق صفيره، ألقى الحمال حقيبة فردريك الصغيرة داخل عربة القطار، ولحظة مغادرته للمحطة قفز فردريك داخلها. وعندما دخل "الكسارى" عربة الملونين كانت الرحلة عند منتصف الطريق إلى ديلاور. كان فردريك يعرف يتقمص شخصية مجار من الترسانة، ورغم انفعاله وتوتره إلا أنه تلبسَ دور الحُرِّ الواثق والمعتمد الذى ينتظر "الكسارى" ليسأله عن أوراقه.

سأله الكسارى:

لديك أوراق تثبت أنك رجل حر، أليس كذلك ؟

قال فردريك:

نعم يا سيدى، أحمل مستنداً موثقاً بخاتم النسر الأمريكى الذى سيحملني عبر العالم.

كانت ذلك هو الرد المثالي مستغلاً احترام الآخرين للبحار
الأمريكي وهو ما شاع حينذاك في بالتيمور، فالتقى الكسارى مجرد
نظرة مجردة إلى أوراقه، وتسلم الأجرة ومضى في طريقه.

واجهته صعوبات قليلة، فعلى سطح العبارة التى تمخر عباب
نهر ساسكويهاناً رآه أحد معارفه من السود وسأله أسئلة خطيرة
مثل: "متى تعود؟" مما عرض رحلته لاقتضاح أمره. كذلك عندما
ركب قطار فيلادلفيا وكان يتطلع عبر النافذة، رأى في عربة مجاورة
في القطار المواجه له ربان الباخرة التى عمل عليها منذ يومين مضياً .
لكن الرجل رمقه ويبدو أنه لم يره جيداً . كما واجه ما هو أكثر
مدعاة للفرح حين التقى بمجداد ألمانى يعرفه جيداً "ونظر إلى مدققاً"
لكه لم يتفوه بكلمة. تذكر فردريك ما حدث بقوله: "أعتقد أنه عرفنى
حقيقة، لكن قلبه لم يطاوعه لخيايتى" إذ بالنسبة للهارين تعد مدينة
كباتيمور- حتى لو كانت ضخمة- قرية صغيرة. ثم مرت بقية
الرحلة دون حوادث تذكر. واستقل فردريك سفينة تجارية من
ويلينجتون إلى فيلادلفيا ثم قطاراً ليلاً إلى مدينة نيويورك.

فى أقل من أربع وعشرين ساعة حوّل نفسه من عبد إلى رجل
حر، من رجل جنوبى إلى رجل شمالى. كان يتذكر تلك الرحلة
كأعظم أربع وعشرين ساعة مرت بحياته كلها، كما لو كان ولّد من
جديد. "إذ انفتح أمامى عالم جديد". "كان يرى كل حادثة أخرى أو

كل إنجاز آخر ضيلاً مقارنة بتلك اللحظات "لقد عشت خلال يوم واحد أكثر مما عشته في عام كامل من أيام عبوديتي، لأن أحلام صباي ورجولي تحقق الآن."، وظل باقى عمره يحتفل بيوم ٣ سبتمبر بديلاً ليوم مولده المجهول.



لم يُعبر فردريك عن اعترافه بالجميل نحو توماس أولد لأحقاب طويلة حين أرسله شمالاً بدلاً من بيعه في الجنوب كما كان يفعل معظم السادة، ولم يُظهر أبداً أى تقدير تجاه هيو وزوجته صوفيا لطبيعتهما العطوفة نسبياً نحوه، رغم أنه سعى سرّاً للتراضى مع هيو فقد كب إليه عام ١٨٥٧ يقول: "إننى أحبك لكنني أكره العبودية." مع كل ذلك، فقد صرح في نفس الوقت أن "لو قتل عبدٌ سيده، فإنه يحاكي أبطال الثورة فحسب." وحتى قيام الحرب الأهلية كان يُشهر علانية بتوماس وهيو وصوفيا، ورغم أن أياً منهم لم يمتلك عبداً بعد عام ١٨٤٨ إلا أنهم لم يصبحوا من دعاة تحرير العبيد أبداً. لذا بقوا أعداء عموميين بالنسبة له. ظل الوضع هكذا إلى ما بعد قيام الحرب حين تراضى فردريك مع مالكة السابق حيث أخبر توماس أولد بما في نفسه: "لم أهرب منك وإنما هربت من العبودية." إذ ظل داخل شخصيته العامة مؤمناً بالدرس الذى تعلمه من قتاله مع كوفى، فدائماً ما كان يقول: "قم بمقاومة العدو - حتى لو تراضى معك - إلى

أن يؤمن بقضيتك. " وبعد انتهاء العبودية أدرك أن أولد لم يعد عدواً له .

بالنسبة لإدوارد كوفي- الثعبان- فقد أثرت شهرته "ككسارة للعبيد" إذ مع قيام الحرب الأهلية أصبح مزارعاً ثرياً مرموقاً يمتلك العديد من العبيد والأموال التي تقدر بـ ٢٣٠٠٠ دولار (أى ما يساوى مليوني دولار بحسابات اليوم) . وبينما هو يتحول نحو الثراء، جعله فردريك مشهوراً بتقديمه إلى عالم الأدب كشريك كبير مساو لكل من سيمون ليجرى وفاجين . ففى سيرته الذاتية ثلاثية الأجزاء شبه كوفي بالشيطان الذى لا يُنسى خلال قصة حياته . لكن مزارعي الشاطئ الشرقي اعترضوا أحياناً على ذلك التشبيه، حيث هاجم أحد الجيران عام ١٨٤٧ تصوير كوفي بالثعبان داعياً إياه بالطبيب الأمين الجاد فى عمله كما أنه "عضو مخلص ضمن شعب كنيسة الظهور" ممن يعاملون رجا لهم جيداً، وقال "أنه بسبب كذبه واجتهاده الصادح اشترى كوفي مزرعة جميلة ويحصد الآن مكافأة كذبه" . لكن رسم فردريك لشخصية كوفي التصق به إذ ظل بيت كوفي القديم معروفاً باسم جبل البؤس .

³ منزل جبل البؤس يملكه الآن دونالد ولمسفيلد وزير الدفاع الاسبق.

ذات يوم شديد البرودة من شهر مارس ١٨٣٠ كان شاب عمره واحد وعشرون عاماً يقود زوجاً من الثيران مربوطين بنير واحد عبر إنديانا متوجهاً لإلينوى، وقد كانت الطرق قد تجمدت ليلاً وتحولت إلى طين موحل خلال النهار، مما جعل السفر بطيئاً وشاقاً. سار بجوار الثورين مرتدياً قبعة من الفراء وسروالاً من جلد الغزال يصل إلى ركبتيه، وهو يضرب بسوطه قرون الثورين أو فوق جلدهما، وهو يصيح آمراً: "جى جى! هو هو! وي جيلاج! وهاي ذار! إلخ، ليبقيهما مستمرين للأمام. بينما كانوا يعبرون مجرى مائياً ساطهما بمزيد من القوة، ولم يكن الثوران قد فقدوا قوتها تماماً فاستخدم السوط ليمنعها من السرعة التى قد تؤذيها أو تقتله، ولم يكن قد تمكن من فرض الانضباط على كلبه تماماً بعد، الذي فاجأه بالقفز في الماء وبدأ يفرق، فحاض بنفسه في الماء البارد حتى ارتفع لوسطه "فأمسكتُ به وأثقتُه" فيما يتذكر مكملًا: "لم أستطع أن أتحمل فقد كلبى."

كان أبراهام ينتقل إلى مقاطعة ماكون بولاية إلينوى بالقرب من نهر يسميه الهنود (سانجامون) يعنى "الأرض كثيرة الخيرات لتناول الطعام منها" ولم يكن لديه أي شك في صدق هذه المقولة، فهو ببساطة شديدة يقتنى خطى عائلته مبتعداً نحو الغرب باتجاه مستوطنات ماوراء الغابات شاعراً بأنه كقطعة الخشب الطافية التى يدفعها القدر وتيارات الحياة التى تمر بها العائلة، وقليلًا ما كان يعرف أن هذا

الاتصال سيجعله حر الحركة، ويمنحه إحساساً بوجود هدف أمامه.
كان والده- توماس لنكولن- قد وضع يده على أرض شمال ضفة
نهر سانجامون تبعد أميالاً قليلة غرب ديكاتور، وطلب من أبراهام
أن يقود عربة القافلة (حيث كان الناس ينادونه "إيب" لكنه كان
يفضل اسم أبراهام في حين كان لقبه لنكهورن وباللهجة الشائعة
لينكينز). كانت القافلة تتكون من أبراهام ووالده توماس وزوجة أبيه
سارة بوش جونستون لينكولن وأسرتي ابنتي سارة من زواج سابق
وزوجين من الثيران، وقد جلست النسوة داخل العربات المغطاة
بالمشع التي ساعد أبراهام في صناعتها، بينما سار الرجال بجوار
الثيران. كانوا يغادرون منطقة بيدجون كريك وهي مستوطنة تقع
جنوب إنديانا يعكس اسمها بداوة حياة الغابات. لم تكن بيدجون
كريك كريمة مع أبراهام، إذ عاش هناك أربعة عشر عاماً بعدما انتقل
من هاردن كوتس من كينتوكي حيث كان قد قضى أول سبع سنوات
من عمره، لأنها كانت "منطقة برية تملئ بالدببة والحيوانات
المتوحشة الأخرى التي مازالت تعيش في الغابات". ويذكر أنها
حتى لم تكن قرية بل كانت مستوطنة يقطن بها حوالي أربعين أسرة
تقريباً يتناثرون في دائرة قطرها خمسة أميال تحيط بمنزل لنكولن،
ومثلت حياته هناك مأساة تعقبها مأساة، حيث ماتت أمه من مرض
ينتقل عن طريق تناول اللبن "وهو البروسيلا" وكان في الثامنة من

عمره، وماتت أخته الوحيدة وقت ميلادها، وكاد هو نفسه أن يموت
جاء ركلة حصان بدا بسببها على وشك الموت، وكل ما تعلمه من
مهارات كانت الزراعة، وبناء الأسوار، وقليلاً من أعمال التجارة
التي كرمها بشدة وقد قرر والده الرحيل إلى "الأرض كثيرة
الخيرات" سانجامون بعد عودة مرض اللين إلى بيدجون كريك. أسعد
ذلك أبراهام لأنه كره المكان لدرجة أنه عندما زاره عام ١٨٤٦ أبدع
قصيدة تعكس أسفه نحو هذه الأرض يقول فيها:

أجوب الحقول بخطى متأملة

وأخطو عبر المسافات الفارغة،

وأشعر "كرفيق للموتى"

أنى أعيش داخل المقابر.

أما عن الأمر الوحيد الذي عده جيداً وحدث له في منطقة
بيدجون كريك، فهو وصول زوجة أبيه سارة بوش جونستون، تلك
الأملة التي جاءت معها أطفالها من زوجها السابق، وقد تزوجها
توماس بعد وفاة أم أبراهام. كان أبراهام حتى ذلك الوقت "قذراً رث
الثياب ممجى السلوك". وسرعان ما لاحظ التغيرات التي طرأت بعد
قدومها إذ جلبت للبيت أسرة بها فراشاً محشواً بالريش ومكتباً من
خشب الجوز بالإضافة لمنضدة وبعض المقاعد وعجلة للغزل، وبعض
الفضيات، وكلها من وسائل الرفاهية بالنسبة إلى أبراهام. كما قامت

بتنظيف البيت ثم أمرت توماس ببناء حائط لاستكمال الحجرة الصغيرة ذات الحوائط الثلاث، وقد أحبت أبراهام وأطعمته جيداً وعاملته بصورة لا تختلف عن معاملتها لأبنائها. لذا، كانت "أفضل أصدقائه في الدنيا" وفقاً لوصف أحد أقاربه الذي أضاف بقوله: "لم يحب إنسان أمه أكثر مما أحب هو تلك المرأة".

في حين كانت أم أبراهام الحقيقية - واسمها نانسي هانكس لنكولن - مصدراً دائماً للحرص إذ أخبر أصدقاءه بذلك مؤخراً: "كانت أمي ابنة غير شرعية لتبيل دُعي من فرجينيا." حتى فيما بين أبناء الطبقة البيضاء البائسة الفقيرة، كان ابن "المولودة من زنا" مصدراً للعار، ويمكننا أن ندرك رغبة أبراهام في إبقاء هذه المعلومة سراً، وكان له عزاء وحيد فيما يشاع عن أصله فيقول: "أبناء الزنا أكثر ذكاءً وتمرداً وفكراً - بصفة عامة - عن بقية البيض الفقراء." لذا، فهو يعتبر أمه أكثر ذكاءً من أبيه، لأنها ورثت صفات ذلك الرجل التبيل "وبالتالي فقد ورثتها أنا." لقد أوقد اعتقاده في نيل أصله طموحاته وأخذ يسخر من فكرة قناعة الفقراء البيض بنصيبهم، وفي لاحق أيامه حاول نسيان أيام فقره الأولى حين قال لأحد مدوني سيرته الذاتية: "من الحق محاولة استخراج شيء له قيمة من حياتي المبكرة ... ويمكن تلخيصها في جملة واحدة

(تقتبسها من كتاب توماس جراي (رثاء) "إنها الحوليات البسيطة القصيرة للفقراء" وكان فقره، مثل أمه، مصدراً للحرج.

لم يتفق أبراهام مع والده إذ عده جاهلاً ومسلوب القوى، وهكذا كان حكم جيرانه حيث دعاه أحدهم بقوله: "إن توماس لينكون نموذج مثالي لنفاية بيضاء بائسة... كسولة ولا قيمة له" في حين تذكره آخرون على أنه كادح يرتاد الكنائس وقد تم تعميده جيداً، إلا أنه رجل أعمال فاشل. "كان عجيباً بلا طحن، عمل كثيراً لكنه لم يعمل شيئاً له قيمة." قضى توماس الذي كان نجاراً بحكم حرقه أغلب أوقاته يقوم بالزراعة. أما من ناحية السلوك فكان صعلوكاً أو "هلفوتاً" حسب نص ما كتب. كان - بالكاد - يستطيع القراءة والكتابة، وكان يعتبر ابنه أبراهام كسولاً لأنه كان يكره العمل الجسماني، وأحب القراءة ودائماً ما كان "يخدع نفسه بالتعلم" ظاناً أنه سيحقق تقدماً ما بواسطة. هنا كان يضرب أبراهام لقيامه بالتصرف كأنه ذكي ومتفوق. ذات مرة، أوقعه ضرباً من فوق أحد الأسوار بسبب فضوله، ولم يرد أبراهام الضرب أبداً. لذا كان توماس يفضل ابن زوجته - الذي كان يستمتع بالعمل اليدوي - أكثر من حبه لابنه الذي كان من صلبه.

⁴ توماس جراي - شاعر انجليزي شهير ولد في لندن عام ١٧١٦ ومات ١٧٧١ ومن أعماله انشودة لايتون كوليدج، وقصيدة "رثاء" .. المترجم

كانت أكبر مخاوف أبراهام أن يشبَ مشايهاً لأبيه . إذ كان يحترق
افتقار أبيه توماس للتعليم مدرّكاً في نفس الوقت أنه هو نفسه قد
تلقّى أقل من عام من التعليم الرسمي . لقد كره استقرار والده في
مناطق "لا يوجد فيها ما يثير الطموح من أجل التعليم مطلقاً . " وبنص
قوله . ورغم ذلك ، ها هو يفتقى خطى والده لمكان آخر من تلك
الأمّاكن .

ولو شاء لاتطلق بعيداً على مسئوليته . فمئذ شهر مضى
وتحديداً يوم ١٢ فبراير - بلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً ، مما يعنى
أنه "وصل لمرحلة الرشد" . فالآن أصبح مواطناً حراً ولأول مرة في
حياته لن يتمكن من التصويت في الاقتراعات العامة فقط ، بل سيكون
من حقه الاحتفاظ بدخله من عمله وألا يعطيه لوالده كذلك ،
وسيكون له الحق في الذهاب لأي مكان دون حاجة إلى تصريح من
والده . لكن مرة أخرى ، قام توماس بتأجير ابنه أبراهام ، تماماً مثلما
قام توماس أولد بتأجير فردريك . كان على أبراهام أن يؤدي أعمال
الحرث في الحقول وشق الطرق ، وحصاد القمح ومع نهاية الأسبوع
يقوم بتسليم كل "مليم" كسبه لأبيه . والأسوء أن والده أخرجه من
المدرسة لتأجيره تخفيفاً لأعبائه المالية ، ويتذكر أبراهام ذلك فيقول :
"لقد اعتدت أن أكون كالعبد . . لكنني الآن حرّ . " وإلى أن بلغ أبراهام
الحادية والعشرين من العمر ، لم يكن يشعر بأنه يختلف عن الأولاد

السود حيث أن "كلنا نكون عبيداً في وقت أو في آخر". لكن إذا كان إبراهيم قد أضحى الآن حراً، فلماذا يظل يتبع والده، ويعمل من أجله بلا مقابل؟

ربما فكر في ذلك السؤال وهو يخطو أول ميل في مسافة المائة ميل - أو أكثر - في ذلك اليوم من شهر مارس عام ١٨٣٠، حاثاً الثيران على عبور الأنهار والطرق التي أوحلها المطر، وهو يسمع السكان يخبرونه هو وذويه عن مدى صلابة تربة إلينوى لدرجة أنها تكسر سلاح أي محراث. لكنه رأى بعض أشياء قليلة في الطريق ملته بالأمل مثل آلة للطباعة (ولم يكن قد رأى واحدة من قبل)، و"مهرجاً" يؤدي بعض الحيل الخداعية بيديه، وتلك علامات تشير إلى أن الحياة هنا يمكن أن تكون مختلفة عن حياة الزراعة.

عندما كان إبراهيم لا يغرق في تأملاته، كان يلقى بعض النكات والقصص، فهذه من تقاليد العائلة، وكان إبراهيم لنكون يميل كثيراً لسرد النكات الخفيفة، فيقول في واحدة منها أن زوجة وزوجها شعرا أن يوم القيامة حان وقته وافقاً معاً على الاعتراف بخطاياهما، فقالت المرأة:

- حسناً، إن صغيرنا سامى ليس ولدك يا عزيزى.

فقال الزوج:

- من يكون إذن؟

فأجابت :

- للإسكافي الأعور . حين جاء لرؤيتي ذات مرة ولم تكن أنت

بالبيت، وفي لحظة ضعف استسلمت له . فقال الزوج :

- حسناً ، هل باقي الأولاد لي ؟

فأجابته :

- لا ، فهم للجيران .

عندما وصلت العربات أخيراً إلى سانجامون ، لم تبدُ تلك الأرض
"أرضاً تملأ بالخيرات" ، قطعة الأرض التي تخصهم كانت قائمة
على جرف عال يطل على النهر وتكاثف به الأشجار . كانت قرية
ديكاتور مكونة من حفنة من الأكواخ الخشبية ، ولم تبدُ أكثر اختلافاً
عن بلدات الغابات الآخري التي سكناها من قبل ، بل بدت أشبه
بمكان "تملاء صفوة المجتمع التي تفخر بقدرة رجالها على جلد إنسان
ما" كما قال أحد الجيران يوماً . وقد قام نفس الجار بتلخيص عادات
الذكور الإجتماعية في مناطق الغابات هذه بقوله : "أوامر اليوم :
اضرب ، وانهض ، واشرب واتخذ أصدقاء ، وسوف تمضي الأمور
جيداً !"

لقد كبر أبراهام وسط عالم يعد القتال والإغراق في الشراب
وسيلتين لقضاء أوقات الفراغ وكان ذلك هو المصدر الأول لمعنى
الرجولة والقدرة على المخالطة الاجتماعية ، ففى مواجهات العراك

التي يدعونها "كن خشناً واطرحه أرضاً!" لم يكن الخروج من تلك
 المشاجرات بكسور في إصبع أو أنف أو جرح في شفة أو اقتلاع
 خصيتين أو انتزاع عين من مجرهما والاحتفاظ بها كذكرى للمنتصر،
 أمراً نادر الحدوث. بالطبع، لم تكن كل المشاجرات من نوع عراك
 الخشونة والطرح أرضاً "المطلقة بلا حدود"، وإنما كانت معظمها
 جولات من المصارعة أو الملاكمة التي تحكمها نظم وقواعد. لكن
 حتى في المنافسة المنظمة "لواشبتكت مع خصم غير مكافئ"، فقد
 تخسر عيناً أو أذناً في شجار يعتبره كل واحد غير عادل. "لم تكن
 تلك المواجهات مجرد شكل من أشكال التسالي الشعبية للذكور
 فقط، بل كانت السبيل للوصول للمكانة الاجتماعية وحفظ الشرف
 وتقدير الذات، وفي حين كان الأثرياء يقومون بمعاركهم وكان رجال
 الغابة يقومون بمشاجراتهم. ولحفظ ماء الوجه، كان عليك أن تقبل
 فقد جزءاً من ماء وجهك.

كانت أسرة لنكون عائلة مقاتلة، فناسي هانكس - أم أبراهام -
 كانت قادرة "على أن تطرح أرضاً الرجال الذين حاولوا وضع قوتها
 موضع اختبار." ونظراً لطولها الذي يصل إلى خمسة أقدام وعشر
 بوصات ووزنها الذي يصل إلى ١٤٠ رطلاً، كانت تفوق معظم الرجال
 الذين يصل طولهم عموماً إلى خمسة أقدام وسبع بوصات. كان والد
 أبراهام أيضاً مقاتلاً أسطورياً إذ كان بطول نانسي تقسها مع جسم

عضلى يصل إلى ١٩٠ رطلاً، "ولم يكن هناك مجال للشك في وجود أى درجة من الجبن عنده". وفي إحدى مشاجرات "الخشونة والطرح أرضاً"، اقتلع أنف خصمه، وفي أخرى قام بجلد خصمه دون أن يناله خدشٌ واحد، وبعد لحظات "صارا صديقين مخلصين". خلال فترة ما دعاه أصدقاؤه بطلاً، وفي المقابل انتشرت شائعات أن توماس كان قد سبق إخصاؤه ربما بسبب القتال، أو بسبب تحوله عقيماً وسواءً كانت تلك الشائعات حقيقية أم لا فهى تؤكد نقطة قوته، لكن ما يُعدُّ أكثر أهمية هو أن ثقافة العنف التى يتعرض فيها المرء لفقدان خصيته في مشاجرة ما، تؤدى حتماً إلى تذكي اوار تلك الأفاصيص المشكوك في صحتها.

عندما لا يكون الرجال منشغلين بتحطيم أنفسهم كانوا غالباً ما يقتلون أنفسهم غرقاً في الخمر، وفي بيدجون كريك وسانجامون كان الخمر المقطر محلياً يفيض أكثر من الماء. في الواقع، كانت أمريكا - فترة نشأة أبراهام - جمهورية "الخمر" إذ كان متوسط ما يعبه الرجل منها حوالي ثمان جرعات من الويسكى أو أية خمر أخرى في اليوم وعادة خلال ساعات قليلة، وكان أكثر من ربع السكان من الذكور البالغين يجرعون اثنتى عشرة جرعة أو أكثر. كان التنافس في ذلك جزءاً من منزلتهم في المجتمع. كان الهدف أن تشرب أكثر وتبقى متيقظاً واعياً أكثر من منافسك.

ورغم أن تجمع الويسكى والاشتباك في أي شجار قد يبدو أن لنا مسألة همجية اليوم، إلا أنهما كانا من طرق التعبير عن اللامبالاة أو إخفاء الشعور بالخوف من المخاطر التي تكمن وراء الغابات، ففي أية لحظة تمر يمكن أن يطرحك أرضاً وحش بري، أو أحد الهنود أو إعياء المرض، وكان وجود الأطباء أو المسعفين متخصصين نادراً لعلاج تلك الآلام. كانت تلك التسالي أيضاً تجليات للديمقراطية، تعكس الفرص المتكافئة وروح الحرية. لكنها في الغالب كانت سبباً للجهلاء والوضعاء كيما يصبحوا قادة وسط مجتمعاتهم.

كان أبراهام تابعاً لتلك الثقافة ونابعاً منها، لكنه حين تقدم في العمر بدأ يرفضها بالتدريج، ففي بيدجون كريك نال حظه من المشاجرات وكؤوس الخمر، بل إنه خلع كنف أحدهم في مشاجرة منها. لكنه مع وصوله لولاية إلينوى هجر الشراب والشجار وأكفى بالاشتراك في مباريات المصارعة المنظمة فقط التي كانت أقل دموية لكنها ما تزال عنيفة. كانت مباريات المصارعة وجولات الشجار وسهرات الشراب تبدو له من سمات الطفيلان لا الديمقراطية. ورغم أنه نادراً ما ارتاد الكنيسة، فقد توصل إلى اعتقاد أن العناية الإلهية المهيمنة تطلب منا الرصانة والسلام. بالإضافة إلى أنه قد عاين الكثير جداً من آثار هذه التسالي، وجوه تشوهت وامتلأت بالندوب، ورجال ضاعوا أو ماتوا في الخامسة والثلاثين. يذكر ليلة

شئونة مَرَّ فيها على رجلٍ ثملٍ راقداً على أرضٍ غطاها الصقيع، ولما أدرك مدى تعرض حياته للخطر حمله إبراهيم إلى منزله وأوقد ناراً يحواره كيما يتمكن من النوم متخلصاً من آثار الويسكي. وفيما بعد، أفاد ذلك الرجل أن لنكون قد أُنقذَ حياته.

كما أن إبراهيم لم يحتاج إلى الدخول في شجار لإثبات تفوقه الجسماني، فمعظم الرجال يتحدون نظراءهم من نفس الحجم، والقليل هم الذين كانوا يطاولون إبراهيم حجماً، لأنه عند وصوله لمنسف عمر المراهقة كان طوله يتخطى الستة أقدام. أما الآن وطوله ستة أقدام وأربع بوصات ووزنه يفوق مائتي رطل، فهو يمشي مرتفعاً عن الناس. كان معروفاً بقدرته على رفع ألف رطل من الحجارة المعبأة داخل صندوق وكان يمكنه أن يطرح ويقذف ويسبق كل المتفوقين، وهذه المظاهر البيئنة للقوة كانت تجعل الرجل من هؤلاء يفكر مرتين قبل تحديه في القتال، وعندما يفعلون يقوم بإيضاح قوته قبل البداية. ذات مرة، قام رجل نحيف قصير بدعوته للقتال فوافق إبراهيم طالباً من الرجل أن "يقارن أولاً حجمه" يجسم لنكون وأن يحسب أية ضربة يوجهها خارج علامة يحددها بنفسه على أنها خطأ منه، وقد آتت كلماته آثارها إذ أدرك الرجل فجأة أنه ليست لديه فرصة أمام مثل ذلك العملاق فانسحب بحكمة وتعقل. فبمجرد رؤيتك لإبراهيم، تدرك أنك قد تخسر أمامه.

قضى العملاق الصغير الربيع والصيف - الأخيرين - في مساعدة والده وابن عمه في إخلاء عشرة أفدنة من الأشجار وبني معهما كوخاً خشبياً وسوراً، وزرع فيها قمحاً. كانت ذراعاه وأكافه قوية - جراء عمله بقضبان السكة الحديد - لدرجة تمكنه من رفع فأس ثقيل على مستوى أفقى بيد واحدة ممسكاً بها بثبات دون أن يرتعش. لكنه كان لا يزال يكره العمل وبدأ يتطلع إلى فرصة ترفعه باعتماده على نفسه. لذا، كان سيقبل بأي شيء طالما كان بعيداً عن الفلاحة والتجارة، وهما مهنة والده.

على ضفة النهر وجد أبراهام الحرية. ففي شتاء ١٨٣٠-١٨٣١ احتاج رجل أعمال - ممن يتكلمون بسرعة - اسمه ديتون أوفوت، من معاونه في الحصول على قارب يملأه بالمؤن للذهاب إلى نيو أورليانز عبر نهر المسيسيبي. وقد عرض أوفوت - وهو رجل سيكر مشهور وقاس - مبلغ عشرة دولارات شهرياً لبناء القارب وإنجاز الرحلة. بدت الصفقة مريحة، ووقع أبراهام عقد العمل، وكذلك فعل ابن عمه وأخوه غير الشقيق.

قد يكون السفر عبر النهر خطراً، حيث قام أبراهام بذلك مرة من قبل في سن التاسعة عشر، عندما قبل والده تأجيده كعامل على قارب مسطح متجه إلى نيو أورليانز مقابل ثمانية دولارات في الشهر، وذات ليلة وهم يرسون عند شاطئ "السُكر" بالقرب من باتون

روح، هاجم بعضُ العبيد قاربهم محاولين سرقة حمولته وقتل بحارته،
فالتقط أبراهام هراوة ضخمة وبدأ يضربهم بها ليدفعهم بعيداً
وسرعان ما نجح في قطع جبل الهلب وواصلوا إبحارهم. وأنشاء
الموجة، أصيب بضربة عصا في رأسه تركت ندبة فوق عينه اليمنى
وأثراً دائماً.

لقد أحب كثيراً الإبحار عبر النهر، إذ كان ذلك العمل يمنحه
وقتها يفرغ فيه للقراءة أو رواية الأخبار أو تأمل النجوم أو حتى
الإنصات إلى تقيق الضفادع الصاخبة على الشاطئ. وبعد عودته
من رحلته الأولى عبر نهر المسيسيبي، وتسليم مكسبه لوالده، طلب
من أحد أصدقائه معاوته في الحصول على عمل بأحد القوارب
البخارية، موضحاً: "أريد بداية." لكن صديقه رفض شارحاً: "إن
ألف باء العمل، هي أن الصبي الذي لم يتعدَ الواحدة والعشرين
ويعمل بدون تصريح من والده. . . يصبح عمله غير قانوني." وانتهت
الرحلة الثانية عبر المسيسيبي بسرعة بعدما بدأت إذ حينما كانوا
عند نهر سانجامون بقاربهم المسطح الممتلئ ببرايميل القمح
والدقيق، "شَحَطَ" قاربهم عند مدينة نيو سالم عند سد مائي في نيو
سالم يستخدم لتدوير الطواحين حيث كان عمق الماء ضحلاً،
فاستقر القارب على سطح السد مثل جذع شجرة اعترضه عائق
وسط شلال منهمر. ارتفعت مقدمة القارب وأخذ الماء يتدفق

لمؤخرته ببطء . ولو لم يسارع هو لإخلاء القارب لفرق وتخطمت حمولته . أقنع أبراهام أوفوت بنقل الحمولة من القارب إلى قارب آخر لتخفيف وزن قاربهم المسطح . ثم حفر ثقباً في مقدمته لتصرف المياه بعدها استطاعوا تثبيت القارب فوق سطح السد . أقبل سكان نيو سالم لمشاهدة هذه الحفة من ناحية الشاطئ ، واستولت الدهشة على بعضهم لمهارة ذلك العملاق الغريب الذي يرتدي بنطالاً من الجينز مطوياً حتى ركبته ، وقميصاً مخططاً من القطن (يدعونه "شجرة الجوز") مع قبعة من القش .

ماكادت تلك الكارثة تمضي ، حتى قرر أوفوت شراء حوالي ثلاثين خنزيراً لبيعها خلال الرحلة . لم تكن المشكلة هي كيف العيش على ظهر قارب مسطح مع ثلاثين خنزيراً حياً وإنما كانت كيف تدخل تلك الخنازير إلى سطح القارب بداية . لم تجد أية محاولة في حل هذه المشكلة ، وأخيراً خرج عليهم أوفوت بفكرة مجنونة ، هي خياطة جفون الخنازير لفلق أعينها آملين أن تصرف الخنازير كالحياد حين تغنى أعينها . قام أبراهام بامساك رؤسها جيداً في حين تولى أوفوت وضع الأبرة والخيط خلال جفونها . هنا ثارت الفوضى فصرخت الخنازير - مرتعبة - وهي عمياء تماماً ، ورفضت التحرك لأي مكان . وتمكن الرجال في النهاية من إدخالها القارب بعد ربط أرجلها وحملها عنوة في عربات يد صغيرة .

ويعجرو أن ساروا في المسيسيبي مروا بالعديد من القوارب
والبواخر والسفن . إذ كان النهر شرياناً رئيساً للتجارة الأمريكية،
وسوقاً شاسعة دائمة التحول تجرى فيها كل أشكال التجارة والنقل:
من الكتب المقدسة إلى طلقات الرصاص ومن النساء إلى الخمر،
وقد "أتاح ذلك أعمالاً كثيرة لجمع الرجال الجادين الأقوياء "من كانوا
مشهورين بالسُّكر ومعتادي الشجار، ويذكرهم مارك توين بأنهم
"كبار المتباهين". كان أولئك البحارة معروفين بحكاياتهم الطويلة،
ومن أكثرهم شهرة- على سبيل المثال- مايك فنك، وهو من
معاصري أبراهام وربما كان أكثرهم شهرة، وكان بطلاً في ارتزاع أعين
خصومه وصيادا جريئاً . عاش يجوار النهر- أو عليه- وقد سما
بمهارة الحكيم الطويل إلى شكل فنى جديد، وتباهى بذلك قائلاً: "أنا
حكاة منظم قادم من نهر المسيسيبي العجوز... أنا هذا الطفل
الذي رفض الرضاعة قبل أن تتفتح عيناه وطلب زجاجة من خمر
الرأي المعق! يمكنني أن أتفوق في القفز، والعدو، وإطلاق الرصاص،
والحكي، والشرب، والمقاتلة، وطرح الخصم أرضاً، والشجار بلا
قيود، على أي رجل يسكن على ضفتي المسيسيبي." كان أبراهام
يعرف أخبار فنك ويعلم مستوى اللغة المستخدمة في ولايتي كينتاكي
ولانديانا وأنه لا يوجد مثل طلاقها، كما كان يعرف أن بحارة النهر
كانوا أكثر وضاعة وغدراً من أوغاد الشاطيء. لذا، حافظ ومعه

باقى بجارته على بقائهم دوماً على مبعدة من القوارب الأخرى، فأى حديث طويل ينشأ يمكن أن يتحول إلى جولة دامية.

وبدت نيو أورليانز، كبلد أجنبي يسكنها خمسون ألف نسمة تشمل ثلاثين ألفاً من الأمريكين الأفارقة، وعدّها أبراهام مدينة سوداء ففى كل من مقاطعة هارين وكنتاكي لم يكن يوجد سوى نحو ألف فقط من العبيد (يمثلون ١٠% من السكان) وكانت بيدجون كريك وإنديانا كلها مجتمعات بيضاء. حقيقة أن كلا من إنديانا وإيلينوى قد قيدتا هجرة السود، إلا أن المستوطنين كانوا غالباً من البيض الفقراء الذين كرهوا السود تماماً.

في الواقع، كانت نيو أورليانز أكبر مخزن للعبيد في شمال أمريكا وكانت تمتلئ بالعشرات من أسواق النخاسة حيث كان الناس يُباعون ويُشترَوْنَ مثل الخيول. كان من المستحيل تقريباً أن تتواجد في تلك المدينة ولا تمر بمشاهد العبودية وأصواتها: لسع السياط والصراخ، وقعقة السلاسل عبر الأرصفة، ونظرة نهمة من رجل أبيض لامرأة سمراء البشرة. وقد كتب أبراهام عن رؤيته للسود المكبلين في الأغلال وسوء معاملتهم وأن "قلبه نزف دماً" من أجلهم. لم يكن كل هذا العنف هو ما أزعجه، لأنه رأى كثيراً من حوادث المراكب القذرة. لكن في تلك الإشتباكات التي كان البيض يمارسونها كان الرجال يقومون بتشويه بعضهم البعض بإرادتهم وورغبتهم، وسعيًا

للدفاع عن كرامتهم بصورة جزئية. أما العبيد فلا كرامة لهم في عقول السادة، فهم في ثقافة العنف هذه مشاركون بلا إرادة. الأكثر من ذلك، ولكونه حديث التحرر - بوصوله لسن الاستقلال عن والده - كان حساساً بصورة خاصة نحو مشاهد العبودية فيقول: "إن الصور المفزعة لا تزال راسخة بذهني حتى الآن." وما أدى لصدمته عندئذ ما أدركه بأن مأساة الآخرين تبدو في الذين يقون غير أحرار للأبد.

وعند نهاية الرحلة، وصل دينتون أوفوت إلى درجة من الإعجاب بلنكونلن لدرجة أنه عرض عليه وظيفة كاتب المتجر العمومي الذي كان يجري افتتاحه في نيو سالم، فقبل لنكونلن العرض فوراً، فالوظيفة ستسمح له بأن يهجر حرفة الفلاحة وقطع الأخشاب وتتيح له فرصاً أكثر في نيو سالم لأنها كمدينة كانت أكبر من أي مجتمع آخر عاش فيه من قبل. كانت تحوي حوالي مائة إنسان، "ودسة" من المنازل والمخازن. كانت تماثل في ضخامتها مدينة شيكاغو عام ١٨٣١، وعملت كسوق مركزي للفلاحين الذين يأتونها لبيع حبوبهم وشراء الخمر والمواد التموينية الأخرى، وكانت بها كنيسة ومدرسة وطبيبان. كلهم على مسافات متقاربة، فهي موئل راحة بالنسبة لأبراهام، وبدا أن سكان نيو سالم أكثر تهذيباً من أولئك في بيدجون كريك، كما كان هناك الكثير من الكتب في كل مكان مع قليل من السكرى

والمشاجرات لأنها مازالت تعد مدينة عمرت حديثاً وسرعان ما وجد أبراهام نفسه في خضم عراك آخر.

انتشر الخبر بسرعة عن وصول الفتى الجديد للبلدة. كان جزء من ذلك يرجع إلى ثروة أوفوت ومباهاته بحجم وقوة هذا الموظف. وعندما تنهى الخبر إلى جاك أرمسترونج أراد أن يختبره ويهزمه دفاعاً عن مركزه أمام تفاخر أوفوت، إذ كان أرمسترونج قائداً لعصابة محلية في مستوطنة قريبة اسمها كلاري جروف. كان قوياً كالثور متيناً منتظماً يبحث دوماً عن العراك والقتال. كان - ومعه عصابته - يجتذبون الغرباء للعب "الكوتشينة" ثم يضربونهم ويسلبونهم الأموال، بل هو كان أكثر وضاعة من ذلك إذ اشتهر بقيامه بشئ خنزير وهو حى مستمتعاً - بشكل ظاهر - بصرخات آلامه قبل أن يأكله.

كانت تلك التصرفات الوحشية تجاه الحيوانات أمراً سائداً، ومهما حلقات صراع الديكة ونزع رقبة الأوز: "أى فصل رقبة الأوز وهو حى بجبطة واحدة"، وتحطيم سلحفاة على جذع شجرة أو قذفها في النار ومشاهدتها تتلوى. كل تلك المشاهدات كانت جزءاً من طبيعة المكان. كان لنكولين قد اعترض كثيراً على تلك التصرفات في منطقة بيدجون كريك بقوله: "إن حياة النملة بالنسبة إلى النملة تعادل حلاوة حياتنا بالنسبة إلينا." وبالعكس أرمسترونج، كان قادراً

على التعاطف مع المخلوقات حتى لو كانت مختلفة تماماً عنه .
كان لينكولن متردداً في خوض القتال . لكن أوفوت حرضه على ذلك لأنه كان يرغب في كسب بعض النقود من تلك الجولة، فوافق لينكولن لكن بشروطه الخاصة فقط وهي قيام مباراة مصارعة يمسك فيها المرء خصمه شالاً حركه ليمنعه من تحول المصارعة إلى ملاكمة مع منع العض ، لكيلا نصل إلى الأسوأ مثل انتزاع مقلة العين أو الإخصاء ، والهدف هو طرح الخصم أرضاً حتى تلامس كفه واحد وركبه الأرض، في حين أراد أرمسترونج مباراة تمثلياً بالتدافع والتشابك وتكون أكثر وحشية . لكن لنكولن تمسك بشروطه .

جاء الناس من كل حدب وصوب لمشاهدة المباراة ، وتراهنوا بالخمر والمُدَى ، وراهن أوفوت على كاتبة بعشرة دولارات . كان ميدان المصارعة أمام مخزنه (وهذا يساعد على إنعاش مبيعاته لاشك) . التفت الجماهير حول المتصارعين ، مُشككين حلقة ، وما حدث بقي - بالفعل - غامضاً ، بسبب ضباب الذاكرة وحقيقة أن جمهرة من الناس كانت تتكالب على المشاهدة ، جعلت قليلين منهم فقط يتمكنون من الرؤية الواضحة . لكن في لحظة ما كسر أرمسترونج القاعدة وأعلن لينكولن أن ذلك يُعد خطأ ، وربما يكون أرمسترونج قد قذف لينكولن بعيداً ، وربما يكون لينكولن أمسك بأرمسترونج قابضاً على زوره ، وربما حاول رفاق أرمسترونج التكل

ومهاجمة لنكولن الذي ظل ثابتاً وتحداهم أن يواجههم واحداً واحداً
ورفض قتالهم دفعة واحدة. بكل المعايير، كاد أرمسترونج أن يقر
بخطئه. ثم اتفق الطرفان على إعلان نتيجة المباراة بالتعادل، ولم
يُصَبَّ أيُّ منهما بجراح خطيرة، ولم يخسر أحد أمواله في تلك
المنافسة.

كانت تلك الواقعة "نقطة تحول" في حياة الصبي لنكولن، وذلك
تبعاً لما ذكره شريك لنكولن في الحاماة مستقبلاً، وواقعه لنكولن على
ذلك ضمناً. بعد عدة سنوات، أطلق كاتب سيرته الذاتية على
ذلك القتال "أنه واحد من أهم أحداث حياته المبكرة" وقد قرأ
لينكولن النسخة الخطية مصححاً أخطاء بعض الوقائع وبعض
التفسيرات على هامشها وترك هذه الخلاصة لواقعة العراك تلك دون
مساس بشأن أهميتها. بالطبع، كانت تلك إطلالة على الماضي
خلال حملته للحصول على منصب الرئيس، وحتى في ذلك الحين كان
لنكولن يتنى أن يؤدي هذا العراك إلى تحسين موقفه أمام المجتمع.
على أية حال، كان عندما وصل إلى هناك تقريباً غريباً تماماً؛ فهو
"دخيل، بلا أصدقاء، وغير متعلم، وصبي، ومفلس" وذلك وفقاً لما
ذكره بنفسه.

نصبت تلك المعركة لينكولن قائداً في نيو سالم، واكتسب
احترام جاك أرمسترونج وقتية كلاري جروف اذين كانت لهم

سيطرة ونفوذ ولهم شأنهم ، وأعجبوا بقوته وشجاعته وجرأته . بعد أقل من عام - أي في ربيع عام ١٨٣٢ - ساعد قتيان كلاري جروف في انتخاب لينكولن كقائد لجماعة متطوعي نيو سالم في فترة حرب الصقر الأسود (البلاك هوك) ، ورغم أن جماعة لنكولن لم تختص أية معارك قتالية- إذ استمرت تلك الحرب ثلاثة أشهر فقط- فقد قام لنكولن بمحاربة البيض بديلاً عن الهنود حيث قام بمصارعة الرجال من الجماعات الأخرى وفاز بكل الجولات عدا جولة واحدة، واتخذة رجاله مثلاً للقائد والمقاتل، وقد كرر لنكولن قوله إن انتخابه كقائد "كان نجاحاً منحنى السعادة أكثر من أي شيء آخر حصلت عليه." كانت تلك مقولة غير عادية لأنه حين قالها كان شخصاً مشهوراً على المستوى القومي، وخدم دورة كاملة بالفعل في مجلس نواب الولايات المتحدة الأمريكية "الكونجرس" وهزم ستيفن دوغلاس. لكنه فضل أن يحترمه أنداه على أن يحترمه غيرهم، فالمقاتلة والقيادة جعلاه زعيماً يؤمن كرامته داخل المجتمع، مدعماً ثقته وموقداً طموحه، وأثبت الفتي الجديد في المدينة مكانته.

وفور انتهاء موضوع العراك: واستجابة لتشجيع رجال مدينته، رشح لنكولن نفسه للمجلس التشريعي للولاية ولم تكن لديه خبرة سابقة. لكن تلك كانت سياسة تلك البلدات المتخلفة حيث

تضيف أنباء الشجار والسكر نسيجاً حياً لمجالات النقاش، وشرح نفسه برنامج ينص على تحسين الملاحة على نهر سنجا مون أملاً في زيادة نمو مدينة نيو سالم وفرص تجارتها. وكان يقول أنه مؤهل بصورة فريدة لمناقشة ما يتعلق بالنهر لأنه يعرفه جيداً، ومر بكارثة كبيرة على سطحه في وقتٍ ما ويمكنه مخاطبة السلطات بشأن سبل تطويره.

كما أكد لتكون على أهمية التعليم كوسيلة للتطهر من رزايا تلك البلدات المتخلفة عند أطراف الغابات رغم أنه لم يكن يملك خطة محددة لتحقيق ذلك حيث قال في نشرة دعائية انتخابية - طبعها وكتبها مجهول من أجله: "إنني أود رؤية التعليم -ومعه بحكم الارتباط الأخلاق والوعي - والاستثمار والصناعة وقد أصبح أكثر انتشاراً مما هو عليه الآن! . إن ذلك أكثر الموضوعات أهمية يجب علينا أن نعمل عليه كبشر . (لإذ كان طموحه أن يكون) محترماً أمام رفاقه ."

لقد جلبت له معركة مع أرمسترونج بعضاً من التقدير وأضحى يأمل حينذاك في أن يضيف إلى ذلك نوعاً جديداً من الانتصار . لكنه خسر تلك الجولة رغم حصوله على أغلبية كبيرة من الأصوات في دائرة نيو سالم الانتخابية . ومن الواضح أن صداقة لتكون وأرمسترونج تطورت سريعاً، حيث أسفرت مهاراته وقدراته القتالية وميل أرمسترونج للإقرار بخطئه نحو صديقه عن الإحترام والتقدير

المتبادل، ولو استجاب لنكونن لتحدي أرمسترونج في البداية
بملاكته وتشويه وجهه، وهو ما كان محتملاً حدوثه، لوقع في مخاطرة
إهانة أرمسترونج ولاكسبه عدواً أبدياً له، وكما هو متوقع استضافه
أرمسترونج في بيته ومنحه "طعاماً وكساء" بعد العراك وأدى الخدمة
كضابط صف في جماعة لنكونن أثناء حرب الصقر الأسود.

تواصلت صداقتهما لعدة عقود، وأرمسترونج يقدم الدعم
والتأييد لمسيرة لنكونن السياسية في حين قام الأخير بتوفير
مساعدات حاسمة لأسرة أرمسترونج. ففي عام ١٨٥٧ حينما اتهم
"دوف" ابن أرمسترونج بجرعة قتل، هب لنكونن لإيقاظه. فقد خرج
دوف - فظاً كوالده - ذات ليلة يلهو مع صديقين له، فنشبت بينهم
مشاجرة، وهنا قام دوف وصديقه بتهشيم رأس صديقهما الثالث،
ومات الأخير بعد أيام قليلة من الواقعة. كان عدد من الناس قد
شاهدوا عملية القتل، وتمت إدانة ما فعله شريك دوف (الذي قدم
للمحاكمة أولاً بتهمة القتل العمد وحكم عليه بالسجن ثماني
سنوات. وباعتبار لنكونن محامياً شهيراً آنذاك بولاية إلينوى، فقد
وافق على الدفاع عن دوف، وتوصل إلى استخلاص ثغرات في
شهادة الشهود مع التأكيد على طيبة وصلاح أسرة أرمسترونج حيث
كانوا "طيبين معه حينما كان صغيراً وحيداً بلا أصدقاء". هكذا
قال لهيئة المحلفين. من هنا رأوا أن دوف ليس مُذنِباً وأطلق سراحه

رغم الأدلة الوثيقة ضده، بما فيها سلاح الجريمة الذي صنعه بيديه، وكان عبارة عن كرة من الرصاص تقذف بواسطة شريط من الجلد يسمى "مقلع مجبل" وقد علق وكيل النيابة على ذلك بقوله: "إن أرسترونج الصغير لم يبرأ بسبب أي نقص في الشهادة ضده وإنما كانت مرافعة لنكون وقبول هيئة المحلفين هما ما أتهده فعلًا. لم يتقاضَ لنكون أية أتعاب عن ذلك من أسرة أرسترونج، واستطاعة الصداقة والوفاء أن يُبرءا قاتلاً.

علم عراك لنكون ثم الصداقة الناشئة مع جاك أرسترونج درساً مثل مبدأ أساسياً في عمله. نجده يقول عن ذلك بعد عدة سنوات تالية من الواقعة: "إذا أردت أن تكسب امراً ما في جانبك، أقنعه أولاً أنك صديقٌ مخلص ... قم بالتراضي مع عدوك حتى تصلاً لنقطة ما. عندها ثبت قدمك بالأرض وابدأ القتال!" وفي حين كان لنكون على استعداد للتضحية بالمباديء في سبيل الصداقة، كان الصبي فريدريك ببلى يتعلم درساً آخر شديداً الاختلاف من عراكه مع كوفي، يقول: "لا تصادق - عمرك - عدواً ما لم ينتقل إلى جانبك أولاً لأن الصداقة تعتمد دوماً على القضايا والمباديء المشتركة، وسوف يقوم كلاهما - لنكون وفريدريك - بتطبيق تلك المباديء خلال سنوات الاختبار في الحرب الأهلية.

لم يَقم للنكولن أبداً بعقد علاقة وثيقة بوالده. إذ بعد انتقاله إلى نيو سالم لم يراه إلا نادراً رغم أن والده توماس كان يعيش على مقربة من المدينة. ذلك لأنه لم يستطع أن يكسب صداقة والده كما لم يستطع أن يحوله إلى صفة في قضايا التعليم والتهديب، حيث ظل توماس - في ذهنه - سيداً سابقاً وشخصاً حاول وقف تقدمه. من هنا حافظ على المسافة التي بينهما رغم أنه قام بتوفير احتياجاته عندما كبر في السن. حقيقة، لم يحضر جنازة والده، فقد كتب عام ١٨٥١م ووالده يحضر: "لو أمكننا أن نلتقي الآن، يملأني الشك حول ما سيكون عليه اللقاء، سيكون مؤلماً أكثر منه مُبهجاً". كان دائماً ما يربط بين والده وبين ذكريات العمل اليدوي الشاق، والجهل والقيود التي من الأفضل أن تمضي في طي النسيان.

في المجتمعات التي تفرخ قتياناً مثل فريدريك بيلي وأبراهام لنكولن نجد قاموساً من الاستفزات اللفظية وعالماً من الكلمات التي لا تقل عن كلمتي العراك والسُكر. ففي محاولة أدبية له نجد أحد السادة - بعد ما استعاد عبده الذي حاول الهرب مرتين وقبل عقابه - يطلب أن يعرف سبب محاولة العبد الهرب. ورغم أنه يحمل له مشاعر متعاطفة ويعامله بطيبة وإنسانية وينتظر اعتذاراً عن ذلك، لا يقول

العبد سوى "إننى أستسلم لقدرى، فأنا عبدٌ!!" تلك الإجابة
الساخرة تشعل جدلاً حول مدى أخلاقية العبودية.

السيد : فى النظام الإلهى ينبغى أن يكون الإنسان مسخراً
لآخر. كان الأمر كذلك أبداً وسيظل.

العبد: إن اللص الذى يوجه مسدساً نحو صدرك، يلتبس لنفسه
ذات العذر، فالإرادة الإلهية تمنحه القوة للسيطرة على حياتك وعلى
ما تملك، وهى توفر لأعدائى - كذلك - سيطرة على حربي. لكنها
منحتنى أقداماً كي أهرب بها.

السيد: لكن وقر فى نفسى ليس فقط أن أجعل حياتك مريحة
لدرجة محتملة فى الوقت الحاضر، ولكن أيضاً أن أوفر لك أسباب
المعيشة عند كبر السن.

العبد: هل حياة كالتى أحيائها تستحق أن أفكر فيها عند
الشيخوخة؟ لا، فحالما تنتهى، سوف أحصل على الراحة التى
تتطلع إليها روحى.

وفى كل جولة، كان العبد يدافع عن نفسه ببراعة مستعرضاً
عنف ووحشية العبودية، وعند فوزه بالحاجة يفوز بحريته.

لقد اكتشف كل من الصبي أبراهام والصبي فردريك ذلك "الحوار"
فى نفس الوقت - فيما بين عامى ١٨٣٠ و١٨٣١ - وقد تبدى ذلك فى
كتاب "الخطيب الكولومبي" وهو دليل موجه إلى "القاريء الشعبي":

وتعليم المهارة الخطابية معدة للصغار "جمعها مربى ماساتشوستس
الأشهر كالب بنجهام. كان ذلك الكتاب من أكثر الكتب شعبية في
تلك الأمة الجديدة. وقد طبع منه ما بين الأعوام ١٧٩٧ حتى عام
١٨٦٠ حوالي ٢٣ إصداراً وكان يعدّ في كل المنازل الأمريكية واحداً
من الكتب الأساسية بالإضافة للكتاب المقدس، وكتاب للتهجّي،
وآخر للتقويم الزراعي. كان كتاب الخطيب في مادته كتاباً راديكالياً،
لأنه استخدم القصص والخطب والشعر لتعليم الصبية أن كل الناس
قد خلقوا متساوين ولهم حقوق لا يمكن التنازل عنها في الحياة
والحرية والسعادة، وكان - لذلك - يعدّ كتاباً ثورياً راديكالياً. وفي
الواقع فإنه خلال التسعينات من القرن التاسع عشر "١٨٥٠!!!" وفي
ذروة أزمة العبودية، شملته معظم جرائد وصحف الجنوب ضمن
قائمة سوداء للكتب الممنوعة، وحظرت وجوده في المنازل والمدارس
في الجنوب الأمريكى مجزم.

اكتشف فردريك بيلي "الخطيب الكولومبي" ذات يوم وهو صبي
في الثانية عشرة من عمره في حوض باليمور لبناء السفن. كان قد
سمع عنه من أحد الفتيان البيض الذين التقى بهم في الشوارع أثناء
قضائه "مشاويره" من أجل صوفيا وهو أولاد. وكان يعلم بالفعل أن
الكلمات يمكن أن تكون سلاحاً خاصة وأن صوفيا أولاد قد أعطته
دروساً منتظمة للقراءة إلى أن اكتشف زوجها ذلك فأوقفها، حيث

قال إن "المعرفة لا تناسب طفلاً سيكون عبداً. عندها فكر فردريك في نفسه: "حسناً!" لسوف يحصل على المعرفة بنفسه في شوارع باليموركان يسأل الصبية البيض عن دروس التهجي مُقدِّماً لهم قطع البسكويت مقابل الكلمات، وكانوا يمارسون دروس هجائهم وكتاباتهم على سلام الأبواب وبراميل الدقيق، بل أحياناً كان يجعل الفتيان البيض يتعاطفون مع مأساته، عندما كان يقول لهم "إنكم سيصبحون أحراراً عندما يبلغ الواحد منكم عمر الواحد والعشرين ويمكنكم عندئذ الذهاب لأي مكان تشاءون، ولكنني ... عبد". كانوا يوافقونه على أنه يملك نفس الحق في أن يكون حراً مثلما يملكون. كانوا يشجعونه على القراءة، وعرفوه بكتاب "الخطيب الكولومبي" الذي كانوا يدرسونه آنذاك، وذهب فردريك إلى محل لبيع الكتب بشارع توماس يملكه السيد نايت (وكان دائماً ما يذكر المحل) واشترى نسخة بخمسين سنتاً كان قد أكسبها سراً بتلميع القوارب.

كان ذلك الكتاب "كزاً ثميناً" بالفعل كما قال، وقام بقراءته كلما استطاع وأخفاه في علية المطبخ حيثما كان ينام. كان يحفظ عن ظهر قلب الحوار بين "السيد والعبد"، وكانت له بعض الموضوعات الأخرى المفضلة كذلك مثل "خطاب في تحرير أيرلندا" الذي كُتبه دانييل أوكونيل، وخطاب رجل الدولة لويليام بيت وهو يمجّد

الاستقلال الأمريكي في مجلس اللوزدات الإنجليزي. وتوجد فردريك مع الأبطال، فقد تخيل نفسه العبد الذي شق طريقه متحرراً من القيود ليصبح الآن "أوكونيل" الأسود أو "بيت" الذي يقف في مجلس النواب الأمريكي "الكونجرس" لتأكيد الحرية للجميع. لم يؤد الكتاب لتحسين مفرداته اللفظية فقط وإنما مكّنه من أن "يُمح لساناً" لأفكاره تلك التي "كثيراً ما التعت عبر روحي، ثم تلاشت لافتقارها إلى اللفظ". ساعده الكتاب على تخيل عالم جديد خلال الكلمات أثناء قتاله بقبضات يديه وأقدامه، وساعده على التحدث مع "كمسارى القطار" بصوت هادئ مطمئن كما أوصاه بنجهام وهو يهرب نحو الشمال في قطار الحرية.

كان الصبي أبراهام قد قرأ كتاب "الخطيب الكولومبي" خلال شتاء ١٨٣١م، بعد شهر من واقعة عراك جاك أرمسترونج، وكان نهماً للمعرفة مثل فردريك، وكان ذلك الكتاب واحداً من الكتب القليلة التي قرأها خلال فترات تكوينه الأولى بالإضافة لكتاب آخر هو الكتاب المقدس وكتاب أو كتابين آخرين. كان يقرأ بعشق مثل فردريك لساعات طويلة ويذكر كثيراً مما قرأه. لما كان الأمر هكذا، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يرى في نص "حوار بين السيد والعبد" بعضاً من مظاهر علاقته بوالده، وتعلم من بنجهام كيف ينسجم مع نفسه في الحالات الحرجة مثل لحظة مواجهته لأرمسترونج

وتحديده لخطته .

كان كتاب "الخطيب الكولومبي" هاماً بالنسبة لفردريك ولأبراهام بوجه خاص لأنهما علّما نفسيهما ولأن الكتاب كان دليلاً ممتازاً للإعتماد على النفس في تعلم التحدث والجدل . فلم تكن هناك مدارس للعبيد كما أن فردريك مُنِعَ من القراءة بعدما اكتشف هيو أولد مساعدة زوجته لفردريك في تعليم نفسه . كذلك كان على لينكولن أن يتعلم نفسه بنفسه ، لأنه حُرِمَ من الالتحاق بالتعليم الرسمي بسبب نقص المدارس والمعلمين المؤهلين ولأن والده كان دائماً ما يُوَحِّره نظير مقابل مادي ، وعندما وصل لمدينة نيو سالم كان لا يزال غارقاً في جهله . يقول عن هذا : "لم أكن أعرف كثيراً . " كان كل ما يعرفه تعليمياً يكافيء الصف الثامن (الآن) .

لم يمكن ذلك الكتاب كلا من لينكولن وفردريك دوغلاس من أن يتخيلا عوالم جديدة فحسب وإنما علمهما كذلك مخاطبة العامة ، ويعنى ذلك أنهما تعلّما كيف يخفيا حركات الجهلة وطرق كلامهم التي اكتسبها من قبل . فالقادة الديمقراطيون ينتظر منهم أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين وسلوكهم راقياً لكن بدون مبالغة مثل الرجال المهذبين لكن ليس كأرسوقراطيين . لقد وصف كالب بنجهام لقرائه كيف يقومون بهذه العمل البارِع ، وكان النطق السليم مسألة حساسة لها نفس أهمية لمجة الحديث وأساليب تأكيده وإيقاع

الكلام. وفي هذه النقاط أثبت الكتاب قيمته التي لا تقدر بالنسبة إليهما لأنهما يبدوان في عام ١٨٣٠ كرفيقين جاهلين، ففي عالم "أبراهام" تجد ألفاظاً مثل (الفاكهة تبوظ)، (الناس بتجيب الحاجة من الغابة)، و(انت لازم تعلم لازم) أو (البعوض كئيف زى الشجر في الوادي)، وتبدو إحدى قصائد لينكولن المبكرة بذلك الأسلوب:

أبراهام لينكرن.

بشحمه ولحمه.

ها تحسن أحواله

وربنا يعلم امتى

ومن السهل - أيضاً - إعادة بناء لهجة فردريك لأنه كان في حروف قليلة خاصة به يستثير شيئاً ما من نفسه كصبي صغير يعيش على الشاطئ الشرقي حيث يقول :

كنت هاطرد أبويا وأنا كان مزاجى متعكر دي حقيقة !!

كل الغلط عندهم إتك تجيب حاجة للزواج ياكلوها !!!

بالنسبة لبنجهام - الذى تعلم في دارتموث - كانت تلك الكلمات تمثل أصوات الغباء وليست لرجال سيكونون عظماء. لكن صبيّة قري ما وراء الغابات ما كان للأمل أن يتسرب من بين أيديهم، لأن

⁶ يذكر المؤلف كلمات بالعامية الريفية الأمريكية يصعب نقلها للعربية صوتاً واحاول هنا كتابتها بالعامية المصرية ليستبين هدفه.

كأبه علمهم كيف يتكلمون كالزعماء الديموقراطيين كيما تؤدي
خطبهم إلى تحسين طبيعتهم، كما هو متوقع من تأثير اللغة وقد تصبح
كتب مثل "الخطيب الكولومبي" أكثر أهمية من المصارعة بالنسبة
لفردريك بيلي دوجلاس ولأبراهام لينكولن، وما تزال قوتها
ومهارتها كمقاتلين لا تحتاج إلى الظهور في اللعب، إذ لو كانوا ضعافاً
رعابيد لما استطاعوا النهوض وسط عالمهما المتوحش ، ولقد
الثقة في نفسيهما وتقدير الذات الضروريين لإعادة بناء نفسيهما، فعب
المقاتلة تمكنا من الدفاع عن وجودهما وعن شرفهما، وقد يحتاجان
إلى تعلم كيف يصبحان رجلين ديموقراطيين مهذين.



الفصل الثاني

خطيبٌ مُطارِدٌ . . وسياسيٌ ريفي

"لأن معركة الحرية قد بدأت مرة ،
إذ أورثها الجدُّ النازفُ دماً لابنه ،
ورغم تشورها إلا أنها غالباً ما تُكسب ."
لورد بايرون^٧ من قصيدته " المرتد "
" من أجل هذا وذاك ، فسيأتي حتماً من أجل ذلك ،
فهذا الإنسان للإنسان ، (بعد انتهاء العالم)
سيكونون أخوة من أجل ذلك ."
روبيرت بيرنز^٨
من قصيدته "هناك من أجل الفقر الحقيقي"

^٧لورد بايرون شاعر إنجليزي سبقته الإشارة إليه.
^٨روبيرت بيرنز شاعر إسكتلندي ولد بالوواي عام ١٧٥٩ ومات صغيراً عن عمر يناهز ٣٨ سنة عام ١٧٩٦.

عندما وصل فردريك إلى مدينة نيويورك في الرابع من ديسمبر ١٨٣٨م ، تبخرت آمال الحرية فجأة ، وشعر كأنه كان يشاهد حريقاً كبيراً انطلق لهبه خارجاً عن السيطرة لبلتهم كل ما يحيط به مخلفاً كل شيء رماداً ، ليضحى أثراً بعد عين خلال يقظته . وكان يتذكر ذلك فيتمتم : "تملكنى شعورٌ بالوحدة وعدم الأمان وقهرنى حزناً . " كان وحيداً تماماً في مكان غريب بلا نقود أو طعام وبلا أحد يلجأ إليه طلباً للمعونة ، ويكمل : "كنت وسط آلاف من رفاقي ، إلا أنني بقيت وحيداً كلية . "

بدأت نيويورك كمهاجرة من الشوارع وخليط من أصوات ألسنة غريبة . كانت أكبر مدينة في البلاد تصل أعداد سكانها إلى ٣٥٠٠٠٠ نسمة ، وقد امتلأت الأرصفة بالناس الذين شكلوا تركيبة فريدة من ألوان القبعات والمعاطف . وازدحمت الشوارع بسيارات الأجرة ، والعربات الخاصة ، والخنازير "وجامسى قمامة المدينة الذين كانوا يتابعون وراء العربات والمارة كما لو كانوا يرغبون في التعارف . حتى الهواء بدا مختلفاً ، وكانت رائحته ممزجة بالروث والعطر وروائح الأجسام والطعام المتعفن ، وكان كل وجه يبدو له خصماً ، حيث اعتاد فردريك أن ينظر للبيض الذين لا يعرفهم كأعداء وللأسود الغريباء على أنهم "كانوا بدرجة أو بأخرى خاضعين للبيض . " لكنه

كان أكثر خوفاً من أولئك النيويوركيين وهم يتدافعون إلى الأمام وإلى الخلف من خوفه من مجموعة من الذئاب الجائعة.

وقد أشعلت مقابلة جرت صدقة مع واحد ممن يعرفهم من السود مخاوفه. فبعد التجوال بالشوارع لعدة ساعات التقى فردريك بجيك - وهو عبدٌ من بالتيور مُطارَدُ الآن - ويعمل "غَسَّالاً" ومن النوع الذي تهزمه شكوكه، وكاد سيده السابق يستعيد أسره تقريباً. حذره جيك أن المدينة تمتلئ بأثرياء الجنوب الذين يقضون فيها إجازاتهم وأن السود على استعداد للوشاية به لدى صائدي العبيد الهاربين مقابل حفنة دولارات بقوله: "لا تشق بأحد، ولا تفكر في الذهاب إلى أرصفة الموانئ للعمل أو حتى الذهاب إلى نزل الضيافة للبيوت، وإلا سيتم القبض عليك!" رفض جيك أن يساعد فردريك أو حتى أن يرشده إلى مكان آخر يطلب فيه المساعدة، وقد تشكك - فعلاً - في أن يكون فردريك مأجوراً لصائدي العبيد، فاخفى بعدها وسط الجماهير فوراً.

بم تكن مخاوف جيك، رغم المبالغة فيها، دون أساس لأن النيويوركيين أصبحوا أثرياء بفضل عبيد الجنوب والقطن معاً، ولأن المدينة كانت عملياً ملحقاً من ملحقات الجنوب إذ كان تجار نيويورك علاقات تجارية ممتدة ومرجحة مع التجار جنوب خط ماسون وديكسون. هذا ما ذكره أحد قاطني جنوب ولاية كارولينا ممن

استوطنوا نيويورك بعد ذلك. كان بعض رجال المدينة من البيض الأكثر احتراماً قد أملوا في تمديد مناطق العبودية وإبادة الأحرار ودعاة إلغاء الرق من أجل تحسين التجارة وزيادة أرباحهم. وبالتالي كان لابد أن يبقى العدد المتزايد من الهاربين السود إلى المدينة تحت المراقبة المستمرة لسادتهم أو لصيادي العبيد.

كما عاش البيض أيضاً في حالة دائمة من الخوف، لأن فترة من أسوء فترات الكساد في التاريخ الأمريكي كانت قد بدأت قبل ذلك بعام ، ففي مايو ١٨٣٧ انهارت الأسعار بعد سنوات من الائتمان السهل ، وتوقفت البنوك عن الدفع بواسطة الذهب والفضة لتبقى في السوق. كانت المدن والبلدات بالشمال الشرقي قد ضربها الانهيار الاقتصادي بشدة بصورة خاصتها فاقم تباين الثروة القائم فعلاً بنيويورك. وقد هوت تلك الأوقات الصعبة بعائلات الطبقة المتوسطة إلى الفقر والإفلاس، وأشعلت المخاوف من نشوب التدمير والشغب. لقد وصل فردريك إلى مدينة تترنح تحت وطأة البطالة الحاشدة، إذ كان حوالي ثلث عمال المدينة قد فقدوا وظائفهم. أما أولئك الذين حظوا بالاستمرار في العمل فقد رأوا أجورهم تنخفض بنحو ٣٠%. شبه الناس ذلك الوضع "بإغلاق القفص على طائر بري" أو كارثة طبيعية، "فقد استيقظ الناس من أحلام رائعة وسط دمار وخراب، حيث تبدد حصاد السنين في يوم واحد". لم يكن

هذا وقتاً ملائماً لوصول المرء إلى المدينة مفلساً وباحثاً عن عمل .
وبنهاية يومه الأول في نيويورك، نام فردريك بين بعض البراميل الملقاة
على رصيف الميناء، ومع خوفه المتنامي وجوعه وإحساسه بالعجز
بمرور الوقت، خاصة وقد استيقظ عدة مرات، أدرك فجأة السبب
في عدم فرار المزيد من العبيد، لأن عالمهم الذي يعرفونه من عائلاتهم
وأصدقائهم وشوارعهم المعتادة، مهما كانت سيئاً، أفضل كثيراً من
احتمالات الانفصال الدائم للذين ينهشان فيك كالجوع . لم يفهم
فردريك السبب في أن العبيد اختاروا العودة للأسر بعد نجاحهم في
الفرار شمالاً أبداً . من قبل إلا أنه الآن أدرك أنهم فضلوا "الحكم
الحقيقي لسادتهم بدلاً من حياة العزلة والخوف والجوع والقلق التي
تقابلهم عند وصولهم لأول مرة إلى ولاية حرة . " لو أن تلك هي الحرية
فربما لا تكون العبودية سيئة مقارنة بهذه الأحوال . هذا ما فكر فيه
ساعتها : "كنت بالفعل حراً - من العبودية - لكن بلا طعام ولا مأوى
أيضاً ."

ربما يكون فردريك قد مال للعودة فعلاً لولا إدراكه لحقيقة
خُصمت الامر؛ أنه كان مرتبطاً بالزواج، وخطيبته كانت متأهبة
للحضور إليه فور استدعائها .

كان اسمها أنا موراى، وكانت امرأة حرة . وكُدت حرة على
الشاطئ الشرقي لما رى لاند، ذات عيني بلون اللوز ووجه مستدير

وبشرة سمراء . كانت تعمل خادمة لعائلة ويلز بشارع كارولينا في
 بالتيمور . كانت في الخامسة والعشرين من عمرها ، أكبر من فردريك
 بخمسة أعوام وقد انتقلت إلى بالتيمور في السابعة عشر من عمرها .
 كانت هادئة مجدة في عملها ، وأتية عملياً لكنها تستطيع قراءة نوتة
 الموسيقى ، وعندما كانت تعزف مقطوعة هايدن أو لحن هاندل
 على "كمانها" ، يبدو ترنيماً أسراً لمن حولها . وقد علمت فردريك
 العزف على الكمان ، وكان سريع التعلم وسرعان ما أصبح "ثنائياً"
 -دويتو- موسيقياً . كان بمقدورها كذلك أن تستقل كل قرش أكثر
 من أي شخص آخر قابله فردريك . رغم أنه لم يقل عنها الكثير إلا
 أن أنا موراى كانت مسئولة - إلى حد ما - عنه وعن تمتعه بحجرته
 وعن صناعته لنفسه .

لقد اشترى تذكرة قطار من مال أنا على خط سكة حديد
 بالتيمور/ أوهايو ، وهو ذات المال الذي اشترى به قميصاً أحمر وربطة
 عنق سوداء وقبعة مائعة للماء مما جعله يشبه البحارة ، كما أن فنود
 أنا هي التي وصلت ليد أحد الأصدقاء الذي يشبه فردريك مقابل
 الحصول على تصريح مرور بحميه . وفور عودته إلى بالتيمور في أواخر
 عام ١٨٣٦ ، تفاخر فردريك بذلك قائلاً إنه بالفنود تمكن من تدبير
 مسألة فراره ببسر وسهولة؛ فننود أنا مقترنة باستقلالها كامرأة حرة
 جعلها هروبه ممكناً . غير أن فردريك أهمل تماماً دور أنا في

مساعدته، سواء في وقتها أم في مذكراته حول ذلك الحدث، حيث
 كان إقراره بذلك يمحو صورته كرجل صنع نفسه بنفسه، وكمودج
 للأمريكي الأفريقي لدرجة أنه حينذاك . في أوائل أيام حربته، بدأ
 فعلاً في تثقيف نفسه، حيث يقول في أحد خطابات له لصديق مقرب
 بعد وصوله إلى نيويورك أنه "شعر كأنسان آخذ في الهروب من وكر
 الأسود الجائعة" وهي صورة شائعة للمقاتل الوحيد أو الأمريكي
 المنفرد وهو يقاتل عدواً متوحشاً ويخرج منتصراً . كان يشارك في
 أرساء تقاليد الرجال العصامين من بن فرانكلين وناتي بومير، ثم
 عبر لنكون صعوداً حتى مالكولم إكس . تلك التقاليد التي أغفلت
 دور الزوجات والنساء في تحقيق نجاحات الرجال، وما جعل وضع
 فردريك فريداً هو أنه أرسى تقاليد العصامي الأمريكي الأسود .
 كان فردريك وأنا قد تقابلنا في نادٍ ثقافي يسمى "جمعية بالتي مور
 للتقدم الفكري" حيث كان الطموحون من السود الأحرار من عمال
 بناء الميناء يتقابلون لشحذ مهاراتهم الخطابية وسماع المحاضرات،
 وهو أساساً نادٍ للرجال تقام فيه أيضاً حفلات محترمة حيث يمكن
 للنساء والرجال التقابل والتواد فيها . شعر فردريك بحسن حظه
 لقبوله بالجمعية، لأن السود الأحرار في بالتي مور كانوا يميلون للاحتفاظ
 بأنفسهم كعبيد مستعبدين ومنبوذين بقدر ما كان المجتمع الذي يقطنه
 انبيض مقسماً وفق أسس طبقية . لعب فردريك دوراً بارزاً في

المناقشات الدائرة داخل ذلك المجتمع، مُقدِّماً الكثير من الإرشادات بشأن الخطابة العامة التي استقاها من كتاب "الخطيب الكولومبي" في حين أخذ يتعلم كيف يقلد ساخراً مالكي العبيد . وخلال تودده لآنا، وبحضور تلك الاجتماعات، خلقت ثقته في عليائها، وذات ليلة بعدما انتصر في إحدى المناقشات تمادى إلى حد أن تفاخر بأنه لن يتوقف عن الصعود حتى يصل إلى مقعد عضو مجلس نواب الولايات المتحدة . كان ذلك تصرُّحاً ثورياً صادراً عن عبد يعكس تأثير آنا والجمعية عليه معاً .

هل كان فردريك يحب آنا ؟ ذلك يعتمد على نظرتك للحب . بالنظر إلى طموحه، لم يستطع فردريك تمييز مشاعره نحو آنا عن قدرتها على مساعدته في تحقيق أحلامه، ولم يتمكن من فصلها عما تمثله . فمعها حصل على المال ووصل إلى مجالات ومظاهر الاحترام الأخرى مثل استخدام أدوات المائدة، والفضيات، والمفارش والسلوك المذهب وفراشين محشوين بالريش، باعت أحدهما لتساعد في سداد تكاليف هروبه . والأكثر من ذلك، وباعتبارها امرأة حرة، فإن أي أطفال تنجبهم سيكونون أحراراً بغض النظر عن وضعه هو . وهي كأمراة مدبرة - حيث كانت تعمل كمديرة منزل - استطاعت آنا تمكينه من تكريس كل طاقاته من أجل عمله . وبالنسبة لعبد كبير وغنا وهو ينام فوق الألواح الخشبية الخشنة والأرضيات القذرة

والمراتب الرفيعة "المكلكة"، ويبحث - غالباً - عن طعامه بين
التفايات، بدت أنا مهيبة و"بعيدة المنال". لا بد أن فردريك قد أصابه
الذهول عندما وافقت على الزواج منه، فعندما حظي حبه بالقبول
والتبادل، وسع من دائرة القرص المتاحة، فالحب والفرصة محال فك
رباطهما .

مع وجود أنا مستعدة للسفر إلى نيويورك حالما يدعوها فردريك،
كان لديه حافز يدفعه لأن يتحمل الوحدة والتشرد حتى يجد مأوى
آمناً ويستطيع عندئذ أن يطلبها . هام في الشوارع عدة أيام قليلة
باحثاً بإصرار عن وجه متعاطف يستمع لأزمته ويقدم المساعدة،
حيث وجده في بजार اسمه ستيوارت كان قد لاحظ هيئة فردريك
كبحار، وكان لقاءه أشبه بصداقة قامت على الصدفة.

كان ستيوارت قد شاهد فردريك واقفاً على رصيف الطريق
المقابل بالقرب من سجن المدينة المسمى "تومبز" فمضى ستيوارت
نحوه، وأطلق فردريك ملحوظة تجاهه، وبدأ ستيوارت "يهم بى".
بعدها قضى فردريك تلك الليلة بمنزل ستيوارت المتواضع، وبالطبع،
شارك صديقه الجديد فراشه كما كانت العادة. نبعت تلك الصداقة
بالصدفة من التعاطف أكثر مما نبعت من أى رغبة في الجنس. بيد
أن ستيوارت رافق - في اليوم التالي - فردريك إلى منزل دافيد راجلز
وهو صحفي أسود حر وناشط اجتماعي كان يرأس نقى سكك

حديد نيويورك الذى يقوى مئات من الهاربين الجدد ويساعدهم على الاستقرار في المجتمعات الشمالية حيث يتمكنون من الحصول على عمل .

من منزل راجلز، كتب فردريك إلى آنا أنه أصبح آمناً في نيويورك وأن عليها أن تأتى في الحال، وأعدت هى ترتيبات شحن أثاثها وفراشها، وقامت بحزم مكانها وبعض النوات الموسيقية لصمويل داير ورويل شو ومجموعة من مؤلفى كيب الترانيم ورداء حربرى ملون معد للزواج ، ووصلت نيويورك خلال أيام قليلة . كان فردريك قد أعد بذلة سوداء من أجل الزواج، وقد تجعدت الآن بسبب تكومها في حقيقته الجلدية بجوار كتابه المفضل . وتزوجا في منزل اجلز يوم ١٥ سبتمبر ١٨٣٨ بعد ١١ يوماً من فرار فردريك . وقام جيمس بيننجتون - وهو هارب آخر من الشاطئ الشرقى كان قد تم ترسيمه كاهناً حديثاً - برئاسة الاحتفال وكتب شهادة الزواج معلناً أنه "قد جمع معاً في زواج مقدس كلاً من فردريك جونسون وآنا موراي زوجا وزوجة ."

وبناءً على نصيحة راجلز، انتقلا إلى نيويورك فوراً بولاية ماساتشوستس التى كانت مركزاً لصيد الحيتان، وهى مكان مثالى للصيد ولعمله في سدذ ثقب السفن بالقطران . قطعنا شقة صغيرة مكونة من غرفتين تقع في شارع إلم على مقربة من الميناء، حيث

ذكرتهما الطرقات المرصوفة وصفوف المنازل وأثاث أنا عن بعد بمنطقة فيلزيوبينت وهى منطقة أحواض بناء السفن ببالتيبور حيث تقابلا أول مرة. كانت أنا حاملاً - الآن - بطفلها الأول، وجاء أنثى أسموها روزيتا، وقد أدى ذلك لانتشار شائعات بأنها حملت خارج رباط الزواج. لكهما تزوجا رسمياً - وهو أمرٌ محظورٌ على العبيد - واتخذا اسمين جديدين، السيد والسيدة فردريك دوجلاس، لأن فردريك هجر اسم "جونسون" بعدما أخبره جاره الجديد بنيو بيد فور - وكان اسمه ناثان جونسون - أن المدينة مُتخمة باسم "جونسون" واقترح لقب دوجلاس بدلاً لذلك. كان ناثان آنذاك يقرأ رائعة السير والتر سكوت "سيدة البحيرة" وتأثر بشدة بشجاعة البطل، واسمه دوجلاس، فأوصى فردريك باتخاذ لقباً. ووافق الأخير على الاسم الجديد رغم أنه لم يقرأ ما كتب سكوت ولم يكن يعرف حتى كيفية تهجي اسمه، لكنه كان معاداً على شارع دوجلاس ببالتيبور. لذا أضاف حرف "س آخر" إلى نهاية اسمه واسم أنا.

من بداية زواجهما الذى دام أربعة وأربعين عاماً، عاش فردريك وزوجته أجواءً منفصلة تماماً حيث ظلت أنا تعنى بالمنزل من أجل فردريك وتدير بيوتات العائلات الأخرى عندما يحتاجان إلى دخل زائد. أما الأمر الوحيد الذى جمعهما معاً فكان أطفالهما وحبيهما

للعزف على آلة الكمان، فأنا لم تتعلم أبداً كيف تقرأ؛ وفردريك فضل القراءة على عزف الكمان والعناية بالأطفال عندما لا يكون مشغولاً بالعمل، حيث بقيت هي أسيرة الهوى بينما تطور هو من عامل يومي إلى خطيب وكاتب وصحفي وسياسي. كان يسمي أنا "رفيقه المساعد" دون الإشارة إلى الطرق التي عاوته بها مطلقاً. إلى حين، أصبحت شخصية أنا "مندججة في شخصية زوجها". هكذا كانا يصفان حبهما.

كان دوجلاس جاهلاً تماماً بشئون المجتمع الشمالي إذ لم يفده كتاب "الخطيب الكولومبي" بشيء تقريباً في تحريره من أفكار مجتمع الجنوب نحو العمل الحر، حيث نشأ يؤمن بأن العبودية هي مصادر كل ثروة لأن البيض الذين لم يمتلكوا عبيداً كانوا "قاية بيضاء بائسة" كما دعاهم مرة، وأن بيض الشمال كانوا - لذلك - معدمين وجاهلين ويتميزون بالوضاعة. لكن بيدفورد تخطت محنة الاضطراب المالي بفضل تجارتها في الحيتان، ولأنه لاحظ أن السود من أمثال ناثن جونسون امتلكوا كثيراً من الكتب وعملوا بجد "أكثر من تسعة أعشار كل مالكي العبيد في مقاطعة تالبوت بما رى لاند".

ذهب في اليوم الثالث من وصوله لنيوبيد فورد إلى أرصفة الميناء مجتأ عن عمل. وكانت وظيفته الأولى كعامل حر هي تحميل براميل

زيت الحيتان فوق القوارب. كان عملاً قذراً وصعباً لكنه "استغرق فيه بقلب فرح وإقبال نشط" حيث لم يكن ينتظر سيدياً ليستولي على مكسبه في نهاية الأسبوع، ولأول مرة في حياته لم يحتاج إلى الاعتماد على "سيد" أو صديق أو زوجة كيما يشعر باستقلاله، وهو يذكر ذلك بقوله: "اعتبرتُ عملي ذلك اليوم نقطة البدء لشيء يبرغ للرحود حديثاً".

لكنه أدرك أن الهروب من العبودية لايعنى التخلص من العنصرية، فرغم تسامح وتنوع نيويورك فورد غير العاديين، إلا أنها كانت غارقة في الحكام المسلفة ممثلة لذلك الوباء الذي اجتاح أمريكا. فعندما سعى دوجلاس للعمل "كعامل لسد ثقب السفن"، قام مالك السفينة "كويكر" بتشغيله في الحال. لكن العمال البيض أخذوا في تهديد صاحب السفينة بأنهم سيتركون العمل ما أن يبدأ هو في ممارسة عمله. ثم وافقوا على أن يعمل باعتباره عامل باليومية مقابل نصف ما يتلقونه من أجر، لكن دون أن يكون نداً لهم. حدثت واقعة أخرى مشابهة في بالتيمور حيث قام العمال البيض بإضراب عن العمل حتى تقوم الإدارة بفصل عماطها من السود الأحرار، وكان دوجلاس قد سمع البيض في بالتيمور يرددون: إن السود يجب ان يُقتلوا" وإلا "فإنهم سوف يحتلون البلاد". كما كان البيض هناك في

بالتيمور قد أوسعوه ضرباً حتى فقد تقريباً إحدى عينيه، وعلى الأقل لم تعرض سلامته الجسدية في بيدفورد للأذى.

وللسنوات الثلاث التالية عمل دوجلاس كعامل بايومية ينشر الخشب، ويحفر الأقبية، ويكوم الفحم، وينظف المداخن، ويقود العربات، ويقوم بالخدمة على الموائد. ثم عثر على عمليتين ثابتين، أحدهما في مصنع للشمع والآخر في ورشة للنحاس، فمكّه ذلك من "تثبيت جريدة على أحد القوائم بجواره والقيام بقراءتها أثناء العمل". يتذكر ذلك بقوله: "كان سعيًا وراء المعرفة وسط صعوبات جمة." وبقي مستوحداً ثانياً عن رفاقه من العمال سوداً وبيضاً حيث بدوا قليلي الاهتمام بغذاء العقل.

يتذكر السيد كوب- رئيس عمال ورشة النحاس حيث كان يعمل دوجلاس- ذلك العامل "المجد والقدر" بصورة دائمة. وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، يحضر السيد كوب محاضرة لدوجلاس ثم يدعونه للصعود على المنصة ليحكى كيف وصل دوجلاس يوماً للورشة للعمل بنوبة المسائية وهو مغطى بالسناج من عمله كمنظف للمداخن نهاراً ثم يقوم بتثبيت صحيفته ويبدأ في نفخ الكير لعمل. تأثر كوب بأخلاق ذلك الشاب وقام بحمايته من أحد العمال البيض الذي حاول مهاجمته باستخدام رفش في يده، وقد أدهشه بزوغ نجم هارب سابق "ليصبح واحداً من مفكرى البلد" في نيوبيدفورد.

كان دوجلاس يقرأ حيثما وحينما يستطيع وأصبح واعظاً في كيسة المدينة، وكان في أقصى لحظات سعادته لأنه تمكن من كسب (وتوفير) دولاراً في اليوم وتحول إلى زعيم لمجتمع السود في المدينة، وله زوجة مخلصة وطفلان جميلان (لويس طفله الثاني وُلِدَ عام ١٨٤٠). لكن السعادة لم تكن هدفه الأول في الحياة .

كان باحثاً عن المعرفة، وبهذا المعنى شابه هيرمان ملفيل الذي كان متواجداً بالمدينة أيضاً عام ١٨٤٠ بانتظار الإبحار على ظهر سفينة صيد الحيتان "أكوشنت". كان يصغر دوجلاس بعام واحد، وهو ساذج وفضولي لكنه طموح. لم يكن قد وصل لبيدفورد كبعد رغم أنه قد عُرف عنه مقلته: "من منا ليس عبداً؟ أخبروني!" لقد أتى ليشق طريقه في الحياة، وعندما تبخرت ثروته عائلته هباءً، أضحت خبراته على سفينة صيد حيتان بنيويديفورد أساساً لقصته "موبى ديك" - ١٨٥١م - وهي درة أدبية في عالم الأدب واستكشاف فريد للصداقة فيما بين الأجناس.

كانت نيويديفورد مدينة صغيرة عام ١٨٤٠ يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة آلاف، ويسير المرء فيها من طرفها إلى طرفها الآخر ببساطة وسهولة، ولربما مر دوجلاس بملفيل صدفة عند الميناء، فكل منهما وصف براميل زيت الحوت الخشبية المكمومة على أرصفة الميناء، وسفن الصيد على الرصيف، وأكوار تنفخ النار

بالورشة، حيث كان دوجلاس يعمل ويقرأ جرائده؛ ولربما عرج ملفيل مصادفة على كنيسة المدينة أثناء قيام دوجلاس بالقاء موعظته أو الاستماع إلى قداس ديني. بعد سنوات قليلة تالية، سيقرا كل منهما مآكبه الآخر، مستعيرين من بعضهما أفكاراً وتعبيرات متعددة. ففي عام ١٨٦٤ استعار لينكولن بالمثل مما كتبه ملفيل، مستخدماً تشبيهات ومجازات لغة صيد الحيتان ليصف بها قضايا العبودية: "نحن نبذو كصائدي الحيتان، نمضي وقتاً طويلاً في مطاردة... ثم نقذف حريتنا في قلب الوحش لكننا الآن علينا أن ننسب لحركتنا، والا فبضربة واحدة من ذيله سيرسلنا إلى العالم الآخر." وبينما يبدو دوجلاس كشخصية "أهاب" في ثورته وتطرفه في الرواية، بدا لنكولن كشخصية "ستاب" ذلك الشخص المحافظ المرح الذي "اعتلى قاربه الذي يصيد به الحيتان كما لو كان ذلك اللقاء المميت مجرد لقاء للعشاء."

كانت جريدة الليبراتور - لسان حال الجمعية الأمريكية المناهضة للرق في بوسطن والتي كان محررها ويليام لويد جاريسون - أكثر أهمية في تأثيرها المباشر على دوجلاس، حيث اشترك فيها بعد شهور قليلة من وصوله لبيدفورد. ورغم أنه لم يستطع دفع قيمة الاشتراك دفعة واحدة، فقد كان يسدد الدولارين المطلوبين سنوياً على دفعات وأقساط. كانت جريدة الليبراتور أكثر الجرائد

المعارضة تأثيراً في التاريخ الأمريكى إذ كانت تعتمد على وثيقة إعلان الاستقلال وعلى الإنجيل والتوراة كنصوص مقدسة، وطالبت بإنهاء الرق فوراً وتطبيق الحقوق المتساوية لكل الناس، وصورت جنة سماوية على الأرض تستبدل فيها حكومة الله بلحكومة البشر. كانت تنادي بعدم العنف مؤكدة أن تحقيق الثروة سيتم عبر الاقتناع الأخلاقى وحده. كما رفضت الحلول الوسط لأن جاريسون أقسم في أول إصدار لجريدة "الليبراتور" في يناير ١٨٣١ قائلاً: "لن أوافق، لن أعذر، ولن أترجع ولو بوصة واحدة." وظل وقيماً لعده. ولكي يعوض تلك المثالية التى تجعل الانقاس تنقطع، استخدم جاريسون أسلوب "المادية غير العادية"، فعلى صفحاته يرتعد الطغاة وتهتز الأمم وتقفز التماثيل من أماكنها، وتنزف الضحايا دماً، وبينما يقوم الشعراء الرومانسيون "بإضفاء الروحانية على العالم الطبيعى"، قام جاريسون بتحويل الحرب الأخلاقية ضد الرق والعبودية إلى حرب حقيقية ملموسة.

أثار صدور جريدة الليبراتور غضباً عارماً وسط أمة لا يرغب مواطنوها عامة في إنهاء العبودية لأن الرق البشرى ظل حقيقة واقعة في الحياة لآلاف السنين، وآمن الأمريكيون بأن إلغاء العبودية فوراً يُعد ضرباً من الجنون، وفي أفضل المواقف رأى الأمريكيون في العبودية شراً ضرورياً - أشبه بالتلوث في أيامنا هذه - ربما تكون قادراً على

التحكم فيه، لكن إنهاؤه يتطلب تدخلاً إلهياً ويستغرق وقتاً طويلاً
قد يصل لأحقاب عديدة أو قرون وفقاً لتصريح هاريسون جراى
أوتيس عمدة بوسطن وأيضاً لأقوال لينكولن فيما بعد . كان أوتيس
وغالبية البيض الأمريكيين يؤمنون بأن الكتاب المقدس يُقر بالعبودية في
مواضع متعددة أكثر من معارضته لها، وأعلن الكثيرون من أهل
الجنوب، اعتماداً على النصوص المقدسة وأقوال الفلاسفة من أرسطو
والقديس أوجسطين حتى الكاهن جيمس سمالي في المسيسيى،
أن العبودية مفيدة للمجتمعات والسادة والعبيد أنفسهم . واستطاع
الجنوبيون قمع الفكر والأدب المناهض للرق . لكنهم لم يتمكنوا من
القبض على جاريسون . فعلى سبيل المثال عرض مجلس جورجيا
التشريعى مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لمن يقبض على جاريسون
وينقله إلى الولاية حيث يمكن محاكمته، كما حاول السناتور جون
كالهون - عن كارولينا الجنوبية - دون جدوى تمرير قانون قوبى يحظر
تداول كل كتابات وصور دعاة تحرير العبيد .

هكذا كانت رسالة جريدة الليبراتور جديدة بصورة جذرية على
الثقافة الغربية حيث كان دعاة تحرير العبيد يُنظر إليهم باعتبارهم
ثوريين متطرفين يهددون بتدمير أركان المجتمع الأمريكى . كاد
جاريسون عام ١٨٣٥ أن يقع تحت طائلة القانون في بوسطن .
وخلال معظم تلك الحقبة هاجمت جموع من المواطنين "المحترمين"

مثل المصرفيين والمحامين أية لقاءات لها صلة بدعاة تحرير العبيد،
ومن المفهوم طبعاً أن الدعم الرئيسي لجريدة الليبراتور في أوائل أعوام
صدورها جاء من قبل السود
الذين مثلوا نسبة ٧٥% من قرائها .

ومع نهاية ذلك العقد، لم يعد دعاة تحرير العبيد منبذين كما كانوا
من قبل إلا أنهم ظلوا أقلية هامشية لأن كثيراً من بيض الشمال ألقوا
اللوم في نشوب أزمة عام ١٨٣٧ المالية على النخبة الحاكمة في الجنوب
المسماة "قوة العبيد" . إذ اعتقدوا أن الرق كبت الأسعار في المجتمع
الحر وبالتالي هدد مستويات معيشتهم ،وبالإضافة إلى ذلك فإن
قواعد الكونجرس المعروفة لقواعد جاج حظرت أية مناقشات حول
العبودية داخل المجلس . ونتيجة لذلك، ازداد تعرف حركة التحرير
التصاقاً بحركة الحريات المدنية، وازدادت معها الاشتراكات
بصحيفة "الليبراتور" والعضوية بالجمعية الأمريكية لمقاومة الرق كل عام
بدءاً من ١٨٣٤ وحتى ١٨٤٠ .

كان دوجلاس يقرأ جريدة الليبراتور بإخلاص يماثل إخلاصه
للكتاب المقدس . كانت بالنسبة إليه نصوصاً مقدسة تعبر عن
مبادئ إعلان حقوق الإنسان التي تؤكد الحرية العامة للجميع
والمساواة . كان يستوعب كلية كل محتويات الجريدة (أسبوعياً)

⁹ قواعد أصدرها الكونجرس في ١٨٣٦ تحظر مناقشة قضايا العبودية - المترجم

حسب قوله وتعرف بأناس يشبهونه فكراً عبر بلدان الشمال، وتعلم كيف يكافح العبودية بالكلمات واستخدام أفعال قارصة. وكب يقول: "لقد أصبحت الأوراق طعامي وشرابي، وأوقدت النار في روحي". "باقتباس ما ذكره جاريسون - وكيله - الذي استخدم نفس الجملة لشرح سبب رفضه للتخفيف من غلوائه في هذا الشأن يقول: "أنا مجاعة شديدة لأن أتعذ غضباً هائلاً، لأننى محاطٌ بجبال من الثلج تحاصرني مجاعة للانصهار".

ألمعت جريدة "الليداتور" دوجلاس لحضور لقاءات دعاة التحرير رغم عمله الذى كان يستغرق النهار بطوله وأحياناً طوال الليل، حيث مكنته تلك الاجتماعات من ممارسة مهارته الخطابية بالجدل مع أصدقاء جدد، وتجربة بعض من العبارات التى قرأها بالجريدة. فى أحد هذه اللقاءات عام ١٨٣٩ قام ومعه مجموعة من دعاة تحرير السود فى بيد فور بمهاجمة الجمعية الأمريكية للاستعمار التى كانت تنقل الأحرار من السود إلى المستعمرة الإفريقية "ليبريا" كحل محافظ "لمشكلة" السود فى أمريكا، لأن غالبية دعاة التحرير كانوا يكرهون دعاة الاستعمار، واستقر رأي دوجلاس ومؤيديه على ألا يتخذوا أبداً بآراء هؤلاء "فنحن مواطنون أمريكيون وكذاً بحق طبيعى وموروثة ومتكافئة لا يمكن التنازل عنها"، وامتدحوا جاريسون لمبادئه "بجلاصٍ فوري غير مشروط".

بعد قراءة "الليراتور" لثلاث سنوات، سمع دوجلاس جاريسون يتحدث في اجتماع عقد يوم ١٩ أغسطس ١٨٤١ في بيدفورد، وكان قد أصبح واحداً من "عباد الأبطال" بعدما قرأ كتاب توماس كارلايل الجديد عن البطولة، كما أحب جاريسون بالفعل "من خلال جريدته" وأصبح الآن يميل لتقديسه، ولم تحنه آماله حيث قال: "لم أجد وجهاً ولا شكلاً أثارا في نفسى تلك المشاعر بقوة (سواه)".

كان جاريسون مثلاً آخر للرجل العصامي، وكان يشبه دوجلاس كثيراً في بعض الأمور، إذ هجره والده السكير عندما كان صغيراً وأدى به ذلك إلى تسول الطعام من الجيران. لم يحصل على تعليم رسمي تقريباً، إلى أن صادفه الحظ عندما حصل على عمل "كصبي مساعد" لأحد الطباعين الذي ساعده على تعلم حرفة، فعمل بلا توقف، وقرأ بشراهة، وأصبح فخوراً بنفسه وصاحب عزمة ومقدماً مثل دوجلاس لأنه على مدار عدة سنوات واجه التهديد بالاغتيال وبالإفلاس بسبب جريدته وحلمه بالحرية. والآن فإنه حينما يتحدث تخرج الكلمات من فمه ببطيئة ومقصورة كما لو كانت هبة من الله، ويلتصع رأسه الأصلع بنظاراته الزجاجية عاكساً أشعة السماء.

لم يكن دوجلاس الوحيد الذى تأثر بما دار ذلك اليوم. لأن جاريسون رأى ذلك الرجل الأسود الطويل القتي، أنيق الملبس المزن،

بإحدى الوثوق بنفسه يقف مستشرفاً القاعة بنظراته وسط تلك الجماهير الممتعة. وحينما بدأ دوجلاس خطابه وسمع ذلك الصوت العميق ورأى "جماهير الحضور الفخيرة" تنصت إليه "باهتمام شديد"، تأثر جاريسون بشدة.

وفي اليوم التالي اصطحب دوجلاس جاريسون مع أربعين من دعاة تحرير العبيد من السود والبيض إلى ناتوكيت لإجتماع ضخم سيستمر لمدة يومين. كانت تلك أول إجازة لدوجلاس منذ هروبه من قبضة العبودية، وقد بدأت الرحلة بشكل منذر بالشؤم وغير مبشر. فعندما صعد دعاة التحرير إلى سطح السفينة المتوجهة إلى ناتوكيت، رفض ربانها بدء الرحيل ما لم يلجأ السود إلى ركن "الزنج المخصص لهم عليها". اعترض الثائرون على ذلك الفصل متمسكين بأماكنهم، واقترحوا مناقشة كل راكب على سطح السفينة مما تسبب في تأخير طويل للرحلة، ثم استسلم الربان في النهاية وسمح لهم بالجلوس على أرضية السطح العلوى. بينت تلك الواقعة لدوجلاس مدى قدرة الإقناع الأخلاقي على إحداث التغير الاجتماعي.

وفي اجتماع ناتوكيت، دفعوا دوجلاس للحديث أمام أكثر من خمسمائة مشاهد أغلبهم من البيض، ولحكم عددهم الفخيرة كانوا أكبر جمهور قام بمخاطبته في حياته. كان متوتراً لدرجة أنه ارتعد خوفاً، واستدعى خوفه ذكريات العبودية الأليمة: "الحقيقة أننى شعرت

بنفسى عبداً. " لكن بعد حديثه لدقائق قليلة استعاد شعوره بالحرية وتدفقت منه الكلمات.

وارتقى جاريسون منصة الحديث بعده مستطرداً من كلمات دوجلاس صائحاً: "هل كنا نسمع لشيء أو لقطعة من أملاك أحد ما أم للإنسان؟" فتصاعدت الإجابة موحدة: "لإنسان . . لإنسان." فتساءل جاريسون: "وهل لمثل ذلك الإنسان أن يبقى عبداً في أراضٍ مسيحية وجمهورية؟"

فأنته الإجابة: "أبداً ... مطلقاً!" استمر متسائلاً: "وهل ستقومون بحمايته وإغاثة كإنخ لكم . . كمواطن في ولاية أولد باى؟" فصاحت الجماهير: "نعم!" بقوة بدت معها حوائط وأسقف الصالة "كما لو كانت ترتجف" وذلك وفقاً لما ذكره أحد المراسلين.

ذهل دوجلاس من المشهد، وأسّر جاريسون مستمعيه فأصبحوا "كشخص واحد": صورة من جاريسون نفسه؛ وعندما تحدث دوجلاس ثانية في جلسة المساء، حاول تطبيق بعض من أساليب جاريسون الخطابية، وجاء الدور على جاريسون لتصيبه الدهشة فأعلن الأخير هذا أن خطاب دوجلاس "يضيء شرفاً على باتريك هنرى" حيث أذهله تحكم دوجلاس في نفمة صوته العميق الخصب كمطرب يأخذ بالباب مستمعيه.

وقبل أن يتفرق المجمعون، دعا وكيل الجمعية الأمريكية المناهضة

للعبودية ودوجلاس لقبول تعيينه محاضراً بأجر لدى الجمعية. لكن
دوجلاس كان متردداً في بداية الأمر لأنه لم يكن واثقاً من موهبته كما
تبدو الآن بصورة لا تصدق. غير أنه وافق على عقد لمدة ثلاثة أشهر
قابلة للتجديد بأجر سنوي قيمة ٤٥٠ دولار. كان بالكاد يدرك أنه
قد وجد ضالته وأنه على المضى في مسيرة حياته المرموقة، وسوف
يذكر فيما بعد أن الخطاب الجماهيري هو أنجح وسيلة للمعارضة ،
وأنه أعظم إنجازاته ككفنان وناشط اجتماعي فيقول: "أنا لست
بحاجة لتذكير أولئك الذين يعرفونني بأن الكتابة لأعين الجماهير لا
تأتى ببساطة ويسر مثلما تكون الخطابة لأذان الجماهير." عبر
السنوات القليلة التالية، أخذ يثقل مهارته وأصبح واحداً من أعظم
خطباء أمريكا.

أصبحت الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية في حاجة شديدة
لدوجلاس أكثر مما كان هو في حاجة إليها، ففي عام ١٨٤٠ انشقت
الجمعية باختلاف في الرأي حول موضوعي السياسة والنساء وبدأت
تفقد أعضاءها وأموالها لأن جاريسون وأتباعه قاموا بمعارضة
عمليات التصويت وأهملوا المحاورات السياسية إلى حد كبير. وقد
فسروا مواد الدستور بأنها وثيقة مؤيدة للرق معتبرين الحكومة
الأمريكية واقعة في فساد لا يبرأ، وطالبوا بالانفصال عن جمهورية

العبيد هذه أو كما يقول دوجلاس أنهم اعتبروا الرق بمفرده "مخلوقاً" يفرزه الرأي العام. "كما نادوا بأن يُسمح للمرأة باعتلاء مراكز قيادية في الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية.

وقامت مجموعة من المنشقين الذين يؤمنون بفعالية صندوق الانتخابات بتكوين حزب الحرية وذلك لاختيار مرشحين مناهضين للرق والسعى لإحداث التغيير عبر العمل السياسى، حيث كانوا ينظرون للعبودية باعتبارها "ذلك الكائن الذي يفرزه القانون". كما قامت مجموعة أصغر - تعارض حقوق المرأة اعتماداً على قراءات مصدرها الكتاب المقدس والعادات الاجتماعية - بإنشاء الجمعية الأمريكية والأجنبية لمناهضة الرق التى تمتعت عقد اللقاءات المختلطة التى يمكن لكل من الرجال والنساء الحديث فيها معاً. وتكاثرت المصادمات لدرجة أن دعاة التحرير لم يتمكنوا من تسوية اختلافاتهم. وبعد الانفصال رفض جاريسون وتابعوه أن يتواءموا مع المخالفين لهم، ومضت كل مجموعة في طريق منفصل. وأدت لطمة الانقسام إلى تناقص عضوية الجمعية الأمريكية لمناهضة الرق للنصف ودخلها السنوى ينحدر من ٤٧٠٠٠ دولار إلى ٧٠٠٠ دولار. والأكثر من ذلك أن الجمعية احتاجت لخطيب له هالة مميزة للدفاع عن قضاياها.

واحترجت كذلك إلى شخص يمكنه الحديث عن العبودية
بالدرجة الأولى لأن أهل الجنوب أغرقوا الأسواق بمطبوعات الدعاية
والكتب والصور التي تصور العبيد في سعادة ورضا، وأن ساداتهم
من رجال الخير والعطف الأبوي، واتهموا دعاة التحرير بأنهم لم يعرفوا
حياة العبودية أبداً. فالجنوبيون فقط هم من يملكون حق الحديث عن
مؤسسات المجتمع ونظامه، بل إن العمال المستأجرين في الشمال أكثر
تعرضاً للقهر من العبيد في الجنوب. والجنوبيون يطلقون على أنفسهم -
بالفعل- أفضل أصدقاء الزوج، ويؤكد أحد مطبوعات الدعاية
أن "من بين كل ولايات الاتحاد تظل ولاية ماري لاند أول (صديق
للأفارقة)".

ورداً على مثل تلك الانتقادات، أراد الاصلاحيون الشماليون -
بشكل جزئي- أن يعرفوا حقيقة العبودية ممن كان عبداً. لكن أغلب
المحاربين المنتمين للجمعية كانوا يخافون العمل كمحاضرين في المجال
خشية افتضاح أمرهم وتعرضهم لإعادة أسرهم من جديد. أما
أولئك الذين رغبوا في تحمل المخاطرة فلم تنطبق عليهم المعايير
الدقيقة التي وضعتها الجمعية لمهمة المحاضر، والتي كانت تتطلب
"قدرة على بعث الحياة في الموت، والمثابرة على تحمل السفر
المواصل" ومواجهة الهجمات المتكررة. كان دوغلاس أول عبد
سابق يصبح محاضراً بدوام كامل لدى الجمعية. أما باقي المحاضرين

السود من وليام كوبر نيل حتى تشارلز ريموند فكانوا ممن ولدوا
أحراراً. بعبارة أخرى، إن توقيت ظهور دوجلاس قد كان مناسباً
تماماً.

انطلق في طريقه على الفور، واشترى رئيسه منزلاً لأسرة
دوجلاس يقع بجوار شريط السكة الحديد في "لين" بولاية
ماساتشوستس. لكن نادراً ما مكث دوجلاس في "لين" بسبب
جدول محاضراته وخطبه في حين بقيت أنا وطفلاها في نيوبيد فورد
حتى أواسط عام ١٨٤٢. لقد حصلت أنا على عمل إضافي
كمدبرة منزل لدعم الدخل الذي كان يحصل عليه فردريك، وأحياناً
ما كان فردريك يضطر إلى طلب إرسال مبالغ تصل إلى ٢٥ أو ٣٠
دولار من الجمعية لها لتدبير شؤون العائلة. "وقد ولد طفلهما الثالث
فردريك الصغير في مارس ١٨٤٢ بنيوبيدفورد، لكن فردريك لم يكن
متواجداً لمساعدتها في العناية بالوليد، ولم يكد الطفل يعرف والده
بعدها لسنوات طوال.

كان دوجلاس يرتحل عادة بصحبة جون كولينز، وهو محاضر
متطوع أبيض، وقد عبرا نيوإنجلاند في عربات تجرها الجياد أو
بواسطة السكة الحديدية. كانا ينامان في منازل دعاة التحرير
ويخطبان في الكنائس والأجران والمدارس والحانات أو وسط حدائق
البلدة إذا لم توافر فيها الأبنية. وعندما كان دوجلاس يزور مدينة ما

بفردته كان يواجهه التعصب العنصرى، وغالباً ما كان يلقي صعوبة
في توفير مكان للإلقاء كلماته. حدث هذا بالفعل في مدينة جرافتون
بولاية ماساتشوستس، فذهب في الحال إلى فندق واستعار جرساً
من أجراس المائدة ومضى عبر شوارع المدينة الرئيسية يدق جرسه
ويصيح "اتبهوا! إن فردريك دوجلاس العبد حالياً سوف يلقي
محاضرة حول العبودية الأمريكية في مجلس المدينة هذا المساء الساعة
السابعة." وآت خطته أكلها إذ حضرت جماهير غفيرة لسماعه
وفتحت إحدى الكنائس أبوابها له في اليوم التالى .

كما كافح دوجلاس مظاهر التعصب في القطارات، ففي سبتمبر
من عام ١٨٤١ عندما كان مسافراً على متن قطار سكك حديد
الشرق بصحبة كولينز، قام جامع التذاكر بطرده من كابينة السفر إلى
عربة البضائع التي يستخدمها السود، وطلب دوجلاس من كولينز أن
يبقى في مكانه، لكن كولينز تبعه حتى قام جامع التذاكر بدفع كولينز
للوراء فمزق ملابسه. وحدث أنهما ركبا معا بعد أسبوعين نفس
القطار وحاول نفس المحصل التفريق بينهما فتمسك دوجلاس بمكانه
وطلب معرفة سبب إجباره على الخروج من العربة بعدما دفع ثمن
ذلك، فأجابه جامع التذاكر: "لأنك أسود." فرد عليه دوجلاس:
"ذلك ليس سبباً ولا مبرراً لطلبك." وتشبثا - هو وكولينز -
بمقعديهما، فقام جامع التذاكر بجمع نصف دسنة من الرعاع "لإخراج

الزنجى الملعون" واستطاعوا إخراجهما في النهاية ولكن بعد إقتلاع عدة مسامير من أرضية القطار- أثناء الشد والجذب- محطمين المقعد خلالها. استمر دوجلاس ورفاقه في معارضة تلك المظاهر العنصرية، وفى النهاية استسلمت شركات السكك الحديدية بماساتشوستس وقررت إلغاء عربات الفصل العنصرى.

حقق دوجلاس نجاحاً عظيماً في الخطابة منذ البداية ، لأنه كان يحكي عن حياته كمبد مضيقاً كثيراً من البهجة على الموضوعات الكنيية بروح مرحة وساخرة ومنهكة. كان يرتدى ملابس رسمية ويولى اهتماماً خاصاً لمظهره ولأقواله بالمثل. كان أحياناً ما يطلب من خادم الكنيسة زيادة أنوار الغاز كيما يراه الناس بصورة أفضل، وكان يشير إلى ظهره "الممتلىء بالندوب" وأحياناً يقوم بتعرته ليراه المشاهدون، ولكي يحمي نفسه أخفى أسماء ساداته السابقين والأماكن التى كدح بها، وحيث أن أتباع جاريسون كانوا يعارضون مبدأ المقاومة بالعنف، فقد أهمل ذكر شجاعته في العراك. لكنه سلب ألباب المشاهدين والصحفيين كذلك بشكل ومحتوى قصصه. وفي ديسمبر عام ١٨٤١- بعد ثلاثة أشهر فقط من بداية استلام العمل الجديد- قام أحد الصحفيين بوصف طريقة أدائه بإسهاب قائلاً: "إنه رجل غير عادى . . . لقد خلق ليكون بطلاً . . . له قلب يفكر ورأس يدبر ويدّ يقوم بالتنفيذ . . . إنه كخطيب أنداده قلائل."

كان دوجلاس ليقول نفس الكلام بعد عقد تال ليصف بطلاً زنجياً خيالياً جعل من نفسه نموذجاً له .

أثمرت طرق أداء دوجلاس نتائج إيجابية، فجاب أراضى رود آيلاند في أواخر عام ١٨٤١ معارضاً دستوراً مقترحاً للولاية يقصر حق التصويت على الرجال البيض فقط . كان رفاقه البيض يتحدثون أولاً فيفضيئون المشاهدين . ثم يصعد دوجلاس إلى خشبة المسرح فيسحرمهم ، وأتى أسلوبه بالنتيجة المرجوة إذ مرر الناخبون دستوراً يمنح السود حق التصويت . هنا قال دوجلاس : "إن عملنا في رود آيلاند قدم الكثير لتحرير العبيد في الولاية أكثر من أي جهود سابقة أو تالية ."

وألقى النجاح الذي أحرزه في رود آيلاند الضوء على الخيط الدقيق بين الرأي العام والقانون .

أراد دوجلاس - بصورة متزايدة - أن يزاوج بين الاقتناع الأخلاقي والعمل السياسي لتحقيق الأهداف المرجوة . واستمر يستحث ببراعة العمل السياسي حين قام بالثناء على مناهض الرق العظيم ورجل الدولة جون كوينسي أدامز الذي كان يكافح من أجل تعطيل قوانين الكونجرس التي تمنع مناقشة قضايا العبودية ، ولأنه كان عبداً فقد تصادف أن قرأ خطاباً مناهضاً للعبودية كتبه أدامز في صحيفة بالتيمور ، وعرف منه معنى مصطلح "الغاء العبودية" ، واكتشف أن

قليلاً من سياسيي واشتغلون كانوا "يدافعون عن حقوقنا ، ويتحركون في سبيل حريتنا . " فأدرك ان الحركة السياسية المناهضة للرق يمكنها أن تكون فعالة ومؤثرة مثلها مثل الاقتناع الأخلاقي في ذات الاتجاه .

في عام ١٨٤٣ استهل دوجلاس ومعه مجموعة من المحاضرين رحلة "المائة لقاء " التي تبدأ من نيو هامبشاير ثم تنتقل غرباً عبر فيرمونت، ثم ولاية نيويورك، مروراً بولاية بنسلفانيا، وأوهايو إختتاماً بإنديانا . وقد ارتحل المحاضرون أزواجاً، وكان هدفهم إنهاء نظم العبودية بكل مجتمع يقومون بزيارته موضحين للناس أهوال العبودية للتعبيل بالقضاء عليها . كانت مسيرة الرحلة مرهقة لكن آفاق الحوار الجماهيري فيها ملأت دوجلاس بالأمل . كان يشعر كأنه أحد حوارى المسيح داعياً الناس لحظيرة الإيمان، وكانت مدينة روشيستر واحدة من محطاته المفضلة رغم أنها كانت ميداناً ملتهباً لسياسة المناهضة العنصرية، ومع اعتبار دوجلاس - كمنتمٍ للحركة الجاريسونية - أن السياسة مفسدة، إلا أنه تلقى ترحاباً ودوداً وقابل العديد من رجالات حزب الحرية .

كان دوجلاس أحياناً ما يجد نفسه وحيداً، داعياً للتحرير في بلدة ما ، ففي مدينة بوفالو وهى مدينة كانت قد أخذت تزدهر من تجارة السفن البخارية الجديدة، بدت آمال التحول عن قناعاتها عقيمة وباهتة لأن أهلها كانوا يتكالبون على جمع المال دون الاهتمام

بمركات الإصلاح. وكانت القاعة التي خُصِّصَتْ لمحاضرات
دوجلاس مكتباً قديماً مهجوراً للبريد، وكانت مجموعة مستمعيه
حفنة من سائقي عربات الأجرة - وهي عربات تجرها الخيول لنقل
الركاب - سياطهم في أيديهم والقذارة تعلو ملابسهم. وما أن رأى
رفيق دوجلاس - وهو رجل أبيض - تلك الطغمة من الناس حتى
استقل أول باخرة إلى كليفلاند دون أن يكلف خاطره بالقاء ولو
محاضرة واحدة بها، تاركاً دوجلاس لمواجهة بوفالو بمفرده. وظل
دوجلاس يتحدث كل يوم داخل ذلك المكتب البريدي المتداعي
موجهاً خطابه للمستمعين "الذين كانوا يتزايدون عدداً وقدرًا
باستمرار." وخلال أسبوعين زاد عدد جماهيره من خمسة أفراد إلى
خمس آلاف، ولم يعد هناك مكان يسع ذلك العدد بصورة كافية.
وقد خاطب ثلث عدد سكان المدينة في آخر يوم أحد له في المدينة
في المنزه العام، وكانت قوة كلماته تلهب الحماس في الجماهير.

لم تواصل رحلة "المائة لقاء" باتجاه الغرب بصورة جيدة رغم ذلك
لأن دوجلاس اكتشف أن إنديانا - وهي ولاية لتكون القديمة -
كانت تمتلئ بالعنصرية مثل ولاية ماري لاند، وفي ريتشموند - وهي
أول محطة توقف لهم - توقعوا المشاكل والصعوبات إذ كاد الرعاع أن
يقتلوا أحد المزارعين حين جروا على أن يطالب هنري كلاي - أحد
مرشحي الرئاسة من ولاية كنتوكي وهو بطل لتكون في نفس الوقت -

بـتحرير عبيده الأربعين . وقام بعض من أولئك الرعاع بالتجمهر حول
دوجلاس ورفاقه يقذفونهم بالببيض الفاسد وغيره وأفسدوا بدلة
دوجلاس الأنيقة .

وبعد ذلك في مدينة بندلتون بولاية إنديانا اقترب دوجلاس أكثر أى
وقت من الاغتيال . ففي خلال نهار أول لقاء له هدد أحد العامة
بالحجوم عليه وتدمير الكنيسة . نتيجة لهذا ، قام أهالى بندلتون
بإستبعاد دعاة التحرير إلى الغابة حيث قاموا ببناء منصة يخاطبون
الناس من فوقها . وفي اليوم التالي هاجم حوالي ثلاثين قتي من قبة
مناطق الغابات يقودهم قتي جلف - يرتدى قبعة من الفراء -
دوجلاس وزملاءه . كانوا يشبهون في سلوكهم ومزاجهم صديق
لينكولن ، جاك أرمسترونج وعصابة كلارى جروف .

قام البلطجية بتدمير منصة الخطابة وضربوا أحد الدعاة على
فمه مما أفقده عدة أسنان . وفجأة خفى فجأة أحد زملائه وهو
ويليام هوايت - المتخرج حديثاً من جامعة هارفارد والمتحول حديثاً
للإيمان بإلغاء الرق - مما دعا دوجلاس إلى التقاط هراوة ضخمة
والمضى وراء البلطجية ظاناً أن هوايت في خطر . وكان يعلم أنه
ينتهك أحد مبادئ جاريسون بعدم استخدام العنف في الدعوة
وكذلك عدم تجاوز القانون العنصري الذى لايجيز هجوم رجل أسود
على رجل أبيض . لكنه لم يعبأ بذلك فمثل تلك المعتقدات لاتعبأ بها

عندما تكون حياة رفيق معرضة للخطر. وبرز البلطجية استعداداً للقتل بعضهم يتصايحون: "أقتلوا الزنجي! اقتلوا الزنجي الملعون!" فلاذ دوجلاس بالفرار نجاة بحياته. لكن زعيم العصاة لحقه وهوى عليه بعصاه فحطم ذراعه وألقاه أرضاً، ورفع الزعيم عصاه لتسديد ضربة ثانية مستهدفاً رأس دوجلاس هذه المرة، لكن هوايت - الذي لم يكن قد أودى بعد - رأى دوجلاس يقع أرضاً فأسرع لنجده، وجسده يسد الطريق على البلطجي "مانعا ضرباته المميتة" وأخذت بقية العصاة تضرب هوايت بقبضاتهم إلى أن أفلح سكان البلدة - الذين كانوا يشاهدون الموقف حتى هذه اللحظة - في إيقاف الهجوم. لازمت الحادثة تفكير دوجلاس، وبقي يحلم بها طوال ثلاث سنوات تالية. وفي الصباح كسب هوايت ليعبر عن عرفانه بالجميل بقوله: "لم أنسَ أبداً كم كما كالأخوة، مستعدين للجرأة والتحدى والموت، كل منا في سبيل الآخر. لقد غادرت منزلك وحياة مريحة بل مرفهة كيما تقدم شيئاً لتحطيم قيود العبيد ورفع قدر السود المحقرين." فمن أجل حماية دوجلاس، أراق هوايت "دماً نبيلاً حاراً كريماً ومقدساً ليهرقه بلطجي من بين تلك الطغمة الجهنمية." كما سيطرت لازمة الهجوم على هوايت أيضاً، فتهجر الخطابة بعد "رحلة المائة لقاء" وعاد إلى بوسطن ليقرض الشعر. لكنه كسب إلى دوجلاس مُحَرَّضاً إياه على الاستمرار في القضية بقوله: "امض

قدماً، ناثراً طلاقك البديعة كشرارات الضوء المنطلقة من صلب مطروق، ولسوف توتّي ثمارها!" وإثارة المزيد من حماسة صديقه، اقتبس من ذاكرته أبياتاً من شعر لورد بايرون- الذي بدأت كتاباته تُقرأ وقتئذٍ- وكب:

ما أن تبدأ معركة الحرية،

رغم غمامها،

إلا أنها دائماً "تنتصر".

لكن حتى كلمات بايرون لم تكن مقنعة لمقتبسها، فهو أيت لم يتقدم بعدها صفوف المعركة.

رغم تلك الروابط الأخوية الودودة، شعر دوجلاس أن الدعاة البيض لم يكونوا محصنين من الأحكام المسبقة التي سادت البلاد. فهو يتلقى نصف ما يتلقاه المحاضر الأبيض رغم كونه الأكثر تأثيراً في المؤسسة كلها، وعندما انتقد جون كولينز، تم توجيه اللوم له وتوبيخه "بسبب عدم خضوعه لرؤسائه". لقد عامله رفاقه البيض على أنه مشهد أو رمز بدلاً من معاملته كإنسان له شخصيته فقال: "كانوا يقدمونني على أنني أحد متغولات المؤسسة أو شيء من أشياءها، أو قطعة من أملاك الجنوب، إذ كان رئيس الاجتماع يؤكد (مستخدماً الضمير الذي يشير للجهاد) أنه يستطيع الكلام". ظل يكره الطريقة التي كان رفاقه البيض يخاطبونه بها مثلما خاطبه جون كولينز مرة

بقوله: "أمدنا بالحقائق فقط، وسوف تتولى نحن العناية بفلسفتها!"
لكن دوجلاس أكتشف أنه من المستحيل أن يلقى نفس المحاضرة
أسبوعاً تلو الآخر لأن ذلك يبدو أمراً ميكانيكياً ضد طبيعته. إذ
كان حينذاك يقرأ بنهم محاولاً أن يسد فراغ الفكر الذي عاشه سنيماً
طوالاً، وبينما كانت كلماته تتطور بقوة تحليلها وخطابها، أخذ ينوع
محتواها وشكلها لأن أحد رفاقه البيض حذره قائلاً: "إن الناس لن
يصدقوك حتى لو كنت عبداً سابقاً يا فردريك لو استمر خطابك
على هذا النحو، ومن الأفضل أن تمنح كلامك بقليل من أساليب
الكلام الرفي بدلاً من أن تبدو متقفاً أكثر من اللازم!"

شعر أن هذه النصيحة صفة على وجهه، ورغم أن دوجلاس
نجح في تحويل كثير من الناس لصالح القضية أكثر من أي فرد آخر
بالمؤسسة، إلا أن زملاءه البيض غالباً ما عاملوه كطفل لا "كصنابي
ماهر أو أستاذ في الأداء". كتب ذات مرة يقول: "كنت أكبر
وأحتاج لمساحة أكبر." لكن بعض البيض حاول احتواءه بمنين
بقائه أشبه بالعبد.

كان ظهور بعض من ذلك التوتر عائداً للحسد، وفي النهاية كان
كل دعاة التحرير يكرسون حياتهم من أجل القضية وأملوا في تغيير
العالم. ولكي تكون من كبار الدعاة عليك أن تكون خطيباً عظيماً،
فإذا لم تكن طموحاً فستغدو هباءً منثوراً. لذا، فإنه حينما تبزغ

فجأة بداية كبدية دوجلاس تملأ فضاء المسرح وتتلقى هتافات مدوية تشق عنان السماء بينما تقع جهود الخطاب البيض على آذان صماء، هنا تظهر إما بعض من معالم الكراهية أو الحقد، وتأخذ ردة الفعل شكلاً من أشكال التعصب العنصرى. تبدأ هذه الأشكال من استهجان بعض الجماهير له، إلى صدور خطاب خاص من أحد دعاة التحرير ببوسطن يشير إلى دوجلاس بأنه "زنجى غير واع". تلك الأمثلة الوضيعة لاتمحو الجهود البطولية المعادية للعنصرية التى أدت إلى إلغاء عربات الفصل العنصرى في ولاية ماساتشوسيتس أو إستئناف الولاية عام ١٨٤٣ للحكم الذى يحظر زواج السود بالبيض. فدعاة التحرير أتموا ما كان قليل من الناس في التاريخ الأمريكى قادرين على فعله: توحيد عناصر وأجزاء المجتمع. وبعد مائة عام لامتزال قوانين الفصل العنصرى ومعاداة اختلاط الأجناس من حقائق الحياة بالمجتمع الأمريكى.

بمعنى آخر كان رفاق دوجلاس على حق عندما حاولوا احتواءه. فمع قدوم عام ١٨٤٤ بعدما ارتقى بنفسه إلى عالم المبدعين أمثال بايرون وبيرنز وشكسبير وكارلايل وإيمرسون وميلتون، بدا شيئاً آخر غير أن يكون عبداً وبدأت الجماهير تهمة بأنه لم يكن عبداً أبداً. ولأنه لم يقدم تفاصيل أكثر حول موطنه الأصلى. وأثار كل ذلك الشكوك في مدى صدقه، وبدأ يسمع - بصورة متزايدة - مايقوله

الناس بأنه لا يشبه العبيد ولا يتصرف مثلهم . فقد لخص أحد الصحفيين - ممن قاموا بتغطية لقاء ضخم حول تحرير العبيد عُقد في فيلا دلفيا عام ١٨٤٤ - أداء دوجلاس بقوله: "إن عديداً من جماهير الحضور لم يصدقوا - حقيقة - أنه كان بالفعل عبداً، إذ كيف لرجل خرج من نير العبودية منذ ستة أعوام فقط ولم يلتحق بمدرسة يوماً في حياته أن يتحدث بمثل تلك الطلاقة وبذلك الدقة اللغوية وقوة التفكير؟ ولم يتوصلوا - جميعاً - لأي تفسير يشرح الأمر."

هددت تلك الشكوك بشأن حالته وحول كونه مُطارداً مسيرة دوجلاس المهني. لذا، "قذف بالحذر إلى الريح" وكب قصة حياته محدداً الأسماء والتواريخ راسماً لوحة للأوغاد على الشاطيء الشرقي، ولأنه قام بتسليم قصة حياته لسنوات عديدة في حلقات المحاضرات، كان يعرف جيداً ما يجب أن يقوله وكيف يقوله. ثم أكمل النسخ الخطية خلال شهور الشتاء عامي ١٨٤٤/١٨٤٥. وبعد ما قرأها ويندل فليس - وهو خطيب لامع آخر - أخبره أنه لو كان مكانه لألقى بها في أتون النار، فلو "أن سيده ومالكة تمكن من إمساكه لن تستطيع ماساتشوستس كلها حمايته". هكذا قال له فليس وكان على حق لأن حكماً كان قد أهدرته المحكمة العليا مؤخراً في قضية برنج ضد ولاية بنسلفانيا أنكر أية سلطة للولايات في حماية الهاربين. وفي العام السابق، تم القبض على جورج لايتمر

وهو عبد وأب لابناء مثل دوجلاس في بوسطن وتم حبسه في سجن ليفرنت ستريت، ولم يُعد للعبودية مرة أخرى الا بسبب قيام أحد دعاة التحرير الأثرياء بشراء حريته.

تجاهل دوجلاس تلك التحذيرات، وفي مايو عام ١٨٤٥ نشرت جمعية مناهضي الرق الأمريكية "قصة حياة فردريك دوجلاس . . عبدٌ أمريكي كتبها بنفسه" مع مقدمتين كتبهما كل من جاريسون وفليس لتأكيد مصداقية ماورد بالكتاب. كان الكتاب يُباع مقابل خمسين سنتاً، وكان ضربة قاصمة ذات لغة شعرية وصفحات ساخرة، وسرعان ما أصبح من أفضل الكتب مبيعاً في العالم إذ طُبعت منه أحد عشر ألفاً نسخة خلال ثلاث سنوات في الولايات المتحدة، وتسع طبعات بإنجلترا. وبحلول عام ١٨٥٠ كانت ثلاثون ألف نسخة منه قد بيعت. امتدح النقاد في إنجلترا وأيرلندا "طلاقه اللغوية الفطرية"، وأطلق عليه أحد النقاد الأمريكيين "أكثر الاعمال إثارة للرعب فيما أصدرته المطابع الأمريكية . . وأكثرها أهمية." وأصبح دوجلاس - مثل بطله بايرون - مشهوراً ما بين عشية وضحاها.

لكن مع الشهرة أضحت حريته الآن معرضة للخطر حيث يمكن لتوماس وهيو أولد ولأني محتطفٍ محتمل تتبع آثار تحركاته في جرائد مناهضة الرق. وبالفعل قرأ العديد من ملاك العبيد في بالتيمور وعلى

الشاطيء الشرقى بمن فيهم توماس وهيو تلك الرواية رغم حظر توزيعها قانوناً في ماري لاند أو أي مكان في الجنوب. واشتاطت عائلة أولد غضباً بسبب وصف دوجلاس لحياتهم، وأطلق توماس عليه وصف الكاذب علناً، وسعى هيو للثأر منه وقد أقسم قائلاً: "لن ندخر جهداً ولا مالاً لإعادة ملكيته ثانية" وعلى أن يضعه في حقول القطن بالجنوب.

لكن دوجلاس كان يحيا آمناً تماماً في الجزر البريطانية عندما أطلق هيو تهديداته، لأنه هرب إلى تلك الجزر بعد ثلاثة أشهر من نشره لروايته باحثاً عن ملجأ "من الاستعباد الجمهوري لدى إنجلترا الملكية" بنص ماقاله، وبقت أنا والأطفال - إذ أصبح لهم أربعة أطفال الآن والرابع هو تشارلز الذي ولد في أكتوبر من عام ١٨٤٤ - في لين وعاشوا من حصيلة ربح كتابه وعمل أنا لنصف الوقت كمديرة منزل. قضى دوجلاس حوالي سنتين في إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا مخاطباً جماهير أوسع وأكثر حول العبودية في أمريكا ضاماً آلاف المؤيدين لقضيته.

انتشرت مشاعر مناهضة الرق في بريطانيا، وكانت بريطانيا قد أنهت العبودية بسلام في إنجلترا عام ١٧٧٢ وفي مستعمراتها بالهند الغربية في الأول من أغسطس عام ١٨٣٤. واعتبر دوجلاس حركة الخلاص والاتفاق في الهند الغربية التي حررت ٨٠٠,٠٠٠ من العبيد

بتمويل كامل من الحكومة البريطانية بمثابة "أعظم وأهم حدث من أحداث القرن". "كان ينظر لانجلترا باعتبارها منارة الإنسانية، وملاذ الأمل أن يلهم "الاعتاق البريطاني" الأمريكيين كيما يقتقوا خطاه ويفتحوا عصراً جديداً للحرية العالمية. "كان هناك أثر إلهي في ذلك القرار للأمة البريطانية. كانت روح الله تأمر شيطان العبودية أن يرحل مطروداً من الهند الغربية البريطانية."

وقع دوجلاس في هوى انجلترا وكاد أن يستقر هناك بصورة دائمة. لقد أغرم بالسلوك الإنجليزي والقطارات النظيفة المريحة واختفاء الخنازير من شوارعها، كما عقد بعض الصداقات الحميمية واحتفى به المجتمع البريطاني، ولأول مرة في حياته يلمس غياب العنصرية كلية أمامه، فقال: "من الوهلة الأولى التي خطوط فيها على شاطئهم وتأملت وجوه الناس حولي، رأيت في كل وجه إنسان حولي إقراراً بإنساني، وأحسست بغياب كل ما يمت لمشاعر الكراهية والاشتمزاز بصلة غيباً تاماً. ذلك الشعور الذي كان يطاردنا في أمريكا. "كان يستطع الدخول إلى فندق أو مطعم أو ترام دون أي إزعاج، وأن يمر بأي شخص في الطريق دون أن تمسه نظرة احتقار واحدة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بافتراضه أن كون المرء زنجياً يعد ميزة اجتماعية في المجتمع البريطاني. فكذب ذات مرة لأحد أصدقائه متندراً: "وجدت أنني لم أكن أسود بدرجة كافية بالنسبة

للدوق البريطاني . لكننى حينما أجعل شعرى أشبه مجلقات من
الصوف بقد ما استطع يمكننى أن أبدو نصف زنجي على الأقل،
وبأي مقياس . " بدأ يحتفي بذكرى الأول من أغسطس وهى ذكرى
تحرير الهند الغربية البريطانية بصورة أكثر مهابة من ذكرى الرابع من
يوليو .

ولم يهمل دو جلاس المشكلات الاجتماعية البريطانية خاصة
الفقر المستحل هناك، وأدرك أن الترتيب الاجتماعي في أمريكا ينبع
من التميز العنصري أساساً أما في بريطانيا فقد نبت من وجود
الطبقات نفسها، فقام بعقد تحالفات مع دعاة الدستور الذين كانوا
ينادون بحقوق متساوية للقراء والطبقات العاملة، وأقر بأن غياب
العنصرية يعود في جزء كبير منه إلى حقيقة أن عدداً قليلاً جداً من
السود كانوا يعيشون هناك . لكن على الأقل توجد " الحرية والتحرر "
في إنجلترا .

أدت إقامته بالجزر البريطانية إلى وضوح طبيعة المشكلات في
أمريكا أمامه، واكتشف أن أكبر عقبة تواجه تحرير العبيد لم تكن
الثروة التي تدرها تجارة العبيد ولا الدستور والقوانين التي تدافع
عنها، لكنها تكن في الأحكام المسبقة الشنيعة ضد الزنوج . فالبيض
قد وطنوا أنفسهم على وجود السود العبيد وعلى قهرهم
" باعتبارهم شيئاً لا يمكن تجنبه حتى لو لم يكن مرغوباً . " فالتعصب

العنصري يمنح ملاك العبيد شعوراً بالرضا عن أنفسهم، ويظهر ذنوبهم التي تنتج عن معاملتهم للبشر كأنهم ثيران أو أدوات للجنس.

وما أقتع دوجلاس للعودة إلى الولايات المتحدة كان شعوره بالواجب تجاه رفاقه السود ورغبته الشديدة لإنهاء آلام العنصريين، فأعلن: "إنني لا أحمل حياً لأمريكا، وليس لدى إحساس بالوطنية، وليس لي وطن. ولكن في حبه لإنجلترا لم يكره أمريكا: "إنني أحب الإنسانية عبر آفاق كوكبنا. " لأن ما كرهه كان القوانين والكنايس والجرائد والتشريعات الأمريكية التي تدافع عن بقاء العبودية. وحينما كان بالخارج قامت أمريكا بإلحاق ولاية تكساس كولاية للعبيد وشتت الحرب علي المكسيك سعياً لكسب أراض جديدة لهم. وأراد دوجلاس أن يحطم حصن القهر هذا، وتمنى أن يمزق الدستور وينشره آلافاً من المِرَق، وأن يعيد بناء الحكومة من أساسها إلى قمته ليفي بمبادئ الحرية والمساواة الواردة في إعلان الاستقلال. باختصار أراد أن يستورد لأمريكا بعضاً مما عاينه من إنسانيته في إنجلترا.

وعندما غادر دوجلاس ميناء بريستول متجهاً للولايات المتحدة في بداية أبريل عام ١٨٧٤ كان رجلاً آخر. لقد قضى "أسعد لحظات حياته" في بريطانيا ومر بمرحلة تغير كبرى، وصرح بذلك: "لقد عشت حياة أخرى!" فهو لم يكشف فقط شكل الحياة في عالم

بلا عنصرية، وإنما تعلم أن الحب الأخوي لا يحتاج إلى الشر، وبمعكس ارتباطه بويليام هوايت لم تتوقف الصداقة التي عقدها في بريطانيا على مدى التهديد الذي يشعر به المرء خوفاً على الحياة. ففي الواقع، عقد دوجلاس صداقات خلال عامين قضاها بالخارج أكثر من تلك التي عقدها في وطنه طوال سنى حياته إلى ذلك الحين، ومن شملهم بصداقته جوليا جريفيث، وريتشارد ويب، وجورج تومبسون، وتوماس كلاركسون، واليزابيث بيز، وإيلين، وأنا، وريتشاردسون. وكان يحظى بالشهرة والشعبية لدرجة أن بعض متدبّياته حضرها أكثر من سبعة آلاف شخص. وقد حضر حفل وداعه الذي أقيم له في لندن حوالي أربعمئة فرد، وطوال تنقلاته قدم له عدد لا يحصى من الناس "يد الود والمعاونة والترحيب الصادق".

بل إن أصدقاء دوجلاس البريطانيين قاموا بحمايته بطرق تعامى عنها أصدقاؤه الأمريكيون. فبعد أن سمعوا تهديد أولد لدوجلاس بإعادته للعبودية، حشوه على البقاء في بريطانيا وجمعوا مبلغ ٥٠٠ دولار لإحضار أنا وزوجته وأولاده كذلك. وعندما قرر دوجلاس العودة لأمريكا، اتصلوا بهيو أولد الذي يملك دوجلاس قانوناً ودفعوا له (١٥٠ جنيه) إسترليني - أكثر من ٧٠٠ دولار - مقابل حرية فردريك دوجلاس. كما جمعوا تبرعا إضافيا بلغ ٢٠٠٠ دولار

سلموها لدوجلاس كيما لا يقلق وأسرتة بشأن مصاريف الحياة لفترة
ما .

لم يقبل دوجلاس النقود إذ رأى أن قبولها سيخرجه من زمرة
دعاة التحرر الذين يجب عليهم الكدح اليومي مقابل لقمة عيشهم،
واقترح بدلاً من ذلك استخدام تلك الأموال في شراء مطبعة ليبدأ بها
إصدار جريدته الخاصة الجديدة. كانت المحاولات السابقة لإصدار
جريدة خاصة بالسود قد فشلت ، كان يؤمن بأن الجريدة التي تدار
جيداً وبحريتها رجل أسود ستكون دليلاً قاصعاً على أن الزنجي
إنسانٌ كامل وليس سلعة يمتلكها آخر. كان واثقاً من النجاح لأن
اثنين من أكبر محرري أمريكا وهما هولارس جريلي، وثورلويد بعدما
قاما بقراءة قصته ونشر خطابه من الخارج أطلقا عليه واحداً "من
أكثر رجال العصر موهبة وطلاقة."

عندما وصل دوجلاس إلى بوسطن يوم ٢٠ أبريل كان رجلاً حراً
بحكم القانون، ذائع الصيت في كل أنحاء بريطانيا وأمريكا، ومستعداً
لبدء حياته المهنية الجديدة كصحفي. فاستقل أول قطار إلى مدينة
لين "وعلى مدى خمسين ياردة من منزله قابله ابنه بعيونهم البراقة
الفضولية: لويس ذو الستة أعوام، وفردريك الصغير ذو الخمسة
أعوام. أما ولده الأصغر تشارلز فلم تكن لديه أدنى فكرة عن يكون
ذلك القادم إليه. بدت أنا كمرية أكثر منها زوجة، وكانت تعاني من

ضعف صحتها والعمل الزائد . صرحت له آنا بأنها كانت شديدة القلق بشأن أمنه لدرجة "أنها لم تسمح لنفسها بتوقع عودة زوجها لمنزله كي لا تصاب بخيبة الأمل." ولكن عندما اجتاز فردريك الباب - وطفلاه متعلقان برقبتة - غمرها فجأة "شعور مفرط بالسعادة" .

لم تدم عودته للمنزل طويلاً إذ سرعان ما غادره - خلال أيام قليلة - لرحلة محاضرات أخرى. عندئذٍ قرر ترحيل أسرته مرة أخرى ونقلهم إلى روشيستر وهي مدينة صغيرة صاخبة ومحطة لقطار نفقى تأجج بديران حزب الحرية إلا أنها تقتصر إلى جريدة لدعاة التحرير. عارضت آنا ذلك الانتقال، لكنه أصر لأن هذا الانتقال الأسرى سيسمح له ببداية جديدة، فما كان له أن يدخل في منافسة اقتصادية مع جريدة الليبراتور كما لم يرد أن يخضع لتأثير رب عمله السابق.

أثارت رغبته في الانتقال غضب دعاة التحرير في بوسطن. أما جاريسون، الذى كان ينظر إليه باعتباره تحت حمايته ثم اكتشف أن ذلك ليس أمراً ذا بال بالنسبة إلى دوجلاس، فقد شعر أنه كالحيث المهجور ولم يغفر له ذلك المهجر أبداً.

اتسع مدى ذلك الصدع ليشمل باقي الدعاة في بوسطن فاعتبروا دوجلاس مرتداً، وعارضوا عملية شراء حرته لأن ذلك يقر بحق

"الانحجار في البشر" وبالتالي لا يتفق مع مبادئ دعاة التحرير، وأرادوا من دوجلاس أن يعلن تخليه عن محاولات "عقه" من العبودية. فقد كانوا حينذاك فهم يرون أنه من "اعبث" بالنسبة لعبد سابق تربى وسط تلال من الجهل أن يدعي القدرة على أن يكون محرراً ناجحاً، فالخطيب المفهوه الهارب - الذي يقوم بتعريه ظهره "المجلود" للجماهير التي يصددها المشهد - شيء و المحرر الذي يقوم بتنوير وتثقيف القراء المتعلمين بمبادئ الحرية والعدالة والإنسانية شيء مختلف تماماً. الأمر لا يحتاج إلى جريدة - كما قالوا - لأنها لن تنجح، فجدوى ونفع دوجلاس مقصور على كونه خطيباً لا محرراً.

لم يؤثر ذلك النقد على دوجلاس رغم أنه عرف أنه وهو يواصل طريقه لصناعة نفسه سيهجر أصدقاءه وحلفاءه خلفه، فأصدقاء اليوم غالباً ما يكونون غرباء الغد، خاصة دعاة التحرير الذين كانوا يكرهون الحلول الوسطى، وفي حين كان هو نفسه مستمراً في التغيير، ظلوا على ما هم عليه وإن تغيروا بطرق متنافرة، لأن دوام الحال من المحال في مجزئ القلب نادراً ما يبقى الحب وال صداقة.

عندما عاد لنكولن إلى مدينة نيو سالم من حرب البلاك هوك (الصقر الأسود) في خريف ١٨٣٢، كان محل التجارة العامة الذي عمل به قد تلاشت موارده. ومن ثم، احتاج إلى عمل آخر رغم أنه لم

يكن قلقاً إذ كان يتقاضى معاشه العسكري (١٢٠ دولار) بالإضافة
لوجوده وسط أصدقائه العديدين. فكر لنكون في العمل حداً لكه
تذكر مدى كراهيته للعمل اليدوي. كان شغوفاً بالقانون لكنه أدرك
"أنه لن ينجح في هذا المجال دون تعليم أفضل". قرر أن يتهمل
واشترى نصف حصة في متجر عام مشاركاً ويليام بيرى الذي كان
ضابطاً للصف عنده أثناء حرب البلاك هوك وهو رجل سيكر من
أبناء القرى. وقد اشترى نصيبه هذا بضمان موقعاً على إيصال
ينص على موعد "للدفع الكامل لكل المبلغ".

كان ذلك استثماراً فاشلاً إذ كانت هناك ثلاثة محال تجارية
بالقرية؛ إثنان منهم زائدان عن الحاجة. من هنا كانت المنافسة بينهم
شديدة الشراسة، فساعده إخوانه من كلاريس جروف باستبعاد
واحد من المنافسين عندما أثمّلتهم الخمر ذات ليلة فقاموا بتعطيم
محل يملكه روبين رادفورد. دمروا نوافذه وكسروا معداته وأتلفوا
كثيراً من بضاعته. لم يشجع لنكون أصدقاءه ولا قام بأي دور فيما
فعلوه. لكن رادفورد "خشية أن تشارك عظامه مصير نوافذه" قرر
بيع المحل فقام لنكون وبيرى بشراء ما تبقى من تجارته بالائتمان.

بدأ العمل يزدهر. وكان لنكون وبيرى يبيعان مواد البقالة
والسلع الجافة، والخمور الرخيصة، وكان معظم دخلهما من تلك
الخمور. ورغم أن لنكون لم يكن من شاربِي الخمر بل ويعدها شراً

مستطيراً، إلا أنه لم يسمح لأخلاقه أن تعوق عمله التجاري. وفي الواقع أنه سعى هو وشريكه للحصول على تصريح ببيع الخمر في زجاجاتها - طلباً للمزيد من الدخل - مما حول مشروعهما التجاري إلى مزيج من محل البقالة وحانة الشراب. وفيما بعد - بعد عدة سنوات - عندما اتهمه خصمه السياسي ستيفن دوجلاس بأنه يمتلك مشروعاً تجارياً مزدهراً للبقالة في نيو سالم، أنكر لتكون ذلك بقوله: "أنا لم أحتفظ طيلة حياتي بمحل للبقالة في أي مكان أبداً." لكن العديد من جيرانه يذكرونه جيداً وهو يبيع الخمر مشيرين لتجارته على أنها "محل للبقالة".

حتى تجارة الخمر لم تستطع إقاعه، ففي خلال عام واحد انتهت تجارته، وأصبح بلا عمل مرة أخرى. وحصل له بعض أصدقائه على وظيفة مدير بريد تدرّ له نحو ٥٥ دولار في السنة وذلك في نيو سالم، ثم حصل على عمل آخر كمامل مساحة - لتوازنه الدخل والمنصرف - لكنه كان مديناً بـ (٢٠٠ دولار) وعندما حان موعد استحقاق الدين ولم يستطع أن يدفع، تم بيع جواده وسرج الجواد وأدوات المساحة في المزاد. ومرة أخرى أنقذه أصدقاؤه فاشترؤا عدة المساحة خاصة وأعادوها إليه.

واقبل حظ لتكون عندما تم انتخابه بمجلس الولاية.

إذ كان لنكونن قد رشح نفسه في الانتخابات - جزئياً - من أجل المرتب لكنه كان - أيضاً - يُحب الانخراط في السياسة ويحظى بتأييد العديد من الأصدقاء في مدينة نيو سالم. كان ينتمي - سياسياً - لحزب المحافظين^{١٠}، ذلك الحزب الذي برز نجمه تحت زعامة هنري كلاس لمعارضة الرئيس أندرو جاكسون من الحزب الديمقراطي. وضع كلاي مركز برنامجاً للمحافظين دعاه "النظام الأمريكي" يؤيد وجود حكومة مركزية قوية ووجود بنك وطني، ورسوم جمركية، وطرق وقنوات مائية وغيرها من التحسينات الداخلية التي تشرف عليها، و"تبنى معظم أعضاء الحزب - بمن فيهم كلاي - إصلاحات يمينية محافظة مثل الاعتدال والاستعمار كوسائل للحد من تجاوزات الديمقراطية خاصة السكر والعبودية". وبينما أبدى الديمقراطيون ميلاً لدعم العبودية ودافعوا عن حقوق الولايات، فقد اعتبروا أنفسهم حزباً لبسطاء الناس، وادّعوا "أن حزب المحافظين يفضل نمو طبقة الأرستقراطية".

ورداً على ذلك أكد كلاي أن مؤيدي نظامه كانوا "رجالاً عصامين"، وهو مصطلح تمت صياغته عام ١٨٣٢ واتشر استخدامه بعدها. كان الرجل الأبيض بالنسبة لكلاي هو الوحيد الذي يمكنه أن يكون عصامياً، وقد صدق لنكونن على كل مظاهر

^{١٠} حزب نادى بالثورة على بريطانيا وعارض الحزب الديمقراطي وأصبح الحزب الجمهوري فيما بعد - المترجم

نظامه الأمريكي وأشار إلى كلاي باعتباره "المثال الجميل لرجل دولة بقيت أذائع عنه طيلة حياته المتواضعة" سوبقي هو نفسه على مبادئ المحافظين ما بقي من حياته .

فى عام ١٨٣٤ خلال حملته الإنتخابية تجاهل لنكون إسماء للنظام الأمريكي وفقاً لرؤية كلاي . إذ كانت مقاطعته منقسمة بين مؤيدي المحافظين فى نيو سالم وبين مزارعى الكفاف الديموقراطيين فى الريف . وما كان لينجح منطلقاً من برنامج المحافظين . لذا ، فبدلاً من طرح القضايا السياسية للنقاش أسرف فى الترحيب بالناخبين وتملقهم ، وكان كثيراً ما يرتحل فى أرجاء البلدة كساع للبريد مكوّماً الخطابات فى قبعته ويوزعها على المرسلة إليهم . ووفرت له هذه التنقلات فرصة لطلب أصوات الناخبين . كما أن عمله كمساح طبوغرافى ساعده كثيراً ، ففى إحدى رحلاته تلك لمسح حدود بعض الأراضى على بعد إثنى عشر ميلاً غرب نيوسالم ، شاهد ثلاثين فلاحاً يحصدون أحد الحقول وبعد ما قدم نفسه لهم أخبروه أنهم لن يصوتوا لصالحه ما لم يتم بمساعدتهم فى أعمال الحصاد . فأجابهم لنكون " حسناً يا فتيان ! لو أن هذا كل ما فى الأمر ، فأننى متأكد من حصولي على أصواتكم . " وأمسك بآلة الحصاد وتقدم الجميع إلى الحقل . وتذكر أحد الفلاحين ذلك بقوله " وامتلاً الفتيان بالرضى ، ولا أظن أنه فقد صوتاً واحداً منهم . "

أهملت الحملة الانتخابية لنكون بضرورة دراسة القانون . فحتى ذلك الحين، كان يشعر دوماً بعدم كفاية استعداده لمثل تلك المهنة . وضحك بعض الناس في نيوسالم عندما تناهت لأسماعهم فكرة عمله كمحام، بل أن باوليج جرين - قاضي الصلح البدين - سمع لنكون ذات مرة يقدم تعليقا قانونيا فانفجر ضاحكا لدرجة أن جوانبه السمينة اهتزت في ارتعاشات عنيفة . لكن خلال الحملة تلقى لنكون الدعم والتشجيع من محامي سبرنج فيلر، جون تود ستيوارت، السياسي المحافظ وابن عم زوجته مستقبلا . وبعد الانتخابات، استعار كتب القانون من ستيوارت : "وأخذ الكتب معه إلى البيت، وأقبل عليها بنهم شديد ."

بدأ لنكون دراسته القانونية بقراءة "تعليقات بلاك ستون"؛ ذلك المؤلف المكون من أربعة أجزاء لتاريخ القانون في إنجلترا والذي صدر لأول مرة عام ١٧٦٥ ثم أعيد نشره عدة مرات وكان مطلوبا دوماً عند المحامين الناجحين رغم حقيقة أنه "يأتى في الترتيب الثاني بعد الكتاب المقدس كمؤثر ثقافي وأدبي في تاريخ المؤسسات الأمريكية . " وفيه شرح بلاك ستون تطور القانون كعملية عقلية منهجية وعلمية "تصف بدقة أحكاما تتعلق بكل إنسان بدءا من الملوك وصولا إلى العامة " . وكان تركيزه على النظرية والمبادئ وليس على الإجراءات، وكانت رؤيته بشأن كونها عملية متصلة غير

مقطعة تماشى مع الحالة القائمة. وظلت شروحه رائعة حتى للقراء المتعلمين، فرغم أن ثره كان رشيقا إلا أنه كان مكثفاً وبارعاً وخصب المعاني.

لقد أثرت شروحات بلاك ستون بصورة حاسمة في التفسيرات القانونية للرق. فمن ناحية يؤكد بلاك ستون أن "قانون الطبيعة باعتباره إملاء من الله ذاته" أعلى مرتبة من جميع القوانين الأخرى؛ فقانون الإله أو القانون الطبيعي يفوق القوانين الوضعية" التي يشرعها الإنسان. وقد أسهم تأكيد هذا في صدور قرار سومرست عام ١٧٧٢ القاضي بتحرير العبيد بصورة فعالة في إنجلترا (حيث أكد المحامون البريطانيون بنجاح أن العبودية تقيض للقانون الطبيعي). أما في الولايات المتحدة، فقد اعتمد حزب الحرية ودعاة التحرير فيه على كتاب بلاك ستون في إعلان أن أية قرارات حكومية لا يمكنها أن تسود فوق القانون الطبيعي الذي يمنع الرق. بيد أنه من ناحية أخرى افترض بلاك ستون أن القانون الطبيعي لم يؤثر على الحقوق التعاقدية لملاك العبيد.

قام أغلب المحامين الأمريكيين والقضاة بتفسير شروحات بلاك ستون بصورة محافظة إذ أعطوا الأولوية للقانون الوضعي والقانون العام (المؤسس على السوابق) فوق القانون الطبيعي. ونتيجة لذلك،

^{١١} تفسير القوانين الوضعية للقوانين التي تنشئها أو تقرها السلطات والسلطات الحكومية. - المترجم

جذبت مبادئ القانون الأمريكي في عقود ما قبل الحرب الأهلية قليلاً من المصلحين الثوريين لأن تغيير المجتمع لا بد وأن يتك على حساب من السوابق القانونية. وبالتالي فالحامون الذين أصبحوا دعاة للتحرير إما أنهم هجروا العمل بالقانون كهنة مثل ويندل فيلبس أو أصبحوا أعضاء في حزب الحرية.

وقد تأثر لنكولن ببلارك ستون كثيراً حيث يقول: "لم أقرأ أبداً مؤلفاً أثارني وهزني بشدة مثل ذلك." وانبثقت معارضته لانتشار الرق جزئياً انطلاقاً من احترامه للقانون الطبيعي الذي اعتبره مناقضاً للعبودية، ورأى أن القانون الوضعي الذي شرع العبودية كان استثناءً للقانون الطبيعي بشأن الحرية. لكن لنكولن رأى أن القانون الطبيعي لا يمكنه أن يتجاوز القانون الوضعي وذلك يعنى أن الرق كان محمياً في الولايات التي تشرع قوانينها لذلك إلا أنه على الحكومة الفيدرالية أن تمنع انتشار العبودية إلى مناطق جديدة ليس بها موثيق أو قوانين في هذا الشأن.

بينما كان الحامون النابهن يدرسون تحت إشراف مرشد بأحد مكاتب القانون، كان لنكولن يدرس دون معاونة أحد - حسب قوله وربما قرأ مؤلف بلارك ستون الضخم مرتين ثم تلاه بكتب الإجراءات القانونية. وكساع للبريد ومالك لخل بقالة - سابقاً - كان يقرأ غالباً أثناء العمل من أشعار روبيرت بيرنز وحتى أعمال

شكسبير، بل وحتى الجرائد . لكن تلك القراءات كانت خفيفة أما دراسات القانون فتطلبت استغراقه الكامل فيها دون مقاطعة . لذا، كان في الأيام التي لا يعمل فيها يجلس بجوار شجرة بلوط ضخمة وينكب فوق كتاب بلاك ستون "مُغَيَّراً مكانه كلما ارتفعت الشمس ويفرق في التعلم" كيما يبقى في الظل "غير منتبه لأي شيء" حوله سوى مبادئ القانون . "استغرق كتاب بلاك ستون كل وقته حتى أنه كان يغفل عن موعد الطعام فتفقد حوالي ثلاثين رطلاً من وزنه ليصل إلى ١٧٠ رطلاً .

بالنسبة لأغلب سكان نيوسالم، كانت دراسة لنكون للـقانون تشبه قليلاً محاولة أحد خريجي جامعة ييل الاشتباك في عراك ومشاجرات الأحياء الشعبية . وذات يوم، رأى راسل جودبي - وهو مزارع بالمدينة له لحية مدببة - لنكون جالساً بجوار كوم من الأخشاب وهو يقرأ فظنه غريباً وسأله: "ماذا تدرس؟" أجابه لنكون: "أدرس القانون . " فصاح جودبي: "يا الله العظيم القادر!" لم يكن هو الوحيد الذي كان قلقاً بشأن تسلط كتاب ستون على عقل لنكون إلى درجة قد تصل به إلى حافة الجنون .

هندم لنكون مظهره قبل أن يبدأ وظيفته الجديدة في فنداليا عاصمة الولاية، فاقترض ٢٠٠ دولار (١٥٠٠٠ دولار بعملة اليوم)،

واشتري بعضها أول بذلة يمتلكها في حياته، وسروالاً على مقاسه تماماً، وبعض المستلزمات المطلوبة لتحقيق الاحترام وقميصاً أبيض وأزرّة وصدرية من الحرير وزوجاً من الأحذية الجلدية طويلة الرقبة وبعض الملابس الداخلية . وأخبر داتنه بذلك قائلاً: "أريد أن أبدو في مظهر رقيق في المجلس التشريعي". لكنه مهما أفق على ذلك لم يستطع أن يحو علامات نشأته الرفيعة، فملابسه دائماً ممزقة "ومنسلة" وملطخة، والكلمات التي كان يستخدمها المتعلمون والاحترمون لوصفه غالباً ما كانت من مثل "مبهدل"، "جربان"، "قبيح"، "فظيع". وبمعكس دو جلاس، لم يبد لنكون أبداً كقطعة فنية جميلة.

مع ارتداء لنكون هذا الكم الكبير من الملابس من أجل وظيفته، نجد مبنى الولاية شأنه شأن جميع المباني في المناطق الحدودية، وقد بدا متهاكاً لأنه لم يُشيد ليبقى للأبد رغم أن عمره عشر سنوات فقط، فالمرء يرى قطعاً من الجص تساقط من سقفه مهددة حياة النواب، وغرفة المجلس المكونة من غرفة احتياطية ضخمة مزودة بمناضد خشبية خشنة، ووعاء كبير للماء (أو للخمر) معه عشرة أكواب. ومبصقة تشبه صندوق النفايات الذي يستخدمه ماضغو التبغ الذين يشكلون الجزء الأكبر من أعضاء المجلس الأدنى . هكذا تداعى المبنى حتى أنهار في عام ١٨٣٦ تماماً بل تقريباً انفجر إلى

داخله، وتعين بناء مبنى آخر للمجلس، وما كانت بلدة فانداليا
بساكنيها الألف أفضل حالاً من مبنى مجلسها إذ لم يكن فيها فنادق
ولا أماكن إقامة سليمة وملائمة، مما أدى بنواب المجلس إلى الإقامة في
الحانات المتعددة حيث يسود السكر والتشاجر ويصبح جزءاً من
الجو العام للمكان.

قضى لنكون ثلاثة أشهر من السنة في فنداليا، وفي الدورة الأولى
للمجلس شعر بالعزلة وعدم الأمان ونادراً ما تكلم رغم أن ثلث
الأعضاء كانوا جُدداً مثله. لكنه تعلم كيف يقدم ويمرر القوانين
بسرعة في المجلس التشريعي وكيف يتعامل مع الحيوانات الضالة
والموحشة، وكيف يجمع أموالاً لشق الطرق والقنوات الجديدة وكيف
يحسن نمو الأعمال الاقتصادية كي لا تعود البلدة مدينةً للأشباح.

وكان أسلوب لنكون في الكلام مكلفاً ومتوراً، حتى إنه كان
يتحدث بنغمة حادة تبدو غريبة عند صدورها من رجل في حجم
لنكون، بل إن تنوع خطابه - رغم تحسنه من قراءته لكتاب
"الخطيب الكولومبي" - بدا مقتضباً، فقد اندفعت كلماته في
انفجارات متقطعة وبدا - غالباً - متمللاً أثناء حديثه، وعُرف عنه
أنه يتكلم ويداه في جيوبه أو يلوح بهما بانفعال كرجل ريفي من قرى
الغابات يتحدث إلى أشباهه، يفتقر إلى بلاغة خطباء الشرق. لكن
رجال تلك القرى كانوا يشعرون بالشك إزاء البلاغة الزائدة. ولو

استقاد فريدريك دوجلاس ورفاقه في بندلتون من تلك المعلومة،
لكانت مَدَنِيَّتُهُم الصافية سبباً من أسباب هزيمة أبناء الريف هؤلاء .
وفي عام ١٨٣٦ عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه، طالب
الناخبون في نيوسالم مرشحهم "بالكشف عن اتعائاتهم" وذلك
بتحديد برامجهم ، ومع تدفق المهاجرين الأيرلنديين إلى الولاية للعمل
في شق القنوات أضحت قضية حق التصويت مسألة محورية لأن
أولئك العمال لم يكونوا يحوزون أية ملكيات فصوتوا لصالح الحزب
الديمقراطي . لذا، لم يرغب لنكون في أن ينالوا حق التصويت أبداً إذ
قال: "أدعو للسماح لكل البيض بحق التصويت، أولئك الذين يدفعون
الضرائب ويحملون السلاح (وبالتالي يُقصى النساء كذلك) . فالرجال
البيض الذين يدفعون ضرائب الملكية أو يخدمون بالقوات المسلحة
الأهلية هم من يجب السماح لهم بالتصويت (ولم تكن هناك ضرائب
على الدخل وقتها) . كانت إشارته الاعتراضية للنساء تستهدف
التنكيك لأن الكل يعلم أن حقوق النساء قليلة ولا يستطعن دفع
ضرائب الملكية ولا الخدمة المسلحة ولا حتى التصويت . في حين
كان دعاة التحرير من أمثال دوجلاس وجاريسون ينادون بحقوق
متساوية للجميع . أما لنكون فقد تبنى برنامج المحافظين واستخدم
وضع المرأة باعتبارها من الدرجة الثانية مصدراً للضحك، كما أن
السود حُرِّموا من حق التصويت في ولاية إلينوى، فأراد لنكون الإبقاء

على ذلك الوضع والواقع أنه قام بنفسه بانتقاد مارتن فان بورين بقسوة لاعتناقه مبدأ حق التصويت للسود في ولاية نيويورك. وبالنسبة لقضية حق التصويت، كان لنكولن براجماتياً، فالدعوة لحقوق السود والنساء تعد انتحاراً سياسياً. لكنه كان في الجزء الآخر من برنامجه متبصراً ومثالياً، حيث أراد لولاياته الحدودية أن تنشئ نوعاً من شبكة النقل شبيهة بما قضت ماساتشوستس حوالي قرن في تنفيذه، وأراد أن تقوم الحكومة الفيدرالية بالإتفاق على ذلك من حصيللة بيع الأراضي العامة.

كان برنامج نخبويًا، فالمهاجرون سوف يقومون بشق القنوات والطرق الممولة فيدرالياً لتفيد الرأسمالين لكنهم يجب ألا يمنحوا حق التصويت.

والمفارقة أن برنامج لنكولن تجاهل وضعه الاجتماعي هو نفسه لأنه كان هناك الكثير مما يربطه بمزارعي الكفاف وعمال الحفر، فهو لا يحوز أية ملكية ولا شيئاً ذا قيمة يمكن بيعه عدا مهاراته المتواضعة في مجال العمل المساحي. وكانت خدمته في القوات الأهلية فقط هي التي تمنحه حق التصويت وفقاً لبرنامجه. لكنه كان يحسب نفسه على رجال الريف العصامين ومخطط لبداية جديدة. وقد حصل على تلك البداية عقب انتخابات أغسطس عندما حصل على شهادة القانون التي سعى إليها.

كان برنامج لنكونلن يستهدف إتقاذ نيوسالم من التدهور، لأن الطرق والقنوات المائية التي تمر عبر المدينة كانت في حالة شديدة السوء. ومن ثم، أخذت أعمال المدينة التجارية في الاضمحلال وحدث هروب جماعي إلى المدن الأكبر. كان النزوح شديد الأثر لدرجة أن قيمة الممتلكات هبطت بمقدار ٩٠% في سنة واحدة، وساعدت أجواء القلق بشأن مستقبل المدينة لنكونلن على الفوز رغم أنه خسر أصوات الفلاحين الكادحين في المناطق الريفية مثل كلاري جروف، وحتى صديقه جاك أرسترونج، وهو فلاح فقير، قرر ألا يصوت لصالحه.

خلال دورة المجلس لعامي ١٨٣٦-١٨٣٧، صنع لنكونلن من نفسه زعيماً للمجلس. وعمل جاهداً ضمن مجموعة مكونة من ثمانية أعضاء على نقل العاصمة من فنداليا إلى سبرنجفيلد وإنشاء طرق وقنوات جديدة. وكان أولئك الأعضاء المعروفون بلقب "الطوال التسعة" - لأن متوسط طولهم كان ستة أقدام - يؤكدون أن فنداليا صغيرة جداً وثابتة إلى الجنوب بأكثر مما يجب في ولاية يتطور النمو فيها إلى الشمال. فدبروا ١٠ ملايين دولار من سندات تصدرها الولاية لمدة سلسلة من السكك الحديدية فيها.

لكن الاضطراب الذي وقع عام ١٨٣٧ دمر المشروع العظيم لبناء الطرق الذي تبناه التسعة الطوال وأغرق الولاية فيما يشبه الإفلاس،

إذ بيعت الصكوك مقابل ١٥ سنناً لكل دولار، وأصبح ريف إيلينوى مملوءاً "بالطرق غير المكتملة وبالقنوات شبه المحفورة"، وأضحى رمزاً للآزمة الاقتصادية لعدة سنوات. وانتهى الناس لتكوين بالتسبب في الانهيار لكنه كان يعرف كيف يقاتل وهو يراجع ويصمد في الهجوم.

ونجح فريق "التسعة الطوال" في تحقيق هدفهم لنقل العاصمة إلى سبرنجفيلد التي كانت على بعد عشرين ميلاً فقط من نيوسام، وقد نشط الاقتصاد هناك بفعل ذلك الانتقال، واستفاد منه لتكوين وأمثاله من العصامين الطموحين. ففي الواقع، تبع ذلك انتقال لتكوين إلى سبرنجفيلد حيث بدأ مشاركة زميله في حزب المحافظين والمستشار القانوني جون تود ستوروات في العمل القانوني. وفي واحد من آخر قوانين الدورة التشريعية لعامي ١٨٣٦ - ١٨٣٧، كشفت الجمعية للمجلس عن مدى إغراق إيلينوى المحافظة في العبودية، فقد مرر المجلس - بصورة مجهولة المصدر تقريباً - سلسلة من القرارات التي تحظر إنشاء جمعيات لدعاة التحرير تدافع عن الحق "المقدس" والدستوري في امتلاك العبيد في ولايات يوجد بها ذلك النظام البشري واقعاً، ودلت على ذلك بعدم قدرة الحكومة الفيدرالية "المركبة" على منع الرق في مقاطعة كولومبيا دون رضا المواطنين.

كان لنكونين مع رفيقه السياسى المحافظ دان ستون هما المنشقان الوحيدان هناك. لكن حينما أصدرتا اعتراضاً رسمياً، كانت وجهات نظرهما لا تختلف كثيراً عن آراء الجمعية العامة. الفارق الوحيد هو أن لنكونين وستون وصفا العبودية بأنها "خطأ"، لأنها نجمت عن ظلم وسياسة خاطئة "لكنهما لم يؤيدا جمعيات دعاة التحرير بوضوح" لأن دعاوى مباديء دعاة التحرير تميل إلى زيادة شرور الرق لا إلى القضاء عليها. "لكن كيف يزيد دعاة التحرير من شرور العبودية؟ ذلك ما لم يوضحاه أبداً. لكنهما في ولاية أسسها الجنوبيون لم يستطيعا إبداء تعاطفهما مع خصوم مؤسستهما. وقد عكسا صدى قرارات الجمعية العامة للمجلس بالتأكيد على أن أية مسائل تتعلق بالرق وبعتقهم لا بد وأن تترك لسادة العبيد أنفسهم. وهكذا كانت قرارات المجلس واعتراض لنكونين وستون رد فعل حذر ومحافظ أمام مشكلة العبودية، وعندما دخل لنكونين انتخابات الرئاسة أشار لذلك الاعتراض وقال إن موقفه من العبودية لم يتغير منذ عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٦٠. لكن تلك كانت كذبة ووسيلة لاتقاء الاتهامات الموجهة له كرجل راديكالى. وخلال الأعوام الثلاثة والعشرين التالية، سيصبح أقل اتساعاً للفكر المحافظ.

انتقل لنكولن إلى سبرنجفيلد يوم ١٥ أبريل من عام ١٨٣٧، مخلفاً وراءه بلدة تختصر لتصبح - سرعاً - مدينة للأشباح، ومعها مشروعات فاشلة للزواج. في الخطبة الأولى تقدم للزواج من آن روتليدج ابنة أحد ملاك الحانات الذي كان يقطن عنده لبعض الوقت، "وهي أصغر منه بثلاث سنوات، وكانت قصيرة ومكتنزة وتعد واحدة من أجمل بنات القرية." كانت مخطوبة لرجل آخر اسمه جون ماكيلل مما أثار العديد من الأسئلة حول مدى جدية خطوبتهما. وبافتراض أن ماكيلل غادر نيوسام لزيرة والديه في نيويورك، إلا أنه غاب لشهور طويلة مما أثار عدداً من الأسئلة حول شخصيته، وفي بدايات ربيع ١٨٣٥ وافقت آن على الزواج من لنكولن إذا ما استطاعت الحصول على "فسخ مشرف لخطوبتها" من ماكيلل. كان لنكولن قد عاد لتوه من الدورة الأولى للمجلس في فنداليا، ولم يكن على عجلة من الزواج فآن تحتاج إلى وقت كيما تتخلص من خطوبتها، ولنكولن أراد أن يستكمل دراساته القانونية ليلحق بنقابة المحامين. لذا، حددا موعداً مؤقتاً في أواخر عام ١٨٣٦ أو ١٨٣٧، لكن آن أصابها "حمى" أصابها في المخ - ربما كانت التيفود - في صيف ١٨٣٥ القافظ المطر، ثم ماتت في أغسطس من نفس العام، وألقى موتها لنكولن في أكتاف حاد (فقد كان حقا يميل إليها) وتعامل مع الموقف بالاستغراق في دراساته القانونية، ورغم

أن موت آن أزعجه، إلا أنه كان رمزاً "باقتراب نهاية نيوسالم بالنسبة له."

كانت الخطبة الأخرى لماري أونز، وهي امرأة من كنداكي قابلها لنكون أول مرة عام ١٨٣٣ عندما كانت تزور أختها في نيوسالم. كانت متعلمة جيداً ومتحدثة وطيقة الكلام أحياناً، ومن نفس عمر لنكون (خمس وعشرون سنة وقتها). كانت ماري تنحدر من أسرة ثرية بصورة متواضعة، وكانت "مهذبة السلوك ممتعة الحديث، ولها جاذبية في المجتمع"، وفقاً لوصف أحد جيرانها. كان لها شعر أشقر وعينان زرقاوتان داكستان، ولم يكن طولها عادياً بالنسبة لامرأة، إذ كانت تصل لخمس أقدام وخمس بوصات ويبلغ وزنها ١٥٠ رطلاً. أوقع مرآها لنكون في هواها، إذ راح يتفاخر أمام أحد أصدقائه بقوله إن ماري لو عادت لزيارة أختها مرة أخرى لتزوجها، وسواء سمعت أختها بذلك أم لم تسمع، فقد قامت بدور "الخطابة" بينهما فأعادت ماري لنيوسالم لزيارة ثانية عام ١٨٣٦، وبدأ الاثنان في التواد ثم عقدا الخطوبة في الحال.

أحبت ماري لنكون واعتبرته "رجلاً له عقل صافٍ، ورغم كونه جلفاً إلا أنه نشط ومبدع"، وتوقعت أنه سوف يسمو فوق مكاته البسيطة والمتواضعة في المجتمع يوماً ما. ١٥١ لكن ماري كان لها طموحاتها أيضاً، إذ رأت أن لنكون "رجل هزيل الجسم متعثر

الخطى" في مظهره، وباختصار (ليس منظراً) وهو "عيب في تلك الحلقات البسيطة التى تشكل السلسلة الكبرى في سعادة المرأة."

ذات يوم وهما في فترة التعارف ذهبا يتجولان ممتطين جوادين ومعهما قلة من القراء، فواجهها شجرة ساقطة وسط الطريق. وبينما كان الرجال يقومون بمساعدة رفاقهم على العبور، انطلق من بينهم لنكون قافزا عليهم. تذكر مارى ذلك بقولها إنه حتى "لم ينظر خلفه ليرى كيف ساجاز المسألة." وعندما سألته - متضحكة - عن ذلك الموقف أجابها أنها: "ذكية جداً بما يكفى لرعاية نفسها بنفسها." لم تعلق على تلك الواقعة، لأنها أدركت أن وقاحة لنكون ناجمة عن قلة الخبرة وليس عن الوضاعة، ففي أغلب الأحوال كان "حساساً تجاه أى خطأ" كما قال بنفسه، والرجال المتعلمون الواعون كانوا نادرين.

عندما ذهب إلى فندياليا لحضور الدور التشريعي لعامي ١٨٣٦-١٨٣٧، شعر بأنه يفقد مارى، وظل ينتظر خطاباتها وكتب إليها بأسلوبه المتردد: "حقيقة لا يمكننى تحمل فكرة البقاء هنا عشرة أسابيع... أرجو أن تكلمي لي حالما يصل اليك مكتوبي هذا ولو أمكنك أن تقولي لي شيئاً يسرنى، لأنني فعلاً لم أجد ما يسرنى منذ غادرتك."

لكن بعد انتقاله إلى سبرينجفيلد شعر لينكون فجأة برعب

وخوف شل تفكيره . وعندما يحاول كتابة خطاب غرامى وهو في
 فنداليا، كان يخطط ملحوظة تمليء بالأسى: "إننى وحيد تماماً هنا
 كما كنت طيلة حياتى بأى مكان آخر." لكنه لم يكن في الواقع
 وحيداً من أجلها "وأخشى أنك لن تكوني على راحتك. في
 سبرنجفيلد "فهنا ازدهار كبير في حركة العرصات، سيكون قدرك أن
 تشاهدها دون ركوبها، حيث ستكونين فقيرة دوناً وسيلة لإخفاء
 فقرك، هل تظنين أنك قادرة على تحمل ذلك في صبر؟" لأنه كان
 مدركاً مدى رفاهية تربية مارى مقارنة بنشأته الفقيرة. اتابه القلق
 حول قدرته في توفير وسائل عيشها كما اعتادت أن تحيا . بالتالي،
 كان يعاني من أزمة في إحساسه بالرجولة. كان لينكولن غير مطمئن
 بشأن الزواج من امرأة بهذا الوضع لدرجة أنه تمنى إيقاف الزواج.
 لكنه لم يرغب في فقدان ماء وجهه إذا ما فك ارتباطه بها من تلقاء
 نفسه. لذا، صمم خطابه بحيث يدفع مارى لاتخاذ هذه الخطوة من
 جانبها، فكتب لها أنه: "ملتزم بشدة بخطوبتهما والسعى للزواج
 بها . . متمنياً "إنها ترغب في ذلك" . ثم قدم لها نصيحته بقوله:
 "فى رأيى أنه من الأفضل لك ألا تفعل ذلك، لأنك لم تعادى الحياة
 الخشنة وربما يكون الأمر أفسى مما تتخيلين الآن." وباعتبار مارى
 سيدة راقية فقد أدركت تلميحه وسرعان ما فسخت الخطوبة .
 وبعد ثمانية أشهر، وبمجرد أن انتهت مخاوفه وبقيت كرامته

كرجل سليمة، حوّل لتكون تلك الصدمة إلى نكته، ففي أحد خطاباته بمناسبة "كذبة أبريل" عام ١٨٣٨، الذي أرسله إلى إليزا براوننج - وهي زوجة أحد رفاقه مجرب المحافظين وكان يثق بها - روى لها تلك الحكاية دون أن يذكر اسم ماري، وقال إنه وافق على الزواج بها حينما رآها "قبل ثلاث سنوات من الواقعة، معتقداً أنها ذكية وملائمة، ورأى عدم وجود سبب للاعتراض على خوضهما الحياة بدأً بيد معاً". لكنه عندما رأى ماري مرة ثانية بعد السنوات الثلاث أربعه منظرها: "لأنها بدت غير ما تراءت في مخيلتي. كنت أعلم فعلاً أنها ممتلئة، لكنها بدت الآن أشبه كثيراً بشخصية (فولستاف) السمينة التي ابتكرها شكسبير، وأضاف: "أعلم أنها كانت تدعى (العذراء العجوز)، ليس بسبب ملامح ذائبة لأن بشرتها كانت ممتلئة بالدهون لدرجة لا تسمح بظهور الأخاديد عليها، وإنما كان ذلك بسبب تساقط أسنانها، ومظهرها الذابل المنسحق بشكل عام، وأيضاً بسبب فكرة ما طرأت على ذهني بأنه لا يمكن لشيء يبدأ من حجم طفل ليصل إلى هذا الحجم - الذي هي عليه الآن - إلا بمرور خمس وثلاثين أو أربعين سنة على الأقل عليها". هنا يسقط لتكون مخاوفه بشأن الزواج من امرأة ثرية ذكية وشابة راقية ليحولها إلى شمطاء سمينة وعجوز ثراء. بل وتمادى لينكون في وصف زواجه المقبل من ماري ليدعى أنه نوع من القيد

الأكثر سوءاً من عبوديته السابقة لوالده، "وأقسم ألا يعود للتفكير في الزواج أبداً". "تقيود الزواج هددت اعتزازه برجلته، مثيرة إحساسه بالخوف من واجباته والتزاماته كزوج، إذ كان قد انتقل لتوّه إلى سبرنجفيلد كيما يبدأ مستقبلاً مهنيًا جديدًا، ومثل باقي أبطال المناطق النائية في المخيلة الأمريكية، كان في حاجة إلى فراغ كافٍ يتحرك فيه، وليس في حاجة إلى امرأة تقيد به في المكان، ومن ثم لم يشعر لنكولن بالارتياح للنساء العزباوات اللواتي يجعلنه مصدرا للسخرية "كن يضحكن منه في وجهه" هذا ما قالته إحدى الفتيات عنه. ونتيجة لهذا، كان يفضل عليهن الرجال الذين كان يشعر معهم بالارتياح والضحك والتندر بل والعراك. وكما نوه بذلك أحد جيرانه في نيويورك قائلاً: "لم يبد عليه أنه يعرف ما يقول وسط صحبة من السيدات العزباوات . . بل لم يكن يشعر بالارتياح أبداً مع النساء . أما مع الرجال فقد كان رفيقاً محبوباً . في الواقع، كان يشعر بالحرج بشأن النساء لدرجة أنه عندما كان يعمل في المحلات العامة كان يتجنب القيام بخدمتهن، مفضلاً التعامل مع الرجال والصبيبة . " فإذا ما كان لنكولن زعيماً بين الرجال بفضل حجمه وقوته وعشقه للنكات القذرة، إلا أن نفس تلك الملامح هي التي تجعله غريباً بين النساء .

يفسر ذلك أن رفيق روح لنكولن وحب حياته كان رجلاً يدعى جوشوا سييد، وكانا قد تقابلا بأحد المحلات العامة. ربما كانت علاقتهما الجديدة قد أسهمت في تقوره المفاجيء من بمارى أوينز. وفي أبريل ١٨٣٧ مضى لنكولن في طريقه إلى سبرنجفيلد على حصان اقترضه ومعه كل متعلقاته (قليل من كتب القانون وبعض الملابس) مكوّمة داخل حقيبتين بسرج الحصان. وتوقف عند محل بيل وشركائه على الجانب الغربى للمدينة، ووضع حقيبته على طاولة البيع، وتساءل كم يكلفه شراء مرتبة وأغطية ووسادة. كان البائع النحيف الصغير خلف الطاولة هو جوشوا سييد، وهو شريك صاحب المحل. كان له وجه طويل رقيق له خدان مرتفعان، وشعر ممشط جيداً، وشفقان ممتلئان مفترقتان، وعينان تطل منهما الحكمة والمرح. كان يصغر لنكولن بخمسة أعوام ويبدو متقناً بل مهاباً. كان ابن أحد مزارعي كنتاكي الأثرياء ممن يملكون حوالي ستين عبداً، وجاء إلى سبرنجفيلد لجمع ثروته الخاصة، ورغم أنه لم يقابل لنكولن من قبل، فقد عرفه إذ حضر له مناظرة مع خصم من الديمقراطيين في سبرنجفيلد عام ١٨٣٦. كان أول انطباعاته عنه أنه "رجل طويل، قبيح، متأقل بلا ملامح." لكنه شاركه سياساته المحافظة حيث أذهلته كلمات لنكولن وها هو الآن يتناول القلم والورقة ليسجل الحساب بما جمّله ١٧ دولار.

هنا قال لنكونن: "ربما كل ذلك رخيص بما يكفي. لكنني أود أن أخبرك برغم ذلك الرخص، أنني لا أملك نقوداً لأدفعها. لكنك إن أردت بيعي هذه الأشياء بالدين حتى عيد الميلاد القادم فلسوف أدفع لك خاصة أن مهنتي هنا كمحام ناجحة، وإذا فشلت فقد لا أدفع لك أبداً."

كان في صوته تلك الرنة من الشجن التي جعلت سييد "يتعاطف معه"، وحينما أخذ يحملني فيه رأيي ذلك الحزن مرتسماً على وجهه لدرجة أنه اقترح عليه حلاً بديلاً بقوله: "إن لدى غرفة واسعة جداً وبها سرير مزدوج، أرحب بك لمشاركتي فيه إذا رغبت في ذلك." فسأله لنكونن: "أين غرفتك؟" فرد عليه: "إنها في الدور الأول." مشيراً إلى السلام ومرشداً إياه إلى الغرفة. دون كلمة، تناول لنكونن حقيبته وصعد السلام، وبعد دقائق هبط مرة أخرى وقد أشرق وجهه بالسعادة، وهو يقول: "حسناً يا سييد، لقد انتقلت ها هنا." هكذا أصبح الرجلان رفيقَي فراش. وطوال الأربعة أعوام التالية، ولفترة طويلة إلى أن تمكن لنكونن من توفير غرفة خاصة له، ناما معاً في نفس الفراش الذي يعلو الحبل متشاركين أكثر أفكارهما حميمية. هكذا قال سييد واصفاً علاقتهما: "لم يوجد رجلان أكثر منا حميمية أبداً إذ كرس لنكونن قلبه كلية لي." وقد ردد ذلك صديق مشترك لهما تلك الشاعر قائلاً: "إن لنكونن أحب ذلك

الرجل أكثر من أى إنسان آخر حياً أو ميتاً. " حتى أن ابنه روبرت
تود لنكولن أكد أن سييد كان "أكثر أصدقاء والده حميمية طوال
عمره. "

فى تلك الغرفة، تشاركاً أحلامهما وطموحاتهما- لينكولن
الطامح إلى الشهرة وسييد الحالم بالثروة- وتداولوا الشائعات حول
سكان البلدة وسرعة نموها، وتناقشا فى السياسة وشجعا معاً
حزب المحافظين. لكنهما غالباً ما تكلمتا فى أمور الأدب وشؤونهما
الخاصة. قد قام سييد بتعريف لنكولن بإبداعات اللورد بايرون ذلك
الشاعر الليلى الحساس الشهير والبطل المثالى لدى سييد حتى أن
سييد كان يرتدى "ياقة بايرونية" تدور حول عنقه صاعدة إلى أن
تلمس ذقنه. أما لنكولن فقد كان يلقى قصائد كاملة للأديب
روبرت بيرنز ومقاطع طويلة من أعمال شكسبير من ذاكرته. ومن
خلال تلك المشاركات، أصبحا يحملان مشاعرٍ ود اتجاه أدبائهما
المفضلين، كما انجذبا بشدة نحو الأدباء المعذبين الرومانسيين من
أسال بايرون. وعندما كان يصاب أحدهما بالاكئاب يسارع الآخر
ليقوم بدور الممرض والراعى، ليساعده على الخروج من
"وساوسه" هكذا أسماها لنكولن. استخدما المرح وسيلة للتخلص
من الشجن وبجارية مآسي الحياة.

وكانت العلاقة الرومانسية بين لنكولن وسبيد - في نواح عديدة - تتبع النمط المسيحية والكلاسيكية في صداقة الذكور التي كانت سائدة في عصر ما قبل الحرب . فالصديقان الحميمان يصبحان رفيقَي الروح، ويتحد جسداهما في روح واحدة، وفقاً لما قاله أرسطو الذي ابتكر مثلاً للصداقة الروحية ثم اندججت فكرته في التقاليد الأمريكية والمسيحية . بالتأكيد هناك أنواع مختلفة من الصداقة، معظمها نفعية . لكن في حالة الصداقة الروحية أو الرومانسية، فالرجلان يحبّان بعضهما ويحترم كل منهما الآخر ويكونان في الأساس متشابهين، ويعبران عن عواطفهما بطرق روحية أو شاعرية أو فكرية، وغالباً ما تكون جسدية .

كانت أشهر علاقة صداقة ذكورية في القرن التاسع عشر تمثل ذلك النموذج وتلقى أضواءً على طبيعة العلاقة بين لنكولن وسبيد، وهي علاقة أشمايل وكويك وبيج التي وردت بتفاصيلها الرومانسية في رواية ملفيل، واصفة العلاقة بأنهما "كانا يتامان معاً في أجمل وأرق مشهدٍ محببٍ . . . كما لو كانا . . . أصدقاء ثدي واحد . . . كانا يشبهان . . . الرجل وزوجته" فاتحين أعماق روحيهما كلاً لرفيقه، ويستمتعان معاً في "قلبيهما بشهر عسل صافٍ . . . كانا كهصفورين متوادين آمنين . " كان هناك - أيضاً - إichاء بانفعالات جنسية . رغم كتبها، كانت مشاعر الحب بين إشمايل وكويك وبيج تتم فوق نفس

السريبر (فى خان سباوتر) حيث كان المالك وزوجته (مضفوريين
بعضهما) فى إثارة تسدعى مسارات العشق فى فراش الزوجية.
أما النموذج الثانى فهو علاقة "حك فن وجيم" إذ كان كل منهما
ينادى الآخر باسم "يا غسل!" ودائماً ما كانا "عراة ليلاً
ونهاراً" وهما يبحران أدنى نهر الميسيسى فى خمسينات القرن التاسع
عشر، غير بعيدين عن المكان الذى يعيش فيه لنكون وسيد .

كما هو واضح مما تشير إليه تلك النماذج، نجد أن الأعراف
الجنسية فى سنوات ما قبل الحرب الأهلية كانت أقل تشدداً عما هى
عليه اليوم. فادوار النوع الاجتماعى كانت تتساب لمنتهائها لدرجة
أن التمييز بين علاقات المثلية الجنسية وبين الطبيعية (بين طرفين
مختلفين) لم يكن قائماً، فدعاة الأخلاق يصفون كل العلاقات الجنسية
الصريحة المعلنة خارج إطار الزواج بأنها خاطئة، ويتعاملون مع
علاقات الجنس بين الذكر والذكر بصورة لا تختلف عن تعاملهم مع
علاقات الجنس بين الذكر والأنثى، وكانت التعبيرات الأكثر عمومية
فى مجال الحب (أو حميمية العلاقة) بين رجلين أو امرأتين تعد عادية
تماماً : " فالنساء يتعاقن ويقبلن وينمن معاً ويعلن الحب تجاه نسوة
أخريات. "، و"الرجال يفعلون نفس الأشياء مع رجال آخرين" دون
أن يشيروا الاستنكار، ولو تم التعبير عن تلك العواطف بصورة

جنسية صريحة، كان دعاة الأخلاق يرمونها "بالخطأ" بغض النظر
عن كان يقوم بذلك ومع من .

لقد نبع ذلك الانفتاح على علاقات الجنس المثلية جزئياً من
تفسيرات الناس للكتاب المقدس حيث لا يعد الجنس بين الذكر
والذكر أمراً غير طبيعي ولا يتم التعامل معه بصورة مختلفة كثيراً عن
الجنس بين الذكر والأنثى خارج رابطة الزواج. لذا فقد رفعت
الحكومة يدها عن الجنس تماماً، ونادراً ما تم تطبيق قوانين لتنظيم
الدعارة أو اللواط . وكانت هناك أربع ولايات فقط تطبق فيها
قوانين الفحش التي تحظر الأدب الجنسي الفاضح بينما كانت كل
ولايات الجنوب قد حاولت منع أدب دعاة التحرير داخلها. كما لحص
أحد المؤرخين ذلك بقوله: "وسط المناخ الاجتماعي الحر والبسيط
الذي ساد أمريكا قبل الحرب الأهلية، كان التصريح بالعلاقات
العاطفية المنفتحة بين الأشخاص من نفس الجنس أمراً شائعاً، إذ
كان الفاصل بين الصداقة الجنسية والرومانسية، بين اللذة والعشق،
بين الشهوة والحب، حداً مشوشاً وغير واضح بالفعل .

هناك حالات قام فيها بعض الأصدقاء بالإفصاح عن ولهم
الجنسي علانية. فقبل عقد من لقاء لنكولن بسبيد أخبر توماس
جيفرسون وبزرث - وهو طالب حقوق من ساوث كارولينا عمره
٢٢ سنة - صديقه جيمس هنري هاموند بمدى حبه للنوم معه قائلاً:

"أشعر بميل ما لمعرفة ما إذا كنت تنام في قميصك الطويل، وإذا ما كنت تجد متعة مفرطة في لكر والضغط على زميل فراش يتلوى لعمودك اللحمي ... تلك اللمسات الممتعة التي غالباً ما حزت شرف الشعور بها؟" وقد طمس ويذرث الحد الفاصل بين العشق والجنس، ويسكمل صراحته بقوله: "سيدى لقد كنت تقلق النوم الناعم لرفيق فراشك بمثل تلك الهجمات العنيفة الوحشية التي كنت تعادها معه، عندما لم يكن لديه أقل استعداد للدفاع في مواجهة تلك القوة المخترقة المحطمة." ومن الواضح أن صداقتهما تلك لم تهدد إحساسهما بالرجولة ولا مكاتهما الاجتماعية. بالفعل أصبح قيذرث قاضياً في محكمة الاستئناف في ساوث كارولينا وأصبح هاموند نائباً بمجلس الشيوخ للولايات المتحدة - محققاً الشهرة - وحاكماً لولاية وأنجب كلا الرجلين أبناءاً وانضموا للفيدرالية المنشقة.

كان اللواط منتشراً أيضاً في الجيش . وفيما بين بحارة السفن والأسطول وقوات مشاة البحرية ، بل كان اسماً أحد الرفاق لرفيقه كان منتشراً لدرجة أن أسموه "النهز" وقد أطلق هيرمان ميلفيل - الروائي - على إحدى شخصياته القصصية "الهراز" في قصة حياته على سفينة من سفن الأسطول ووصف البحارة وهم "يصقلون أدواتهم المعدنية أو مؤخرة مدافعهم والرفاصات والمناقب

وقطع الحديد ومثل تلك الأشياء . " كان أولئك البحارة يتجاهلون أو يسخرون من دعاة الأخلاق الذين يعتبرون الاستمناء مرضاً يمكنه أن يقتل المرء . وهناك بحار آخر هو فليب فان بوسكر احتفظ بمذكرات يومياته التي تروى تفصيلات عن ممارسة اللواط بكثرة يتعجب معها كيف أمكن لسفينة يحدث بها ذلك أن تصل لمقصدها .

كما قام الشاعر والت واتيمن "بممارسة الحب" مع الرجال والنساء كمظهر لرؤيته الديمقراطية: " فالجميع ناقصون إذا كان الجنس مفقداً ، أو إذا افتقدنا نعمة الرجل المناسب . " ويسكمل قوله جذلاً : " إننى مع هؤلاء الذين يؤمنون بالمتعة القصوى ، فأنا أشارك الشباب حفلات العريضة بمنصف الليل . " هكذا كان مدى علاقات الصداقة الرومانسية الأمريكية .

ليس هناك برهان واضح على أن لنكولن وسييد قد مارسا الحب الجسدي الشهواني ، ورغم أن خطابات سييد إلى لنكولن خلال فترة علاقتهما الحميمة (في أربعينات القرن ١٩) قد ضاعت للأسف ، وأن يومياته - التي يدعى البعض وجودها - لم تظهر للآن بعد . لكن في أحد خطابات لنكولن أودع سييد زهرة بتفنج ، وهي زهرة ترمز لعلاقة شبقية ، وأجاب لنكولن بقوله : " إن البنفسجة الرائعة التي أرفقتها بخطابك وصلت إلى بسلام لكنها كانت حبر

جافة حتى أنها انتشرت تراباً مع أول محاولة للمسها، ورحيقها الذي انتثر منها أحتفظ به وأرعاه.

تفتقر خطابات لنكون إلى سييد - عموماً - إلى العاطفة العميقة التي تصف بها الصداقة الرومانسية. لكن لنكون لم يعلن أبداً عن ذلك النوع من الحميمة الرومانسية في خطابات له ولا حتى لزوجه وأبنائه، إذ كان يفضل "الجمل القصيرة والأسلوب الموجز"، وكان هذا ما قاله لسييد ذات ليلة وهو شكل كتابي لا يشجع على المراسلات الحميمة، فهو يكتب - خطابات له - كمحام لا كعاشق. ورغم ذلك، ما تزال الخطابات التي كتبها لسييد أكثر النصوص وداءً من بين ما كتبه لنكون. كان يوقعهم بكلمة "المخلص للأبد" و"صديقك"، بالإضافة إلى أنه كان يتيح مجالاً لسييد كي يعلم مدى ما يحمله له من رعاية واهتمام، حيث بدأ أحد خطابات له بالعبارة التالية: "أنت تعلم جيداً أنني لا أشعر بأحزاني الشخصية أكثر مما أشعر به تجاه أحزانك أنت حينما أعلم بها." وعندما كان سييد بعيداً عنه قال له إنه يفقده كثيراً وأنه قلق عليه. نجده يقول في خطابه: "أريدك أن تكتب لي في كل بريد." ثم يعترف في آخر: "لسوف أكون وحيداً جداً بدونك." ثم يعبر عن حبه الخالد له في خطاب آخر: "أنت تعلم رغبتى في استمرار صداقتك للأبد، وأنى لن أتوقف عن ذلك وأنا أعلم كيف أفعله."

لكن لنكون لم يعبر عن ميله الصريح لحب الذكر للذكر- الا في
أشعاره ونكاته البذيئة- ففي قصيدة كتبها كجزء من مزحة ساخرة
يصف فيها أن جاره بيلي بعدما هجرته النساء احتقارا، وجد
منته مع عشيق ذكر هو "ناتي" قال:

لكن بيلي تزوج صبياً
والفتيات اللاتي حاول معهن كثيراً

لم يجد بينهن من ترضيه
فكل محاولاته ذهبت سدى

لذا عاد لمنزله من جديد

ومن يومها تزوج "ناتي"

وهما الآن متاهان جيداً

وأمه سعيدة تماماً بذلك التلاقي .

وبعد عدة سنوات سيكون على لنكون أن يرد صدى هوايمان
بإشارته اللعوب إلى رفيقه الحميم سبيد فيقول "لقد نمت مع جوشوا
طوال أربع سنوات، وأعتقد أنني يجب أن أعرفه جيداً ."

ووفقاً لما قاله الجيران في نيوسالم وسبرنجفيلد كانت لدى لنكون
طاقة شهوانية قوية جامحة، وقد اعترف مرة لويليام هيرندون-
الموظف لدى سبيد ثم شريكه في مكتب الحمامة وكاتب سيرته
الذاتية- أنه في عام ١٨٣٥ قد غرق في "شهوته الشيطانية" واستأجر

عاهرة وبعدها ركبها القلق خشية إصابته بمرض الزهري ، لكن هيرندون صرح بما هو أكثر من ذلك ليقول إن لنكون "قادراً ما ابتعد عن العاهرات اللواتي كان يعاملهن بسلوك مختلف عن السيدات المرغوبات" وقد تذكر أحد جيرانه بنيوسالم أنه كان يرتاد بيت الدعارة مع بعض من صحبه أثناء حرب البلاك هوك. وعند اقتراب خاتمة حياته، أخبر سبيد - وهو نفسه زير نساء - هيرندون أنه قد احتفظ لفترة بإحدى العاهرات بمدينة سبرنجفيلد، وجاءه لنكون تدفعه "الرغبة للاستماع قليلاً" وسأله: "سبيد، هل تعلم أين يمكنني أن أجد ذلك؟" فأجابه: "نعم، أستطيع. سوف أرسلك إلى مكانها بمذكرة بسيطة لأنك لن تستطيع الحصول عليها إلا بتلك المذكرة أو بحضوري معك بنفسي." ولو كانت تلك التقارير التي تبين قيام لنكون بممارسة الجنس مع العاهرات حقيقية، فليس هناك مبرر للإعتقاد بأنه لم يمارس العلاقات الجسدية مع جوشوا سبيد، الرجل الذي شاركه فراشه طوال أربع سنوات. فلو كانت رغبته الجنسية لا كالج لها أحياناً ، فمن المتوقع أن يتصرف وفقاً لها ليس فقط مع الغرباء ولكن مع أشد أصدقائه حميمية أيضاً. مع كل ذلك فهو لم يعتبر أن شكلاً من أشكال الجنس مختلف عن الشكل الآخر، لأن

مفهوم الهويةتين الجنسييتين المحدد بالتعارض الثنائي بين "المثلية"
و"التغاير" قد انتهى منذ عقود مضت".

بغض النظر عن الكيفية التي ينظر بها المرء لعلاقتها، فإن
سييد أكسب لنكولن التحضر بطرق عديدة، أسهمت كثيراً في
صنعه لنفسه . كان سييد واحداً من أكثر الناس الذين قابلهم
لينكولن ثقافة، حيث نشأ في رفاهية ومحبوبة من العيش في مزرعة
فارمنجتون الجميلة في ضواحي لويزفيل وكان منزل عائلة سييد وهو
من منازل المستعمرات عالية السقف ومصنوعاً من الطوب
(القرميد)، قد صممه توماس جيفرسون أحد أصدقاء العائلة. تعلم

12 استلهمت قراءة علامة لنكولن وسييد من الفصل الرابع الذي كتبه دافيد رونالد
عن صداقتهما في مؤلفه رجال لنكولن. وقد أدهشني استخدام رونالد لأعيب البلاغة
لأفكار إمكاتية أى شيق مثلى في صداقة لنكولن وسييد. فهو يتجاهل الحدود الملتبسة
بين الشبق والعاطفة الشديدة، بين الصداقة والجنس في الصداقات الرومانسية
الأمريكية وفي التقاليد الطوية من العصر الكلاسيكي حتى القرن العشرين. وهو
يذكر النكتور تشارلي ستوزير وهو محال نفس وكتّاب سيره ذاتية للنكولن ويحاج
بأنه إذا كان بين لنكولن وسييد صداقة جنسية، فإن لنكولن سيكون عندئذ ذى ميول
جنسية مزدوجة في أحسن الأحوال، وممزقا بين عالمين، مملوءا بالخجل، ومرتبكا
ويصعب أن ينجح في الحياة العامة. ومع ذلك، فإن رونالد نفسه يلاحظ أن الفهم
الثاني للجنسيات، المتهمين في نقطة ستروزيير، لم يكن يوجد في أيام في لنكولن
١٠ ن قضية جيمس هنري هاموند وهو من أشهر السياسيين في الجنوب وكان ذو
ميول جنسية ثنائية واضحة (وفق ما قال ستروزيير) تنسف مقولة ستروزيير
ودونالد . لأن صداقة هاموند مع ويزدريز لم تؤثر على مسيرته العامة أو السياسية
ولم تثر خجلا ولا ارتباكاً. لقد كان فرويد معلم ستروزيير، وهو أب التحليل النفسي
هو الذي أكد بحجة قوية أن الشذوذ الجنسي والثنائية الجنسية كانا مرجعيتين. والواقع
أن فرويد أكثر أن الصداقة كانت ستارا لتوق من الشبق الملكي. انظر بيتر جراه
فرويد حياه لعصرنا (نيويورك، انكور، ١٩٨٨) - المترجم

جوشوا في أحسن المدارس الخاصة في الغرب، وكان بارعاً في القراءة مثل غالبية خريجي جامعة هارفارد أو ييل. وقد علم لتكون معنى الاحترام في السلوك والملبس والكلام. وخلال أقل من عام بعدما عاشا معاً اكتسبت كتابات لتكون عمقاً واتقاناً كانت تفقدهما، وبدأت تشابه أسلوب سبيد الواضح الموحز في الكتابة.

بدأ صوت لتكون الجديد في الظهور للمجال العام ليظهر أول مرة في خطابه عام ١٨٣٨ الذي ألقاه في أكاديمية الشباب بسبرنجفيلد، وهي جمعية مكرسة للتعليم والتقدم. كان أول خطاب يليقه - كمفكر لا كسياسي - عنوانه "أبدية مؤسساتنا السياسية" وحذر فيه من أن العدو الحقيقي لأمريكا لا يأتيها من الخارج وإنما يأتي من داخلها، من الرعاع وما يسببونه من خراب، وذكر لتكون أمثلة للعنف الجماعي الذي نجم عنه مقتل أحد دعاة إلغاء الرق (البيجا لفجوى) عدد من السود الأحرار في اجتماع لدعاة التحرير بولاية إلينوي، وكذلك مقامرو المسيحيين الذين نعتبرهم "عديمي النفع في أي مجتمع". "وإذا ما نحينا جانباً وقاحة الضحايا، فإن عنف العامة إذا ما حل محل القانون فإن الحكومة لن تستطيع أن تبقى". ثم أخذ في لغة تحريضية يبحث مستعجيه على "أن يقسموا بدماء الثورة" على تخليهم عن استخدام العنف الدموي. ففى حين قام الوطنيون الثائرون بتأكيد إعلان الاستقلال في يوليو عام ١٧٧٦، يتعين على

المواطنین الآن دعم وتأييد الدستور، وفي حين ساعدت "العواطف" أبناءنا المؤسسين للدولة، يجب على العقل والهدوء والحسابات، والأسباب غير العاطفية أن توفر متطلبات المستقبل "وليكن احترامنا للقانون هو ديننا السياسي لهذه الأمة." "إذا ما وضعنا في اعتبارنا المهنة الجديدة للنكولن كبحام، نجد ذلك الخطاب دار في إطار منفعة الشخصية. لكنه يعكس - كذلك - التغير المذهل في أسلوبه، الذي استخدم فيه لغة عاطفية لاستثارة عقل غير عاطفي.

وقد كرر لنكولن دعوته إلى العقل مغلباً إياه على العاطفة بعد سنوات قليلة لاحقة في خطاب ألقاه لمحاربة إدمان المسكرات مشبهاً فيه إدمان الكحول بالعبودية وبالطفيان، وأطلق على الثورة القائمة ضد شرب الخمر (والتي يقودها سكارى ثابتن) أنها أكثر أهمية من ثورة عام ١٧٧٦ السياسية في نشر الحرية، لأن الخمر تودى بالناس إلى جنون الغضب، بينما الوعي يؤدي إلى "إحكام العقل"، كان يتطلع إلى عصر جديد "لن يكون فيه عبد ولا سيكر على وجه الأرض." ها هنا مرة أخرى استخدم في خطابه أسلوباً عاطفياً لاستثارة العقل، وطلب من سييد أن يقرأه. وكان فخوراً بذلك الخطاب وأراد أن يعرف رأي مرشده فيه.

كان لاعتناق لنكولن مبدأ سيادة العقل على العاطفة موافقاً للحالة الشخصية والوطنية أيضاً. لأنه إذ لم يستطع التحكم - دائماً -

في نزعاته الجنسية، لن يستطيع كبح حماسه لصالح سياسات المحافظين. ففي ديسمبر ١٨٤٠ ارتكب أفدح أخطائه المخجلة طوال حياته العملية. فلم يكد يصل إلى سبرنجفيلد عائدًا بعد ثلاثة أشهر مرهقة لصالح حملة المحافظين لترشيح ويليام هنري هاريسون للرئاسة، حيث ظل متقلًا بصورة دائمة على ظهر حصان، ومقيمًا في حانات صاحبة، وينام في أسرة يشاركه فيها اثنان أو ثلاثة أشخاص، مستهلكًا طعامًا "شحميًا" وقهوة "ردئة" حتى شعر بالإرهاك تمامًا، وكان عليه حينذاك أن يبدأ جلسة تشريعية يتلقى فيها هو وباقي أعضاء حزبه اتهامات الأغلبية الديمقراطية بأنهم أفسدوا اقتصاد الولاية بمشاريعهم التي استهدفت بناء الطرق. كما أراد الديمقراطيون إفساد مشروع بنك الولاية، وهو مؤسسة دعا لإنشائها المحافظون. كانت الوسيلة الوحيدة أمام المحافظين لمواجهة ذلك هي عدم السماح للديمقراطيين بتوفير الحد الأدنى اللازم من الأصوات لتفعيل محاولتهم. وقد حضر لتكوين وعدد قليل من المحافظين الاجتماع للتأكد من صحة احصاء الحضور، وعند وصولهم أدركوا أن حضورهم ذاته يسهم في استكمال العدد المطلوب. هنا حاول لتكوين ورفاقه الهروب - بصورة يائسة - من الموقف، وعندما اكتشفوا أن الباب مغلق، فتحوا إحدى النوافذ وقفزوا منها للخارج. لكنها كانت حركة غبية، لأن الديمقراطيين أفسدوا مشروع البنك - على أية

حال- ونمت محاسبة لنكونن بتهمة "الإهمال في أداء الواجب"
وأضحت "جولاته المتقافزة"- كما أسماها- شهيرة جداً لدرجة أنه
حاول الدفاع عن نفسه بعد أسابيع قليلة بإلقاء خطاب داخل
المجلس التشريعي. لكن رئيس المجلس طلب منه الالتزام بالنظام
وأوقفه عن الكلام.

أشعرت تلك الحادثة لنكونن بالإهانة بل من المحتمل أنها قد أدت
به إلى هوة حادة من الاكتئاب خلال شتاء ١٨٤٠-١٨٤١. كانت
قدراته قد سُلت حتى أنه التزم الفراش، وقال سييد: "أن لنكونن قد
جُن". واتباه قلق شديد بشأن صديقه لدرجة أنه "استبعد كل
شفرات الخلاقة والسكاكين وباقي الأدوات الحادة الأخرى بعيداً عن
الغرفة". وفقاً لما قاله سييد: "لقد كان الموقف مخيفاً". "كان الأمر
الوحيد الذي منع لنكونن من إقدامه على الانتحار" أنه لم يفعل شيئاً-
في الحياة للآن- يذكّر به الناس أنه كان يعيش بينهم يوماً.
واعترف "بجأته العقلية اليائسة" إلى شريكه في العمل القانوني مضيافاً:
"إنني الآن أشد الناس بؤساً في الحياة، ولو أن ما أشعر به وُزع
بالتساوي على أفراد البشر فلن ترى وجهاً ضاحكاً بينهم على وجه
الأرض، ومن الحال على المرء أن يبقى حياً بما أنا فيه. لذا يجب أن
أموت- كما يبدو لي- أو أن أتحسن بسرعة." وصلت حالته إلى
الحضيض مع عيد رأس السنة الجديدة، وكان لنكونن يشير إلى ذلك

بقوله: "ذلك اليوم الأول المشؤم من يناير من عام ١٨٤١". "كان أسوأ أيام حياته، وأقرب لحظاته لقتل نفسه.

تراوحت النظريات الساعية لتفسير دواعي "ذلك اليوم المشؤم من يناير ١٨٤١". "لكن هناك حقيقة واحدة لا يمكن إنكارها، إنها قرار جوشوا سييد في ذلك التاريخ بالرحيل إلى كندا، وإعداد سبل بيع رأسماله في محل البقالة. فقد مات والده في ربيع عام ١٨٤٠، وأرادت والدته أن يعود للمنزل. كما كان هو نفسه يفكر في الانتقال منذ عدة شهور. ثم أدرك لينكون في اليوم الأول من السنة الجديدة "١٨٤١" أن صديقه سوف يتركه، وذلك ما قصم ظهره كما أوضح هو فيما بعد: "إن لم يكن لنا أصدقاء، فلن يكون أمامنا أى متعة، ولو كان لنا أصدقاء، فإن فقدانهم أمر مؤكد. لذا تألم مرتين بذلك الفقد". انتاب سييد القلق بشأن صديقه فانتظر حتى مايو ١٨٤١ كيما ينتقل إلى فارمنجتون، وعندئذ استرد لتكون عافيته ووعد سييد بأن يقوم بزيارته ذلك الصيف. وبالفعل، وصل في أغسطس وبقي هناك حوالي شهر تقريباً. كانت تلك أول إجازة للتكون وأول تعرف له على مجتمع الطبقة الراقية بالجنوب، وقام أحد عبيد الأسرة برعاية شئونه في غرفة شاسعة يتحرك فيها. أحب لتكون تلك الرفاهية لدرجة أنه اعتبر إقامته في فارمنجتون "وقت الفراغ وواحدة من أمتع لحظات حياته". كانت الواقعة الوحيدة المزعجة تلك التي

حدثت أثناء العشاء ذات ليلة حينما مرر إليه أحد أعضاء الأسرة طبق المشهيات فأبقاه أمامه معتقداً أنه مخصص له وحده دوناً عن الباقين، مما أدى بجوشوا إلى تصحيح لنكون وتعليمه أصول مراسم العشاء وقال له: " انظر إلى يا لنكون، وافعل كما أفعل أنا !"

بينما كان فريدريك دوجلاس يقضي أولى إجازاته في اجتماع لدعاة التحرير ببلدة ناتوكت، كان لنكون يقضيها في رحاب رفاهية الجنوب وسط حوالى ستين عبداً وواحد من هؤلاء هو خادمه الشخصي. لم يحب فقط تلك التجربة المرفهة وإنما لم يقدّم أبداً بحث سييد على تحرير العبيد الذين ورثهم عن والده كذلك. كما أن سييد لم يشعر يوماً بالذنب لامتلاكه عبيداً، وفعلاً بعد سنوات قليلة تالية، وحينما بدأ سييد يتاجر فيهم، لم يقل له لنكون شيئاً ولم يؤثر تلك المتاجرة في صداقتهما. رغم أن لينكون كان يكره العبودية، إلا أنه لم يكن ثورياً، وما كان ليدمر الصداقة نظير معاقبة سييد. فوق ذلك كله، هناك بطله السياسي هنري كلاي، وهو مالك للعبيد أيضاً شديد الثراء في كنتاكي وبعد عودته إلى سبرنجفيلد، انقلب على مبادئه وقدم تبريرات لامتلاك جوشوا وعائلته للعبيد. وخلال رحلة العودة للمنزل تشارك مع أحد تجار العبيد قارب السفر - الذي كان يحمل فيه قافلة عبيده - وقام بوصف تلك الرحلة وصفاً ينبئ عن أفكاره: "شاهدت نموذجاً رائعاً على سطح القارب يدعو للتمعن في

تأثير الحالة الاجتماعية على السعادة البشرية حيث كان هناك إثنا عشر عبداً مقيدين بالسلاسل ... مثل أسماك كثيرة معلقة على حبل الصيد، وكانوا - وهم على تلك الحالة - وفي طريقهم للافتراق عن مهاد طفولتهم وأصدقائهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم للأبد، بل والعديد منهم في سبيلهم للافتراق عن زوجاتهم وأطفالهم، إلا أنهم - ورغم تلك الظروف المحزنة التي نزلها عليهم - كانوا أكثر المخلوقات سعادة ومرحاً فيما يبدو على ظهر القارب. "أستنتج لنكون هو أن الله يجعل من أسوأ حالات الإنسان أكثرها تحملاً." إذ كان الأمر بالنسبة للنكون أن الله قد طبع السود بالقدرة على أن يكونوا سعداء ومرحين تحت أسوأ ظروف الإنسان قسوة، ويُعد وصفه الساذج هذا تعاطفاً مع السود - وفي نفس الوقت - يُعد إدانة للبيض، وهو توازن دقيق حاول الإحتفاظ به بقية حياته.

لقد كشف لنكون عن توجه مشابه نحو السود في إلينوى ، ففي عام ١٨٤٠ كان يعيش في سبرنجفيلد ١١٤ نسمة من السود، يمثلون ٤% من سكان المدينة، وكانوا في أغلبهم من العمال وخدام المنازل. ستة منهم فقط كانوا عبيداً من ضمنهم امرأة واحدة كانت عبدة لدى أحد شركاء سيد التجارين الذي كان بدوره صديقاً للنكون. وكانت إلينوى - نظرياً - ولاية حرة بفضل حظر الرق الذي شمل المقاطعات الشمالية في قانون الولايات الشمالية الغربية الصادر

عام ١٧٨٧ . لكن عندما تم تمرير القانون، كان هناك حفنة قليلة من العبيد يعيشون بأراضي إلينوى، وقام بعض السادة بحلب عدد آخر بصورة غير قانونية إليهم. أما دستور ١٨١٨ فلم يؤدّ لتحرير أي عدد من العبيد، كان يمنع فقط دخول المزيد من العبيد إلى الولاية. ونتيجة لذلك، زاد عدد العبيد في إلينوى إلى ٣٠٠ عبد عام ١٨٤٠م، ولم يفعل لتكوين شيئاً لتحريرهم، ولم يسع - حتى - لتعديل قوانين الولاية الخاصة بالسود والتي تحظر على السود الأحرار دخولها، لأنه لو فعل ذلك ستكون خطوة ضارة تفقده المتعاطفين الجنوبيين في الولاية.

على أية حال، كان للتكوين - في نفس الوقت - علاقات طيبة مع عدد من السود في سبرينجفيلد، خاصة مع ويليام فلورفيل المعروف باسم بيلي الحلاق. كان قد ساعد بيلي على اكتساب العديد من الزبائن كما مثله قانونياً في بعض القضايا فيما بعد، وأصبح محل بيلي "منزل لتكوين الثاني" في أواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، وكان مكاناً يألف الذكور التردد عليه، فهو مكان للحلاقة والحصول على قصات للشعر، وتبادل بعض النكات، والشائعات، وربما لقراءة بعض من نصوص القانون عندما تمضي الأوقات بطيئة. بذلك المعنى، مثل ذلك الحل مكاناً تشارك فيه مع سييد، فكان مرفأً للمتقنين وسط "قذارة وإزعاج" سبرينجفيلد. أحب لتكوين خفة بيلي وروحه المرحّة. لكن علاقتهما لم تهدد - أبداً - طموحه السياسي

أو صداقه للبيض. ومع ذلك، كان بيلي بالنسبة لسبيد مجرد "سامبو" - وهو النموذج المثالي للخادم الزنجي - ولا يشكل تهديداً لمفهومه عن رجولة الإنسان الأبيض، ولو كان فردريك دوجلاس جاء - وقتها - من سبرنجفيلد إلى بندتون لإلقاء بعض من محاضرات دعاة إلغاء الرق، لاعتبره لنكون وقحاً وغير مهذب.

كان امتلاك العبيد ركناً أساسياً في مجتمع ولاية إلينوى لدرجة أنه لو كان المال ينتج بشراً، فإن المال - هناك - تنتج العبودية. وفي الواقع كانت اثنتان من النساء الثلاث اللاتي ارتبط بهن لنكون - وقد تزوج إحداهن فقط - من بنات مالكي العبيد في كنتاكي، بل إن ماري أوينز عادت إلى أسرقتها التي تملك عبيداً هناك بعدما هجرها لنكون ثم تزوجت ثرياً من مالكي العبيد وانتقلت بعدها إلى ميسوري حيث قام ولداها بالقتال دفاعاً عن الدولة الاتحادية المنشقة.

كانت ماري تود تشبه ماري أوينز من عدة وجوه وكذلك آن روتليدج، إذ كانت الابنة المتعلمة لأسرة أرستقراطية تملك عبيداً في كنتاكي. ومثل آن، كانت قصيرة (خمس أقدام وبوصتان) ومكتنزة، وكان لنكون يحب النسوة المكتنزات وربما كان ذلك عائداً لشكله المتنافر البشع الذي أبعده عن الفكرة الكلاسيكية للجمال.

لكن ماري تود كانت مختلفة كلية- الواقع أنها كانت تتصرف كرجل- . فهي طموحة ساعية للشهرة ومحمسة للسياسة بنفس قدر لنكولن . ولأنها نشأت وسط أسرة متحمسة للمحافظين، كانت هي نفسها "محافضة صغيرة عنيفة" وقد أحببت هنري كلاي، الذي كان جاراً وصديقاً للعائلة وكرهت الديموقراطيين . قيل إنها في الرابعة عشرة من عمرها امتطت جوادها حتى آشلاند، وهي ضيعة كلاي، لتبلغه أنها تتوقع أن يكون هو الرئيس القادم للبلاد، إضافة إلى أنها أرادت أن تعيش "فى البيت الأبيض" كذلك . لم تمت تلك الرغبة لأنها بعد انتقالهم إلى سبرنجفيلد عام ١٨٣٩ "صرحت ببنيتها الزواج من الرئيس القادم للولايات المتحدة." كانت شديدة الحبيوة وتهوى الخروج، وإن قيدت نفسها قليلاً . كانت تمتع بذكاء حاد وحب الشعر، ولها من البداهة ما يجعلها كمنزلة لزوج المستقبل . باختصار، كانت نداً سياسياً ومثقاً مكتملاً للنكولن . كانا قد بدأا التواد والتقارب عام ١٨٤٠ أثناء الحملة الرئاسية ومع الانتخابات تمت خطبتهما . يذكر أحد جيرانهما من سبرنجفيلد رؤيتهما معاً جالسين في غرفة وماري هي التي كانت تقود أطراف الحديث قائلاً: "كان لنكولن ينصت محملاً فيها كما لو كان مسحوراً بقوة عليا، لذا أخذ يستمع دون مقاومة . . وما يكاد يلفظ كلمة واحدة." لكن بعد الانتخابات وبعد قفزته المخزية من النافذة وإحباطه وقرار

سييد بالانتقال والعودة لكتاكي محاً كل ذلك من ذاكرته، إذ شعر بعدم الأمان بالنسبة لثروة ماري تود، وبعدم الارتياح بشأن الزواج عموماً. لم يكن مؤكداً من مشاعره نحو ماري، وربما أسهم ذلك الفصل - الثالث للخطبة - في المزيد من اكتابه.

إلا أن جوشوا سييد استطاع جمعها معاً مرة أخرى، ففي حين كان لنكون ينقضي إجازته في فارمنتجتون في أغسطس من عام ١٨٤٠، تقدم سييد لخطبة فاني هيننج - وهي امرأة من كتاكي - ثم شعر فجأة بالتردد، خشية أن تكون مشاعره غير كافية لهذا الارتباط، فتدخل لنكون لإيقاظه من تلك الورطة وأخبره إنه "يرى أن فاني واحدة من أجمل قيات العالم"، وأكد لسييد أن مخاوفه بلا أساس. وقبل الزواج بأيام عاودته مخاوفه من أن أحلامه في الجنة والسعادة بعد الزواج قد تتجاوز "الواقع بكثير"، وشاركه لنكون مخاوفه من الزواج. لكن سييد واصل إتمام مراسم زواجه في ١٥ فبراير ١٨٤٢ ثم أخبر لنكون بعد ذلك بشهر أنه "أكثر سعادة مما كان يتوقع". وهكذا منح صديقه الثقة كيما يعيد ارتباطه بماري تود. أدت علاقتهما المتجددة إلى التركيز على العمل السياسي لكنها آلت - هذه المرة - إلى عراك ثم إلى زواج في النهاية.

في أغسطس ١٨٤٢ هاجم لنكون أحد خصومه السياسيين بأسلوب تجاوز فيه حدود الخصوصية. فبمساعدة ماري كتب مقالاً

ساخراً من كرامة جيمس شيلدر محرر جريدة "الديموقراطي" التي تصدرها الولاية. كان رجلاً متوسط الحجم، له شارب ضخم، ولد وتعلم في أيرلندا، وقد أتى لألبنوى عندما قارب على الإفلاس. لكنه سرعان ما أصبح عضواً ديمقراطياً بالولاية لا يتقبل الاهانة ببساطة. كان لنكولن قد نشر مقالاته بدون توقيع تحت عنوان (خطاب ريبكا) وكلماته تأتي على لسان زوجة فلاح فقير هي ريبكا. كان الخطاب - من الناحية الفنية - عملاً من أعمال الخيال الأدبي، يشترك مع أسلوب رواية "هكلبرى فين" في استخدامه لتقنية الجدل وروح المرح، ويستعير لكثرة مقاطعة سانجامون وأصواتها وكذلك "صوت لنكولن" مثل: "زي ما كنا مستنين" و"شلة رجالة مسلحة" ... إلخ. استخدم الخطاب الفكاهة للهجوم على شيلدر سياسياً وإهاتته شخصياً، وبعد شيلدر الشخصية الرئيسية في القصة، حيث يدعو لنكولن: "أحمق بالإضافة لكونه كاذب"، ويسخر من صورته التي يضعها لنفسه كرجل لا تقوى على مقاومته النساء، ويقتبس من شيلدر قوله: "فتياتي العزيزات، إن الأمر مؤسف. لكنني لن أستطيع الزواج منكن كلكن ... وأنا أعلم جيداً مدى معاناتكن. أرجوكن! أرجوكن! تذكروا أنه ليس ذنبي أن أكون بمثل تلك الوسامة والإثارة التي تفوق الحد." ألهم الغضب شيلدر بعدما اكتشف أن كاتب الخطاب هو لنكولن، فأمره بسحب كل

"التلميحات التهكمية" علانية وأن يعلن عن شخصيته الحقيقية ويقف أمامه كرجل حقيقي. عندما رفض لنكولن قام شيلدرز بتحديه ودعوته للمبارزة، وقبل لنكولن التحدي لأنه "لم يعتقد أن التفاوض مع شيلدرز من أجل مسألمته شئ يتفق مع شرفه وكرامته" ما لم يسحب شيلدرز مطالبه.

وبينما كانت المبارزات تختفي في الثقافة الأكثر تقدماً في الشمال الشرقي، ظلت شائعة في الجنوب والغرب بالرغم من أن العديد من الولايات بما فيها إلينوى قد حظرتها قانوناً. كان لنكولن قد انتهك مبادئ الشرف التي تحمي شخصية الإنسان الخاصة وعلم أنه سيفقد كرامته لو تراجع عن تحدي شيلدرز، وكان قد قام منذ إحدى عشرة سنة سابقة كان بمصارعة جاك أرمسترونج دفاعاً عن كرامته، والآن يكاد يموت دفاعاً عنها، ففى الجنوب وعند الحدود كلما أصبحت المجتمعات أكثر تحضراً أصبحت المبارزات أكثر وحشية. وفي ظل مبادئ المبارزات يكون للشخص الذي تم تحديه حق تحديد شروط المبارزة. لذا اختار لنكولن (سيفين عريضين من سيوف الفرسان) كسلاح للمبارزة، وصمم ميداناً للمبارزة يشبه فناء ملعب التنس، به عارضة ارتفاعها اثنتا عشرة بوصة بديلاً عن "الشبكة" وخطاً بداية عند الجانبين على بعد ١٦ قدم من العارضة وخطوط جانبية تقاطع مع خط العارضة وخطى

البداية، وعلى كلا المتقاتلين أن يبقيا داخل ذلك الصندوق المرسوم فإذا ما "خطوت عبر العارضة تكون خسرت حياتك"، وإذا ما خطوت خارج خطوط البداية تكون قد خالفت القواعد وخسرت القتال.

كانت شروط لنكون مصممة لتمنح فرصة كبرى للرجل الذي يملك أكبر قوة يدين وأطولهما، حيث يعلم أن شيلدرز رجل عاды الطول حوالي خمسة أقدام وسبع بوصات. وبالطبع كان لنكون طويلاً جداً وله يدان طويلتان وقويتان أكثر من المعتاد، ورغم تلك الميزات فإنه قام بالتدرب على استخدام سيفه العريض وضرباته قبل المبارزة، وخطط أن يبقى داخل مربعه ويتمايل مراوغاً حتى يخرج له أحد أطرافه ويفقده سلاحه أو يتخذه حتى يخرج عن المربع فيخسر القتال، وقد صرح بقوله: "لم أرغب في قتله." ظل ذلك السلوك يصدر منه كرجل يعتنق مبدأ انعقل والقانون الأشد أساسية لطبيعتنا" كما كان يؤكد في خطابه التحريري.

تم بناء ملعب التنس وأصبح المباريان مستعدين للبداية عندما تدخل الأصدقاء بسبرنجفيلد أخيراً لوقفها وقد صاح بلنكون أحد أصدقائه قائلاً لهما معاً: "أيها المغفلان الملعونان!" ثم توسل إليهما أن يحكما العقل. "هكذا" تم فض المشاجرة. "وفور انتهاء معركة السيوف هذه على خير، جدد لنكون وماري تود خطبتهما، وقام

لنكون بجمانية ماري مؤكداً لها أن اسمها لن يرتبط بمشكلة "خطاب ريبكا". لم تحاول ماري بدورها منع لتكون من دخول المباراة لأنها - فوق كل ذلك - نشأت في كنداكي حيث كانت المبارزات صلب المجتمع، بل إن بطلهم المشترك - هنري كلاي - كان قد جرح م في إحدى المبارزات. وفي نظر ماري كانت المبارزات علامة الرجولة، وربما أدت المشكلة مع شيلدرز إلى إدراكهما مدى تشاركهما في الميول ومدى عمق رغبتهما في التضحية من أجل صالح المحافظين. لكن باقتراب موعد زواجهما، بدأ لتكون يشعر بالتردد فكتب إلى جوشوا سبيد يقول: "هل أنت الآن تشعر بالارتياح كما لو كنت في الجنة، وسعيد أنك تزوجت بما أنت عليه؟" ومن الواضح أن سبيد أجابه بنعم، لأن لتكون وماري تزوجا يوم ٤ نوفمبر عام ١٨٤٢ في حفل عائلي صغير. لم يكن سبيد حاضراً، فيما يتذكر أحد الضيوف أنه "كان يبدو عليه - أي لتكون - بل ويتصرف كما لو كان ذاهباً إلى مذبحة" رغم أن امرأة أخرى قالت: "كان مرحاً جداً كمادته دائماً". وفي حين تعرضت طبيعة زواجهما لكثير من الجدل على مدى واسع، إلا أن أمراً واحداً كان مؤكداً: أن صعود نجم لتكون كسياسي ومحامي أخذ في التسارع بعد زواجه. ففي عام ١٨٤٢، انسحب لتكون من إعادة انتخابه لمجلس الولاية التشريعي لأنه كان قد قضى أربع دورات متتابعة منتخباً بالمجلس فأراد أن يركز

طاقاته على ممارسة القانون وعلى سياسات المحافظين الوطنية،
وقضى هو وزوجته عام ١٨٤٤ يعملان بلا كلل - وإن كان بلا
جدوى - لإدخال هنري كلاي البيت الأبيض. وبعد عامين اتخبه
مواطنو سانجامون ومورجان ليصبح عضواً بالكونجرس الأمريكى.
لذا، كان عليه أن يذهب إلى واشنطن.

لو كان طموح لنكولن "آلة صغيرة لا تعرف التوقف" كما وصفه
ويليام هيرندون، فإن ماري تود قد ملأته وقوداً وقامت بتزيينها رغم
أن ذلك كلفه بعضاً من سعادته. بعد الزواج بدأ هو وجوشوا
يتواعدان، وقد يميل المرء إلى الاعتقاد بأن لنكولن كان أثناء زواجه
يفكر فيه. على كل، فقد علمه جوشوا سييد معنى الحب، بل
وقارب بينه وبين ماري تود كما أقر بذلك جوشوا فيما بعد بقوله:
"لو لم أكن قد تزوجت وكنت سعيداً أكثر مما كنت أتوقع من سعادة،
ما كان لنكولن ليقدّم على الزواج!" "كان لنكولن قد قدم لماري خاتماً
محفوراً عليه عبارة تقول: "الحب الخالد" ربما كانت تلك العبارة
المحفورة رثاءً لصداقة مضت أكثر من كونها أملاً لزواج جديد.

خلال رحلته إلى الجزر البريطانية، قام فردريك دوجلاس بزيارة
خاصة إلى مدينة آير، موطن ميلاد الشاعر روبرت بيرنز، وأطلق
عليها "واحدة من أكثر زياراته إشباعاً لروحه" أثناء إقامته في

اسكتلندا، لأنه رأى الكوخ المتواضع الذي عاش فيه بيرنز، ومشى جاثلاً في الشوارع التي ألهمته شعره وقابل أخته، وبينما يتكلم معها ظن أنه شاهد "بعضاً من شرارات الضوء الذي كان يشعل صدر بيرنز على الدوام". لقد لمس دوجلاس في حياة بيرنز وشعره معالم متوازية مع مأساته ومع حياة الزنوج الآخرين، فكلا الرجلين وُلد فقيراً، ولقي الاضطهاد من النخبة البيضاء، وعومل كالحوانات، ووجد في اللغة سبيلاً لإعادة صناعة نفسه وبناء رؤية جديدة للإنسانية. لقد علمت أشعار بيرنز دوجلاس أن يشعر بالفخر بأصوله الدنيا، "فذلكم الإنسان الأمين - رغم شدة فقره - هو مَلِكُ الرجال لذلك السبب." لأن الفقير الأمين يسمو على وضاعة الثري الجبان. كما شارك دوجلاس بيرنز في حلم الحب الأخوي في قول بيرنز "فهذا الإنسان للإنسان عبر حدود العالم... سوف يكونان أخوين من أجل ذلك." لكن رغم توحد ذاته مع ذات بيرنز إلا أنه يجد في لورد بايرون كاتبه المفضل. إذ بينما تتبع مسرات بيرنز - إلى حد ما - من استخدامه للهجة العامية، يهرب دوجلاس من اللهجات المحلية حيث أدى بقاءه عامين في الجزر البريطانية إلى انقشاع لكمة العبيد المتلكئة في صوته، وأراد أن يبدو متقفاً مثل أصدقائه الأثرياء والأرسوقراطيين في بريطانيا، وأصبح لورد بايرون بالنسبة لدوجلاس مثلاً للأرسقراطي النادر الذي تعتمد ارسقراطيته على

القيم لاعلى الانتماء بالمولد حيث كان بايرون يمثل النموذج الكامل
للكونية الإنسانية بصورة جذرية، لأنه أصبح يمثل العالم الأكثر شهرة
قبل ظهور دوجلاس بزمان طويل. كان "تحفة فنية" ساعدت
دوجلاس على إعادة صناعة نفسه مظهرًا وأسلوبًا وصوتًا، إذ
شكلت مهارة بايرون في استخدام السخرية والتهكم كل كتابات
دوجلاس. كما أن صعود ذلك الشاعر السريع إلى عالم الشهرة
"المخجلة" شابه صعود دوجلاس إلى أن أصبح أحد دعاة التحرير
"المهانين". فلا غرو أن دوجلاس كثيرًا ما استشهد به.

رأى دوجلاس في بايرون رمزًا للذكر العظيم المقاتل من أجل
الحرية. كان ارسقاطياً تحول إلى مترد، رجلاً هبط في منزلة
اجتماعية ليصعد إلى منزلة روحية، وضحي بحياته من أجل قضية
الحرية. كان هناك شيء شديد الإثارة في توجيهات بايرون، سواء في
الحياة أو في الفن. كان يولي وجهه معرضاً عن المجتمع باحثاً عن
تحقيق مبادئه في الحرية. كلاهما كان يؤمن بأن الواقع يجب أن يظل
ملهماً لتحقيق المثال، وقد عاشا من أجل أحلامهما ولم يستسلما
لأي تنازل عنها.

من ناحية أخرى، كان دوجلاس يعشق بيرنز، إذ وجد فيه رفيقاً
لروحه الأدبية وصاحب أسلوب عامي يماشى مع جهوده لرفع
مستوى الكلام الريفي إلى مستوى الأدب. كما أن حياة بيرنز

انعكست على حياة لنكولن، الذي كان فلاحاً فقيراً نائياً نادراً ما
ارتحل خارج دائرة المعروفة، وكان يسعى لتمثيل صوت الشعب
سياسياً وشعبياً. كان دوجلاس ليتفق مع والتر وإيمان الذي قال إن
أشعار بيرنز وشخصيته قد "حببت أمريكا فيه.. فهو.. سيكون
بين أهله وبينه إذا ما جاء لغرب الولايات المتحدة.. (والغرب هنا
يشير إلى وسط غرب الولايات).. ولربما أضحت زيارته إقامة دائمة
هناك." يمكن أن تنطبق إشارة وإيمان لبيرنز هنا على لنكولن كذلك
مكسلاً: "كان الرجل نموذجاً معتدلاً للإنسان الطيب، دافئ الدم،
الودود، المنتعش، المتحمس في أواسط عمره."

بالنسبة لبايرون، لم يقرأ له لنكولن كثيراً بالقدر الذي قرأ لبيرنز،
ولم يكن يتوحد مع ثورية بايرون المهذبة. في الحقيقة، أدرك لنكولن
وسط آرائه السياسية وصدقاته وارتباطاته الفاشلة. أن الواقع يبعد
كثيراً جداً—ودائماً—عن المثال والنموذج، وذلك لم يكن حجر
عثرة، فقد كانت تلك طبيعة العالم. كما أن شعوره بعدم الأمان في
زواجه علمه أن "النزعة المثالية" كانت هي نفسها المشكلة، أو كما
قال لسبيد: "إن سوء الحظ الغريب لي ولك هو أننا نحلم أحلاماً عن
السعادة والجنة تبعد تماماً عن أية راحة يمكن تحقيقها على الأرض."
وقد ساعدته تلك الروح البراجماتية على التسامح مع العبودية بينما
هو يكرها، أو مع الزواج بإنسانة يفتقد معها الحميمة التي كان قد

حققتها من قبل، كما ساعدته على توفيق أحلامه في الشهرة مع حاله
كإنسان مجهول، فلفترة ما كان دوّجلاس مشهوراً على مستوى العالم
في حين كان لنكولن ما زال محامياً ببلدة صغيرة ورجلاً سياسياً غير
معروف كلية خارج ولاية إلينوي.

الفصل الثالث

داعية راديكالي لالغاء الرق . . . وجمهوري

أيها الراسخون في الأغلال بالوراثه— ألا تعلمون؟ !
إن الذين سيكونون احراراً، يجب أن يبدأوا الثورة .
لورد بايرون . . من قصيدته " حج تشايلد هارولد " ١٨١٢م
(لأن مملكة تنقسم على نفسها . . . لا يمكن أن تقوم)
من خرافات يعسوب " ٥٦٠ قبل الميلاد "

كان فريدريك دوجلاس يهوى كشف الأكاذيب الأمريكية. وحالما انتقل إلى رويستون في أواخر عام ١٨٤٧، بدأ يتابع الأعمال السياسية عن قرب مسلطاً الضوء على نفاق الأمريكيين وهم يتصايحون من أجل الحرية بينما يسعون لنشر العبودية. وكثيراً ما قام دوجلاس بمقارنة الأحوال الأوروبية بالأحوال في أمريكا على سبيل المناقضة. ففي الأول من أغسطس في عام ١٨٤٨، أثناء الاحتفال بذكرى خلاص الهند الغربية البريطانية، أثنى على فرنسا لقيامها بإزاحة مليكها عن عرشه وإلغاء الرق. ففي مفاجأة رائعة أخلصت فرنسا بدورها لشعارها الجمهوري "حرية... ومساواة... وإخاء". وعلى التقيض من ذلك، تحدثت الولايات المتحدة الاتجاه العالمي نحو التحرر، ووقفت - تقريباً - وحدها كجزيرة للعبيد وسط عالم حر جديد". في السطر الختامي لخطابه قال دوجلاس إن رجال الدولة الأمريكيين أرادوا الاستماع مع فرنسا "بفلسفتها الجمهورية" لكنهم وجدوا ذلك مستحيلاً دون "الظاهر باستماعهم عبر حركة تحرير العبيد".

أصبح رجال الدولة المشهورون مثل هنري كلاي "بطل لنكون" هدفاً مفضلاً لصب احتقار دوجلاس عليهم، وبعد انتقاله إلى

^{١٣} في عام ١٧٧٠ كانت العبودية قانونية في كل بلدان العالم الجديد وبعد ثمانين عاماً تم إلغاؤها في كل مكان عدا الولايات المتحدة والبرازيل وكوبا وغينيا الهولندية - المترجم

روشيستر قلل كثيراً من أهمية كراهية كلاي المعلنة للعبودية، فكلاي مثله مثل لنكونل يؤكد أن الرق مسئولية كل ولاية على حده وأن ملاك العبيد هم فقط القادرون على إلغائه، وهذا الاعتقاد أشبه بمناشدة القرصان تسليم مسروقاته طواعية واختياراً، فهو يسمح لكل ولاية "أن تنهب وتعذب وتستعبد أي فرد من الجماعة البشرية داخل حدودها" كما صرح دوجلاس، وقد قلل ذلك من قيمة تأثير دعوة كلاي لإنهاء العبودية في ولايته - نفسه - كنتاكي حيث ظلت إلى عام ١٨٨٥، ومدتها تقريباً أربعين عاماً تالية قبل أن يتحرر أي عبد بالفعل. لم يكن ذلك هو حاله وحده، بل إن كلاي استلك حوالي خمسين عبداً، كان يسرق حرياتهم كل يوم، وقد سأل دوجلاس أحد كبار رجال الولاية بقوله: "هل تعتقد أن الله سوف يعتبرك بريئاً عندما تموت ودماء أولئك العبيد الخمسين تلتطخ ملابسك؟"

كما أن دوجلاس شهراً برجال كونجرس ليس لهم صيت مثل لنكونل، ففي يناير من عام ١٨٤٩ نشر سجلاً يحوي إحصاءات التصويت في مجلس النواب على قرار حظر تجارة العبيد في منطقة كولومبيا، وقد شعر أغلب أعضاء الكونجرس الشماليين بصدمة هائلة لمدى انتشار هذه التجارة في عاصمة دولة حرة، حيث يُنصَّب واحدٌ من أكبر أسواق تجارة العبيد في الأمة على مسافة تبعد بعدد

قليل من المباني عن مبنى الكابيتول. كان أعضاء الكونجرس يمرون بذلك المستودع الكئيب الضخم في طريقهم لعملهم. كما كان عليهم أن يواجهوا تلك السلسلة الطويلة المنتظمة من العبيد الذين يعبرون ميدان بنسلفانيا قادمين من الكابيتول متجهين إلى جوار البيت الأبيض. احتشد أعضاء البرلمان الشماليون حول القرار، ومكنوه من الصدور.

ولم يكن بينهم لنكون، فقد صوت للإبقاء على تجارة العبيد في المقاطعة رغم كراهيته لها وكان قد أشار - ذات مرة - لسوق العبيد بواشنطن بأنه "حظيرة تربية الزنوج"، ويعتقد أن على مواطني المقاطعة أن يقرروا بأنفسهم مستقبل الرق ومستقبل تجارته هناك.

كان الخوف قد ملا دوجلاس بشأن التصويت، لكنه فكر في الأمر على أنه "مثالي جداً بأكثر مما يمكن تحقيقه". وكان على حق إذ بعد ستة أيام أعاد المجلس النظر في القرار وأسقط تنفيذه. وفي كلا التصويتين لاحظ دوجلاس في حينه أن لنكون أيد تجارة العبيد، وقد قام بالإدلاء بصوته متضامناً مع الجنوبيين مؤيدي تجارة العبيد، ومع قادة الولايات التي انشقت بعد ذلك مثل هاو كوب واليكساندر ستيفنز وروبيرت تومبز وألبرت جالاتين براون.

وفي النهاية أدت تلك التشويشات للحقيقة وذلك الارتداد عن الحرية بدوجلاس إلى أن يعلى السلاح على الكلام، فلو كان قدر

العبودية أن يُلقى على أكاف الناس بولايات العبيد ، حتى لو كانوا من معارضي العبودية مثل لنكون وكلاي، فليكن الأمر كذلك طالما كان "من بين هؤلاء الناس العبيد أيضاً كما قال دوجلاس . لذا بدأ بتعليم العبيد ما يجب عليهم فعله . وبعد أشهر قليلة من تصويت لنكون، قام دوجلاس بتحريض العبيد على أن "يقتدوا بما فعله آبائهم عام ٧٦ . وحذر من أن مالكي العبيد ينامون فوق براكين كامنـة . " وربما يأتي اليوم الذي تدقق فيه اللحم . كان لايزال يأمل في حل سلمي لمشكلة الرق وأطلق على نفسه "رجل سلام" . لذا، كان استخدام أداة الاحتمال "ربما" في كلماته . وقد نبع تحذيره من حدوث تمرد وشيك من مقولة الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا: "إن أولئك الذين يقودون الناس للأمر، سيقعون فيه..." "وإن أولئك الذين يشهرون السيف، سوف يموتون به . " كما قام بتعريف العبودية بأنها "كحالة حرب" تستدعي أن يشن الإنسان حرباً على الرق كيما يجلب السلام . ثم يستبدل سريعاً القول باحتمال الغاء الرق إلى الدعوة الصريحة بذلك ، ويهجر حديث "اللاعنف" بأكمله ويحرض على بدء "القيامة" فوراً، وربما استلهم رؤيته من قصيدة بايرون عن "تسايلد هارولد"، ذلك الإنسان العصامي الآخر الذي أعلن : "أيها العبيد بالوراثة، ألم تعلموا بعد أن الذين سيحررون أنفسهم لابد وأن

يضربوا أولاً. "كان عليه أن يشهر سيفه ويشنها حرباً على أولئك الذين قاموا بتشويه الحقيقة لحماية أوضاع العبودية.

أصبحت جريدة دوجلاس عصاء الغليظة التي يهدد بها، وكان قد أسماها "ثورث ستار" أي نجم الشمال، وهو ذلك النجم الدليل الذي يهتدى به الهاربون في طريقهم. ربما يكون ذلك الاسم أيضاً صدى لجريدة "النجم الشمالي"، الصحيفة المناصرة للحركة العمالية التي تصدر في إنجلترا والتي تنادي بحقوق العمال والتي كان يقرأها دوجلاس خلال إقامته هناك. كانت جريدة "ثورث ستار" أسبوعية تصدر في أربع صفحات تم تصميمها على نموذج صحيفة جاريسون "الليبراتور" واستعار من مرشده أسلوبه القاسي، السريع، المجسّد للصورة. لكن، بينما لم يكن جاريسون يكل في هجومه ساعياً لتحقيق الضربة القاضية في موضوعاته مع كل جملة يكتبها، كان دوجلاس يحب السخرية، والمرح، واستخدام التورية. لذا، كان يعجبه بايرون وبيرنز. هكذا بدا أثره شديد الرقة، وقد فاق ما استعاره وما أضافه من وإلى مرشده فيما يكتب كثيراً. ومثل جريدة "الليبراتور" سعت "ثورث ستار" إلى تحقيق الخلاص العالمي للسود ورفعته دون إغفال حركات الإصلاح الأخرى مثل حقوق المرأة، والعمل، ومقاومة الخمر. لكن، في حين كان جاريسون يقلل من

شأن السياسة، فإن دوجلاس جعل لها الصدارة ونشرت الصحيفة في أول إصدار لها، في ٣ ديسمبر ١٨٤٧، خطاباً إلى كلاي الذي يهاجمه فيه ويتهمة بالتساهل في مسألة العبودية، كما أن جريدة "نورث ستار" تخيلت - وسط تنوع أصوات وموضوعات الجريدة - مجتمعاً جديداً يرتقي بحال الأمة ويعطي مبدأ "كل الحقوق للجميع" الذي أصبح بعد ذلك شعاراً للجريدة. وبإصداره تلك الجريدة، شعر دوجلاس أنه يشبه الوصول إلى مدينة نيويورك توه خارجاً من أدران العبودية. فأنث تحياً على الأمل والتحفز، وإذا ما استطعت اجتباب الدائنين (والخاطفين) لمدة ستة أشهر، فإن فرص تحقيق ذاتك كمحرر في صحيفة (أو كرجل حر) تزايد بصورة مثيرة. لم يكن في الامكان التنبؤ بمصير تلك المغامرة، حيث كانت هناك دائماً ظروف غير محسوبة بغض النظر عن مدى العناية المبذولة لإعداد وتخطيط الإصدار الأول (أو الحرب).

انتقل دوجلاس إلى روشيستر في خريف ١٨٤٧ لإصدار جريدته، وأخذ يتجول هو وصديق له وأبقى أنا والأطفال في "لين" كيما يكرس كل طاقاته للمهمة القائمة أمامه، فقام باستجار مكتب بالمقار ٢٥ بشارع بوفاك وسط قلب المدينة التي تمور بالأعمال التجارية للمقاطعة، وأفق كل مبلغ الألفي دولار التي منحها له أصدقائه البريطانيون دفعة واحدة. وسرعان ما امتلأ مكتبه

بالمطبعة الجديدة بمعدنها البراق وحروف الطباعة وصناديق الأحرف
والمناضد .

كان ذلك أمراً سيئاً وخطأً فادحاً إذ لم تكن لديه أدنى فكرة عن
إدارة المعدات أو ملاحظة الصناعات الذين أسأجروهم للقيام بالنضد
وإعداد ألواح الحروف وأدرك على الفور أن من الأرخص له التعاقد
مع ناشر خبير . لكنه لم يستطع إعادة بيع المعدات التي اشتراها،
وبدلاً من أن يوفر ذلك المبلغ الذي يعادل ١٥٠,٠٠٠ دولار بحسابات
اليوم من أجل بناء قاعدة كبيرة من المشتركين، لجأ من فوره الى
الدين . اجتازت "تورث ستار" في الأشهر الستة الأولى الحاسمة
بفضل إصرار دوجلاس وإرادته الحديدية وليس بفضل أي شيء
آخر .

كان معظم المحررين الصحفيين ينفقون سنوات طوال في التدريب
بمكاتب الطباعة . فقد كانت تلك مدارسهم وحرقتهم . حيث
تعلموا كيف يصفون حروف الطباعة المعكوسة حرفياً وهم يراجعون
كل الحروف المتشابهة مثل التاء والتاء والصاد والضاد منعاً لأخطاء
التهجي ، وكيف يكتبون جُملاً نظيفة متناسكة . وعندما كانوا
يصبحون محررين كانوا يعرفون كل صغيرة وكبيرة في العمل الصحفي ،
ويغدو في إمكانهم تحديد الصحافة الجيدة بمجرد تصفحها .

كان دوجلاس قد تمكن من الخطابة والكتابة وبرع فيهما، لكنه تاه عندما دخل مجال التحرير والنشر.

في أية مدينة أخرى ربما كان دوجلاس سيتعرض للإفلاس. لكن مدينة روشيستر- المدينة الصناعية ذات الخمسين ألف نسمة- كانت أسوأ محوّر الإصلاح الراديكالي. وبوجودها على الطريق المباشر المتجه لكندا كانت من آخر المحطات في قطار الأتفاق. بعبارة أخرى، كانت مدينة تحتاج الى قائد ومحرر جيد من دعاة التحرر.

وتحول مكتب دوجلاس بالفعل الى محطة رئيسية فوق قطار الأتفاق، بل إن أحد أصدقائه يذكر أنه قد بُني بمكتب دوجلاس سُلّم سري يؤدي عبر باب مموه إلى مخبأ مخصص "للمطاردين". ربما تكون تفصيلات الحكاية مشكوك في صحتها لأن دوجلاس لم يكن لديه أية تقود تسمح ببناء سُلّم سري. كانت حكايات الأبواب الخفية والسلام السرية غالباً تشكل جزءاً من الذاكرة البدائية لمرحلة العبودية لا كجزء من تاريخها. ومع ذلك فقد لعب دوجلاس دوراً محورياً في وجود قطار الأتفاق في روشيستر فوقاً لأحد تقديرات الملاحظين، ساعد دوجلاس حوالي أربعمئة هارب للحصول على حريتهم حيث أوجد لهم بيوتاً وأرشدهم الى طريق آمن لكندا. وقد تضمن أول إصدار من جريدة "نورث ستار" مانشيتاً رئيساً يقول: "

أخت... أنقذت من العبودية. " متبوعاً بمقالة تموجزة صف فتاة
عمرها ثمانية عشر عاماً غادرت مكتبه لتوها في طريقها الى الحرية.
في بدايات عام ١٨٤٨ لحقت أنا والأطفال بفردريك في
روشيستر، لكنها لم تشعر بالسرور لاضطرارها للانتقال من جديد،
وقد كرهت مدينة روشيستر- في البداية- إذ كان عليها العيش في
سكن رخيص ، بينما بيتها هو عالمها الخاص جداً .

وتحسنت حياتهما المنزلية في أواخر ربيع عام ١٨٤٨، حيث باع
فردريك منزله في لين، وبمحصيلة البيع وبمساعدة أصدقائه دعاة إلغاء
الرق في روشستر تمكن من شراء منزل ذي طابقين وتسع غرف،
مبني بالطوب، في رقم ٤ شارع أليكساندر بالقرب من مكتبه في
وسط المدينة. كان منزلاً رائعاً بالنسبة لهم لأنه يحيط بممرعى واسع
للأطفال وحديقة لآنا، وحجرة مكتب لفردريك. كان ذلك أول منزل
أمكته تسميته منزله، وقد احتوت "حجرة مكتبه الصغيرة- الشبيهة
بالعرين أعلى السلم- على منضدة صغيرة وبعض الكتب وقائمة من
الكلمات التي وجدها صعبة التهجى."

أحبت أنا المنزل الجديد وقضت وقتاً طويلاً من حياتها "تحافظ
على الأشياء في وضعها الصحيح." أطلق عليها الأصدقاء "مديرة
المنزل النموذج"، ووفقاً لما ذكره أحد جيرانها ، فقد ساعد سلوكها
المدير فردريك على الاحتفاظ بجريدته قائمة بينما كان يجاهد هو

للحصول على المزيد من المشتركين، وحالما انتقلوا جاءها الفرج
بانتقال أختها للعيش معهم وساعدتها في أمور التنظيف والطهي
ورعاية الأطفال.

خلال صيفهما الأول في شارع أليكساندر، طلب فردريك من
أحد أصدقائه الدعاة تعليم أنا والأطفال القراءة والكتابة، وكانت
أنا مترددة لكنها حاولت "من أجل خاطر فردريك". ورغم ذلك،
فقد شعرت بالارتباك وبزاحم مشاغلها، وعندما بدأت تهمل
واجباتها المنزلية من أجل كلب النسخ والهجاء "انتهت تجربتها من
أجل التعليم" للأبد.

لم يعبر فردريك أبداً عن خيبة أمله لرفض أنا التعلق بقوة الكلمة
المكتوبة. لكن ذلك لا بد أنزعجه لأن الكلمات كانت حبه الأول،
وكانت أنا تعلم ذلك جيداً. أما عن الأشياء الوحيدة التي استمتعا
بها معاً فكانت أطفالهما وعشقهما للموسيقى، فأحياناً كان آل
دوجلاس يتجمعون فوق نجيلهم الأخضر في مساء الصيف، وتعزف
أنا على كمانها بينما يقود فردريك الأطفال لغناء تريلة "الملاك" أو
أية تريلة أخرى من كتاب تريتلات أنا، وعندما كان أطفال الجيران
يسمعون صوت فردريك الصادح الطروب ولأذنه الحساسة، يتجمعون
بدورهم، وبعد سماعهم لعدة تريتلات أخرى يطلبون بعض الأغاني
الشعبية، فيندفع فردريك وأنا في عزف ألحان ستيفن فوستر مثل

"نيللي كانت سيده" أو "منزل كئافي القديم". بدت تلك الألمان الجنوبية الشعبية كمرثيات لشخصيات مضت.

كان دوجلاس شديد الفخر بمنزله حتى أنه كتب إلى توماس أولد - سيده القديم - يوم ٣ سبتمبر ١٨٤٨، وهي الذكرى العاشرة لحصوله على حريته، يقول له إنه الآن يملك ماوى مريحاً "يشبه تماماً منزلك" ويقوم على رعاية أسرة سعيدة تكون "من رفيقة مجتهدة ونظيفة (أنا) وأربعة أطفال أعزاء" تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والتاسعة. رغم صعوده الاستثنائي، إلا أنه كان يفكر باستمرار في ماضيه. حيث أصبحت حياته السابقة كعبد حينذاك مصدراً لكسب عيشه. وحينما كان يجد نفسه وحيداً في حجرة مكتبة كان يضع - أحياناً - قلمه في أحد شقوق أقدامه التي صارت أكثر غوراً بفعل الصقيع حينما كان عبداً. لم يكن ماضيه فقط حاضراً في ذهنه وإنما كان ملموساً أمام عينه.

وقع دوجلاس في هوى مدينة روشيستر أكثر المدن تحمساً لحرية المرأة وتحرير العبيد في البلاد. كما أنها كانت لا تخلو من خيلاء وغرور الصفوة الحاكمة في بوسطن. لقد كانت في قلب "الأتون المشتعل" للمقاطعة وهي منطقة بولاية نيويورك العليا على طول مجرى قناة إيريك اجتاحتها النيران الروحانية لحركة الإحيائيين الجدد مماحولها إلى بؤرة للإصلاح الراديكالي، لأن روشيستر كانت موطن

الأختين فوكس اللتين اكتشفنا العقيدة الجديدة "الروحانية" عام ١٨٤٨، التي مكنت الناس من التواصل مع "الموتى". كانت المدينة تبعد ستين ميلاً فقط من شلالات سينيكّا، موقع أول اتفاقية لحقوق المرأة في العالم أيضاً في نفس العام. رغم عدم وجود دلائل تشير لقيام وجلاس بممارسة الطقوس الروحانية، إلا أنه حضر مع ثلاثين رجلاً ومائة وعشرة امرأة اتفاقية شلالات سينيكّا، وخلال حلقة نقاش حول حق المرأة في التصويت، ألقى خطبة بليغة، وبذلك أنقذ الحركة من الانهزام.

لقد ذابت بعض معالم التعصب نسبياً في مدينة روشيستر. وبالتالي، سادت روح انفتاح تجاه السود لم يوجد مثلاً في بوسطن. لا ريب أن روشيستر لم تكن إنجلترا. لكن دو جلاس شعر فيها بالأمن كأنه في منزله أكثر من أي بلد آخر في وطنه حيث قال فيما بعد: "لا أعرف مكاناً في الاتحاد أينما أستقرب في الحال وجدت فيه رفضاً أقل أو تلقيت فيه تعاطفاً وتعاوناً أكبر من هنا."

كان لدى رجال الأعمال وزعماء الإصلاح في روشيستر سبباً قوياً لمصادقته وحمايته، لأنه كان أشهر مواطني المدينة وكان وجوده يساعد كثيراً في جلب الأموال والأعمال والموارد الأخرى. فبعدما طلب محرر جريدة نيويورك اليومية من أهالي روشيستر أن يقوموا

بإلقاء مطبوعة ذلك الزنجي في بحيرة أوتاربو وبقي صاحبها إلى كندا،
سارع مصلحو المدينة لتجديته في الحال.

كما رحب الصحفيون بدوجلاس كذلك. ففي بدايات عام
١٨٤٨ دعاه ناشرو المدينة لحضور احتفالهم السنوي بمناسبة عيد
ميلاد الرئيس بنجامين فرانكلين في فندق إيرفينج هاوس، وعندما
وصل عند بوابة الفندق قام أحد الموظفين بطرده ونفته صاحب
الفندق بالمتطفل قائلاً: "إن ذلك خرق لقواعد المجتمع التي تمنع الملونين
من الاجتماع مع البيض." لكن أحد محرري المدينة شاهد ما كان
يحدث وطلب من المجتمعين التصويت على ذلك، وبموافقة جماعية
تقريباً قبلوا انضمامه لدائرة ناشري روشيستر.

أصبح إسحاق وإيمي بوست وهما من دعاة إلغاء الرق من أقرب
أصدقائه، وكان قد قابلهما خلال زيارته المبكرة للمدينة عام ١٨٤٠
وارتبطوا جميعاً ببعضهم. ذكر دوجلاس: "أحبتي إيمي وعاملتي
كانخ لما قبل أن يعرفني العالم بما أنا عليه الآن." وقد بادلهما الود
قائلاً: "إنه أحب إيمي وأعجب بها." كما أطلق على إسحاق:
"العزیز إلى نفسي"، وتزاورت أسرتهما دوجلاس وبوست كعائلة
واحدة.

ورغم ذلك الدعم المجتمعي، اندثرت صحيفة "نورث ستار"
وانتهت تقريباً في عامها الأول. ففي مايو ١٨٤٨ فور شرائه لمنزله،

نشر دوجلاس دعوة عاجلة طالباً المساعدة المالية، وحصل على اشتراكات أقل من ألف اشتراك بالجريدة، فاضطر لرهن بيته ليقبى قائماً في العمل، ولكي يسرع حركة الاشتراكات ويحصل على نقود أكثر، ألقى سلسلة من المحاضرات أمدته بدخل صاف يتراوح ما بين ٢٥ دولار إلى ٥٠ دولار لكل محاضرة، وهو ما يساوي من ١٨٧٥ دولار إلى ٣٧٥٠ دولار بحسب اليوم.

واجه دوجلاس عدداً من المعوقات، إضافة إلى قلة خبرته كمحرر صحفي، منها خطأه في حساب قاعدة مشتركى الجريدة. إذ كان هدفه الوصول إلى نصف مليون مشترك من قراءه الأحرار من السود على نطاق البلاد منوهاً في أول أعداد جريدته: "تذكروا أن جميعنا واحد... وقضيتنا واحدة، وعلينا مساعدة بعضنا البعض!" استأجر دوجلاس عدداً من السود لمعاوته، وعمل مارتن ديلاي - الذي تعلم درس لفترة وجيزة بجامعة هارفارد قبل أن يقوموا بطرده منها، مساعداً لرئيس التحرير وكان مسئولاً عن جلب الاشتراكات للجريدة. وجاء وويليام كوبر نيل، أحد رعايا جاريسون، من بوسطن لمساعدته. لكن ديلاي لم يجلب سوى اشتراكات قليلة. كما أن نيل الذي لم يوافق دوجلاس على استخدام السياسة في الجريدة عاد إلى بوسطن. فشل دوجلاس في الوصول إلى المجتمع الأسود المأمول.

وتيجة لذلك أصابه إحباط عميق وأخذ يلوم السود لعدم اشتراكهم في جريدته متعجباً : "على كل رجل أسود أن يطرح على نفسه سؤالاً واحداً: ماذا أفعل لإعلاء وتحسين أحوالي خاصة وأحوال إخواني عامة؟". وتوصل في يوليو ١٨٤٨ إلى إنهم لم يفعلوا شيئاً له قيمة. وفي حين كان المتهورون وأوروبا وعمال أمريكا من البيض يثرون ويقاومون ويتوحدون، كما "نحن الأكثر قهراً بالمقارنة بهم متبلدين وغير مبالين بما هو خير لنا". فمن بين نصف المليون زنجي حر في البلاد، اهتم ألفان فقط بمساعدة أنفسهم وأبدى أقل من ألف وأربعمائة منهم اهتماماً بحركة مناهضة الرق، ومن بينهم اشترك مائة فقط في هذه الجريدة، ونحن "نعلن في أسف شديد، لا في غضب."

لكن دوجلاس كان غاضباً حيث لاحظ أنه في حين أن السود ينفقون بسخاء على منظماتهم الأخوية فإنهم يرفضون الاشتراك في جريدته. وفي يوليو ١٨٤٨ تجمع ما بين أربعة إلى خمسة آلاف من السود في مدينة نيويورك للاحتفال السنوي لـ"الأخوية" "الزملاء الغريباء" وهي أكبر منظمة أخوية سوداء في البلاد، وأنفقوا على أعلامهم الحزبية الداعية للحرية ووحفلات العشاء الراقصة وأزيائهم الزاهية، حوالي عشرين ألف دولار بمتوسط قدره أربعة دولارات لكل فرد، ومع ذلك لم يدفعوا دولارين مقابل اشتراك سنوي في جريدة "تورث

ستار". ولم يدرك دوجلاس الا مؤخراً فقط، عندما تحسنت أحواله
التمويلية، أن تلك المنظمات الأخوية كانت ذاتها مصدراً رئيسياً
للاعتزاز العرقي والارتقاء المتبادل.

كانت مشكلة نقص الدعم من قبل السود مشكلة صغرى، لأن
مشكلة دوجلاس الكبرى نبعث من الانقسامات داخل حركة
مناهضي العبودية مضافاً إليها الكراهية من قبل الحلفاء السابقين من
البيض. وسعت جريدة "ثورث ستار" إلى سد الفجوة بين مجموعة
جاريسون المسالمة "الجاريسونيين" وبين حزب الحرية واجتذبت القراء
من كلا الجانبين. لم تدن الجريدة عمليات التصويت والانتخاب (مثلما
فعل جاريسون ورفاقه) ولم تكن تابعة لحزب الحرية كذلك. كانت
مستقلة تماماً في عصر كانت أغلب الصحف تنحاز لحزب بعينه أو
جماعة محددة. وعلى ذلك، لم تمده أي من الجماعتين بالدعم
المطلوب والضروري.

وإضافة لكل ذلك، كانت جماعة رفاق دوجلاس السابقين في
بوسطن لا تزال غاضبة منه لأنه هجر الجماعة واستقل بجريدته
الخاصة، وقد أطلقوا على جريدة "ثورث ستار" اسم الأداة غير
الضرورية، إن لم تكن غير مفيدة للنهوض بقضية العبيد. وقاطعوا
جريدته. وبعد ثمانية أشهر من إصدارها الأول، لم يكن لدى الجريدة
سوى أقل من ثلاثين مشتركاً في كل أرجاء ولاية ماساتشوستس،

الولاية التي كانت موطن حركة جاريسون لمناهضة العبودية وحاملة لواء الحرية، بل إن بعضاً من مناهضي العبودية في بوسطن أرسلوا إلى أصدقاء دوجلاس في بريطانيا طالبين منهم عدم الإشتراك بجريدته.

ورغم تلك الاختبارات، أسس دوجلاس قاعدة من القراء النافذين ببطء شديد. وكان من بين أوائل المشتركين المعروفين بجريدته الأدبية هاربيت بيتشرستو ولوكرتشيا موط ومثلها السيدة بايرون (أرملة الشاعر الشهير). كما انضم إليهم بعض من الأصدقاء الجدد من أقصى نيويورك وقرأوا جريدته باحترام وتقدير، كما فعل القراء القدامى من بريطانيا وذلك رغماً عن الرسائل القادمة إليهم من بوسطن.

كان هناك صديقان - على وجه الخصوص - هما من وضعنا دوجلاس على طريق الأمان التمولي. أولهما كانت الصديقة جوليا جريفيث التي كان لوالديها علاقة وثيقة بحركة تحرير العبيد البريطانية، وقد أصبح فردريك دوجلاس وجوليا صديقين خلال رحلاته في إنجلترا، وساعدته في الحصول على حريته وواصلتا مراسلاتهما بعد عودته للولايات المتحدة، وحالما علمت بأزمة جريدته حزمت أمتعتها في إنجلترا وحضرت إلى روشيستر مع أختها إليزا، وانتقلتا إلى منزل دوجلاس.

كانت لجوليا حاسة تجارية رائعة، فقامت بفصل حسابي فردريك الخاص والتجاري كلاً على حده، وحصلت على آلاف من الدولارات بتنظيم عدة معارض خاصة بمناهضة الرق. كما نشرت عدة دعوات لطلب الامداد والتمويل والاشتراكات، وأنشأت قاعدة حاسمة للدعم من النساء القارئات. ثم قامت بتعليم دوجلاس أسس فن التحرير الصحفي، مبتدئة بقواعد اللغة. وعندئذ لم يعد يعتمد فقط على حاسته النظرية في الحكم على ما هو صحيح وما هو خطأ، فهي الآن مرشدته الماهرة. كما قامت بتصحيح مقالاته التحريرية "بقلم أزرق مدق" وفحصتها كما لو كانت معادلات رياضية.

سرعان ما تعلم الكتابة بثقة دونما أخطاء، حيث يذكر ذلك بعد عدة سنوات "تصوروا ما كان يمثل تحرير صفحة واحدة لي قبل أن التقى بالآنسة جريفيث ... إذ لم أكن قد تعلمت كيف أتهجى كلمة بعد، وكنت أكتب ببطء يملؤني الحرج بشدة، جاهلاً بكل أسف - بكثير مما يجب أن يعرفه كل تلميذ في أي مدرسة. " وكخطيب، لم يكن دوجلاس بحاجة لمعرفة هجاء الكلمات بدقة. كما أنه أثناء كتابته لسيرته الذاتية عام ١٨٤٥، كان يستطيع الاعتماد على الآخرين لتصويب وتنميق نصوصها.

أثار وجود امرأة بيضاء جذابة بمنزل دو جلاس فضيحة، فعندما كان يقضي وقته بالمدينة، كان يمضي أغلب "مشاويره" سائراً مع جوليا. كما كانا يعملان معاً طوال النهار بمكتبه، وغالباً ما يمكنان هناك إلى وقت متأخر من الليل. من هنا افترض معظم الرجال البيض العنصريين - الذين نشأوا معتقدين أن كل الرجال السود يتحرقون شوقاً لامرأة بيضاء - أن بينهما أعمالاً غير لائقة كلما رأوها معاً لأن مجرد رؤيتهما في شارع مين بروشستر يسيران متماسكي الأيدي (كما كانت العادة) أثار هياجاً كما لو كانا شوهدا عرايا. بدأت "التهديدات تنهال علناً" عليهما لو استمر ذلك الاندماج. لكن جوليا وفرديريك مضيا قدماً دون اهتمام بأحد متجاهلين نظرات الناس المستنكرة. وانتهت التهديدات في النهاية دون أحداث، وعندما ذكر أحد الدعاة تلك الشائعات في روشيستر، أنكرها دو جلاس بشدة مصرحاً: "عندما تقوم تلك المدينة التي تدعى أنها تمتلئ بأخبار الفضائح المتعلقة بي وبالآنسة جوليا بوضع تلك "الأقاويل" في أسلوب محدد، وتعين شخصاً واضحاً يقف وراءها، ستكون هذه هي اللحظة التي سأقوم فيها بدحضها."

أنت أسوأ الشائعات من دعاة بوسطن الذين اعتبروه مرتدّاً ومهرطقاً، فقد اطلق أحد الزملاء القدامى على جوليا لقب "إيزابيل"

التي لا يباريها أحد في قدرتها على إحداث الفرقة والوقعة بين الأصدقاء. " زاد جاريسون نار الشائعات وقوداً بقوله إن دوجلاس منذ انتقاله إلى روشيستر "فقد كثيراً من قيمه الأخلاقية... وأنه يحفظ بوحدة من أسوأ مستشاريه في مطبعته، لدرجة أن تأثيرها لم يقف عند حد التسبب في تعاسة أهل بيته، بل انخرقت بقدرته على التقدير بشكل مدمر. " أنكر دوجلاس أن وجود جوليا سبب الألم لأسرته. لكن وفقاً لمصدر آخر ذكر أن إيمي بوست قالت إن أنا شعرت بخطورة جوليا على حياتها العائلية فطلبت أن تعيش جوليا وسط عائلة أخرى، وقالت لفردريك: " أنا لا يهمني من أمرها أن تكون في المكتب أم لا، لكنني لا أريدها في منزلي. " هنا حاولت هاريت بيشر ستو- صديقة دوجلاس وجاريسون معاً- إخماد تلك الشائعات لكن كلماتها تاهت وسط كلمات قائد الجمعية الأمريكية لمناهضة الرق.

لم يكن هناك أي دليل على وجود علاقات جنسية خاطئة بين فردريك وجوليا لأنه كان يعلم أنه إذا ما وقع في ذلك الجرم فإنه سيدمر مستقبله. لذا، فمهما كان ما يحدث خلف الأبواب المغلقة، إلا أنه اتخذ كافة الاحتياطات للتأكد من أن يرى أي تصرف ظاهر لن يرتد عليه، وفي حين كان لتكوين من قبل يستطيع استئجار إحدى العاهرات لقضاء وطره منها، أو النوم مع صديقه الحميم طوال أربع

سنوات دون أن يبدي أحد اعتراضاً واحداً، نجد معايير الاحتشام بالنسبة للسود صارمة وإن انتهاكها مكلف للغاية.

لو كانت جوليا جريفيث هي من قامت بتعليمه قواعد اللغة ومهارات العمل التجاري، فإن جيريت سميث هو الذي طور آراءه وأعاد صياغة كتاباته. نشأ جيريت في قرية بستر بورو، على بعد أربعين ميلاً جنوب شرق سيراكوز، بين واحدة من أغنى العائلات بالبلد. كان والده شريكاً في أعمال جون جيكونب آستور التجارية، وجمع أكثر من مليون فدان في ولاية نيويورك. وفي شبابه، اقتدى باللورد بايرون وملاه الحلم في أن يصبح شاعر أميركا الملحمي والأرستقراطي، ويعيش أجواء الحرية المطلقة في أشعاره. وفعلاً ارتدى جيريت - معظم أيام حياته - ياقة القميص البايرونية العريضة. لكن سلسلة من المآسي دفعته إلى طريق التغيير الديني والدعوة الثورية لتحرير العبيد. فقد أدى زعر عام ١٨٣٧ إلى إفلامه تقريباً، وشدته إلى الإحساس بأزمات الفقراء والتعاطف معهم، فكرس حياته لخدمة من يحتاج إليه. وبعد تجاوزه مرحلة الإفلاس، أصبح واحداً من اعظم المحسنين هناك حيث تنازل عن حوالي ما يساوي ٨ ملايين دولار من الأرض - أي ما يساوي ٦٠٠ مليون دولار اليوم - وبعض الأملاك الأخرى معظمها للسود الفقراء. كما عقد صداقات عميقة مع السود وتواصل معهم أكثر من أي إنسان أبيض

آخر. كما قال بنفسه إنه سعى في الأساس "لأجعل من نفسي إنساناً ملوناً".

حدث أكبر أعمال سميث الخيرية قبل عام من انتقال دوجلاس إلى روشيستر. في عام ١٨٤٦ تنازل عن أراض مساحتها ١٢٠,٠٠٠ فدان في منطقة أديرونداكس لحوالي ثلاثة آلاف مسكين من الفقراء السود بولاية نيويورك، أي حوالي ٤٠ فدان لكل شخص، (ولم يكن من بينها بغال لأنه لم يكن يملك سوى آلاف من الأراضي دون تقود سائلة). سميت تلك المناطق الواقعة في مقاطعتي إيسكس وفرانكلين باسم "تيمكو" تيمناً باسم تلك المدينة الواقعة في غرب إفريقيا ذلك المكان الذي يتجاوز آفاق الأحكام المسبقة الأمريكية المشينة. ملا سميث الأمل أن تمكن تلك الهبة متلقيها من أن يصبحوا مزارعين وبالتالي ناخبين مستقلين الإرادة حيث كانت الولاية تشترط أن يمتلك العبد ملكية قيمتها ٢٥٠ دولار قبل أن يحوز حق التصويت.

اتهم الساخرون والأعداء سميث بأنه يخدم مصالحه لأنه هو ذاته زعيم من زعماء حركة إنهاء العبودية ساهم في تأسيس حزب الحرية عام ١٨٤٠ والحزب الذي خلفه - حزب الحرية الوطني - في عام ١٨٤٨. كان هذا الحزب الأخير هو أول من دعا للتحرر العالمي من العبودية والحقوق المتساوية لكل البشر. في عام ١٨٤٨ - تحديدًا -

كان سميث هو مرشح الحزب لانتخابات الرئاسة فاكسب جماهيرية متآلية وسط الدعاة السود الذين أحبطهم إصرار جاريسون على التمسك بعدم العنف وعدم السعي للحصول على حق التصويت . ومنذ جلبت عطاياه مزيداً من الناخبين لصالح حزبه، اتهمه آخرون بالانتهازية . لكن حزب الحرية الوطني لم يكسب سوى آلاف قليلة من الناخبين فقط لأن دوره كان رمزياً إذ عمل كمنارة للديمقراطية في جمهورية للعبيد . كان سميث يمثل أغلب دعاة التحرير البيض في نظرته لنفسه كمن يقوم بتنفيذ إرادة الله في قتال خطيئة العبودية . وكان يختلف عنهم في درجة التزامه .

بعد أيام قليلة من إصدار دوجلاس لصحيفته، رحب سميث بدوجلاس في الولاية بخطاب مصحوباً بصك ملكية ٤٠ فدانة في منطقة تمبكو كاتيا: "هنا في موطنكم الجديد نسأل الله أن يبارك لكم في أعمال المحبة التي تبدلونها من أجل شعبكم المقهور!" لم يكونا قد تقابلا أبداً، وقرأ دوجلاس خطابه بصعوبة لأن كتابة سميث كانت أشبه "بنيش الفراخ" الذي كبه شخص مشلول اليد . بعد فك طلاس الخطاب قام دوجلاس بنشره في جريدته (ورعاً قام أيضاً ببيع صك الملكية)، وهكذا بدأت صداقتهما . بدا أن سميث كان يعرف متى يصبح دوجلاس في حاجة للمساعدة بمجرد إحساسه الفريري

بذلك، إذ كانت تترى خطابات - في الوقت المناسب - تحوي شيكاً
هنا بمائة دولار وآخر هناك بمائتين.

كان جيريت سميث يختلف عن كل الرجال البيض الذين قابلهم
دوجلاس لأنه وهب كل ثروته للسود محتفظاً بقليل من الشروط
عليهم، وقد رحب بقدمهم للولاية مخصصاً قطعاً من الأرض تبلغ
الواحدة منها ٤٠ فداناً. كما قام بدعم وتأيد صحيفة يمتلكها
رجل أسود يهبها منحها له على فترات، واستمع لهم ووثق فيهم،
وأيدهم واحترم ما قالوه له. وفي حين عامل جاريسون دوجلاس
كابن له، أصبح سميث صديقاً له وزميلًا نموذجياً. اكتشف
دوجلاس أن بإمكانه مناقشة ومعارضة سميث في القضايا الهامة
دون تبادل الاتهامات، وكان الدستور واحداً من تلك القضايا،
فعندما تقابلا كان دوجلاس متعلقاً بمبدأ جاريسون الذي يقول إن
الدستور يؤيد العبودية وفاسد، وكان جاريسون حقيقة قد قام
بإحراق نسخة منه علانية وأطلق عليه "ميتلق مع الموت" و"اتفاق مع
الجحيم". لكن سميث كان ينظر إليه كوثيقة مناهضة للعبودية كُتبت
بعناية. والاختلاف في هذا هام جداً، وذلك لأن الكيفية التي تفسر
بها الدستور هي التي تشكل الطريقة التي تهاجم بها العبودية.

وقد استعار سميث وقليل من المنتظرين أسانيد قانونية من
كابات ويليام بلاك ستون تحتج بأن القانون الطبيعي لا يتفق مع

العبودية وبالتالي يلقي أي قانون بشري يدافع عنها . وبدلاً من قراءة الدستور من منظور الماضي وبالتالي ضرورة التعامل مع التراث الطويل من القوانين المؤيدة للعبودية والمنبثقة منه، حاولوا "تمييز ما يمكن أن يكون عليه الدستور". قادت هذه الرؤى المقدمة سميث وأعضاء حزب الحرية الآخرين إلى تفسيرات مبدعة ومفيدة. فالهدف الأساسي للدستور كما جاء في مقدمته هو تأمين نَعَم الحرية، وبالتالي فالدستور يتوافق مع الحقائق البينة بذاتها للحرية والمساواة التي جاءت في إعلان الاستقلال. وعلاوة على أنه لم يذكر أبداً الفاظاً من قبيل "عبد" و"عبودية" أو حتى "زنجي" ومن ثم لا يفرض قيوداً، ولا يسمح بالإضطهاد العرقي. وهو يحمي حريات الناس بطرق محددة: فالأحكام الإجرائية السليمة الى تحمي الحق في الحياة والحرية والملكية تعطى الأولوية للحياة والحرية على حق الملكية ويكفل تحريم مد آثار الحرمان من الحقوق المدنية أن كل طفل يولد حراً بغض النظر عن حالة والديه. وتلك الأحكام التي تؤخذ غالباً على أنها معضدة للعبودية هي ببساطة أحكام تم تفسيرها بصورة خاطئة، فاللحكم الخاص بالهارب يشير إلى "الصناعية" والأطفال ولا يشير للعبيد. وأحكام توزيع الأرض لا تمنح حماية لملاك العبيد. وفي حالة وجود التباس أو تعارض يجب أن يسود القانون الطبيعي أو القانون الإلهي، الذي يجعل العبودية منعدمة وباطلة .

كان تفسير سميث للدستور يدخل في باب المحال، بل كان تفسيراً
فوضوياً، لأنه يتخلى عن سبعين عاماً من السوابق القانونية، ويشجع
تفسيره هذا الناس على تأويل الدستور وفقاً لمعتقداتهم وتحديد معالم
القانون الطبيعي تبعاً لقوانينهم الشخصية. وفي الواقع آمن أغلب
الآباء المؤسسون للدستور وواضعو صياغته أن الاستعباد خطيئة.
لكنهم تنازلوا عن مثلهم وصاغوا ضمانات دستورية للعبودية،
وكانوا - في مناحي عديدة - يشبهون هنري كلاي. فهم يعارضون
العبودية نظرياً. ويسعون لإلغائها في النهاية - كما قال كلاي
ولنكون - لكنهم كانوا في الواقع من أنصار الحل الوسط، لأنهم غالباً
من ملاك العبيد بالفعل.

في البدء أطلق دوجلاس على حاجة سميث الدستورية وصف
"محاكاة مجنونة"، وفي عام ١٨٤٩ سلم بأن الدستور من خلال
التحليل الدقيق لا يعد مؤيداً للعبودية. لكنه أكد أن نوايا صياغ
القانون جعلت منه سلاحاً لحياة العبيد. ودعا إلى دستور جديد
وحكومة جديدة. كان مذهب سميث الدستوري يرى أن الحكومة
"لا تزيد عن كونها جماعة الدهماء الخارجين عن القانون الذين
يتصرفون تبعاً لقناعاتهم وليس لأي مصدر آخر أو أعلى للسلطة."
لأنه لو تجاهلت حكومة ما المقاصد الأصلية لدستورها "في مادة
ما"، لربما فعلت ذلك في كل المواد حيث "لن تكون هناك حدود،

ولا أمان ولا يقين" بشأن كيفية تفسير الدستور وتطبيقه. كان
دوجلاس قد أرتبط بنموذج من القانون المؤسس على المقصد
الأصلي لمشرعه.

لكن ذلك تغير عبر السنتين التاليتين، إذ كثيراً ما جادل دوجلاس
سميث حول المفاهيم المختلفة للقانون. ومع بدايات عام ١٨٥١
اقترب دوجلاس من وجهة نظر سميث، حيث قال: "لقد سئمت
وتعبت من الجدل حول الجانب الخاص بمالكي العبيد" في الدستور
حيث ظل معتقداً أن من صاغوا الدستور قصدوا ضمانات معينة
للعبودية حتى لو كان معظمهم قد ملأه الأمل في وضع حد في نهاية
المطاف للعبودية. على أية حال، كان دوجلاس على استعداد أن
يميل مع رياح صياغ الدستور ونواياهم ومع السوابق القانونية. كان قد
قرأ لوه "تعليقات بلاك ستون" التي بينت له أن العبودية تتناقض مع
العدالة ولا يمكن أن تكون قانوناً. ولم يساوره القلق حينذاك إلا بشأن
مدى أخلاقية ابتداع "قواعدكم القانونية" من أجل هزيمة مقاصد
صناع دستورنا" أما جيريت فقد امتص عوامل القلق هذي حينما
أخبره - بصورة مؤثرة - أن القانون "يتحول دوماً" وأنه في حالة تطور
مستمر. دعم دوجلاس ذلك المفهوم للقانون لأنه هو نفسه كان في
حالة تحول مستمر ويعيد صناعة نفسه.

بعد شهرين قليلة من ذلك، في يونيو عام ١٨٥١، حول صحيفته إلى صوت يعبر عن حزب سميث حزب الحرية الوطني، وكان للشراكة بينهما معنى رائع لأن سميث وفر لها ضماناً تمويلياً من خلال مخصصات شهرية مقابل مساحة أكبر لعرض مبادئ الحزب، واحتفظ دوجلاس فيها باستقلال ذاتي كبير.

ومع هذا الاندماج غير اسم صحيفته إلى صحيفة "فردريك دوجلاس"، وكان ذلك قراراً صائباً لأن اسمه تحول إلى سلعة قابلة للتسويق. كانت رغبة سميث في جريدة ناجحة وجديدة الشكل قد هزته بعنف، وما هو بمنحها شكلاً جديداً مع شراء أوراق بيضاء لطباعتها وانتقاله إلى مكتب أوسع بمبنى وايلدر على ناصية شارع إيست مين وايكستشيج. وأبرز نفسه بصورة أكبر في جريدته الجديدة عما كان يفعل في "نورث ستار". كان الاسم الجديد للصحيفة يعكس ذلك الإسقاط الذاتي كما لو كان يقول: "هذه الجريدة الجديدة شكلاً وموضوعاً هي . . أنا." كما قام بتغيير هويته كرئيس تحرير بإلغاء حرفي ف. د. الذي كان يذيل بهما مقالاته الافتتاحية .

كان دوجلاس يستخدم هذان الحرفان أصلاً ليهدي الاتهامات التي لم يكن يستطيع الكتابة عنها مباشرة. لكن الآن لا أحد يستطيع إنكار قدراته لذا ساير العرف وتبنى "حق وكرامة رئيس التحرير" فيطلق صيغة "سيدي رئيس التحرير لو سمحت!". الآن، هو

سيد مهذب له مهنة محترمة وناجحة، وقد شكر دوجلاس سميث لدوره في تغيير جريدته وتغيير ذاته قائلاً: "إنك لم تحفظ الحياة لجريدتي فقط، لكنك حفظت روحي أيضاً". وفي الوقت نفسه، شعر ويليام لويد جاريسون بخيانة دوجلاس عندما اكتشف اعتناقه لمبادئ تحرير العبيد بالطرق السياسية فأعلن أن "هناك أوغاد في أماكن ما حولنا". وفي الحال، فصل صحيفة فردريك دوجلاس عن قائمة الجرائد المعتمدة التي يرسلها لقرائه. وأصبح دوجلاس بالنسبة لجاريسون وزملاء لوسطن، مرتداً، كابن ضال في عائلة انجيلية مرمّية. واتهموه علانية ببيع روحه وبعهر عقله مقابل أموال سميث. تجاهل دوجلاس ذلك التشويه للسمعة وحاول أن يسوى أوجه الاختلافات بينهما. لكنه سرعان ما تراجع، لأن الرجل الذي كاد يعبد ذات مرة، والذي قدم له الكثير في سبيل إنجازه بمهنة مبكراً، رفض أن يحادثه طوال عقد تال.

بدأ دوجلاس - عندئذٍ - يستخدم العبارات التقريرية مثل "إن البراكين الفائرة سوف ثور." و"إن انتفاضة عبيد الجنوب سوف تحدث." وحث دوجلاس العبيد على اتخاذ شعار ولاية فرجينيا شعاراً لهم وهو "الموت للطغاة"، حيث تبرز حركة تحرير العبيد السياسية استخدام القوة لأنها تطالب كل مواطن أمريكي مخلص

بالتدخل في قضية العبيد حيثما وجدت. وبينما أدت حركة جاريسون بعدم المقاومة إلى الانفصال عن جمهورية العبيد، فقد نادى حركة التحرير السياسية بشن الحرب على الطغاة.

من الواضح أن تحول دوجلاس الدستوري تزامن مع اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ الذي حوى سلسلة من ستة قوانين مررها الكونجرس، تستهدف حل أزمة الانقسام حول قضية العبودية. كان ذلك الحل الوسط من بنات أفكار هنري كلاي الذي سعى لكبح جماح تهديدات الجنوب بالانفصال عن الاتحاد، فأغلب الجنوبيين يطالبون بامتداد العبودية إلى المناطق المنضمة حديثاً من المكسيك، ويهددون بالانفصال إذا قام أي عائق في طريقهم لذلك، في حين أصر العديد من الشماليين على استبعاد الرق من تلك المناطق. وعد كلاي بإجراء تنازلات لكلا الطرفين، وكان هذا من وجهة نظر دوجلاس قد "أمن كل الظروف لدوام للعبودية." بالفعل، حينما مات كلاي عام ١٨٥٢ كتب دوجلاس مقالة يشقده بأنه قدم "ما لم يقدمه إنسان آخر في هذا الوطن لجعل العبودية قائمة على الدوام" فهو الذي أسقط "آلاف من ألمع نجوم الوطن" وعدداً لا يحصى من أعضاء حزب المحافظين غير المعروفين (مثل لنكولن) إلى حمأة التوافق والخذاع.

كان قانون العبد الهارب أكثر أجزاء الحل الوسط لعام ١٨٥٠ إلهاباً للمشاعر كبديل للقانون السابق عليه لعام ١٧٩٣، فهو يحرم المشتبه بهم من حق اللجوء لمحكمة المحلفين أو حتى سماعهم أمام قاض ويستبعد شهادتهم. وهو يحدد مفوضين مخصصين لهم سلطة إرسال المشتبه به على الفور إلى أماكن العبودية دون "تأخير أو استئناف"، بل ويتقاضى أولئك المفوضون مكافأة على إعادة المشبوهين للرق (أصبحت ١٠ دولارات بدلاً من ٥ فقط). كما جعل في الامكان استدعاء أي مواطن أو كل أعضاء جماعة ما لمطاردة الهاربين المزعومين وإخضاعهم لدفع غرامة قدرها ألف دولار حال رفضهم لتلك المهمة، وأي فرد يضبط وهو يساعد أحد الهاربين يواجه عقوبة الغرامة والسجن. وقد غير ذلك القانون الرأي العام في الشمال حيث جعل منه تربة مهيأة "وأرض صيد للخاطفين الجنوبيين" مما أقتنع عدداً لا حصر له من الشماليين بأنهم لا يستطيعون بعد الآن أن ينفذوا أيديهم من قضية العبودية. وألهم ذلك هاريت بيتشرستو كتابة قصتها الذائعة "كوخ العم توم" التي كان تأثيرها عميقاً لدرجة أنها دفعت الرئيس لنكولن لإطلاق لقب "المرأة الصغيرة التي ألقت كتاباً أشعل نار تلك الحرب الهائلة" على ستو عندما قابلها في البيت الأبيض. وأطلق ذلك القانون شرارة خروج جماعي لسود الشمال نحو كندا. وصرح بعض رجال الدولة من ذوي النفوذ

بالشمال من أمثال ويليام سيوارد وسالمون ب. تشيز وتشارلز سمنر بأن ذلك القانون غير دستوري، وحرصوا الناس على مقاومته. كان سيوارد قد أحدث حراكاً بالفعل في مجلس الشيوخ عندما قال: "هناك قانون أعلى من الدستور. إنه ذلك الذي ينظم سلطتنا فوق حيز أراضينا." لقد تجاوزت أصداء فرضية القانون الأعلى التي طرحها سيوارد مع إيمان دو جلاس الخاص بأن "سلطة الله أعظم من سلطة الإنسان."

اعتمد رد فعل دو جلاس ازاء قانون العبد الهارب على وجود قانون أعلى أيضاً، لذا، أضافت حراكاً أكثر. وفي عام ١٨٥٢ دعى لحضور المؤتمر الوطني لحزب الأرض الحرة "فري سويل" الذي كان يسعى لمنع انتشار الرق في المقاطعات الجديدة. عُقد الاجتماع في بيسبورج. ودخل دو جلاس قاعة ماسونيك الفخمة حيث يدور الاجتماع والذي ضم حوالي ألفين من أعضاء الوفود، وتعرف عليه عدد قليل ممن يقفون في الخلف يرتدون "سترات زرقاء زاهية بأزرار من نحاس وبنطلونات بيضاء" وحشوه على الكلام، فتقدم ببطء نحو المنصة بهيئة وخطى من يخاطب نفسه بقوله "لسوف أجعلكم جميعاً تنصتون وتشعرون بي أيضاً!" ذلك وفقاً لما صورته أحد الصحفيين. وأعلن وسط الهتاف والضحك: "إن الطريقة الوحيدة لجعل قانون العبد الهارب مجرد قانوناً ميتاً هي أن نجعل نصف دسنة

من "الخاطفين موتي"، وعندما أضاف قوله: "إن ملاك العبيد لا يصادرون فقط حقهم في الحرية، وإنما يصادرون حقهم في الحياة كذلك." تصاعد الهتاف أكثر قوة.

وإن كانت العبودية نوعاً من حياة الموت كما وصفها دوجلاس أحياناً، فإنه يطلب الآن حكم العهد القديم للثأر ويؤكد أن "سطور العدالة الأبدية" تحتاج للتوهج بدماء الطغاة؛ هذا هو قانون الله، وعندما تدمر قوانين البشر حقوق الإنسان، يجب أن يقام حكم الله مكانها! كان يشير إلى مذهب سميت الدستوري بقوله: "إنه فخور أن يكون واحداً من حواربي سميت."

غطت معظم الصحف الرئيسية خطاب دوجلاس مضيفة المزد لشهرته، وخلال رحلة عودته لبيته توقف للعشاء في مطعم بإحدى المحطات. لكن صاحب المطعم رفض جلوسه بالمكان، فقام دوجلاس بطلب التصويت على ذلك بين الزبائن، ولما كان معروفاً لدى الجميع فقد صوتوا - بالاجماع - لصالح جلوسه معهم لتناول العشاء، موبجين صاحب المطعم "لسلوكة المهين" فكان المرء مشهوراً يمكن أن يمحوا الحواجز العنصرية .

كان دوجلاس يخفف من نبرته القتالية الحادة عندما يخاطب النساء، فقبل خطابه في بـسبورج بشهر واحد، دعت جمعية روشيستر النسوية المناهضة للعبودية ليدلي بخطاب في ذكرى الرابع

من يوليو عام ١٨٥٢ بقاعة كورثيا الفخمة بالمدينة . انعقد الاحتفال يوم الإثنين ٥ يوليو، وربما كان ذلك لإلقاء الضوء على أمانى الأمة التي لم تتحقق بعد . قد يكون خطابه هذا أفضل ما عرف عنه من خطب شهيرة، وهو بمعايير الخطابة خطاب فريد استخدم أساليب (التضاد المزدوج) . يبدأ خطابه بنشر مشاعر الارتياح بين مستمعين من البيض، فجعلهم يشعرون بالاعتزاز "بأنكم أنتم" والأمل فيها، وأخفى الضمير "أنتم" الذى استخدمه " في أنكم ذلك التحول المفاجئ في نبرة صوته جاءت في منتصف خطابه بتساؤله : "اعذروني . . واسمحوا لي أن أسأل لماذا طلبوني للتحدث هنا اليوم؟ وماذا لدي أنا ، أو لدى من أمثلهم، لنفعله من أجل استقلالكم الوطني؟" وبعدئذ وطوال الساعة التالية قام بتوبيخهم مصورا خطايا العبودية والتعصب العرقي داخل الوطن، وجاء التضاد المزدوج التالى قبل نهاية الخطاب عندما يقول: " أترككم أنتم من حيث بدأت، يملأني الأمل . " كأنه يتنبأ بمجيء باراك أوباما . ويُعد الخطاب تحفة رثاء وأنشودة حزن تجاهد لاسترداد مُثل ومبادئ مؤسسي الأمة، ولكنه - بعكس خطبه الأخرى العظيمة لهذا العصر - لم يلمس فيه موضوع الثأر من الخاطفين أو قتلهم^{١٥} .

^{١٥} هناك سبب في أن خطاب "ما الذي يعنيه الرابع من يوليو بالنسبة لعبد" معروف جيدا هو أنه افتقد الروح القتالية في خطبه الأخرى - المترجم

وفي أواخر شهر يونيو من عام ١٨٥٥ بدأ دوغلاس ينشط وفقاً
للغة الثورية، ففي سيراكوزا بقاعة سيتي، وهي مبنى أشبه بقلعة
حصينة، ساعد على تأسيس حزب الغاء الرق الراديكالي وهو
الذي خَلَفَ حزب الحرية الوطني في قيادة حركة تحرير العبيد . لقد
خرج أعضاء حزب التحرير الراديكالي من رحم الجذور التي
أخرجت حزب لنكون الجمهوري وفي نفس السنة، إذ تطور الفرع
المحافظ لحزب الحرية ليشكل حزب الأرض الحرة " والذي نما بدوره
ليصبح الحزب الجمهوري، في حين تحول الفرع الراديكالي لحزب الحرية
والحرية الوطني ليكون حزب الغاء الرق الراديكالي . كره كلا الحزبين
العبودية بشدة . لكن الجمهوريين دعوا لعدم امتداد الرق مؤمنين أن
الدستور يحمي الرق في الولايات، بينما سعى الراديكاليون إلى وضع
نهاية لتلك العبودية في كل مكان .

وحزب الغاء الرق الراديكالي اسم علي مسمى . ففي مؤتمره
الافتتاحي نادى اعضاؤه بإنهاء الرق عالمياً في الحال، وبحق الاقتراع
الكامل لكل الأمريكيين بغض النظر عن الجنس أو اللون، وبإعادة
توزيع الأرض بحيث لا يوجد غني وفقير، والتدخل بعنف ضد قوى
ملاك العبيد . وقد اعتمدوا على نصوص الكتاب المقدس (رسائل
من الله) لمساعدتهم في تمهيد الطريق لعالمهم الحر الجديد .

حضر الاجتماع لضع مئات من الناس، من بينهم ثلاثة من خلصاء
دوجلاس. كما كان هناك جيريت سميث المنظم الرئيسي للحزب،
وكذلك جون براون وهو مناضل نحيف، له عينان رماديتان،
وعمره خمسة وخمسون عاماً، وكان دوجلاس قد اتخذ صديقاً
حال وصوله إلى روشيستر. كما حضر رجل أعمال مفلس لأنه
فشل في كل تجارة أو عمل خاطر بالدخول فيه، وأصبحت حركة
تحرير العبيد هي حرقه الوحيدة، وقد عاش بين المستوطنين السود
في تمبكتو بولاية نيويورك. تأثر دوجلاس تأثراً عميقاً بـ براون بعد
لقائهما الأول فكتب: "رغم كونه رجلاً أبيض، إلا أنه يحمل عاطفة
الرجل الأسود، وهو مهتم جداً بقضيتنا كما لو كانت روحه قد
وسمتها أغلال العبودية." شارك براون كلاً من دوجلاس وجيريت
مبدأ "أن ملأك العبيد قد صادروا حقهم في الحياة."

كان جيمس ماكون سميث هو الصديق الثالث الذي حضر، وهو
مساهمٌ معاد في جريدة فردريك دوجلاس وكان أعظم متقف أسود
بالأمة وأول طبيب أسود فيها من مدينة نيويورك. امتلك صيدلية
وعيادة طبية على طريق برودواي. ومثله دوجلاس، عاش ماكون
سميث في بريطانيا، وحصل على درجاته العلمية - البكالوريوس
والماجستير والدكتوراة - من جامعة جلاسجو بعدما رفضه الكليات
الأمريكية بسبب جنسه الأسود. كما رأس المؤتمر الذي كان - في

حد ذاته- عنلاً ثورياً، لأن المرة الثانية التي رأس فيها رجل أسود مؤتمراً حدثت بعدها عام ١٩٨٨.

وقد ظهرت إتهامات الحزب بوضوح أثناء إلقاء براون لخطابه. كان براون في طريقه إلى كانساس للحاق بثلاثة من أبنائه ليشاركهم معركة الكفاح من أجل الحرية هناك، إذ كان مرسوم إتفاق كانساس- نبراسكا قد تحول إلى قانون، فاتحاً المقاطعات الشمالية أمام العبيد، وكان القانون الجديد يطبق مبدأ "إن السيادة الشعبية" على الأراضي الجديدة تدعو المستوطنين إلى إجراء التصويت على الإبقاء على العبودية أو إلغائها. أدى ذلك لتحويل كانساس إلى ميدان للمعركة بين مؤيدي الرق ومعارضيه من المهاجرين. وقد اقتبس براون من سفر العبرانيين (٩:٢٢) مذكراً مستمعيه أنه "دون سفك دماء لن تكون هناك مغفرة من الخطية." كما رجاهم التبرع بالمال والسلاح ليعود بهما إلى كانساس، وأشعل خطابه الحماس في مستمعيه. ولم يعترض سوى قليل من الناس على طلبه الصفيق للأسلحة. لكن واحداً منهم فقط هو الذي اعترض رسمياً، فأغلب الأعضاء وافقوه على أن المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد أمام رفاقنا على طريق الحرية في كانساس "مما شجع دوجلاس على طلب التبرعات التي غلت لبراون ليحصل على ستين دولاراً وقليلاً من الأسلحة"

لمسوا ثمرة ذلك اللقاء بعد عام لاحق، عندما التقى دعاة تحرير الرق الراديكاليون مرة أخرى في سيتي هول بسيراكوزة لتحديد مرشحهم. كان جيرى سميث قد أصبح مرشحهم للرئاسة ودوجلاس نائباً للرئيس. لم يكن يمكن لقائمة تحوي اسمي جيريت سميث ودوجلاس أن تفوز لأن كلا الرجلين من نيويورك، فقام المسدوبون تحقيقاً لرغبتهم في التنوع الجغرافي باختيار صامويل ماكهرلاند من بنسلفانيا رفيقاً لسميث في سباق الانتخابات كان دوجلاس ورفاقه غارقين في وهم إمكان نجاح سميث في الانتخابات. والواقع أن دوجلاس دعم الجمهوري جون فيرمونت المستكشف الصاعد الشاب بمنطقة الغرب وأول عضو بمجلس الشيوخ عن كاليفورنيا. وحتى سميث نفسه دعم فيرمونت بمنحه ٥٠٠ دولار، وكان هدفهما العاجل إحداث حراك شعبي ضد العبودية ومساعدة فيرمونت في الانتخابات ودفع الجمهوريين نحو موقف أكثر حسماً وجذرية لمواجهة العبودية.

اشتعل المؤتمر مرة أخرى حماساً، فقبل ستة أيام سابقة على انعقاده يوم (٢٢ مايو) تعرض تشارلز سومنر - وهو نائب من دعاة التحرير من ماساتشوستس - لضربات قوية على رأسه أوصلته لحافة الموت على أيدي برستون بروك وهو عضو كونجرس متعجرف من ساوث كارولينا كان يعمل بمكثبه عندما دخل بروك وهو مخمور

قاعة مجلس الشيوخ وبدون انذار بدأ بضرب رأسه بهراوة فب ثقل الرصاص وحوصر سمنر في مقعده الذي كان مثبتاً بأرضية الحجر، واستطاع بمجهود خارق أ، ينهض للدفاع عن نفسه ثم انهار بعدها على الأرض.

رغم أن الجلسة تم تأجيلها باقي اليوم، إلا أن عددا من الشيوخ مكثوا في القاعة وكانوا كلهم من دعاة تحرير العبيد، ولكن لم يهب أحدٌ منهم لمساعدة سمنر؛ وبينما دماؤه تسيل على السجادة، نظر روبرت تومبز من جورجيا للمشهد معضداً، وظل ستيفن دوجلاس من إلينوى جالساً باسترخاء متجاهلاً هذا الاعتداء، في حين قال جون كريستندن من بروكس "لا تقتله!"

كان سبب الهجوم هو خطاب سمنر الحديث الذي أسماه "جرمة ضد كانساس" الذي اتهم فيه مالكي العبيد باتهاك عذرية أرض كانساس، وقد ذكر سمنر واحداً منهم وهو النائب أندرو بلكر من ساوث كارولينا وهو ابن خال بروك أحد مهندسي صناعة "قانون كانساس-نبراسكا"، فقال: "إن النائب قد قرأ الكثير من الكتب حول الفروسية، ويظن نفسه فارساً نبيلاً يحمل مشاعر الكرامة والشجاعة، وبالطبع كان قد اختار لنفسه سيدة يهاها يخصها بولائه وإخلاصه، ورغم قبحها الذي يراه الآخرون، يراها هو جميلة

ومحبة، ورغم تلوثها أمام الجميع إلا أنه يراها طاهرة وعفيفة؛ وأقصد بتلك الداعرة ... العبودية.

بذلك المجهوم كان بريستون بروك يدافع عن شرف الأسرة وشرف الجنوبيين. فور هجومه على سمنر، أضحى بريستون واحداً من أبطال الجنوب وبدأ يتلقى بعض العصي، والأوان الفضية والأطباق الذهبية كهدايا تذكارية من معجبيه لعمله الفذ، وعزز مكاته في نفوس الجنوبيين حينما قال إنه: "كان على وشك أن يقطع رقبة كل دعاة التحرير". لم يقم الكونجرس حتى باستنكار ما فعل، بينما كانت جراح سمنر خطيرة لدرجة أنها احتاجت لأربع سنوات من العلاج المؤلم قبل أن يتمكن من العودة لمجلس الشيوخ.

كانت الأمور تسير بصورة سيئة في كانساس حيث كان "موحشو الحدود" الجنوبيون يشنون حرباً إرهابية ضد المهاجرين المقاومين للعبودية، وقد ساند الرئيس فرانكلين بيرس - وهو ديمقراطي من نيو هامبشاير وصديق مقرب للكاتب ناثانييل هاوثورن - التشريع الفاسد المؤيد للعبودية وأطلق على معارضيه اسم "الخونة". وهكذا سمح فرانكلين بانطلاق غضب "موحشى الحدود" فقاموا بالاعتداء على أحد قادة دعاة إلغاء الرق حتى الموت بالفوس والسكاكين، وأعلنت جريدة كانساس المؤيدة للعبودية أنها في مجال حربها تقول: "فلنجعل شعارنا "حرب بالسكين .. حرب بالسيف". "عندئذٍ

في ٢١ مايو- قبل ضرب سمتر بيوم واحد- هاجم حوالي ٧٥٠ رجلاً من أشرار الحدود المخمورين مدينة لورنس وهي منطقة معادية بقوة للعبودية بصورة راسخة، قدمروا الصحف، وأحرقوا البيوت ونهبوها، وفجروا فندق فري ستات. كان الغزاة يرتدون قمصاناً حمراء وحمل بعضهم أعلاماً ورايات تعلن "سيادة الجنس الأبيض" وأن "الاباما تضحي في سبيل كانساس".

بدأت الحرب الأهلية في الكونجرس.

وفي كانساس تداعى دعاة إلغاء الرق الراديكاليون مطالبين بالرد الفوري وقام دوجلاس بتلخيص المشاعر السائدة وسط أعضاء الحزب معلناً أن الحرية "عليها أن تقطع دابر العبودية أو تقطع العبودية دابر الحرية". "وسط استحسان الحاضرين. تلك كانت المشاعر التي عمل وسطها جون براون تماماً لمدة أربعة أيام فور علمه بالاعتداء على سمتر والمهجوم على لورنس. وعشية ٢٤ مايو، قام براون ومعه سبعة رجال منهم أربعة من أبنائه وأحد أنسابه وآخرين بدخول مستوطنة لمؤيدي الرق على خليج بوتواتومي. كان المستوطنون هناك يرغبون في إبادة دعاة التحرير، لكن براون ورجاله استبقوا تلك الرغبة قبل أن تتحول إلى حقائق. فأيقظوا بعض السكان وسحبوا خمساً منهم تحت جرح الليل البارد واعتدوا عليهم حتى الموت باستخدام السيوف عريضة النصل، مثل التي أختارها لتكون

في قتاله ضد جيمس شيلدرز^{١٦}، وتم قطع رأس أحد الضحايا،
"وقطع زور الآخر كلية."

لم يكن دوجلاس يعلم بما فعله براون على وجه الدقة في ذلك
الوقت، إذ علم فقط أن براون قد ذهب إلى كانساس ليصبح مقاتلاً
فشجعه على ذلك. لكنه عندما علم - لاحقاً - بتفاصيل مذهبة
بوتا وأتومي، برر ذلك السلوك أخلاقياً بقوله: "كان علاجاً مرعباً
لمرض خطير" وأشبه "بقتل قاتل". وكما يعرف دوجلاس فالمرء
يحتاج لأن يكون متوحشاً وسط بيئة متوحشة وإلا فالموت له.

أما بالنسبة لتبرير حريتهم قانوناً، فقد استند الدعاة الراديكاليون
إلى كتابات الرئيس السابق جون كوينسي آدامز بشدة الذي وصفه
دوجلاس بأنه "أشهر رجل دولة أنجبه أمريكا". كان آدامز يكره
العبودية، وكابن من أبناء جون آدامز، كان متوافقاً بصدق مع وثيقة
إعلان الاستقلال ومع الدستور. ومنذ فترة مبكرة ترجع إلى عام
١٨٣٦، رد آدامز على الجنوبيين المعارضين بأنه يمكن للكونجرس
والرئيس بموجب نصوص سلطات الحرب في الدستور إنهاء العبودية
في الولايات كلها.

تمسك دوجلاس والراديكاليون بذلك التفسير المتعلق بسلطات
الحرب. لكن بمراجعة حاسمة للموقف، فإنهم حددوا العبودية بأنها

^{١٦} لم يستخدم براون مطلقاً مثله، مثل لينكولن السيف العريض وأصدر أوامره
(أطلق الرصاص على ضحية واحدة في رأسه لتؤكد أنه مات) - المترجم

حالة من حالات الحرب . هذا يعني أن الرئيس ومعه الكونجرس مضطرون لتحرير أولئك العبيد على الفور وإنهاء الحرب الأهلية التي تنشب في ولايات بها عبيد . لكن، طالما لم يتخذوا إجراء في هذا الشأن، يتعين على شعب الولايات بالدرجة الأولى في الولايات الحرة أن يقوموا هم بشن تلك الحرب ضد العبودية للحفاظ على السلام وإتخاذ الاتحاد .

كانت أولى المجموعات التي تحركت بناءً على استخدام آدامز للمفهوم الدستوري بشأن سلطات الحرب هم فقط الدعاة الراديكاليون، فحالما أطلقت قوات الولايات المنشقة نيرانها على سومتر فورت في أبريل عام ١٨٦١، أسرع تشارلز سممر- الذي كان يرعاه آدامز- إلى البيت (بمجرد شفائه من واقعة حربه) وأخبر لنكون أنه في ظل سلطة الحرب، له الحق في تحرير العبيد . حاول جنرالات الاتحاد جون فرمونت ودافيد هنتر وبنجامين بتر استخدام تلك سلطة الحرب أثناء حملاتهم الحربية، واستند الكونجرس إلى نفس المصدر لتحرير قوانين المصادرة عامي ١٨٦١- ١٨٦٢ التي منحت السلطة للجيش في قانون ١٨٦٢ لتحرير العبيد من سادتهم "غير المخلصين للدولة" . وبالطبع، أصدر لنكون اعلان العتق بموجب السلطات المخولة له كقائد عام للجيش والأسطول بالولايات المتحدة في زمن تمرد مسلح حقيقى موجه ضد سلطة الولايات المتحدة

وحكومتها، وكأجراء حربي مناسب وضروري لقمع التمرد المذكور. وبذلك أرسى دوجلاس ورفاقه سابقة هامة.

تواصلت الحرب على الحرية من سيء لأسوأ. إذ كانت الحرب المكسيكية قد ضحت بشباب الشمال من أجل شراءه ممتلكات العبيد لابتلاع المزيد من الأرض، وإذا كان قانون العبد الهارب قد دفع بالشمالين لمطاردة واصطياد السود من أجل إمتاع أهل الجنوب وأموالهم، وإذا كان قانون كانساس-نبراسكا قد مسح الخط المقدس (٣٦,٣٠ درجة شمالاً) والذي عبر نطاق العبودية فوقه. وطلب من المستوطنين حرية اتخاذ القرار الذي يرونه بشأن الإبقاء على العبودية أو إلغائها، فمن ثم فإن قرار المحكمة العليا في قضية دريد سكوت ضد ساندفورد عام ١٨٥٧ قد توج عقداً جعل الجنوبيون خلاله العبودية مؤسسة قومية، حيث تلاقت أيدي دعاة الحل الوسط الشمالين مع أيدي زعماء الجنوب في مؤامرة على الحرية "أسست لشر مستطير هو سلطة ملاك العبيد". وفقاً لرؤية دوجلاس ولنكولن وعدد لا يحصى من الشماليين.

كان الحكم في قضية دريد سكوت، والذي أيده سبعة قضاة جنوبيون، يقرر أن أية محاولة لمنع انتشار الرق هي محاولة غير دستورية. أعلن الحكم لملاك العبيد: "اذهبوا أينما شئتم، فكل الأرض ملككم! وسوف يقيم العلم الوطني بحمايتكم، وستطلق

القوات الوطنية الرصاص على من يقاومكم. " بل لقد عني ضمناً أنه في حال انتقال مالكي العبيد إلى ولاية حرة فإن الدستور سوف يقوم بحماية ملكيتهم كذلك . ليس هذا فقط، بل إن رئيس القضاة روجر تاووني قال إن السود "جنس متدنٍ لدرجة لا تؤهله لأية حقوق يحترمها الرجل الأبيض، وأن (كل السود) يمكن إخضاعهم قانوناً وعدلاً لحالة الرق. " هذا ما قاله أعلى قاضٍ "إنساني" في البلاد؛ ووفقاً لما ذكره تاووني يمكن أن يتعرض دوجلاس (أو أي أسود آخر) لتجريد من أملاكه ويستعبد أو يقتل كالبهيمة دون خوف من قصاص.

ومن المفارقة أن دوجلاس شعر بالانتشاء من حكم دريد سكوت. لماذا؟ لأنه قد يشكل موجة مدّ عارمٍ يحث جذور العبودية ويجعل الملايين من الشماليين مؤيدون قضية مكافحة الرق، إذ يوجد بالفعل كما قال دوجلاس دعاة لتحرير العبيد أكثر من مالكي العبيد أنفسهم في الدولة. إن حكم دريد سكوت سوف يتيح للجمهوريين أصواتاً كافية للسيطرة على الكونجرس وعلى الرئاسة وسوف يؤدي تشدد الجمهوريين ويجعلهم يدركون أن العبودية كالحشائش الضارة التي ستنتشر في كل مكان إذا لم تجتث في الحال. وسوف يقتنعهم بتجاهل حكم المحكمة العليا طالما تجاهلت

تلك المحكمة القانون الطبيعي . لم تكن آماله في نهاية سريعة للعبودية
"أكثر إشراقاً منها حينذاك"

بعد عام من ذلك، امتدح دوجلاس خطاباً للنكونل أشعل في
نفسه آمالاً أكثر إشراقاً . كان لنكونل يتنافس آنذاك مع شاغل
المنصب الديمقراطي ستيفن دوجلاس على مقعد مجلس الشيوخ عن
ولاية إلينوي وهو في بداية ظهوره كرجل معروف على المستوى
القومي . في الواقع، كان دوجلاس قد أخطأ في تهجي اسم لنكونل
داعياً إياه "أبرام"، لكنه أحب ما كان يقوله ذلك الجمهوري القادم من
إلينوي^{١٧} أدرك لنكونل تداعيات حكم دريد سكوت واقتبس
دوجلاس مطولاً من خطابه المسمى "البيت المنقسم" : "إن مجلساً
منقسماً على نفسه لن يكتب له البقاء، وأعتقد أن تلك الحكومة لا
يمكنها أن تبقى نصف حرة ونصف عبدة بصورة دائمة . . . وسوف
يكون عليها أن تكون شيئاً واحداً إما هذا أو ذلك: إما أن يوقف
خصوم العبودية المزيد من انتشارها، وبالتالي يرسخوا الاعتقاد في
أنها في سبيلها للانقراض النهائي ، أو يقوم مؤيدو العبودية بدفعها قدماً
حتى تصبح قانونية في كل الولايات .

سجل دوجلاس على ذلك بقوله: "مقولة حكيمة وجيدة!"

^{١٧} عندما سجل دوجلاس تصويت لنكونل للإبقاء على تجارة العبيد بواشنطن
العاصمة قبل عشر سنوات سابقة سجل اسمه الأخير وظهر اسم لنكونل بجانب
أعضاء المجلس الآخرين وبالتالي يكون من المتوقع أن ينسى دوجلاس أن لنكونل
قد قام بالتصويت لصالح تجارة العبيد من قبل.

انشغل دوجلاس بكتابة ردود فعله على حكم دريد سكوت هذا، معاوناً جون براون في إعداد خطة نضالية بديلة لمشروع "الطريق النفقي". وكانت الخطة تأميماء (المر تحت الأرضي)، تستهدف إرهاب الجنوبيين بواسطة إقامة شبكة من المحاربين المسلحين في جبال ألبجيني في ماري لاند وفرجينيا. كان على أولئك المسلحين القيام بغارات على المزارع وتهريب العبيد شمالاً عبر جبال اليجيني إلى كندا. كان هدف الخطة تدمير القيمة الاقتصادية لامتلاك العبيد، حيث قال براون: "لو كان بمقدورنا دفع العبودية خارج مقاطعة واحدة سيكون ذلك مكسباً كبيراً، لأنه سوف يضعف النظام عبر الولايات كلها فارضين مباديء تحرير العبيد على ولايات الحدود". فوافقه دوجلاس قائلاً إنه يمكن للخطة أن تكون "فعالة جداً في تحويل عمليات امتلاك العبيد في ولاية فرجينيا وماري لاند إلى شيء لا قيمة له، مما يجعلها ملكية غير آمنة."

وفي فبراير ١٨٥٨، وقبل بضعة شهور من خطاب لنكولن "البيت المنقسم"، قضى براون ثلاثة أسابيع بمنزل دوجلاس في روشيستر كاتباً رداً على قاضي القضاة تاووني وأسماء "الدستور المؤقت"، وقد صممه لحكم مجتمع المحاربين الجبلين في منطقة "المر تحت الأرضي" في براون. ربما قام دوجلاس بإعادة تحرير دستور براون

لأنه أراد أن يصيغه بأسلوب أكثر بلاغة مما كان يكتبه براون .
وباختصار يعكس "الدستور المؤقت" تفسير دوغلاس لدستور
الولايات المتحدة، فهو يرى أن العبودية هي حالة حرب ويسعى إلى
تحقيق الحقائق الأبدية البديهية التي حددها إعلان الاستقلال
"ويعارض بوضوح حكم دريد سكوت، محددًا المواطنة ليس فقط في
الرجال البيض وإنما كذلك في السود والنساء وكل إنسان آخر "حط
من شأنه القانون الوضعي الذي وضعه آخرون."

كان براون يتحدث - بين الحين والآخر - حول تغيير خطته
الخاصة " بالمر تحت الأرضي " وكانت تسلط عليه العظمة فيخبر
دوغلاس بأنه يستطيع "بقليل من الرجال المتأبرين" أن يستولي على
الترسانة الحربية الفيدرالية في هاربرس فيري بولاية فرجينيا وأن
"يزود نفسه" بالمخزون الهائل من الأسلحة المكسدة هناك .

وقال دوغلاس يقول عن ذلك : "لم أعط لتلك الملاحظات أية
أهمية من جانبي."

استمر ذلك حتى شهر سبتمبر من عام ١٨٥٩، عندما كتب
براون لدوغلاس يستدعيه للقاء عاجل في محجر قديم بالقرب من
تشامبرزبرج في بنسلفانيا، وطلب منه إحضار تقود وصديق مشترك
لهما اسمه تشيلدرز جرين - وهو أحد الهاربين ويعرف بلقب
"الامبراطور". كان الأخير جريئًا معترًا بكرامته ولا يتكلم كثيرًا وكان

براون يعرف طبيعة جرين "وما فُطر عليه"، فطلب حضوره هذا اللقاء.

وسط صخور الحجر أنصت دوجلاس وجرين لكلمات براون وسكرتيره جون كاجي - وهو صحفي شاب متحمس تحول لمقاتل - لوصف الخطة الجديدة، وقام براون بأغلب الكلام؛ فهو ومعه عشرون رجلاً بينهم أربعة من السود جاهزون لغزو هاربرس فيري، حيث يعرفون طبيعة الأرض جيداً. لقد عاشوا بالمنطقة منذ شهر يوليو واستأجروا منزلاً ريفياً، وكانوا يمرون بالمنطقة كفلاحين (وفي حالة براون كرجل يعمل بصيد السمك) وقد يتكئون من السيطرة على ترسانة الأسلحة مع قدوم الليل ثم يصادرون الأسلحة، ويشنون الهجوم على ملاك العبيد بعدها، وسيكون الاستيلاء على الأسلحة "صرخة استدعاء" لحشد العبيد للانضمام إلى صفوفهم والتوحد خلفهم. كان براون قد طلب بالفعل من عدد من السود، من بينهم السيدة هاربيت تومان - التي كان براون يدعوها جنرال تومان - ومارتن ديلاني، أن يقوموا بنشر أنباء الغزو عبر تجمعات العاملين بقطاف العنب حتى يصبح السود من العبيد والأحرار بالمنطقة مستعدين للانضمام لهم. ووفقاً لاقتراح قدمته تومان خطط براون لأن تكون الغارة يوم ٤ يوليو، لكن طرأت بعض عوامل التأخير التي لا يمكن تفاديها. أما الآن فقد أصبح مستعداً رغم أنه أحضر معه ألف

فأُسَ يستخدمونها كسلاح للعبيد الذين لا يعرفون كيفية تعمیر
بندقية .

حرض براون كلاً من دوجلاس وجرين على الذهاب معه قائلاً:
" تعال معي يا دوجلاس وسأدافع عنك بحياتي ! أريدك معي لمهمة
خاصة، إذ عندما أوجه ضربتي سوف تتراكم أسراب النحل وأنتظر
معاونتك في إدخالهم الخلية . " وأدرك دوجلاس ما يرمي إليه براون:
تلك الكناية التي استمدها من خرافات يعسوب التي تقول إن سرب
النحل يُقلب على سيده وأخذ يهاجمه .

لكنه عارض براون في خطته وحاول إثشاءه عن تنفيذها لأنها
سكنون خطيرة لكل من يشترك فيها، وأخذ يشرح موقفه مفسراً أن
هاربرس فيري تقع على منحدر منزلق بين الجبال وحيث أنها قريبة
من واشنطن العاصمة فسوف تحيط بهم القوات الفيدرالية بسرعة .
علاوة على أن "مهاجمة القوات الفيدرالية ستثير البلد بأسرها
ضدنا . "

كان ذلك ملائماً لبراون حيث أن "شيئاً صادمًا هو ما تحتاجه
الامة تماماً . "

قضايا يومين في جدل وتقاش إلى أن أخبر دوجلاس، براون أنه
"مقبل على الوقوع في مصيدة محكمة وقد لا ينجو بحياته هذه المرة"
 . وبعكس براون الذي قارب التاسعة والخمسين من عمره وكان

مستعداً للموت في سبيل قضية الحرية، فضل دوغلاس البقاء على قيد الحياة، وبينما كان يلتفت مغادراً سأل شيلدز جرين عما سيفعله فصدته إجابة الإمبراطور: "أعتقد أنني سوف أذهب مع الشيخ." - يقصد براون. هكذا افترقا وانضم الإمبراطور للرجلين الأبيضين بينما عاد دوغلاس إلى بيته وحده.

بعد أسابيع قليلة، في ليلة الأحد ١٦ أكتوبر من عام ١٨٥٩ اقتحم براون وواحد وعشرون من رجاله هاريس فيري واستولوا على الترسانة دون مقاومة. لكن براون تأخر فيما بعد بصورة غير ضرورية، ربما لاضطرابه حينما لم ير أية جحافل تهول إليه مؤيدة، فالعبيد لم ينحازوا إلى صفه ولم يأت أحد. مجلول مساء الإثنين لجأ براون - محاطاً برجاله المسلحين - إلى مستودع الأسلحة وكان معه اثنان من أبنائه لقيتا حتقهما صرعى بجانبه لاحقاً. وفي صباح الثلاثاء وأمام أعين ألفين من المشاهدين حطمت كتيبة من قوات المار ينز للولايات المتحدة بقيادة الكولونيل روبرت لي وجي ستيوارت أبواب الترسانة وأسرت سبعة أحياء ومعهم براون الذي أصيب إصابة شديدة أثناء الهجوم وقُتل من قُتل وفر من فر. بعد برهة قصيرة، أصبح كل من لي وستيوارت من المتمردين والخونة تماماً مثل براون، لكنهما في ذلك اليوم كانا ضابطين ينفذان أوامر قيادتهما بإخلاص شديد.

تمت محاكمة براون والناجين السبعة معه بتهمة القتل والخيانة وحكم عليه بالإعدام شتقاً، وفي سجنه وخلال أيام محاكمته - بل في ساحة الإعدام - كان أداؤه الرائع يتحول ليُجعل منه شهيداً بطلاً في نظر عدد لا يحصى من أهل الشمال. والحقيقة أن أسعد أيام حياته كانت أثناء حبسه منتظراً الموت، إذ انتشرت أحاديث مقابلاته وخطابات محبسه وردوده على هيئة المحكمة عبر صفحات جرائد الشمال، بل وتم نشرها كأفضل البيانات مبيعاً وقتها، وقد تلقى ثناءً ورتاءً يليق ببطل قومي من رالف والدو إيمرسون المفكر القيادي للأمة وكان من معارف دوجلاس وبراون، وكان إيمرسون نادراً ما يضع ثقله في القضايا الاجتماعية اليومية. لكنه عندما فعل ذلك، كانت لكلماته قوة انهيار جبل الجليد العملاق، وفي نوفمبر عام ١٨٥٩، قبل شهر من موعد شنق براون - الذي جرى يوم ٢ ديسمبر - استعار إيمرسون كلمات أحد أصدقائه وأعلن أن براون "هو القديس الجديد الموجود بيننا في انتظار الاستشهاد .. وسوف يهب مشنقه مجداً كما مُجد الصليب."

غير تأثير هاربرس فيري الأمة في الواقع. وليس من المبالغة أن نقول إن جون براون قد ساعد كثيراً في انتخاب لنكولن؛ ففي مستهل الغارة حاول كل من ديمقراطيي الشمال ونظرائهم بالجنوب أن يجدوا حلقة ما تربط بين براون والحزب الجمهوري، لذا هُرع الجمهوريون

لإنكار أي علاقة لهم بدعاة التحرير أو بالسود . وكان ويليام سيوارد واحداً من هؤلاء - المرشح للرئاسة - حيث تراجع عن عقيدته في وجود "قانون أعلى" وعن تأكيده وجود صراع لا يمكن كبحه بين الحرية والعبودية كما تراجع عن مطلبه بشأن إلغاء الحكم في قضية دريد سكوت عقب واقعة هاربرس فيري . وفي أخريات شهر فبراير، بعد إعدام براون بثلاثة أشهر وقبل شهرين من عقد الجمهوريين لمؤتمرهم، ألقى سيوارد خطاباً من مجلس الشيوخ قال فيه: "إن في ذلك استسلام كبير لقوى العبيد" مما أدى إلى تدمير ترشيحه للرئاسة ممثلاً عن الجمهوريين، وكان رد دوجلاس متهماً أن "جون براون أرعب سيوارد لدرجة دفعته إلى إطلاق خطابه العظيم الأخير! ... ففي ذلك الخطاب "انحني سيوارد مطأطأً بأكثر مما ينبغي وفقد الجائزة التي أعزته بالانحناء" . وفي تحليل دوجلاس فإن جون براون - أو بالأحرى روحه التي ما زالت تحوم كأغنية حول الجميع - كلفت سيوارد ترشيحه للرئاسة .

كان ذلك مناسباً لدوجلاس لأنه كان في ذلك الوقت يعتبر لنكون "رجلاً ذا شخصية خاصة لا يمكن تشويهها وأنه جمهوري ثوري" ممن يلتزمون تماماً بمبدأ الصراع الذي لا يمكن قمعته بين الحرية والعبودية، والذي يتطلب علاجاً سريعاً وفورياً . وكان دوجلاس قد تأثر بعمق خلال مناقشات لنكون مع النائب ستيفن دوجلاس وهو ما دعاه إلى

وصف لنكونن بأنه "وصل لأعلى مرتبة في المذهب الجمهوري الحق، وهو رجل ذو إدارة وحسم ولن يتراجع عن معتداته". كان دوجلاس لا يزال من دعاة التحرير الراديكاليين وأيد جيريت سميث مرشحاً رئاسياً عن الحزب مرة أخرى. كان سميث ممولاً رئيسياً لحملة الهجوم على هاربرس فيري التي قادها براون، مما زاد من قيمته لدى دوجلاس بل إن دوجلاس - في الحقيقة - أخبر قراء جريدته أن "عشرة آلاف صوت يحوزها جيريت سميث . . سوف تستخدم قضية تحرير العبيد أكثر من تأثير مليون صوت يحوزها أبراهام لنكونن أو غيره من الجمهوريين". "كان دوجلاس يعلم أنه بترشيحه لسميث يجعل لنكونن موضع الاختبار، وربما قام هو نفسه بالتصويت - بصورة نفعية - لاحقاً لصالح لنكونن، بعدما أمن لنكونن ترشيحه ممثلاً للجمهوريين، تنبأ دوجلاس - فرحاً - بنجاحه في انتخابات الرئاسة طالما انقسم الحزب الديمقراطي إلى شيع شتى.

ظهر الانقسام في الحزب الديمقراطي بالتدرج كرد فعل للهجوم على هاربرس فيري، لأن قادة الجنوب أكدوا بعد واقعة هاربرس "أنه لولا وجود الحزب الديمقراطي لما حدثت غزوة هاربرس فيري بداية". "كان النائب جيفرسون دافيز عن المسيسيبي ينظر لجون براون على أنه نموذج يُقاس عليه الحزب الديمقراطي الذي "تم تنظيمه على أساس مبدأ شن الحرب" على الجنوب، وطالب دافيز ومعه بعض

الديمقراطيين بالجنوب الحكومة الفيدرالية أن تلتزم بحكم المحكمة في قضية "دريد سكوت" وتقوم بحماية ملاك العبيد في كل مكان. ورفض أعضاء الحزب الديمقراطي حيث أن تلك السياسة تتناقض مع مذهبهم عن سيادة الشعب. وهكذا انشق الحزب على نفسه، بقيام ديمقراطيي الشمال بترشيح نائب إيلينوي ستيفن دوغلاس للرئاسة وقيام ديمقراطيي الجنوب بترشيح جون بريكريدج نائب كنتاكي نائباً للرئيس، وكما توقع دوغلاس أكد ذلك الانشقاق نجاح لنكولن. ١٨٤٠ من هنا تكون روح جون براون مستمرة في التقدم.

لكن إذا كانت روح براون قد ساهمت في انتخابات لنكولن، إلا أنها ساعدت - كذلك - قتله. فبينما كان جسد براون يتأرجح على مشنته، وقف شاب أنيق يشاهد ما يحدث بعناية، وكان قريباً للمشهد بما يكفي ليرى الحركة الخفيفة لقبضتي يدي براون، وارتعاشة أطرافه والخبيل يضيق بشدة على رقبته، وأزة عارضتي المشنتة تحت ثقل جسد براون الذي يصل إلى ١٥٠ رطلاً بسبب توقف حركته المفاجئ. كان هذا هو جون ويليكس بوث الذي تأثر بشدة مما يرى.

وصرح بوث - فيما بعد - أنه قد ساعد في القبض على براون لكنه لم يكن ضمن قوات الجيش، ففي وقت القبض على براون، كان

يقوم بدوره كممثل بمسرح مارشال في ريتشموند بولاية فرجينيا . كان معجباً براون ورغم ذلك رغب بشدة في حضور عملية شنته . وفي يوم ٢٤ نوفمبر ، وبينما يستعد قطار الميليشيا الموحد لمغادرة ريتشموند متوجهاً هاربرس فيري ، سأل بوث أحدهم عما إذا ما كان يستطيع الانضمام إليهم . لقد علم أن القطار مخصص لمن يرتدي زي الميليشيا ، فاشترى واحداً وصعد بينهم . وفي لحظة إعدام براون شحب وجهه واتابته نوبة إغماء فطلب من أحد الجنود قنينة خمر ، إذ احتاج بعضاً منه ليتمالك نفسه . لقد رأى بوث نفسه في براون حتى لو كانا - معاً - يتعارضان في نظرتهما للمجتمع الصالح ، فبراون يؤمن بالديمقراطية متعددة الأجناس ، في حين يرى بوث نفسه فارساً أرسقراطياً من أهل الجنوب . وكمثل مسرحي ، كان بوث مشهوراً عبر البلاد وكان محبوباً خاصة من أبناء الجنوب الذين كانوا يكتبون إليه ملاحظاتهم كمعجبين ويجمعون صورته التذكارية وينظرونه مهللين عقب أدائه المسرحي المتقن . كان بوث يرى أن العبودية هي دعامة المجتمع الفاضل ويؤمن - مثل القاضي روجر تاووني - بأن الحقوق الدستورية قاصرة على البيض فقط ، . لكنه رغم ذلك امتدح ثبات براون ، وقدرته على تحويل الكلمات إلى أفعال وهيبته الشجاعة وطلاقة الخطابة عند هاربرس فيري ، ووفقاً لما قاله أخيه فقد "أقر بطلوة براون عندما رآه يموت ."

بدا بوث كما لو كان يحسد براون على استشهاده، وقال في ديسمبر ١٨٦٠ إن براون قد أعدم تماماً لمحاولته فعل نفس ما يفعله لنكولن والحزب الجمهوري الآن ولكن بصورة مختلفة، وأن طريقة براون في استخدام القوة السافرة "أكثر قدسية . . من حيلة الجمهوريين الخفية." ولم يمض وقت طويل حتى اخطر بوث أخيه بأن لنكولن "يسير على خطى براون، لكنه لم يعد صالحاً لمساواته بذلك الشيخ البطل ذي الأسمال البالية. يا الله . . إن جون براون رجل ملهم، إنه أعظم شخصية في هذا القرن." كانت روح براون تتقدم لتلهم بوث أن يحرر وطنه وأن يصبح - هو الآخر - شهيداً في سبيل قضيته فيما بعد.



عندما سمع دوجلاس بأنباء هجوم براون، كان يلقي خطاباً في صالة الجراندي ناشيونال في فيلادلفيا، وصدمة الأتباء "كالزلازل، الذي تنقطع له أنفاس أشد الناس جرأة." "ولسوف تنقطع أنفاسه بعد قليل لسبب آخر، إذ أكتشفت السلطات في حقبة براون خطاباً من دوجلاس لبراون كان مؤرخاً بعامين قبل ذلك الحادث - أي عام ١٨٥٧ - لم يذكر فيه شيئاً عن هاربرس فيري، ولكنه كان يمثل دليلاً كافياً أمام الحاكم هنري وايز بولاية فرجينيا لاتهام دوجلاس "بالقتل والسرقة والتحرش على التمرد المدني بولاية فرجينيا." طلب وايز

من الرئيس جيمس بوكمان ،ومدير عام البريد المعاونة في القبض على
دوجلاس وإرساله لمحاكمته وتنفيذ الحكم، واستجابا لطلبه .
فجأة أصبح دوجلاس المطلوب الأول جنائياً في أمريكا، ولولا
وجود أصدقاء له لقبض عليه وأُخذ أسيراً، حيث قام عامل
البرقيات بحمله على الهرب لعلمه أن الفيدراليين يسعون لأسره، فركب
دوجلاس القطار التالي متوجهاً إلى مدينة نيويورك، وقضى الليلة مع
صديقة له في هوبكنز بولاية نيوجيرسي، وأرسل برقية لعائلته يطلب
من ابنه الأكبر لويس إخفاء أو تدمير أية مستندات تدينه مثل
النسخة التي كتبها لبراون للدستور المؤقت وغيرها .أوصله خط أبري
للسكك الحديدية إلى روشيستر بأمان . لكنه علم هناك أن حاكم
نيويورك قد يسلمه لفرجينيا عند استلامه أمراً بالقبض عليه . لذا،
واصل طريقه ناشداً الأمان في كندا، مقتنياً أثر العديد من المطاردين
الذين ساعدتهم على الهروب إلى هناك . ثم واصل رحيله إلى إنجلترا
ثم اسكتلندا لإلقاء عدة محاضرات معدة مسبقاً له .

للمرة الثانية في حياته يهرب دوجلاس من الولايات المتحدة
كمطارد ويعود من بريطانيا كرجل حر، فمع قدوم شهر يونيه ١٨٦٠
أسقط وايز الاتهامات الموجهة إليه وقررت لجنة الشيوخ التي تتحقق في
واقعة هاربرس فيري إنهاء البحث عن المتورطين وإيقاف الموضوع
تهدئة للتوتر الاقليمي السائد .

لم ينتقد دوجلاس براون مطلقاً تسببه في ورطة كاد يُقتل فيها
لأنه - حقيقة - صرح بحبه لبراون وكثيراً ما أطلق عليه "رجل
القرن التاسع عشر". لكنه استبعد نفسه بلا ريب عن ذلك الهجوم
وأنكر تورطه فيه. كان تراجع هذا يعود جزئياً إلى اضطراره إلى
ذلك وسط حكومة تقرر بصلاحيه حكم دريد سكوت أي أن
دوجلاس - أي العبيد وليس شخصه - ليس له تلك الحقوق التي
على الإنسان الأبيض أن يحترمها "وفقاً لما ذكره الحكم".

ورغم أنه اعتبر استراتيجية براون الحربية استراتيجية مضللة،
فقد أيد طبيعة هذه الحرب بقوله: "إنني على استعداد للكتابة
والخطابة والتنظيم، بل والتآمر ضد العبودية عندما يكون هناك أمل
معقول في النجاح." كان - كما كتب من مأمنه بكندا - غاضباً ممن
قالوا سواءً في الشمال أو الجنوب إن براون كان مجنوناً وقال: "هل
البطولة والجنون مترادفان في قاموسنا الأمريكي؟" ذلك كان تساؤله
وكانت إجابته أن أفعال براون معقولة تماماً "إذ كان يؤمن أن إعلان
الاستقلال حقيقة واقعة، وأن الكتاب المقدس هو مرشد السلوك
الإنساني، ومنطلقاً من هذين المصدرين، تصدر في مواجهة القهر
الأمريكي."

عندما قال دوجلاس أن جون براون قد بدأ الحرب التي أنهت
العبودية الأمريكية، كان عليه أن يدرج نفسه و قليلاً من دعاة التحرير

الثورين الآخرين ضمن أولئك الذين دعموا أعمال براون بالصدقة والمال والكتابة. وبهذا المعنى ساعد دوجلاس - كذلك - في انتخاب لنكون ثم في اغتياله.

كانت لحظة تحول تاريخي؛ فحينما كان براون ورجاله يهاجمون هاربرس فيري، كان دوجلاس يلقي خطاباً حول فضائل الرجال الذين يصنعون أنفسهم، حيث كان صديقه - لحظتها - يضحي بنفسه شهيداً ليستخلص دوجلاس دروساً من حياته الثورية المتطورة خلال اثنتي عشرة سنة مضت: من أمني يخطئ في الهجاء ومن كاتب يبطئ في الكتابة حتى أصبح صحفياً ناجحاً ومتقناً مفكراً وثورياً سياسياً معروفاً ومشهوراً. وقد حدد في خطابه القوالب التي أدت إلى تنمية الشخصية. إنها الحظ والسعي، البيئة والاعتماد على النفس مضافاً إليهم الاعتماد على الله. لكن لب المشكلة في صناعة الذات هو أن تعيد تشكيل العالم حولك أيضاً. ربما يكون من المريح للمرء أن يتخيل ملكوتاً خالياً من الحروب والأخطاء والردائل. لكن الرجال الحقيقيين العصامين بشنون حريهم ضد كل تلك الشرور "كيما تسود إرادة الله على الأرض كما هي في السماء." إن العلامة المميزة للرجال العصامين تراها في أناس مثل دوجلاس وبراون الذين يعرفون إرادة الله، ويعملون على هدى التضرع إليه، والذين عملوا بلا كلل لاقامة اللجنة على الأرض.

عشق لنكولن فضح الأكاذيب الأمريكية؛ ففي ديسمبر عام ١٨٤٧ هاجم في خطابه الأول للكونجرس الأمريكي هاجم الرئيس الديمقراطي جيمس بولك لشنه حرباً غير دستورية على المكسيك. لقد كذب الرئيس بولك بشأن تلك "القطعة الخاصة من الأرض التي أُرِيت عليها أول قطرة دم لمواطنينا" وهذا ما اتهمه به لنكولن. ادعى بولك أن المكسيكيين قد غزوا الأرض الأمريكية وأطلقوا النار على قواتها فأسالوا أول قطرة دم للقوات الأمريكية ولذا أعلن الحرب على المكسيك، فكان رد لنكولن أن ذلك الدليل "هو أبلغ خداع من بدايته لنهايته"، فالأرض التي سال الدم عليها كانت قطعة أرض متنازعا عليها بين نهر نيوسيز وبين ريو جراند، وكل إنسان يعلم ذلك جيداً لأن الولايات المتحدة عندما قامت بضم بعض الأراضي المكسيكية ترك الكونجرس "مسألة الحدود - بوضوح - لاتفاقات تبرم في المستقبل. حتى أهل تكساس أنفسهم أقرروا بنزاع الحدود، كما أن بولك أعلن الحرب على المكسيك دون دعم من الكونجرس كما ينص الدستور. هكذا أكد لنكولن "أن الرئيس وقع في الخطأ، فهو يشعر أن الدماء التي أُرِيت في هذه الحرب هي دماء هابيل... متضرعاً للسماء دعاءاً على من قتله". بعد أيام قليلة من خطابه المتهم على بولك، صوّت لنكولن لصالح قرار يعلن أن الحرب لم تكن

ضرورية أو دستورية بدأها رئيس الولايات المتحدة بنفسه"، وشعر بالسرور لأن القرار قد تم التصديق عليه.

نعم هجوم لنكون على بولك - بقدر كبير - من جهوده التي يبذلها لتشكيك الديمقراطيين من أجل انتخاب رئيس محافظ وتوحيد حزب المحافظين وتخليصه من مشاعر مناهضة العبودية. ولما كان حزب المحافظين يضم كثير من مؤيدي العبودية البارزين بالجنوب، أمل لنكون في الوصول إلى تراض معهم، وهكذا شاء ألا يقف في المواجهة كمناهض قوي للعبودية. وفي حين كان دوجلاس وبقية دعاة التحرير يدينون بولك باعتباره رئيساً يمتلك الكثير من العبيد ويسعى لاكتساب المزيد من أراض جديدة للعبيد، شغل لنكون به كرئيس ديمقراطي يتصرف بطريقة غير دستورية، ووافق أعضاء حزب المحافظين في قولهم إن الحرب قلبت النموذج المثالي من التقدم - وذلك بتحويل أمريكا إلى قوة استعمارية - مما أشعل الانقسامات الحزبية وهدد وحدة الحزب، وردد أصواتهم التي تؤكد أن الحرب قد منحت الرئيس بولك وحزبه قوة أكثر من اللازم.

بيد أن معارضة الحرب كانت عملاً مخادعاً، حيث كانت ناجحة عسكرياً. وقد أيد معظم الأمريكيين البيض حرب الرئيس بولك تلك، وفي الواقع اتفق ويليام هرنندون - شريك لنكون وعضو بحزب المحافظين - مع رجال الحزب الديمقراطي على القول بأن الرئيس بولك

عندما أصدر قراراً بتوجيه ضربة وقائية ضد دولة أخرى، لم ينتهك الدستور ودحض لنكون هذه المزاعم الزائفة قائلاً: "اسمحوا للرئيس بغزو بلد مجاور / عندما يرى أنه من الضروري دحر (أو استباحة) غزو . . . وسوف تسمحون له بشن الحرب من أجل الاستمتاع ."
لقد حولت الحرب الاستباقية الرؤساء "الملوك" كما قال لنكون :
ينتهكون الدستور والسوابق القانونية .

وفي النهاية أصبح لنكون أعلى صوتاً في مناهضة العبودية، وتخلّى عن السوابق القانونية وأحكام المحكمة العليا في معارضته لانتشار الرق . وكضوء بالمحافظين، غالباً ما تعارضت مبادئه المناهضة للعبودية مع ولأته الحزبي . لكن بعدما انحل حزب المحافظين أصبح جمهورياً وأصبحت مبادئه متسقة مع حزبه الجديد، وبسبب طموحه السياسي، حاول أن يكون مبدعاً بالدرجة التي كان عليها دوغلاس في قضايا الدستور . كان عليه أن يتبع الشماليين مكافحي العبودية وأن يعطي أولوية للحقوق الطبيعية قبل القانون الوضعي الذي هو من صنع الإنسان، محولاً الدستور إلى وثيقة تعارض العبودية وتعد امتداداً لمثل ومبادئ وثيقة إعلان الاستقلال .

كان أغلب أعضاء الكونجرس يتركون عائلاتهم خلفهم ويذهبون وحدهم إلى واشنطن . لكن ماري، وقد انتشت بانتخاب زوجها،



أرادت أن تشاركه نجاحه بالذهاب معه . وصحبا ابنيهما: الأكبر روبيرت تود (بوب) ذا الأربعة أعوام وإدوارد (إيدي) ذا العام الواحد، والأخير ظهرت عليه أعراض الهزال ليموت بعد ثلاث سنوات لاحقة. كانت رحلة طويلة امتدت حوالي ١٦٠٠ ميل شملت عربة تجرها جياد وقارباً بحارياً يسير لأدنى المسيسيبي ثم لأعلى نهر أوهايو عند مدينة كايلو التي تأتي بعد طريق هالك فنز ثم قارب بحاري آخر يسي لأدنى نهر كينتاكي، ومنه إلى ليكسنجتون بواسطة القطار حيث توقفوا في المنزل الذي شهد طفولة ماري طلباً للراحة لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن يستكملوا الرحلة لنهايتها . وقامت جماعة المبيد عند أسرة تود على راحتهم والعمل كأمهات للطفلين وغسل ملابسهم المتسخة.

في عام ١٨٤٧ كانت رحلات العبور بين أطراف الوطن غير مناسبة للعائلات التي تصطحب أطفالاً صغاراً، فركوب عربات السفر تشعر المرء بالحبس داخل برميل خشبي ضيق ويصدو صريراً أما القوارب البخارية فرغم اتساعها وفخامتها إلا أنها كانت تضم طاقم بحارة من أصناف متعددة خاصة في ولايات منتصف الأطلنطي والولايات الجنوبية، ينغمسون في الاستماع بمضغ التبغ. وفقاً لوصف أحد المسافرين كمت على الدوام ترى مجموعة من الشباب يتوسطون سطح الباخرة ويخرجون علب التبغ خاصتهم ويمضغونها

وهم يصبغون كل التبغ عشوائياً "في زخات صفراء كالطر الغزير"
مكونة "دائرة سحرية لا يجرؤ أحد من الدخلاء على الاقتراب
منها ."

لكن عائلة لنكولن شعرت بالراحة أكثر في القطارات التي
أوصلتهم إلى ليكسنجتون ثم إلى واشنطن لأنهم جلسوا بعربة
السيدات التي يمنع فيها استخدام التبغ . ورغم تعرضهم لبعض من
المضايقات، مثل الاهتزازات المتكررة واحتكاك المعدن بالمعدن،
وشرارات حمراء ملتهبة تتناثر من موقد القاطرة بوسط العربة؛ لكنهم
في النهاية لم يكن عليهم تقاضى عصير مضغ التبغ .

عندما وصلت أسرة لنكولن إلى واشنطن في شهر ديسمبر من
عام ١٨٤٧، بدت عاصمة الأمة ضخمة لكن غير مكتملة، يسكنها
أربعون ألف نسمة، من بينهم ألفان من العبيد وثمانية آلاف من
الأحرار . كانت أضخم مدينة رأوها في حياتهم حتى تلك اللحظة .
كان كثير من الأمريكيين يشيرون لها بأنها مدينة المساحات الشاسعة
"لكن تشارلز ديكنز الذي كان زارها قبل سنوات قليلة أطلق عليها
"مدينة النوايا العظيمة . " لأنها كانت نصف مطورة عمرانياً ، فلم
تكن بها أعمدة إضاءة بالشوارع في أي مكان . وكانت الطرق الخالية
التي لا تؤدي إلى مكان ما ، حيث تنتظر البناء ليمنحها الحياة ،
وكانت توجد في كل مكان أبنية عامة تحتاج إلى "أناس يسكنونها كي

تُكْمَل". كان شارع بنسلفانيا - وهو الطريق الرئيسي الذي يحظى بالعناية - قد تم رصفه بالأحجار الصلدة جزئياً وكان الباقي منه يتحول إلى حفر من الوحل عقب أي مطر غزير، بينما تتجول الخنازير بالشوارع، وتتكاثر "أكوام القمامة والحیوانات الميتة وفضلات البشر في الأماكن القريبة"، وتدفق مياه المجاري من مبنى الكابيتول نحو المول من المواسير لتصبح المنطقة مستنقعا كريه الرائحة .

حتى مبنى الكابيتول الكلاسيكي الأنيق لم يكن قد اكتمل بعد، وكانت قبته التي تشبه شكلاً لجمجمة الرأس لم تتم تغطيتها بعد بأسياخها من الصلب التي تقاطع كما لو كانت تشد الانتباه للقدرات العقلية والأخلاقية لشخصية الأمة (حيث بدت الأجزاء الأكثر ثباتاً في القبة متائلة مع مناطق الجمجمة المسنولة عن الحرس على الأكساب والقدرة على القتال) . كان الكابيتول يواجه الشرق، لكن المدينة أخذت تتسع

غرباً، فبدأ كما لو كان يدير ظهره للجماهير وللمدينة .

كما أطلق ديكنز على واشنطن اسم "المركز الرئيسي للبصاق المصطنع بالتبع" ولم يكن مبالغاً، فمضغ التبغ كان مسموحاً به في جميع الأماكن العامة، وكانت الأعمدة الرخامية للكابيتول والسجاجيد في مباني النواب ملطخة بالبصاق، وانتشرت أوعية المباحق في كل مكان لكن الناس كثيراً ما تجاهلوا أو أخطأوا تمييز أماكنها،

فالعديد من رجال المجلسين - الشيخ والنواب - المنتخبة
خدودهم بسبب المضغ كانوا يقذفون البصقة ككرة طائرة لكنها
تخطئ هدفها في الوصول للبصقة تماماً . وقد كره أحد ممثلي نيويورك
العمل في الكونجرس لأن الكثير من الزملاء "يقذفون ببصاق تبغهم
فوق السجاد"، بل ويشربون الخمر أثناء العمل، وقام بتشييه
الكونجرس "بالحانة أو البار خاصة أثناء الجلسات الليلية." لم يكن
أبراهام ولا زوجته ماري ممن يمضغون التبغ أو يشربون الخمر (رغم أن
العديد من النساء كن يفعلن) . لكنهما أعتادا ذلك السلوك من
سبرنجفيلد .

عاش آل لنكولن في بيت السيدة سبريجز الذي كان يوفر الطعام
والنوم ويمتلى بالنواب المحافظين ويطل على حدائق الكابيتول، كان
هناك نحو عشرين نزلاً آخر ، جميعهم رجال لم يعتادوا السكنى مع
النساء والأطفال . وشكى نزيل من أن بوب الصغير طفل مزعج وأنه
يجول في كل أنحاء المنزل . ووافق لنكولن على أن ابنه لديه قدر كبير
من النزوع للإزعاج الذي يصدر عن روح الحيوان .

وحالما وصلوا إلى واشنطن استأجرت ماري أحد عبيد السيدة
سبريجز للعناية بالأطفال بينما كانت وزوجها يحضران عرضاً تؤديه
فرقة تعزف السريناد الأثيوبية وهو استعراض لفرقة تعزف على
الكان بوجوه سوداء، حيث كانوا يطلون وجوههم باللون الأسود

ويتشبهون بالمهرج "بشفاء حمراء وأفواه ضخمة" ويغنون ويرقصون على أنغام الزنوج مثل "أولد دان تاكر" و"لوس نيل" و"ريل رود أوفيرتشر". استمتع لنكون وزوجته بالعرض لدرجة أنها أعادا الكرة مرة أخرى. لكن فردريك دوجلاس كره تماماً التقليد العنصري في فرقة الوجود السوداء، فأولئك الممثلون البيض بالفن في الرقص والغناء وتقليد الزنوج، فدعا الممثلين "لتقديم الإنسان الملون كما هو دون مبالغة وليس كما يفعل فنانون الفرقة الأثيوبية كهادتهم" فلربما يفعلون ذلك لإسعاد البيض. لكن هذا الأمر يملأ السود بالاشمئزاز ويؤدي لتوسيع هوة العنصرية.

كان جوشوا جيدنجز، أحد زملاء لنكون من المحافظين وأحد سكان منزل السيدة سبريجز أيضاً، قد أبدى امتعاضه لتردد لنكون وأسرته على استعراضات تلك الفرقة. كان جوشوا رجلاً أبيض الشعر يمثل أوهايو في الكونجرس ويشبه الواعظ. لكنه كان أحد دعاة التحرير المتحمسين، وصنع لنفسه اسماً في المجلس بسبب كلماته الصادقة ضد العبودية وصداقته وتعاونيه مع جون كوينسي آدامز الذي كان بدوره عضواً بالمجلس، وبعد معركة طاحنة في مواجهة نواب الجنوب استطاعاً إلغاء القانون الذي يمنع إثارة قضايا العبودية الذي أوقف الجماهير عن مناقشة قضايا العبودية طوال عقد كامل من الزمان، وكثيراً ما دخل جيدنجز في مناقشات حول الرق مع

نواب الجنوب في استراحة منزل السيدة سبريجز وأحياناً مع لنكولن، وعندما تبدأ المناقشة كان لنكولن يقوم بتغيير موضوع الكلام باللقاء نكتة أو حكاية لتخفيف توتر الموقف. تلك كانت طريقته في التوافق مع الأوضاع على مائدة العشاء، فاعتقد جيدنجز أن لنكولن "يحمل آراء خجولة حول كيفية التعامل مع نواب الجنوب" بينما اعتقد لنكولن أن معارضة جيدنجز للملك العبيد تزيد من شرور الرق بدلاً من تخفيفها.

كما اعتبر لنكولن أن آدامز متطرفاً جداً في مناهضة العبودية، حيث بدا الرئيس السابق مسالماً الى حد كبير، يجسده المنحني بفعل الزمن ورأسه المبعق بتجاعيد تقدم العمر. لكن ذلك كله لم يردع الجنوبيين عن إرسال تهديدات بقتله بين آن وآخر لمعارضته العنيفة للعبودية، فهو لم يؤكد فقط أنه "في حالة الحرب" يمكن للحكومة أن تنهي حالة الرق على الفور قانوناً، بل أضاف أن "للشعب الحق في إصلاح انتهاكات الحكومة"، حيث يمكن له السيطرة على الحكم كحق له لتوجيه عملها بما يتفق مع مبادئ وثيقة إعلان الاستقلال. ولذلك السبب تم اتهام آدامز بالخيانة وتوجيه اللوم إليه، فكان رده هو الإشارة إلى تعريف الدستور للخيانة وإلى "العقول السقيمة" لرجال الجنوب الذين اتهموه زوراً. وقد

أصبح آدامز ثورياً في أخريات حياته ولمدة عشرين عاماً تقريباً بالبرلمان
تحمل كثيراً من "الإهانة، والتهديدات، والبلطجة" من ملاك العبيد .

في أوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر عندما كان في
أوسط سبعيناته، صنف نفسه كواحد من دعاة تحرير العبيد، وقد
نبع تحوله من سماعه "لاعترافات جون كالهون الصريحة والصادمة"
التي قالها لاستيلاء على تكساس واستمرار العبودية . فيقول آدامز:
"عندما أرى الجنوبيين يضربون بالدستور عرض الحائط من أجل تلك
الأغراض التي سمعتها صراحة، لا أجد مناصاً سوى أن أكون من
دعاة تحرير العبيد ... وعلى أن أواجههم (أي الجنوبيين) بكل
الوسائل المتاحة لي، وعلى أن أقاتل الشيطان بنفس سلاحه ."
أصبح آدامز يشبه فردريك دوغلاس أكثر من لنكولن؛ فلا عجب أن
يجبه أكثر .

احتفظ لنكولن بابتعاده عن آدامز ولم يحاول التعرف عليه . لكن
آدامز كان قادراً على الاحتفاظ بقلبه "الشيخ المفقود" فرغم عمره
المقدم كان لا يزال يستطيع إلقاء خطبه البليغة . وفي يوم ٢١ فبراير
عام ١٨٤٨، بعد بداية دورة المجلس بشهور قليلة، وقف آدامز في
المجلس ليعارض قراراً بتقديم الشكر للكونجرس ولقادة حرب
المكسيك لأدائهم "الرائع" وجهودهم في المكسيك، وكانت كلمته
المدوية "الجلجلة" (لا!) هي آخر كلماته وآخر مواقفه ضد الرق إذ

انهار جسده بعدها على مقعده ومات بعد يومين. كان آدامز حلقة الوصل الملموسة عبر والده بالآباء المؤسسين للوطن، وأضحى موته علامة فاصلة على نهاية عصر. إلا أن لتكونن تظاهر بعدم وجوده لأنه لم يذكره هو ولم يأت على ذكر سرادقات العزاء الفخمة التي أقيمت لتكريمه.

كان لتكونن أكثر احتراماً للملك العبيد المحافظين في الجنوب، ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة، فأكثر أصدقائه من ملاك العبيد المحافظين (أو من أبنائهم) وكان يشعر بالارتياح وهو بينهم أكثر مما يشعر به بين دعاة التحرير الشماليين. لكنه بعدما سمع كلمة أليكساندر ستيفنز - من النواب المحافظين عن ولاية جورجيا - وهو يدين الحرب المكسيكية، تأثر لتكونن لدرجة أنه كتب إلى ويليام هرندون مذكرة عاجلة ليخبره أن ستيفنز "الرجل ضئيل الحجم، رقيق الوجه، قد اختتم لتوه أفضل خطاب سمعته وقد استغرق ساعة، فامتلات عيني الذابلتان الجافتان بالدموع." ربما كان ما أثر في مشاعره هو بلاغة إيجازه وذلك ما أحبه - أيضاً - في كاهون من "جمل قصيرة، وأسلوب مكمل". غير أنه كان يعامل خطب جيدنجز أو آدامز ضد العبودية - رغم طلاقها - كأنها لم تحدث.

وقد فصل لتكونن نفسه عن آدامز حتى قيام الحرب الأهلية، فعندما قام بتحرير سيرته الذاتية في حملته الانتخابية للرئاسة ألقى

السطر الذي يقول إنه كان "رجل آدامز الوفي" وكتب بدلاً عنها "المعارض لجاكسون اوكلاي بإخلاص". كانت محاولة إبعاد نفسه المقصودة عن آدامز تدعو للسخرية، لأن كلا الرجلين سعيا لإنهاء العبودية تماما، وعارضا محاولات مدا نفاقها إلى الأراضي الجديدة، وبالطبع فإن لنكونن تصرف في النهاية بناء على فهم آدامز لسلطات الحرب لإنهاء الرق. لكنه كائب بالكونجرس ومرشح للرئاسة اعتبر آدامز عبئا أكثر منه حليفاً، بسبب آرائه المتطرفة في مناهضة الرق.

أراد لنكونن أن يميز نفسه داخل الكونجرس، ولم يشعر بالحرج أن يؤدي مهامه في نفس المجلس مع المستنيرين من أمثال آدامز وجيدنجز وستيفنز. ولم يتهيب الأعمدة ذات الطراز الكورني التي تحيط بمجلس النواب ولا كرسي رئيس المجلس المزين والمرتفع الذي يشبه منبر الواعظ، فقد انتظم في حضور كل الجلسات تقريبا ولم يعد الكلام في المجلس يخيفه كما لو كان في محكمة من محاكم إلينوي. وكان واثقا من المهارات التي اكتسبها كمحام حيث عاش سنوات وسط قاعات المحاكم وتعلم كيف يميز بين الحقائق والأكاذيب فيقول: "لقد رأيت أحيانا محاميا جيدا يكافح لإنقاذ رقبة عميله في قضية ميتوس منها مستخدما كل حيله للالتفاف والتغطية والتعمية بكل ما أوتي من

كلمات، قنبغ نقطة ما في القضية ما كان ليجرؤ على التصريح بها .
لكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يخفيها . " في الحقيقة، كانت تمر عليه
أوقات يكون فيها هو ذلك "الحامي الجيد" الذي يستخدم كافة حيله
لصالح عميله، وملاه الأمل أن تمكنه تلك المهارات من الصعود إلى
القمة وذلك بكشف أكاذيب الرئيس بولك وحزبه الديمقراطي . لكن
الكونجرس والرئيس أساساً أهملاه تماماً، وكان التوقيت جزءاً من
المشكلة لأن الحرب المكسيكية كانت قد انتهت تقريباً عندما شن
هجومه على بولك ولأنه كان يكرر ما قاله أعضاء حزبه طوال سنتين
مضت، وقد مل الناس من سماع كون الحرب غير دستورية، وإذا ما
كانوا مضطرين لسماع تلك المناقشات، كانوا يفضلون سماعها من
كوينسي آدامز أو جوشوا جيدنجز أو أليكساندر ستيفنز .

كما اعتبروا لنكولن غير متسق مع نفسه في وجهة نظره تجاه
مناهضة العبودية، خاصة بالنسبة إلى بادامز وجيدنجز، فهو بعكسهم
لم يعارض ضم تكساس، الذي أثار الحرب بداية بسبب نزاع الحدود
مع المكسيك، إذ قال: "إنني لم أهتم أبداً بمسألة تكساس . لأنني لم
أتمكن من فهم كيف يمكن لذلك الضم أن يزيد شرور العبودية . " لم
يكن مهتماً بأن يؤدي ذلك الضم إلى زيادة عدد ولايات مالكي العبيد
بمقدار الربع، لأن ذلك بالنسبة للنكولن كان يعني أن تكساس سوف

يكون بها نفس عدد العبيد سواء أصبحت جمهورية مستقلة أم جزءاً من الولايات المتحدة.

لكن كانت هناك تناقضات أخرى أكثر خطورة في سجل لنكون المتعلق بالحرب تهدد شرعيته، فعندما نشبت الحرب عام ١٨٤٦، قام بتأييدها لاجتذاب ناخبي إيلينوي، حيث اندفع رجالها للالتحاق بالحرب وشجعهم بإلقاء خطاب حربي "ساخن وحماسي ومؤثر". ثم عندما وصل للكونجرس قال عن الحرب إنها غير دستورية وانهم بولك بالكذب، وأراد أن يعرف المكان الحقيقي الذي أريقت فيه الدماء. ثم أيد بعد أسبوع الحرب بالتصويت لصالح إمداد الجيش وتكريم قواده وأبطاله. ونتيجة لذلك، اكتسب لنكون اسم "لنكون المرقع" الذي لا يثير فقط معنى "محامي المتلاعب" كما ذكر أحد الصحفيين وإنما معنى "السياسي الرجراج المقلب".

خلال جهوده لتوحيد أعضاء حزب المحافظين الشماليين والجنوبيين معاً، هجر لنكون - نظرياً - دعاوى مناهضة العبودية، فرفض الاشتراك في مناقشة مشروع ويلموت بروفينرو الذي يمنع انتشار العبودية إلى الأراضي المكتسبة حديثاً من المكسيك رغم أنه صوت لصالح القرار (الذي هزم عند التصويت)، لكنه لم يرد إزعاج نواب الجنوب من المحافظين، لذا التزم الصمت أثناء المناقشات. وبالطبع فقد صوت لصالح الإبقاء على تجارة العبيد في مقاطعة

واشتنطن مع نواب الجنوب، وكان ذلك موقفاً محرّجاً لإتسان يعتبر نفسه خصماً للعبودية وفضحه دوّجلاس في جريدته.

وكجزء من جهوده الواقعية، قدم لنكولن قانونه الخاص بإنهاء العبودية في واشنطن، ويوفر قانونه تعويضاً كاملاً للسادة مقابل ما يمتلكون ويفرض فترة "تدريب" على العبيد أخرت حرّبتهم عملياً من ١٨٧٠ حتى ١٨٧٥، وشجع تحرير العبيد كيما يهاجروا إلى ليبيريا. كان القانون يطالب بإجراء اقتراع يقوم فيه المواطنون البيض بالتصويت عليه.

كان أكثر جوانب القانون سوءاً أنه يطالب بالتشدد في تنفيذ عمليات القبض على العبيد الهاربين الذين يغادرون المقاطعة وكانت هذه المادة خاصة مدمرة للاستقرار، إذ حدث يوم ١٧ يناير من عام ١٨٤٨، وبينما كان يقوم لنكولن بتقديم نسخة من مشروع قانونه، اقتحم ثلاثة رجال مسلحين منزل السيدة سبريجز وأسروا نادلاً أسود يعمل هناك بالقوة "وفي حضور زوجته، كمنوا فمه، وقيّدوه بالسلاسل ونحّت تهديد أسلحتهم أدخلوه أحد سجون العبيد بالمدينة"، ومنه أرسل إلى سوق العبيد في نيو أورليانز ليُباع بأعلى سعر مدفوع. كان ذلك النادل قد عمل لدى السيدة سبريجز لعدة سنوات، وأحبّه رجال الكونجرس المقيمون هناك ومن بينهم لنكولن. وكان هذا الرجل قد تعاقد على شراء حرّته من سيده مقابل ٣٠٠

دولار منذ سنوات سابقة وقد سدد كل ما عليه سوى ٦٠ دولاراً باقية عندما اختطفه سيده فجأة من وسط عائلته وعمله ومستقبله. وقد انزعج جوشوا جيدنجز بشدة لدرجة أنه تقدم بقرار لمجلس النواب يقترح عليهم إما أن يقوموا بمنع تجارة العبيد في المقاطعة أو "نقل مركز الحكومة إلى ولاية حرة أخرى". "كانت مثل تلك الهبات الغاضبة شائعة الحدوث بحيث لا يمكن تجاهلها. غير أن لنكون لم يذكر تلك الواقعة أبداً ولم يغير - حتى - في فقرات مشروع قانونه بشأن العبيد الهاربين.

كان قانونه لتحرير العبيد توافيقاً لدرجة أن أحداً من النواب لم يؤيده ، إذ كان يمثل خطة هنري كلاي - وربما بنى عليها - للقضاء على الرق في كنتاكي. وفي تمائله الشديد مع كلاي، كان لنكون يأمل في عتق العبيد دون المساس بحسابات السادة رغم أن الجنوبيين نظروا لمشروعه باعتباره "الخطوة الأولى نحو إنهاء الرق في كل البلاد" في حين وجدّه الشماليون مشروعاً غير مقبول. كان جيدنجز ثائراً ضد مادة "العبد الهارب" بمشروع القانون، وبدأ النائب ويندل فيلبس - من دعاة التحرير في بوسطن - بمناداة لنكون باسم "كلب صيد العبيد من إلينوي" وهو مصطلح التصق به بين بعض دعاة تحرير العبيد.

ما أثار الغضب عند جيدنجز وبقية الدعاة أن لنكون قام بدعم الجنرال زاكري تايلور مرشحاً للرئاسة. فقد كان لنكون قد تصادق مع أليكساندر ستيفنز، الذي أصبح - بعد ذلك - نائباً للرئيس في الاتحاد المنشق وتعاوننا على تنظيم "نادي ترشيح تايلور للرئاسة"؛ تلك الفكرة التي أثارت الاهتمام الوطني. كان تايلور لا يعرف شيئاً عن السياسة ولم يَقم يوماً بالإدلاء بصوته، وكان يملك ١٣٠ عبداً. على تقيض هنري كلاي، لم يعتبر تايلور أن العبودية خطأ أخلاقي. لكن لنكون وستيفنز اعتقدا أن ترشيح تايلور قد يعيد الحيوية لحزب المحافظين ويخفف كثيراً من التوتر الاقليمي السائد.

شعر المحافظون أصحاب "الضبر" الداعي لعنق العبيد أنه قد تم الغدر بهم بترشيح الجنرال تايلور وتخلوا عن حزمهم للمساعدة في تكوين حزب "الأرض الحرة"، فكيف يمكنهم أن يبقوا أعضاء في حزب يعارض الحرب المكسيكية ثم يرشح في نفس الوقت القائد الذي ساعد على الفوز بتلك الحرب؟! وكيف يقومون بالدعوة لترشيح رجل للرئاسة وهو يملك مئات من العبيد ولم يشعر للحظة أن العبودية خطيئة؟ وكيف يؤيدون مرشحاً رئاسياً لا يرى في انتشار العبودية مشكلة أخلاقية؟ وفي مؤتمر الحزب الذي عقده لتسمية مرشح الرئاسة في فيلادلفيا، قام كل من جوشوا جيدنجز وتشارلز سمنر وهنري ويلسون وتشارلز آدامز - ابن جون كوينسي

آدامز- بقيادة عملية الخروج على الحزب لتكوين الحزب الجديد
"حزب الأرض الحرة"، ولو كان كوينسي آدامز حياً لانضم إليهم
بالتأكيد وأيد دعواهم.

دعم لنكون ترشيح تايلور للرئاسة لأسباب تقنية، ففي حين
رغب بعض المحافظين لأعضاء في ترشيح هنري كلاي، رأى لنكون
أن كلاي لن يتمكن من النجاح وقال: "إن تايلور هو فرصتنا
الوحيدة... وأنا لا أؤيده لأنني أظنه سيكون رئيساً أفضل من كلاي
ولكن لأنني أعتقد أنه سيكون أفضل من رئيس ديمقراطي".

ومن الواضح أن لنكون فضل الولاء للحزب على مبادئ
مناهضة العبودية، وقد كره حزب "الأرض الحرة" الجديد برغم تركيزه
على قضية مناهضة الرق كما احتقر حزب الحرية، وأكد - ساخراً
- أن الشيء الوحيد الجيد الذي قدمته أحزاب مناهضة الرق هي
أنها ساعدت على انتخاب رئيس ديمقراطي مؤيد للعبودية. فقد
كلف حزب الحرية هنري كلاي بالترشيح للرئاسة عام ١٨٤٤، والآن
قد يقوم أعضاء حزب "الأرض الحرة" باختيار المرشح الديمقراطي
لويس كاس المؤيد للعبودية. وأكد لنكون أن المحافظين من معارضي
العبودية بنفس القدر الذي يعارض به أعضاء حزب "الأرض الحرة"
لكنهم يتجاهلون حقيقة أن أمثال القادة كلاي وستيفنز وتومبز وتايلور

كلهم من ملاك العبيد الجنوبيين وبمعكسهم لا يوجد قائد واحد من حزب "الأرض الحرة" ممن يملكون العبيد .

بيد أن تأييد لتكوين تالور كان يمثل حركة سياسية أربية . ففي نهاية المطاف فقد ساعد كثيراً في انتخاب ثاني (وآخر) رئيس يميني محافظ . كان الرئيس تالور يميل إلى مواجهة الجنوبيين الجشعين الذين أرادوا مزيداً من الأرض لنشر العبيد فيها . وعند نهاية مدة لتكوين النيابة، شعر بوادر تشرذم الأعضاء التي سيؤدي - عاجلاً - إلى تدمير حزبه الأثير . ذات يوم من أيام مارس عام ١٨٤٩ ، كان جوشوا جيدنجز يتحدث مع أحد رفاق حزب الأرض الحرة صدفة عندما حضر إليه ريتشارد ميد نائب فرجينيا ، ولوح بقبضته في وجه جيدنجز قائلاً : "لعنة الله عليك . . . يجدر بنا وسنجررك بالقوة على أن تفعل الصواب (أي تأييد الجنوب) إذا لم نجد وسيلة أخرى ."

لم تكن تلك التهديدات تمثل شيئاً بالنسبة لجيدنجز ، لأن رجال الجنوب قد هددوه بالفعل مستخدمين المراوات والمضى والمسدسات . لذا أطلق ضحكة أمامه وهو يقول : "إنك لن تستطيع لإلحاق الأذى بنا ."

استشاط ميد غضباً وجذب جيدنجز من ياقته ملوحاً بقبضة يده مرة أخرى وسبه "بجملة من الشاتم" ، فضحك جيدنجز من

جديد وقبل أن يجد ميد فرصة لضربه تدخل النائب توماس هينلي من أنديانا وأرسل مير بعيداً وهو يصيح .

ما أن انتهت تلك المعركة حتى قام روبرت جونسون وهو ديمقراطي مخمور من أركانساس بمهاجمة أورلاندو فيكلين من إيلينوي وهو زميل لنكولن فجأة، وتحولت مواجهتهما بسرعة إلى ملاكمة تدور في مجلس النواب . هنا تدخل صامويل إنج من الألباما وسط المعصة وأخذ يضرب فيكلين على رأسه بعصاه "وتسبب في تدفق الدم أنهاراً" ثم توقفت المعركة وحملوا فيكلين إلى الخارج "وجبهه يسيل دماً" . شاهد لنكولن الأزمة دون أن يبادر إلى التدخل ربما لأنه أراد تجاهل حقيقة قيام حرب أهلية مصغرة داخل أورقة المجلس .

افتقدت ماري تود، التي كانت تحب الجلوس وسط الردهة والاستماع للمناقشات ، حياة الإشارة، فقد ملت حياة العيش في نزل السيدة سبريجز وغياب زوجها لساعات طويلة، فأخذت طفلها إلى العائلة في ليكسنجتون حيث قام العبيد برعايتهما وعند نهاية دورة لنكولن قابلته وهو عائد إلى سبرنجفيلد . كانت دورة لنكولن في الكونجرس فاشلة، وهو لم يتقدم لانتخابات جديدة بسبب اتفاق مسبق بأن يخلي مقعده لمرشح محافظ آخر بالإضافة إلى أنه ما كان ليتم ترشيحه بسبب فقدته لدعم الكثير من مؤيديه . وفي الواقع خسر

بديله الانتخابات، وأخذ زملاؤه يلومونه على التخلي عن "مقعد" مضمون للمحافظين دون فائدة. بدأ غير مستعد لتسليط الأضواء عليه على المستوى الوطني وبدأ خصومه يلقنون الاتباء لأسلوبه في الكلام وطريقة أدائه. فقد كتب أحد الصحفيين من الديمقراطيين: "وترى إيماءاته الخرقاء، وتنويعه المضحك لصوته والتعبيرات الكوميديّة للملاحه، كل ذلك يتحالف معاً لدفع المستمعين إلى الضحك لجرد توقع النكته قبل ظهورها." غادر لنكولن ذو الأربعين عاماً واشنطن وآماله في الصعود الوطني السياسي قد تحطمت، ولو مات في العالم التالي لهذه الوقائع ما كان له أن يصنع التاريخ.

وعندما عاد إلى سبرنجفيلد في ربيع عام ١٨٤٩ كان شديد الاضطراب، وخفت ماري من آلام إحباطه بإغراقه في سيل من المديح والتنبؤ بمستقبل عظيم ينتظره، وكتبت مجموعة من الخطابات تطلب له وظيفة "من خلال المعارف" نظير دعمه للرئيس تايلور. ومنحه الحزب وظيفة حاكم منطقة أوريجون مقابل ٣٠٠٠ دولار في العام، وهو راتب محترم، فقبل الإغراء لكن ماري رفضت لذا ردت العرض دون إجابة بالقبول. اعتزل لنكولن السياسة بشكل عملي ولم يحتل موقعاً رسمياً من أواسط عام ١٨٤٩ حتى معظم عام ١٨٥٤. وخلال تلك الأعوام الستة مارس لنكولن "أعمال الحماسة باجتهد ومثابرة أكثر من ذي قبل" كما قال. وبينما كان عمله القانوني مع

ويليام هيرندون ينمو، أصبح محامي القضايا المحلية وترك الارتحال إلا بقدر دائرة محاكم إيلينوي محل عمله. وقبل جميع أنواع قضايا العملاء، فدافع عن بعض شركات السكك الحديدية في بعض الحالات وعارضهم في حالات أخرى، وقبل توكيلاً عن فتاة سوداء سعت للحصول على حريتها يوماً ما، ودافع عن أحد ملاك العبيد الذي طالب باستعادة ما يملك في قضية أخرى. وكما لاحظ هيرندون، فقد "كان محامياً للقضايا القانونية بصورة مجردة." لكنه كسب أموالاً وفيرة خلال تلك السنوات، ومع عام ١٨٤٥ اتسمى لتكوين للطبقة العليا في سبرنجفيلد.

رغم الأمن المالي الجديد اذى تحقق للتكوين، فقد صادف زواجه أحياناً هزات اجتماعية كادت تؤدي به للانحيار، إذ كان منزلهما بيتاً ذا طابق واحد يوناني الطراز يقع على ناصيتي الشارع الثامن وشارع جاكسون، وسط مدينة سبرنجفيلد، ويخفى داخله ثورة فائرة^{١٨} حيث كانت انفعالات ماري صعبة الضبط وكان من يمكن أن تحول إلى حالة عنف بسرعة، وقد كرهت "أصدقاء زوجها المخلصين" ونكاته المنزلية و"مظهره وسلوكه غير الملائم". فبالنسبة للمرأة لا تزال ترى نفسها أرسقراطية من الجنوب، كان سلوك زوجها

^{١٨} أضافاً في عام ١٨٥٦ دوراً ثانياً لكي يسع المنزل أسرتهما المتنامية. فقد ويليام (ويلي) في ١٨٥٠ وتوماس (تاد) في ١٨٥٣ - المترجم

يشير الخجل والإحراج. وكان ما يشعل غضبها أكثر أن يهملها لتكون
ويهمل أطفالها، ففي يوم أحد كان زوجها عائداً مع ابنه في إحدى
العربات واستغرق في أفكاره لدرجة أنه لم يلاحظ متى تشر ابنه
واقفاً خارجها، وكان ليستمر في طريقه للمنزل غير متنبه لما حدث
لولا أن ماري كانت تقف على الطريق وشاهدت الحادثة، وملاها
الغضب حتى أنها وبجته على مشهد من الناس.

وفي واقعة أخرى، كان أبراهام جالساً في حجرة الجلوس يقرأ،
وسواء أنه لم يسمع أو أنه تجاهل صوت ماري يطلب منه - تكرر -
وضع المزيد من الأخشاب في المدفأة، حملت وسط هياجها جذعاً
خشيباً وهي تخاطبه بشكل رسمي كهادتها "أيها السيد لتكون، لقد
أخبرتكَ ثلاث مرات أن تغذي النار، وتظاهرت بأنك لم تسمعني!
سوف أجعلك تسمعني هذه المرة." فواصل القراءة وهي تقرب منه
رافعة قطعة الخشب ثم شعر بأن أنفه يتفجر إذ ضربته على أنفه
بشدة أسالت الدم منه لعدة أيام، وذهب إلى عمله يضع رباطاً طبياً
على وجهه.

من مصادر التوتر بينهما كذلك اختلاف وجهات نظرهما بشأن
التعاون المنزلي والأسري، ولكونها نشأت وسط بيئة بها عبيد،
اعتبرت أن ليس عليها دفع أجور للفتيات الخادومات. لذا، كانت
شديدة البخل عليهن، ولم تعد تلقي الإهانة من "الفتيات الأيرلنديات

الموَحْشَات" اللاتي لم يَأْهِنَنَّ بالرد عليها أو مُحَادَثَتِهَا كعادة الإماء .
حيث كان عبيد أسرتها يرتدون قناع الطاعة خوفاً من الجلد، وربما
فكرت هي أن "إيقاف السوط يفسد العبد"، فبعد أن اختلفت مع
إحدى تلك الفتيات أخبرت إحدى صديقاتها برأيها فكتبت: "لو أن
السيد لنكون مات، فلن تجدني روحه - أبداً - خارج حدود
ولايات العبيد ."

على أية حال، تعاطف لنكون مع خادِمات ماري، لأنه نشأ
كفتى أبيض فقير كان عليه أن يدفع كل ما يكسبه لوالده، وبمكته أن
يشعر بما يشعر به من يعمل لصالح أحد الطغاة . بالتالي، عرض على
الخادِمات أن يزيد أجورهن حتى يجعل من عملهن أمراً محتملاً .
كانت إحدى الفتيات تقاضى دولاراً وربع أسبوعياً - وهو ما يعادل
٥٠٠٠ دولار سنوياً بعملة هذه الأيام - فهددتهن بأنها ستفادرهن ما
لم تقاضى ٢٥ سنتاً زيادة في الأسبوع، فرأت ماري أنها وقحة
وجادلتها . لكن أبراهام جذبها بعيداً وقال لها بهدوء: "لا ترحلي !
أخبري السيدة ماري أنك توافقين علي البقاء مقابل دولار وربع
وسوف أدفع لك الخمسة وعشرين سنتاً بيديك . " لكن ماري سمعت
المحادثة واثارت ثائرتها، فأمرت الفتاة بالرحيل على الفور وتحولت
لزوجها قائلة: "وبالنسبة لك يا سيد لنكون، فأنا أشعر بالعار من
أجلك ! " استأجر لنكون فتاة بديلة ووعدا أن يعطيها ٧٥ سنتاً

أسبوعياً كمكافأة فوق ما تدفعه السيدة مارى مهما كان، وحذرها من أن "تثرثر مع السيدة لنكولن في ذلك الشأن".

هكذا تعلم لنكولن كيف يستخدم الحيلة للحفاظ على السلام في بيته. وعندما طلب منه صي من جيرانه أن يتبرع ببعض المال لصندوق الإطفاء بالحى، أجابه: "سوف أذهب للمنزل لتناول العشاء ثم اسأل السيدة لنكولن ما ستقوله في ذلك. بعد العشاء، سيكون مزاجها رافقاً وسأسألها إذا ما كان في استطاعتنا أن ندفع خمسين دولاراً. هنا سوف تجيبني: 'بابا متى ستعلم حسن التقدير؟ يكفيهم عشرون دولاراً. فقال لي غداً وخذ النقود." بذلك، حصل الصي على التبرع. أما بالنسبة لمارى، فكان يعرف كيف يفاضها ويحصل على ما يريد.

رغم تلك العشرات الاجتماعية، إلا أن الحب المتبادل بينهما للسياسة أبقاهما راضين بصورة نسبية كزوجين. وقد عكست ثرائها الفجائية رغبتها الدفينة في أن يُسمع صوتها في مجتمع يُخرس صوت المرأة ويعاملها أفضل من الخدم قليلاً. ونظراً لطموحها من أجل زوجها، أصرت على مشاركته عالمه الواسع، وعندما كان يتجاهلها أو يترفق بها أو حتى يرفض معاملتها كباقي الرجال، كان بإمكانها أن توقفه عند حده. ثم كان للقدر أيضاً دوره في تخفيف حدة التوتر بينهما إذ عندما مات ابنهما إيدي ذو الأربعة أعوام سنة

١٨٥٠، كادت الواقعة تدمر حياتهما معاً وأغرقا في حزن عميق إلى أن حملت ماري بويليام بعد أسابيع قليلة من موت إيدي .
كما أصابهما الحزن مرة أخرى في شهر يونيو عام ١٨٥٢ لموت بطلهما المشترك هنري كلاي، وقال عنه لنكون أن كلاي "كان الرجل الذي قاتلت من أجله طوال حياتي المتواضعة ... لأنه كان يؤمن .. بعق العبيد إلى أقصى مدى" وتوصل لعدة حلول وسط لكنه لم يفقد الهدف أبداً . كانت ماري - بدورها - تعتبر كلاي "النموذج الأمثل" لرجل الدولة رغم توقعها أن زوجها سيفوقه براعة، وسيصل إلى البيت الأبيض .

وفي السادس من يوليو عام ١٨٥٢، وهو اليوم التالي لإلقاء دوغلاس خطابه عن "الرابع من يوليو" في روشيستر، قام لنكون برثاء كلاي في الكابيتول في سبرينجفيلد . وقتها كان دوغلاس يقدم وصفاً لبلد آخذ في الانحدار، ولنكون ينشر تسييحه إلهام لرجل ولأمة آخذين في الصعود، وربط مولد كلاي بمولد الأمة "فالوطن الطفل والصبي الطفل بدأ سباق الحياة معاً .. والآن تنمي الأمة الرجل .." أطلق على كلاي أعظم عصامي أنجبته الأمة، وسلط الضوء على عبقرته كمصلح بقوله: "لم يوجد شخص مثله في حذره لتجنب الانقسامات الإقليمية"، ففي مفاوضات اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ قام كلاي "بطرده الشيطان الذي تملك جسد الهيئة

السياسية، وأعاد السلام لأرض ممزقة. " وبينما كان الشيطان بالنسبة لدوجلاس هو الرق والعنصرية، كان بالنسبة للنكون هو الشقاق السياسي، فحياة كلاي تمثل له قوة الأمة وتقدمها. لكنه خلال سنوات قليلة لاحقة سيبيع دوجلاس ويركن إلى رثاء الأمة. في الحقيقة، نجد أن ما لم يدركه لنكون هو أن موت كلاي شكل علامة على نهاية عصر الحلول الوسط. ففي الوقت الذي ألقى فيه دوجلاس ولنكون خطابهما، كان قانون "العبد الهارب" وقصة هاريت بيتشرستو "كوخ العم توم" يحشدان تحرك الشمال للثورة ضد العبودية وتقسيم الوطن؛ كان حزب المحافظين الحبيب للنكون الذي تمكن من توحيد مؤيدي العبودية ومناهضيها بمهارة من قبل في طريقه للتشردم والتفكك إذ ثار غضب أعضاء الحزب الجنوبيين بسبب رفض الحزب ترشيح ميلارد فيلمور عن الحزب. وكان كثير من الأعضاء - ومن بينهم لنكون - يعتبرون فيلمور "دمية بيد قوى العبيد"، وقاموا بترشيح بطل الحرب وينفلد سكوت كمرشح للمحافظين للرئاسة عام ١٨٢٢. وفي نفس اللحظة التي كان لنكون يلقي فيها خطاب رثائه لمؤسس وزعيم الحزب، كان الحزب يدعى. وكانت انتخابات نوفمبر - بعد أربعة أشهر من الخطاب - هي آخر انتخابات يظهر فيها مرشح محافظ على قائمة الرئاسة.

بيد أنه بعد موت حزب اليمين المحافظ لفترة طويلة ظلّ، لنكون
 يتبع تقاليد وأعرافه في التوافق مع قوى العبيد، وحتى بعدما أصبح
 جمهورياً، كان يشير إلى نفسه "كعضو محافظ قديم".
 وبالعكس زملائه من مناهضي العبودية، لم يحاول لنكون أبداً إثارة
 التساؤل حول سلامة قانون العبد الهارب الصادر عام ١٨٥٠ لا على
 المستوى السياسي ولا على المستوى الدستوري. فهو تنازل ضروري
 للجنوب بقدر اعتقاد نواب الجنوب أنه إنهاء للعبودية في واشنطن
 العاصمة تنازل للشمالين، الذين كرهوا رؤية مزايدات بيع العبيد وهم
 في طريقهم إلى أعمالهم، واعتقد لنكون أن الدستور يطالب بوضع
 "قانون فعال للعبيد الهاربين". فعرض على الجنوبيين أن يمنحهم أي
 تشريع يصلح أوضاع العبيد الهاربين طالما لا يتعرض الأحرار السود
 لخطر الاستبعاد أكثر من تعرض البيض الأبرياء لخطر الموت، بل إنه
 أكد أن قانون العبد الهارب بالنسبة للسود يماثل القوانين الجنائية
 بالنسبة للبيض، متجاهلاً حقيقة أن الهارب الأسير محروم من
 الحقوق الدستورية في محاكمة طبيعية وفقاً لإجراءات ذلك القانون.
 استمر لنكون في طريق التوافق مع المباديء الموثقة للأمة، ففي
 حين أيد مبدأ المساواة المجرد، تخلى عنه كحل عملي لمشكلة الرق
 حيث اعترف بقوله عام ١٨٥٤: "لو تجمعت لدي كل سلطات
 الأرض، ما كنت لأعرف أبداً ما عليّ فعله في مسألة العبودية..،

وأضاف : "إن حافزي الأول يدفعني لتحرير كل العبيد وإرسالهم إلى ليبريا... إلى أرض وطنهم." لكن ذلك كان بلا جدوى، لأنه عارض - كذلك - عملية تحرير السود ومنحهم "المساواة السياسية والاجتماعية مثلنا." "لماذا؟" "إن مشاعري الخاصة لن تسمح بذلك، ولو فعلت أنا، لرأينا جميعاً أن العدد الأكبر من البيض لن يفعلوا. ربما تكون مثل تلك المشاعر غير عادلة. لكن ذلك الشعور الجماعي - سليماً كان أم فاسداً - لا يمكن تجاهله بشكل آمن. لذا، لا يمكننا أن نجعل منهم (أي السود) متساوين." "في نواحي معينة، بقي لنكون محافظاً لباقي أيام حياته، لكن انهيار حزنه حرره من دوافع الوسطية لصالح الحزب ببساطة. لقد أدى ذلك إلى تحوله لسياسي لامع مبدأه الرئيسي مثل دوجلاس القانون الطبيعي حرية للكافة.

استطاع لنكون إعادة صنع نفسه عندما بدأ يرى في ستيفن دوجلاس خصمه وعدوه الرئيسي، وهو النائب الديمقراطي الممثل لإيلينوي وواضع قانون كانساس - نبراسكا لعام ١٨٥٤، الذي استثار لنكون "كما لم يحدث من قبل." "كان ستيفن هذا بصغره بأربع سنوات، وكان أشهر رجل في إيلينوي بين أكثر السياسيين نجاحاً في الوطن. ولد في براندون التابعة لفيرمونت، وتلقى حصيلة جيدة من الدراسة، وتعلم اللاتينية واليونانية رغم أن والده الطبيب

مات وهو طفل . درس ستيفن القانون لسنة أشهر قبل أن ينتقل لولاية
إيلينوي في سن العشرين، حيث كان الانضمام لنقابة المحامين أقل
صعوبة من مثيله في شرق البلاد . وعند بلوغه السابعة والعشرين من
عمره أصبح أصغر قاضٍ بالحكمة العليا بالولاية ثم عُرف فيما بعد
باسم القاضي دوجلاس . كان عمره ثلاثين عاماً عندما تم انتخابه
بمجلس النواب، وأربعة وثلاثين عاماً عندما انتقل لمجلس الشيوخ .
بحلول أوائل العقد السادس من القرن التاسع عشر، أصبح واحداً من
قادة مجلس الشيوخ، وعندما كان الناس يناقشون أسماء رؤساء الأمة
كان اسمه عادة يرد ضمن أسماء القمة .

في نواحي عديدة، كان س . دوجلاس خصماً للنكولن . كان
أقصر من لنكولن إذ كان طوله خمسة أقدام وأربع بوصات وكان
يسير متبخرّاً بعكس خطوات لنكولن الطويلة المتقافزة، وله مزاج
متنمر، وهيمته القتالية تماشى مع صوته الجهوري (حتى إن بعضهم
يراه زئيراً) مما أدى بأصدقائه تسميته "العلاق الصغير" . وبينما كان
يعيش لنكولن متقشفاً وممتعاً عن الخمر والتبغ، كان دوجلاس يحيا
في بذخ؛ كان يحب الخمر الغالية والسيجار الفخم، وكان يشرب
كثيراً ويحب المراهنة على العقارات .

كانت أساليب نقاشهما مختلفة مثل أشكليهما وشخصيتهما،
حيث كان يبدو لنكولن معقداً أو جامداً ويعتمد على الكلمات

المتقاة بعناية ليأخذها سلاحاً، في حين يتصرف كان دوغلاس كمقاتل مراوغ في شجار بإحدى الحانات يصدر كل جسده في المعركة. لذا، كتب أحد الصحفيين: "إنه يمتلك مهارات قتالية تنزع للاتصار." وكان أحياناً يخرج عن السيطرة. ففي وسط إحدى جلسات الكونجرس اقتلع وهو يتحدث - وكان مجهداً من كثرة العمل - اقتلع ربطة عنقه، وفك أزرار الصديري "وأصبح منظره كلاكم نصف عار..." كما ذكر جون كولني آدامز وهو خائف، وأكمل: "كان وجهه هادراً وملاحه متشنجة وقذف بنفسه إلى حالة من الاهتياج؛ ولو كان جسده من مواد قابلة للاشتعال، لاحترق من فوره." * (جزء يرفق)

وحاجت صحيفة مؤيدة للعبودية بأن حكم قضية دريد سكوت يحمي ملكية سادة العبيد حتى لو انتقلوا لولايات حرة، وكانت هناك "قضية مماثلة" تشق طريقها ببطء عبر المحاكم.

فالقضية المعروفة باسم ليمون ضد الشعب شملت سيداً من فرجينيا هو جوناثان ليمون، كان قد جلب ثمانية في ١٨٥٢ من العبيد إلى مدينة نيويورك - وهي ميناء رئيسي - لشحنهم إلى تكساس. لكن السلطات أطلقت سراحهم حيث أن قانون الولاية يمنع السادة من جلب عبيدهم إليها، فاستأف ليمون القرار على أساس أنه كان في مرحلة عبور بالولاية فقط وعلى هذه الولاية احترام ملكيات

فيرجينيا . وقد توقعت صحيفة "النيويورك تريبيون" أنه بمجرد أن يكسب ملك العبيد حق العبور "فسوف نرى الناس يشترون العبيد من أجل سوق نيويورك وعندئذ لن توقف أية قوة قانونية ذلك . " كما حذر القاضي صامويل فوت - وهو قاضٍ بمحكمة نيويورك العليا من أن قضية ليمن لو وصلت للمحكمة العليا المركزية، سوف تكون تلك نهاية الأرض الحرة في الشمال . وقال المحامي جورج تمبلتون سترونج إن "أي قرار ستصدره المحكمة العليا المركزية سوف يسمح لكل جنوبي أن يجلب عبيده إلى نيويورك وماساتشوستس ويحتفظ بهم هناك . " كان أولئك المراقبون للأمور يسمون بالرشد ويتمتعون بعقول لماحة وليسوا من مروجي نظرية المؤامرة الجانين ، ولو نظرتُ كانت قضية ليمن قد وصلت إلى المحكمة العليا المركزية، فربما تم تقنين أوضاع العبودية في كل ولاية . لكن نشوب الحرب الأهلية أوقف ذلك كله .

بفضل خطابه المسمى "بيت منقسم"، صعد لنكون منصة العمل السياسي والوطني . كان عمره تسعاً وأربعين سنة، أي ضعف عمر فردريك دوجلاس عندما دخل دائرة الضوء في العمل السياسي والوطني، وقد أصدر لنكون حينئذ تصريحاً رسمياً بالتحدي داعياً دوجلاس كي يجوب الولاية مخاطباً نفس الجماهير ليلبس رأبهم وكان ذلك تقريباً - "الأسلوب الغربي المعتاد للحملات السياسية" .

وقد اعترض من . دوجلاس لأن لنكون ينقصر إلى المكانة الاجتماعية، وقالت صحيفة "شيكاغو تريبيون" إنه لو تراجع عن المناظرة سيُعد جباناً، فاستشاط غضباً، وأدرك أنه سيكسب كثيراً من مناظراته لنكون، وبالتالي تصبح عملية إعادة انتخابه مضمونة تماماً، وراوده الأمل في أن يستفيد من الحملة بإعادة توحيد حزبه؛ في حين رأى الديمقراطيون من أهل الجنوب أنه رقيق جداً في تعامله مع معارضي العبودية أكثر من اللازم، كما كان مؤيديه من الشمال قد تقلصوا لأن الناحيين هناك اعتبروه محلياً لأهل الجنوب. ومن ثم رآته أنه بهزيمة لنكون في منافسة جدالية، يمكنه أن يجذب كلا الجانبين، مما يضيف لمكانته ويعيد إحياء شهرته المعروفة. لذا، قالت إحدى صحف إيلينوي: "إن معركة الاتحاد سيخوضها الطرفان في إيلينوي."

وقد اتفقا بالفعل على خوض سبع مناظرات من أغسطس إلى أكتوبر ١٨٥٨، يستغرق كل واحد منهما حوالي ثلاث ساعات، ويتبادلان موقع من سيبدأ افتتاح كل جولة. وقد أخبر دوجلاس أحد أصدقائه قائلاً: "لسوف أذهب مالاً جمعي للقائه... فهو أقوى رجل في حزبه."

وقبل أسبوع من بداية المناظرات، تحدى دوجلاس لنكون

للملاقاته في قتال بقبضات اليد، ذلك لأنه اشتعل غضباً عندما اتهمه لنكونن بالتآمر مع "سلطة ملاك العبيد" واستغلها لنكونن في إثارة ضحك المستمعين بقوله: "لقد ذكر شيئاً ما عن القتال بالملأكة كما لو كان يشير إلى مواجهة قتالية أشبه بإجراءات حربية ظاناً أنها ستثبت من هو صاحب عضلات الأكثر." لم يكن ذلك ليجدي في حسم خلافهما حول قضية الرق، فخلف نكاته تقبع خطورة قاتلة، حيث ظل لنكونن يعتقد أن مشكلة العبودية يمكن حلها سلباً رغم كل الشواهد التي تثبت العكس.

كانت المناظرات دراسة في المتناقضات. فقد سافر دوحلاس في قطار خاصوصي وفي عربة خاصة مكدسة بطلب السيجار وزجاجات الخمر. وبدا في أبهة الرئيس ببذله الزرقاء الجديدة وأزرارها الفضية والقميص القطني المكوي جيداً، وقد اصططحبه زوجته الجميلة الشابة آديل كوتس، التي كانت تصل لنصف عمره، خاصة وأن الرجال أطاموا عليها "أجمل امرأة" تقع عليها العين. بينما سافر لنكونن بالقطار العادي وكان عليه أن يعرف بعضاً من اهتمامات وطباع جماهيره. كان يرتدي ملابسه "اليومية العادية" وهي معطف من الفرو الأسود بأكمام قصيرة جداً، وبنطال أسود أبرز عقبيه وقدميه الضخمتين. كما أن ماري "زوجه" لم تحصل على لقب "الأنيقة"، بل إنها مكثت بالبيت بناءً على أوامر لنكونن

لأنه لم يظن أن مظهرها الأرستقراطي يناسب منبته المتواضع .
ظهر التناقض أكثر وضوحاً عندما بدأ الحديث . تشابهت منصة
المناظرة مع حلبة الملاكمة، حيث كانت منصة مرتفعة محاطة بلفائف
الكثان والأعلام ترفرف على جنباتها . وبدلاً من وضع الكراسي في
الأركان، تم رصها متجاورة بينهما منضدة صغيرة، واندفع دو جلاس
منطلقاً من مقعده كما لو كان مشوقاً لتسجيل نقطة في مرمى الخصم .
كان مشاكساً وجريئاً تملأه الثقة وبدأ غوغائياً في بعض الأحيان،
"وتدافع صوته في نباح رتيب وحشي"، لكنه لم يفلح . أما صوت
لنكولن فقد كان له تردد هائل، لكنه بدأ حاداً ووصل إلى مدى
طبقة الصوت الأعلى عندما يتحدث . ولم يكن يدري ما يفعله بشأن
يديه، فمرة يضمهما معاً وهو يتكلم "أولاً أمامه ثم من خلفه" ومرات
أخرى يرمي بهما، لكنهما كانتا تتحركان بشكل أخرق كما لو كانت
مفاصلهما جامدة، وأحياناً ما كان يلفظ مقطعاً صوتياً مع ثني ركبتيه
كالمرح، واعتمد على الإحساس العام بدلاً من اعتماده على
الأسلوب اللغوي وعلى الروح الشعرية بدلاً من القتالية، وكان دائماً
متأكلاً لنفسه .

اجتذبت معظم المناظرات جماهير ضخمة، منها عشرة آلاف في
أوتاوا، وخمسة عشر ألفاً في فري بورث وحوالي سبعة آلاف في
تشارلستون . وكان هناك عشرون ألفاً في جولزبرج واثنا عشر ألفاً

في كوينسي . وفي فري بورت تزامنت الجماهير لدرجة أن المسؤولين اضطروا لاستخدام القوة لشق طريقهم نحو المنصة . كما قدمت شركات السكك الحديدية رحلات قصيرة بقطاراتها المزودة بالأعلام واللافتات، بل وسافر الناس بالقوارب البخارية وعربات الركوب أيضاً، وصحب بعضهم أسرته بالكامل . إذ كانت الأسر تعتبر حضور أي مناظرة بمثابة إجازة صيفية أو استراحة قصيرة مع نهاية موسم الحصاد قبل العودة لزراعة قمح الشتاء . وقد جمعت تلك المناظرات بين جاذبية جلسات المحاكم وبين إثارة حفلات موسيقى الروك؛ ولا عجب عندئذ أن تصل معدلات التصويت إلى ثمانين بالمائة إذ كان الناس شغوفين بالسياسة وبالخطب العامة، وكلاهما جاء في مشهد واحد .

كانت الحملة - بالنسبة لمن تابعوا لنكولن ودوجلاس - استعراضاً للأداء في الأساس لأدوارهما، لأن قضاياهما لم تتغير كثيراً . طعن لنكولن بشدة في عقيدة دوجلاس عن سيادة الشعب مؤكداً أنها سبب الانحدار الوطني الجذري وأنها جزء من المؤامرة الكبرى لتأميم الرق . أما دوجلاس، فقد أسى لنكولن "المرتد" الذي رفض قرارات المحكمة العليا وأحد دعاة التحرير الذين سيدمرون الاتحاد .

وفي صلب الموضوع، يمكن تلخيص الاختلافات في أن القاضي دوجلاس يُعلي من شأن حقوق الأغلبية (الرجال البيض) بما فيها

حق رجل واحد في استعباد آخرين، بينما يدافع لنكون عن (حق الأقلية) دون إخلال بالتراتب الطبقي القائم لأن رفع شأن المقهورين - بالنسبة له - يرفع من شأن الأغلبية، وهذان هما وجهتا النظر المختلفتان في الخبرة الأمريكية للطبقة البيضاء .

طوال المناظرات كان القاضي دوجلاس يسخر من لنكون باعتباره صديق وحليف لفردريك دوجلاس . وكان لنكون يستحق نوطاً من فردريك دوجلاس لمذهبه في تحرير العبيد، واستغل مدح دوجلاس له بشأن خطابه "البيت المنقسم" حيث كان لنكون "التجسيد الكامل" لمبادئ دوجلاس . وقد تناولت صحف الديمقراطيين مسألة دعم دوجلاس للنكون، ودعاه فيها أحد المحررين "حليف لنكون - ذلك الزنجي الذي خرج من أجله الرئيس . " وأنكر لنكون المرة تلو الأخرى أية علاقة له بالمساواة العرقية والزواج المختلط، واستنكر فكرة مساواة السود بالبيض، وقدم اقتباساً من الكتاب المقدس لتوضيح وجهة نظره، لأن المسيح علم الحشود أمامه أن يكونوا كاملين رغم علمه أن كل البشر خطائين . وبالمثل فإن المبدأ القائل "إن كل البشر خلقوا متساوين" كان مثلاً كي يجاهد الإنسان من أجله حتى لو لم يمكن تحقيقه، فصرح قائلاً: "لو لم تمكن من منح كل مخلوق حريته، فدعنا لا نفعل شيئاً يفرض العبودية على أي مخلوق آخر!"

خسر لنكون الانتخابات. لكن أداءه في تلك المناظرات رسخ شهرته الوطنية. وفي عام ١٨٥٩ بدأ قليل من مؤيديه يقترحون عليه الترشح للمنصب أعلى. وفي أواسط هذا العام، أخبر أصدقاءه: "أعتقد أنني لا أصلح للرئاسة." كان قد قال مثل ذلك منذ ثلاثين عاماً مضت حول احتمالات نجاحه كحمام، لكنه كان - الآن - على حق بشأن عدم صلاحيته بالمقارنة بأي رئيس آخر إذ كان غير مستعد كلية من حيث عدم حصوله على أي تعليم رسمي - نظرياً - ولكونه لم يقض سوى دورة واحدة غير ناجحة في الكونجرس وخسر انتخابات مجلس الشيوخ مرتين، وليس له أصدقاء في شرق البلاد، وكل حلفائه كانوا جميعاً بالغرب؛ في حين كان المرشحون الجمهوريين مثل سالمون تشيز من أوهايو وويليام سيوارد من نيويورك من عمالة السياسة مقارنة به، وكانت معهم قوة داعمة مؤيدة من الشمال.

لكن، بعد غارة جون براون في هاربس فيري، بدا كل من سيوارد وتشيز فجأة كالسلع المستهلكة، لأنهما حازا شهرتهما كراديكالين متطرفين بالفعل، وظلا لسنوات يقاومان تفعيل قانون العبد الهارب بشدة وصرحا بأنه غير دستوري. لكنهما الآن أصبحا في حالة اشتباه بالارتباط بالخيانة والقتل، وقد أطلق الديمقراطيون والجنوبيون على براون اسم "مخلب سيوارد" وأجبروا

سيوارد على سحب أطروحته "العليا" في القانون مثيرين الشكوك حول طبيعة شخصيته. كما أن تشيز كان يعرف براون ودعم توجيهه الحربي، وكان قد منح براون خمسة وعشرين دولاراً عام ١٨٥٦ وأوصاه بأن تكون لصالح "الثقة والاعتبار لكل من يرغب في رؤية كانساس ولاية حرة". وفي العام التالي طلب براون من تشيز نقوداً "من أجل العمل السري دون توجيه أسئلة" وأصبحت تلك التفاصيل صفحة أولى بعد غارة براون، وهدد الجمهوريون المتحفظون "بإغلاق الحزب".

فجأة أصبح لنكون أكثر جاذبية للناخبين بالشمال لأنه كان أكثر تحفظاً من سيوارد وتشيز، واستخدم هجوم براون فرصة لإثبات صحة عقيدته في القانون والنظام، وأن الطريق للتعبير عن "آرائنا بشأن العبودية ... سيكون عبر صندوق الاقتراع - الطريقة السلمية التي يقرها الدستور." ذلك ما قاله لجماهير كانساس في الأول من ديسمبر عام ١٨٥٩. وبعد يومين، حذر جماهير الجنوب من انتهاك القانون بقوله: "إن الشيخ جون براون قد تم إعدامه بتهمة التآمر ضد الدولة ولا نستطيع الاعتراض حتى لو كان يتفق معنا في القول بأن الرق خطيئة، ولو أننا انتخبنا رئيساً بشكل دستوري، وقسم أتم - لهذا السبب - بتدمير الاتحاد، سيكون واجبنا أن نعاملكم بالطريقة

نفسها التي عمل بها جون براون. "فإعدام براون يشير إلى طريقة الاستجابة الصحيحة للخيانة.

بعد شهر قليلة- أي في فبراير ١٨٦٠- أصبح لنكولن شبه عرّاف وهو يصف آثار غارة براون، ففي أثناء خطابه بمدينة نيويورك قام بتشبيه براون، بالعديد من المتطرفين عبر التاريخ الذين حاولوا اغتيال زعماء أمتهم باسم ما هو أفضل، مضيفاً: "حين يرتكن الإنسان المتحمس إلى اضطهاد الحكم للناس حتى يتخيل أن السماء أوكلة لتحريرهم، يُقدم على مغامرة التي تنتهي بمصير قد لا يقل عن إعدامه"، وتم نشر الخطاب وتوزيعه على نطاق كبير، ومن اللطيف أن تخيل جون ويلكس بوث، الذي كان يؤدي نفس الدور في ريتشموند، يقرأ ذلك الخطاب ثم يقذفه بعيداً في سلة المهملات.

كانت نبوءة لنكولن جزءاً من خطاب هام ألقاه في نقابة صنّاع البراميل بمانهاتن، وكانت تلك رحلته الأولى إلى الشمال الشرقي. حضر لقاءه بعض من أهم الشخصيات المؤثرة في الحزب الجمهوري، ومعهم المحررون الصحفيون هوراس جريللي وهنري راييموند وويليام كولن برايان وبنج بروكس. كان لنكولن يرتدي بذلة جديدة سوداء لهذه المناسبة مفضلة جيداً عليه كلفتها ١٠٠ دولار. وقبل إلقاء الخطاب، مر على استوديو ماثيو برادي، أكبر مصوري الأمة، وجلس أمامه ليلقط له صورة أظهرته كالرئيس واقفاً أمام أحد الأعمدة

وبيده كتاب، وينظر فيما وراء الكاميرا نظرة تأملية. كان ذلك "البورتريه" هدية جميلة لنادي وايداواكس "اليقظة الشاملة" وهو نادٍ لشباب الجمهوريين سُمي بهذا الاسم لتوخيهم الحذر في مواجهة "سلطة أصحاب العبيد"، وكان رمز "نادي اليقظة الشاملة" عيناً واحدة واسعة، تشبه عين لنكون مكبرة وهي التي ظهرت في صورة برادي.

كان خطابه ذلك رئاسياً، ويمكن قراءته كما لو كان موجزاً كتبه محام محنك ضد حكم دريد سكوت. وقد قند لنكون حجج القاضي دوغلاس وقاضي القضاة تاووني الذي ادعى أن واضعي أسس الدستور قد أقرّوا نشر العبودية للأراضي الجديدة، قال ذلك لاجئاً لحكمة الرأي العام. وقدم دليلاً يؤكد أن واحداً وعشرين صوتاً من تسعة وثلاثين (وهي أغلبية واضحة) قد صوتت لصالح إقصاء العبودية من البلاد، ولم يقل أحد منهم أن ذلك الفعل غير دستوري، بل إن القاضي دوغلاس وزمرته حولوا الدستور إلى وثيقة تبث الرعب في قلوب واضعيه.

أنهى لنكون خطابه راجياً الجمهوريين أن يتماسكوا ويثبتوا في تسامح كريم مع الجنوبيين مثل الأب مع ابنه الضال، فقد أعاد الجنوبيون تهديدهم بالانفصال ما لم يحصلوا على ما يريدون، بالإضافة إلى أن ذلك الاتشاق سيكون خطأ الشمال. وقال:

"اهدأوا، فعندما يصوب قاطع طريق بارد (يقصد جريء) مسدساً إلى رأسي ويزجر عبر أسنانه: قف وأعطني ما معك وإلا قتلتك!، وعندئذ ستكون قاتلاً". دعونا نمتلئ إيماناً بأن الحق يصنع الحق!" كان يأمل من موجزه هذا أن يهديء من تهورهم. ونجح ذلك الخطاب نجاحاً مدوياً فطابت المتاديل والقبعات في الهواء وتواصل التصفيق لعشر دقائق، وانقل نوح بروكس محرر جريدة "النيويورك تريبيون" لدرجة أنه أسمى لنكولن "أعظم رجل منذ ظهور القديس بولس" وقال- وهو خريج مدرسة هارفارد للقانون: "لقد كان أفضل خطاب سمعته في حياتي". كما قال أحد المراسلين وهو يبدو متأثراً كذلك: "لم يقم رجل بإحداث مثل ذلك التأثير على جماهير نيويورك في أول لقاء له بهم من قبل". من هنا بيعت صور برادي ونسخ من الخطاب مع ملاحظات إيضاحية عليه بالآلاف، وفيما بعد قال لنكولن: "إن برادي "المصور" وتقابة صنّاع البراميل جعلوا مني رئيساً".

بعد شهر ثلاثة، صاغ شعاراً وسّع من من مدى جاذبيته أكثر. ففي بداية مايو عُقد مؤتمر لتحديد مرشحي الولاية بمدينة ديكاتور، وقد اجتمعت الوفود في كوخ كبير يضاوي الشكل، وهو يشبه هيكل الحظيرة مستوف بالقماش. شعر مدير حملة الولاية ريتشارد أو جليسي أن لنكولن بحاجة إلى شعار مميز، فتوصل إليه بعد

التشاور مع ابن عم لنكولن - جون هانكس الذي كان ساعده في بناء السور لبيته بعدما انتقل إلى إيلينوي منذ ثلاثين عاماً خلت. في اليوم الأول للمؤتمر، سار هانكس وأوجليسي عبر الممشى في الفناء وهما يحملان قضيبين من ذلك السور مزنيين بالشرائط وتدلى بينهما لافتة مكتوب عليها:

أبراهام لنكولن

مرشح قضبان السكك الحديدية

للمرئاسة لعام ١٨٦٠

(هذان قضبان من خطوط السكك الحديدية التي وصل عددها إلى ٣٠٠٠ قضيباً صُنعت عام ١٨٣٠ بيد توماس هانكس وأبراهام لنكولن، وكان والده أول الرواد في ماكون كاوتس.)

انفجرت الجماهير وهي تصفق يحنون، تقذف بكل شيء في الهواء في ثورة أطاحت بقماش السقف من أعمدته، حيث وصفها أحد الملاحظين بقوله: "لقد طار السقف - حرفياً - من المبنى حماساً". "تم استدعاء لنكولن للحضور إلى المقدمة وأقر بأنه "فعلاً كان ينشر عوارض السكك الحديدية، ويزرع قطعة أرض صغيرة" على نهر سانجامون بالقرب من ديكاتور ولم يكن يعلم إذا ما كانت تلك القضبان الخشبية هي التي صنعها أم لا، لكنه صنع العديد منها وأفضل منذ ذلك الحين.

بتلك الكنية- "نجار مشق"- نافس كُنَيَات شعبية مثل "شجرة
الجوز العتيقة" للرئيس جاكسون و"الزورق القلاب" للرئيس
هاريسون في اجتذاب الشعبية. كان ذلك ما حدد صورة لنكون
الجمهورية، ومعها صعوده من مقلب قامة البيض الفقراء إلى مرشح
للرئاسة، واعتناقه لمبادئ العمل الحر الذي يدعو كل إنسان
"لتحسين أحواله" وفقاً لقوله. كان يمثل الصورة المكتملة- كذلك-
لمكافحة عدو يعتمد على قوة عمل العبيد من أجل بقائه.

أخذ شعور الشماليين من كل الطبقات بخطورة تنظيم "سلطة
ملاك العبيد" يزداد. كانت السلع في طريقها لهبوط أسعارها، لكن
سوق العبيد كانت تزدهر إذ تضاعفت أسعار العبيد في أقل من
عقد واحد بينما بقيت أسعار الأراضي الخالية أو بضائع وول
ستريت كما هي أو انخفضت مما حدا بالشماليين إلى إلقاء اللوم على
نظام العبودية في أنه سبب هذه الظروف السيئة. وازداد الطلب
على شراء العبيد حتى إن العديد من رجال الشمال بمن فيهم
صديق لنكون القديم أليكساندر ستيفن سعوا لإعادة سوق التجارة
مع أفريقيا التي تم حظرها عام ١٨٠٨، فقام ملاك العبيد على
الشاطئ الشرقي لماري لاند بتقديم تشريع لاستبعاد أو قبي كل
السود الأحرار من الولاية.

أراد كثيرون من أهل الجنوب ضم كوبا كولاية للعبيد، وكان بعضهم أكثر جشعاً فطعم حتى في كل أمريكا الوسطى. وتحت قيادة النائب جيفرسون دافيز، كان مجلس الشيوخ بصدد إصدار تشريع يمنع الكونجرس من إقصاء العبودية عن أية ولاية، لأن المزارع الكبير جورج فيتزروف أراد نشر "منافع" الرق إلى الشماليين البيض، وفقاً لما قاله. ومع بدايات واقعة هاربس فيري، جلب معظم أعضاء الكونجرس الجنوبيين أسلحة مخفاة معهم أثناء العمل، كانت عادة مسدساً أو سكيناً فقط "تستخدم عندما تخرج المنافسة عن السيطرة." وبدأت صورة عامل شقّ القضبان الصبور والجاد والحاسم - رغم أفعه الأبوي وإن كان رحيماً - الصورة المناسبة أمام الشعب لاختياره رئيساً حتى بالنسبة للجنوب الشارد.

وفي ١٨ مايو، يوم اختيار الجمهوريين لمرشحهم للرئاسة، استيقظ لنكون مبكراً وسار على قدميه مسافة قصيرة ليصل لمكتبه القانوني (المكدس)، وكان المؤتمر ينعقد في شيكاغو في فناء ضخم. لكن التقاليد كانت تمنع المرشحين من الحضور وكان عليهم البقاء بالبيت، فبقى عصبياً لدرجة منعه من مواصلة العمل. لذا، توجه إلى مكتب جريدة "إيلينوي ستيت"، المشهورة بأخبار الشائعات، وهناك كان بعض الأصدقاء يلعبون لعبة من ألعاب كرة اليد في فناء خالٍ بجوار الجريدة فلعب معهم؛ وعندما بدأ التصويت ذهب إلى مكتب

البرق والتلفراف. وفي أول اقتراع حصل على ١٢٠ صوتاً وجاء في المرتبة الثانية بعد سيوارد، وفي الاقتراع الثاني تضاعفت أصواته - تقريباً - وفي الثالث تجاوز الأصوات المطلوبة كأغلبية وهي ٢٣٣ صوتاً، وبدأ الناس يهتفون، وصافح القليل منهم ثم استدار عائداً للبيت قائلاً: "أيها السادة، هناك امرأة صغيرة بالمنزل يحتمل أن تكون أكثر اهتماماً بذلك الخبر؛ أكثر - حتى - مني."

في اليوم التالي انخرط هو وماري في نقاش حول الخمر. فماري تصر على تقديمها للزوار لأن عدم تقديمها يعد "قلة ذوق" بينما تجاهل لنكون مطالبها محتملاً جداله قائلاً: "لأنها حافظت على المنزل ستة عشر عاماً ولم تمسك بيدها "كأساً من الخمر" أبداً ليشربه أصدقائي، كان قراري ألا أغير عاداتي بسبب مركزي الجديد بهذا الخصوص." على أنه حال، اتضح أن ذلك الجدل لم يكن ضرورياً لأن منزلهما كان صغيراً لدرجة أنه لم يسع كل زوارهما. لذا هيئاً مكتباً لذلك الغرض في مبنى الكابيتول.

كتب إليه صديقه القديم جوشوا سبيد ليهته، كان قد مر على فراقهما سنوات طوال بسبب انتقال سبيد إلى كيناوكي، وبسبب كراهيته للحزب الجمهوري وكذلك حقيقة أن ماري لم تحبه قط. في الواقع قد حدثت أشياء بدت أنها شعرت أن وجوده يهدد استقرار الأسرة بسبب وجوده أحياناً. من هنا نادراً ما كان لنكون وسبيد

يرى كل منهما الآخر، وقليلاً ما كانا يتراسلان. شكلت ملاحظة سييد تذكرة مؤثرة بأن الصداقة والحميمية يمحكما التسامي على الاختلافات السياسية. حيث كتب له: "اسمح لصديق مخلص، ورغم كونك- كما تعرف- خصماً سياسياً، أن يهتك ويحب أن يتم انتخابك، وأظن أن لديك فرصة عادلة لذلك، وعلفني الارتياح أنك ستقود الحكومة وتصنع شهرة خالدة لنفسك."

كان أغلب مختلفاً ولو كان عقد حملته في ولايات القطن، فربما كانوا قد اعتقلوه أو أعدموه بدون محاكمة. وقد ألحت صحف الجنوب لهذا ولاكثر منه إذ نشرت شائعات تدعى أن زميله من الانتخابات هانيال هاملين من "مين" هو خلاسي مهجن بسبب سمرة بشرته، وأقسموا على الانفصال فوراً إذا ما تم انتخابه.

انزعج لنكون من تلك التهديدات، إلا أنه كان- حقيقة- يتوقع الفوز في الانتخابات لأنه كان سباقاً يسير في أربعة طرق فمع اختيار ديمقراطي الجنوب لجون بريكريدج وديمقراطي الشمال للقاضي دوجلاس، واختيار حزب الاتحاد الدستوري لجون بيل من تينيسي الذي كان قوياً في ولايات الحدود. لذا، كتب لنكون إلى هاملين يقول: "تبدو آفاق نجاح الحزب الجمهوري الآن متأرجحة جداً بقدر ما أرى."

ويوم الانتخاب ذهب إلى مكتبه في مجلس الولاية لمابعة التقارير عن الانتخابات كان في الصباح قد ثرثر قليلاً مع "ثلاثة أو أربعة أصدقاء يهدوء وود كما لو كان في نزهة، " وفقاً لما قاله أحد المتابعين. وبدأ لبعض المؤيدين أنه كان أكثر اهتماماً بالانتخابات المحلية عن انتخابات الرئاسة. لكن لتخفيف حدة قلقه كان يسأل عن بعض زملاء المحاماة داخل المقاطعة، وقد تبعه عدد كبير من الجمهور إلى قاعة المحكمة للإدلاء بأصواتهم، وهم يحبونه بحماس وتبعوه كذلك حتى مجلس الولاية عندما بدأت أخبار التصويت تصل. وكان قد نقل مكتبه إلى الحجرة التشريعية بالمجلس التي عمل بها طوال عشرين عاماً ماضية، وبعد دقائق قليلة من منتصف الليل وصلت برقية تفيد أن النصر كان أكيداً. هنا، رنت أجراس الكنائس وهرع الناس إلى الشوارع وهم يغنون "ابراهيم العجوز . . ابراهيم العجوز!" وقد صرح لتكون بأنه كان سعيداً جداً، وبعدما طوي البرقية أسرع إلى منزله صائحاً وهو يقرب: "ماري . . . ماري . . . لقد تم انتخابنا ."

صرح أحد أعضاء الحزب الجمهوري بإبيلينوي الانتخابات كشفت الدرجة التي نعش بها في أوقات ثورية. لقد فاز لتكون بكل أصوات الولايات الحرة عدا واحدة هي "نيوجيرسي"، لكنه حصل على أقل من أربعين بالمائة من التصويت العام على أصوات تزيد

بمقدار ٥٠٠٠,٠٠٠ صوت عما حصل عليه القاضي دوغلاس^{٢٠} بينما لم يحصل "حتى على صوت واحد في عشر ولايات في الجنوب. كان ملاك العبيد يتحكمون في السياسة الوطنية لأكثر من جيلين كاملين، والآن انتهت سلسلة انتصاراتهم ، وذهب "سحر القوة التي لا تقهر." وسيصبح لنكولن أول رئيس مناهض للرق منذ جون كوينسي آدامز، فالثورة الكبرى قد هبت، وكب تشارلز ابن جون آدامز في يومياته عندما علم بانتصار لنكولن: "لقد خلعت البلاد هذه المرة وللأبد سيطرة ملاك العبيد عن عنقها." وياقتباس كلمات فردريك دوغلاس: "إن البركان الخامد قد بدأ ثورته."

كانت قصص خرافات يعسوب مرشداً لأغنى عنه في مثل تلك الأوقات، لأنه وقد تم بيعه كمبد - وذلك في العصور اليونانية القديمة - باعتباره أسير حرب، كان يفهم طبيعة كل من العبودية والحرب، ويدرك نفسية المجتمع العبودي. وتكشف قصصه الخرافية مجتمعاً يمتلئ بالحق والوحشية، حكامه من الطفافة، ويعتمد العيش فيه على المكر والاعتماد على النفس. ورزّ صدى قصصه حول الحيوانات في عالم يتحدر فيه البشر إلى مستوى الوحوش، ويعدّ قانون الغاب هو

²⁰ لو كانت النساء السوداوات قد استطعن التصويت لفاز لنكولن بصورة ساحقة -

وسيلة للحياة. ولا عجب إذن في أن يهوى قراءتها لنكون
ودوجلاس وعدد لا يحصى من الأمريكيين.

قرأ دوجلاس ولنكون خرافات يعسوب وهما صغيرين واحتفظا
بكثير منها في الذاكرة. وفي أعوام الثورة بدءاً من عام ١٨٥٠
خاصة. ساعدهما يعسوب في تحديد الجوانب المحورية للمجتمع
الأمريكي. فكلاهما استمد العبرة من خرافة الأسد والثيران،
حيث يثير الأسد الشقاق بين الثيران بالخداع ليسهل عليه أن يأكلهم
واحدًا واحدًا، ويتراءى المبدأ الأخلاقي هنا واضحاً: "أن مملكة
منقسمة على نفسها لا يمكن لها البقاء." كما اقتبس دوجلاس من
خرافة أخرى ليصف الديمقراطيين وكذلك بعض الجمهوريين كذئاب
في ثياب الحملان، وربما كانت أفضل قصصه هي قصة النحل الذي
يطرد سيده.

وبصياغة جديدة ليعسوب، جذب كلاهما الانتباه إلى كونهما من
العصامين الذين صنعا أنفسهما بنفسيهما، فحيث أن خرافات
يعسوب هي قصص للأطفال أصلاً، فالإقتراب منها يشابه مع قيام
رجل الدولة - الآن - بالإشارة إلى مرحلة قصة "باجزياني"، فإن
ذلك يشير إلى الحصول على تعليم رسمي سيء أو عدم الحصول عليه
مطلقاً. لكي تفلت من هذا عليك أن تكون خطيباً ماهراً ومفوهاً.

وقد استخدم كل منهما أساطير يسوب كصوص ساخرة مع سنوات الخمسينيات. وفي العقد السادس من القرن التاسع عشر هجر دوغلاس استخدام تلك الأساليب الرائعة الساخرة تقريباً، التي كانت تستدر انتجارات من الضحك، لأنه شعر أنها لم تعد ملائمة لموضوعاته فقال: "من أصعب الأمور التي كان على تعلمها أن أتوقف عن سرد تلك القصص الكثيرة المضحكة. لقد كنت أستطيع أن اجعل جماهيري تنفجر ضحكاً، وهم أحبوا ذلك... لكنني اقتنعت أن ذلك ينطوي على خطر التحول إلى مهرج، ويجب أن أحترم من ذلك". "وحينذاك، كان يقوم بكتابة خطبه ويقدم نفسه على أنه متقف ومفكر، دون أثر واضح للكنهه العامية السابقة، وظل في إمكان الاقتباس من يسوب أو مثل من الكتاب المقدس لإثارة الضحك، وإن كان بصورة أرقى وبدلاً من تقليد ملاك العبيد ذهب للسخرية من "سلطة ملاك العبيد".

واحفظ لنكون عادة بقصصه، الساخرة والكوميديّة سواء من يسوب أو من إبداع خياله لإلقائها أمام الجمهور صغيرة العدد. كان خطاب "البيت المنقسم" الذي ألقاه يسخر من القاضي ستيفن دوغلاس وفرانكلين بيرس وروجر تاووني وجيمس بوكاتان الذي صاغ إطار عصبية "سلطة ملاك العبيد"، وظلت افتتاحية الخطاب الشهيرة "بيت منقسم على ذاته لا يمكنه البقاء أبداً..." تدوين في

وجودها لقصص يعسوب والإنجيل مرقص (إصحاح ٢: آية ٢٥) . لكن هذه السطور الوحيدة المعنى لم يكن مقصوداً منها استتارة الضحك ولا حتى مجرد الابتسام . كانت قصصه لأصدقائه ومؤيديه تترج بشكل وإيقاع مزاجه الانفعالي .

لم يفقد لنكولن لهجته أبداً ، ففي عام ١٨٦٢ سجل المحامي جورج تيلتون سترونج من نيويورك صوت لنكولن وهو يتحدث بلهجته العامية في يومياته بعد مقابلة أجراها معه ، وكان لنكولن يستجيب لضغوط دعاة التحرير الذين دعوا إلى تشريع يعق العبيد ، فأجاب لنكولن : "كيس . دا يفكرني بجماعة من الأشخاص التابعين للكنيسة الميثودية ، ومسافرين في إيلينوي لما كنت صغيراً هناك ، وكان لازم يعبروا قناة ، كان العبور سيئاً قبيحاً وانت تعلم ، لأن المياه كانت عالية ، وقعدوا يتناقشوا ويدرسوا أراي ها بعدوا ، وتكلموا عن الموضوع ده حوالي ساعتين . واحد منهم فكر إنهم يعبروا بطريقة معينة لما يوصلوا ، وواحد ثاني فكر بطريقة ثانية ، وبدأوا يتشاجروا حوالي الموضوع لحد ما تدخل أخ كبير السن وقال : "أخواتي ، الكلام ده هنا بدون فائدة ، فانا عمري ما هاعبر نهر إلا لما أوصل عنده . " كان سترونج يحترم لنكولن كثيراً وأسماء "البربري ، والمحسن ، والمتوحش ، وغريب الأطوار أو الفوريلا ، فيما يخص مظهره الخارجي ، لكنه أكثر احساساً واستقامة بل هو غريب في

أما ته. ويعوض تكامله الواضح وبساطة أهدافه عن أخطائه اللغوية
وأكثر. تشبه تلك القصة يسوب في التناقض بين القول والفعل ، وفي
"أنه خضع للاختبار."

كان أسلوب لنكون الشعبي جزءاً مما استثار معزة دوجلاس له
عندما تقابلا. وقد اعتاد ذلك النوع من قواعد اللغة ومزاح المرح،
وكان صوت لنكون - خاصة عند سرد إحدى قصصه - يوحى له
بأن مع كل تلك الاختلافات بينهم إلا أن خلفيتهم الثقافية بها الكثير
من العوامل المشتركة.

الفصل الرابع

مقاتلٌ من دعاة الغاء الرق ورئيسٌ للحرب

"في يوم الكفارة..."

تعبون صوت البوق

في جميع أراضكم."

(سفر اللاويين: إصحاح ٢٥: آية ٩)

في أواخر مارس من عام ١٨٦١، ومع انقصال سبع ولايات في أقصى الجنوب فعلاً واحتقال المتآمرين بولايات الكونفيدرالية الجديدة لأمريكا بجفلات فخمة، وخمور سيئة، وطلقات انتصار يصوبونها نحو السماء؛ فقد فردريك دوجلاس الأمل نهائياً في أن تحقق الأمة مثلها الجيدة أبداً. أخذ دوجلاس يخطط لرحلة إلى جمهورية السود في هايتي، وفقاً لما قاله لقراء جريدته، وعينه تروى للهجرة إليها وتشجيع الأمريكيين السود على ذلك أيضاً. وقرر أن يغادر ميناء نيويورك في ولاية كونيكتيكت يوم ٢٥ أبريل ويصل ميناء بورت أو برنس وهي عاصمة هايتي يوم ١ مايو. ولو أوفت هايتي بآماله بأن تكون هي المدينة الجديدة التي "تبع على قمة التل" ولو عكست على صفحاتها "أضواء الوعد العظيم" كانت حكومتها "حرة مستقلة" في فعلها وقولها، عندئذ سينتقل إليها ويدعوها بكل فخر "موطنه". على الأقل سيزور المكان الذي شهد أضخم وأنجح تمرد للعبيد في العالم، حيث انتفض نصف مليون عبد عام ١٧٩١ ضد سادتهم وقاتلوا جيش نابليون، وفي عام ١٨٠٤ أعلنوا قيام جمهوريتهم حرة من العبودية للأبد. وعلى الأقل سيصبح جمال هايتي الإداري فترة راحة محببة من رياح روشيستر المؤلة. واستراح لفكرة السفر، وشعر كما لو كان جمل الأمة كلها قد انزاح عن كاهله، لأنه ظل

عشرين عاماً بخطب ويكتب المقالات مقاتلاً العبودية والعنصرية بكل ما أوتي من قوة، وشجع السود على الاقتداء به والنهوض والعمل المستمر. وقدم نفسه للعالم كرمز للأمل وأسوة يقتدي بها. الآن، بدت كل جهوده فجأة بلا جدوى، فأعلن بقلب حزين: "إن العبودية قد أفست عقل الحكومة، وضاعت الفضيلة من بين أيديها تماماً." ٤ وإن أصدقاء الحرية قد فقدوا وسائل الدفاع عن أنفسهم "وإن التاريخ يبين أن الشمال لم يكن أبداً قادراً على الصمود في مواجهة سلطة وأهداف الجنوب." ٥ إن الجنوب مالك العبيد يمثل الشيطان بعينه، وثرواته شديدة الإغراء، وتهديداته مخيفة ومرعبة، وتقوده مفسدة كبرى، والشيطان قد هزم الخير، وأن الله يأمر دوغلاس بأن يغادر تلك الأرض ليبدأ من جديد.

كان هذا تحولاً مذهلاً. إذ ظل دوغلاس - لسنوات طوال - يسخر من ملاك العبيد وهم يحولون أرض الشمال إلى حقول صيد من أجل متعة الجنوب. بل إنه أصبح أكثر آملاً عندما فتحوا أراضي الشمال أمام العبيد، واتعش رجاءه بعدما دنست الحكمة الإنسانية العليا للأمة قدسية الدستور. كان قد أنهى سيرته الذاتية الثانية أيضاً التي نشرت في أعقاب صدور قانون كانساس - نبراسكا بعهد يوثق عقيدته بقوله: "إن إيمان روحي بأن قضية معادات العبودية قديم كالللال الراسخة، وثابت كعرش الله". كان ذلك الكتاب من بين

أفضل الكتب مبيعاً وأكثر شهرة من كتابه الأول الذي صدر عام ١٨٤٥. وكان نجاحه - كما افترض هو - علامة ليس فقط على ارتفاع منزلته المتواصلة، واستمرار الاهتمام الشعبي بقدرته على إعادة بناء نفسه، وإنما هو أيضاً علامة على تصاعد عدم تسامح الأمة تجاه العبودية.

وبينما كان الآلاف من رفاقه السود يهجرون شواطئ أمريكا بحثاً عن أوطان أفضل، كان هو يقاوم ذلك الدافع. في الواقع، أنه كان قد تلقى منذ شهر فقط رسالة من أحد المشتركين بالجريدة يسأله ما إذا كان خطر له يوماً أن يهاجر إلى هايتي، فكانت إجابته حاسمة: "لا، أنا لا أفكر في الهجرة إلى هايتي في ظل أية ظروف قائمة أو محتملة أبداً." ما الذي أدى به لتغيير رأيه؟ وما الذي أغراه ليهجر إيمانه بأمريكا فجأة؟ الإجابة هي ذلك الرئيس الجديد أبراهام لنكولن.

لم يشعر دوغلاس بإحباط شديد كالذي شعر به عندما قرأ خطاب لنكولن الافتتاحي، حيث بث شكواه حول الخطاب بقوله: "إنه لا يحتل كثير من أسوأ مخاوفنا، فبدلاً من إلقاء اللوم على الجنوب بجسم، قام لنكولن بالتودد إليهم." ٨ وأقسم أن يبقى على قانون العبد الهارب، وأن يقمع انتفاضات العبيد، وألا يتدخل أبداً في شؤون

العبودية بولايات العبيد، ولنكون هنا يؤكد لملك العبيد أنه "كلب رافع لصيد العبيد"

والأسوء أن الخطاب تحدث بلسانين . فقد تم انتخاب لنكون على أساس حظر العبودية "حيثما كانت، وحيث سيطمن قلب الرأي العام للإيمان بالقضاء على العبودية مطلقاً" وذلك وفقاً لما نقله عنه دوجلاس، وأضاف أن لنكون أكد وعده باحتواء العبودية لكه مع النفس التالي مباشرة باع ذلك الهدف الأسمى بالقضاء عليها نهائياً .

كان الكونجرس قد مرر اقتراحاً يتضمن التعديل الثالث عشر المقترح للدستور بأمل استعادة خونة الجنوب للاتحاد من جديد . ورغم عدم التصديق عليه، إلا أن التعديل الثالث عشر الأول كان "حقيقة" مضادة تماماً للتعديل "الفعلي" الذي ألغى العبودية عام ١٨٦٥ . لقد كان ذلك تعديلاً غير قابل للتعديل يضمن العبودية في ولايات العبيد للأبد^{٢١}، وقد أشار لنكون له في خطابه الافتتاحي بقوله: "إنني أتفهم تقديم اقتراح بتعديل للدستور، يمرره الكونجرس يؤكد أن الحكومة لن تتدخل في شئون العبودية بولايات العبيد . " وأنا لا أعترض على جعله واضحاً وغير قابل للإلغاء ."

²¹ لم يتم أي تعديل للدستور يرخص للكونجرس أو يعطيه السلطة في أن يلغي أو يتدخل في أي ولاية وفي المؤسسات المحلية الخاصة بها، بما في ذلك الأشخاص المحفوظ بهم للعمل أو للخدمة بحكم قوانين الولاية المذكورة . - المترجم

بعد تصريح لنكونن بأنه ليس لديه اعتراض على التعديل عدم
أمانة فكرية وأخلاقية، لأنه يتعارض مع إيمانه "بالقضاء النهائي على
العبودية" فهو وافق في الجملة الواحدة على استباحة
الدستور. وبنفس الجملة فقد دوجلاس إيمانه بلنكونن وبالأمة.

كان ما استتجه دوجلاس هو أن جزءاً من مشكلة لنكونن
يكن في عدم فهمه القانون بدقة، فهو قد آمن بمبدأ "القصد الأصلي"
لصانع القانون مثلما كان دوجلاس قبل أن يتحول الإيمان بتفسير
الدستور. "إن مقصد واضع القانون هو القانون ذاته." هذا ما
أعلنه لنكونن في خطابه الافتتاحي الذي أدى به للدفاع عن قانون
العبد الهارب وإلى تأييد التعديل الذي يضمن بقاء العبودية بولايات
العبيد للأبد. وقد ردّ دوجلاس على ذلك بقوله: "هذا ليس
صحيحاً بالضرورة . . . (فذلك) يعتمد على ما إذا كان القصد
نفسه قانونياً أم لا." ففي نهاية المطاف فإن القانون الذي يصرح بالقتل
ليس قانوناً على الإطلاق لأن "نفس فكرة القانون نفسها تحمل داخلها
فكرة الحق والعدل والإنسانية." وقال دوجلاس للنكونن: "أعد
قراءة كتابات بلاك ستون، فإنه يذكرنا أن القانون "ينهاها عما هو
خطأ." كان لنكونن يعرف ذلك أيضاً لأنه كان قد رفض - والسعادة
تغمره - حكماً غير عادل للمحكمة العليا في قضية دريد سكوت

وشرح بأن الانفصال يعد خيانة وهو "جوهر الفوضى" حتى لو اعتبرته المحكمة العليا "دستورياً وحقاً".

وبينما كان لنكون متعاطفاً مع السود نسيباً، كان دوجلاس متعصباً عنصرياً قاسياً ونموذجياً، فكلمة "زنجي" تهدر من لسانه كالشلال (وليس هناك سجلات يذكر فيها أن لنكون نطقها مطلقاً) وأحب كذلك أن يستوق الأحكام المسبقة لدى الأمريكيين إعتسافاً. وكان من أساليبه المفضلة في إهانة خصومه أن يدعو الخصم بلقب "صديق فريد" دوجلاس، وكان هاجسه إزاء فردريك دوجلاس شخصياً على ما يبدو رغم أنهما لم يلتقيا، لقد تشاركا نفس القلب حتى عام ١٨٤٦، عندما قام ستيفن بجذف حرف السين الثانية من نهاية اسمه، ربما كرد فعل لشهرة فردريك دوجلاس (بتشديد السين) الفجائية عقب نجاح كتابه " قصة حياة فردريك دوجلاس". فدوجلاس الأبيض أراد أن يتأكد أن أحداً لن يخطئ في اسمه على أنه دوجلاس الأسود. كان في الحقيقة يكره تماماً رؤية السود. في حين كان لنكون - على العكس - يشعر بالارتياح بقربهم. رغم اختلافاته السياسية معهم، بل أنه وصف نفسه على أنه "الزميل الطويل الأسود" لأحد قدامى المعارف.

وحتى على مستوى العلاقة الشخصية كانا خصمين عنيدين، وكان أحد أصدقاء س. دوجلاس المقربين خاصة عند زفافه، هو

جيمس شيلدرز، وخصم لنكولن وصاحب واقعة المبارزة بالسيف. ومثل شيلدرز ظن س. دوجلاس نفسه "زير نساء"، وأخذ يتودد - حتى لماري تود قبل أن تعرف على لنكولن. كان أهالي سبرنجفيلد يرون ستيفن دوجلاس وماري تود يتنزهان حول المدينة أو يتحدثان أثناء حفلة ما، ولأنهما كانا يتشابهان في المزاج والحجم كان واضحاً ميلهما لبعضهما، لكن تقرب س. دوجلاس لم تطور لتصل إلى عرض الزواج، لأن ماري كانت كثيرة الإعجاب بالحزب المحافظ فلم تسمح لنفسها أن ترتبط بعضو ديمقراطي مهما كان ناجحاً.

كان س. دوجلاس المنافس غير المعروف للنكولن طوال سنتين عدة، وكانا قد تقابلا عام ١٨٣٤ عندما كانا في العشرين من عمرهما. وفي عام ١٨٤٠ خلال حملة انتخابات الرئاسة سمع لنكولن وحاول أن يرد على كثير من خطب س. دوجلاس، داخضاً "الأعيبه وتورياته" بالحقائق والمنطق. إلا أن لنكولن لم يعتبره خصماً رئيسياً له صراحة أو يضع نفسه مقابله حتى عام ١٨٥٤ وعندما أصبحت تشريعات كانساس - نبراسكا قانوناً معتمداً. وبعدئذ مر لنكولن بفترة صحو كما لو كان غضبه من انتشار الرق وفشله المتكرر كسياسي قد مجسدا في ستيفن دوجلاس، وزادت صورة شخصيته وضوحاً من خلال وضوح صورة خصمه. فجأة أصبحت

قضية الرق هي أعظم قضايا حياته وأضحت أهدافه السياسية أكثر تركيزاً. وهي تحدي من دوجلاس وهزيمته كما يضع العبودية على طريق الإلغاء النهائي. وتحقيق ذلك كان يحتاج إلى قفزة كبرى للأمام في مسيرته السياسية دون التضحية بمبادئه.

وأصبح من دوجلاس يمثل للنكون ما كان يمثل أندرو جاكسون لهنري كلاي وجون كاهون لجون كوينسي آدامز، وملاك العبيد لفردريد دوجلاس، أي خصومة واسعة لأقصى حد يجذب فيها الإنسان خصمه في مداره ويدوران حول مركز مشترك من العداوة، يمنحهما قوة وحيوية.

وبدا لنكون يعتبر نفسه خصماً لستيفن دوجلاس فور إصدار قانون كانساس - نبراسكا فكتب: "كما كلاً طموحين كشباب، ربما كنت أمثله تماماً وكان سباق الطموح فشلاً بالنسبة لي، أما بالنسبة له فكان نجاحاً مدوياً، فعلاً اسمه الأسماع، أصبح معروفاً حتى في الدول الأجنبية، ولم أكن لأحتقر أية نجاحات وصل إليها، تلك النجاحات التي وددت تقاسمها مع المظلومين من جنسي، فذلك أفضل كثيراً من كل كوز الأرض. واعتمد النجاح السياسي للنكون على إيقافه لانتشار العبودية فرما تحتفي يوماً ما إختفاء طبيعياً، بينما كان النجاح بالنسبة لستيفن دوجلاس يخدمه هو فقط ومن هنا فطموحه كان للتمتع بالفخامة ومبادئ لا تتبع من حزبه الديمقراطي.

وأدرك لنكون أن عليه هزيمة من . دو جلاس للارتقاء بالمضطهدين
ولتحقيق طموحاته كذلك، وأوصله تحديد موقفه مقابل خصمه بهذا
الأسلوب إلى البيت الأبيض عاجلاً.

وباعتماد القانون الذي قدمه ستيفن دو جلاس وهو قانون
كانساس - نبراسكا غير تقدم البلاد ومصيرها، أو هكذا اعتقد
لنكون، وذلك كان السبب الذي من أجله يجب أن يقهر خصمه .
وأصبح العام ١٨٥٤ ليكون نقطة ارتكاز تاريخية بالنسبة إلى
لنكون . فقبل ذلك التاريخ كان يعتقد ومعه معظم الشماليين "أن الرق
في سبيله للانهاء من حياة الأمة" فمنذ تأسيس الأمة إلى إن تم
اعتماد قانون كانساس - نبراسكا - كان "العقل العام" يرى أن الأمة
تتقدم بشكل أخلاقي . وكان رسمها البياني يتصاعد ببطء، ونتيجة
لهذا بقي لنكون هادئاً نسبياً بشأن قضية العبيد لأنه آمن أن تلك
المشكلة لو تم احتواؤها بهدوء سوف تموت موتاً طبيعياً وتقر
الجماهير بفضائل العمل الحر مقابل شرور عمل العبيد وافترض أن
عدد ملاك العبيد سيقبل بمرور الزمن . إن الحد من عرض الأراضي
سوف يستهلك تربة الأراضي الجنوبية ويوقف قدرة ملاك العبيد على
استثمار المزيد من أملاكهم . وفي النهاية يقل الدافع إلى امتلاك العبيد،
مما يؤدي بهم إلى إدراك تلك الشرور وانهاها .

وسُئِلَ كم ستستغرق العبودية من وقت كيما تنتهي بذلك الأسلوب العضوي؟ فقال لنكولن في عام ١٨٥٨، " لا أظن أنه من خلال أكثر الوسائل سلماً أن يحدث ذلك قبل مائة عام على الأقل" (العقد السادس من القرن العشرين). وآمن أن نهاية آمنة للعبودية في وقت يحدده الله " هي الحل الأمثل " لكلا العرقين ". وكان فردريك دوغلاس وبقية دعاة التحرير يؤمنون بأن الله أراد أن تكون نهاية العبودية في الحال، لكن إله لنكولن لديه صبر أكثر وغموض أعمق. وحرف س. دوغلاس تلك الرؤية المتعلقة بالتقدم عن مسارها، فوقع ميثاقاً شيطانياً مع الجنوبيين، وألغى قانون كانساس- نبراسكا الذي قدمه توافق ميسوري الذي حظر امتداد العبودية شمال خط ٣٦,30 في أراضي لويزيانا. وفجأة لم يعد مصير الأمة يسير في مسار صاعداً في طريق التقدم الأخلاقي. ولقد بلغ ذروته وهو حالياً يتراجع. كانت الولايات المتحدة تتحدر. وشعر لنكولن فجأة أن الطريق الوحيد الذي يمكنه به رواية القصة هو الذي يصور صعودها وانحدارها، آملاً أن يحشد ذلك الجماهير لإعادة الأمة إلى مجدها السابق.

وقد أثنى الكثيرون مع لنكولن على الإيمان بأن قانون كانساس - نبراسكا الذي صاغه سينف دوغلاس كان علامة على عصر جديد من الانحدار، فاندفع الحزب الجمهوري في يقظته القوية يوحد

جماعاته المتشرذمة من الشماليين في ظل هدف واضح وهو منع انتشار العبودية، ووافقوا لنكولن عندما قال هناك " فارق شاسع " بين التسامح مع وجود العبودية وبين محاولات نشرها عبر أراضٍ هي بالفعل حرة ولم تلوث بعد هذه المؤسسة .

وصاحوا مؤيدين " ما نقوله صحيح " عندما قال " فلنكن صرحاء ، أن روح ٦٧ وروح قانون كانساس - نبراسكا الذي صاغه القاضي س . دو جلاس متناقضان تماماً والروح الأولى تم استبدالها بالروح الأخيرة " وقد صفقوا له كثيراً عندما تحدث عن كراهيته الشديدة للعبودية ومدى شرورها .

ولم تكن المسألة بالضرورة هي تعاطف الشماليين مع السود ، خاصة في إيلينوي . وإنما أن كراهيتهم للعبودية كانت انعكاساً لخوفهم على رفاهيتهم . وقد هدد الجنوبيين الأقوياء بتحويل أراضي الشماليين إلى ولايات للعبيد ، وبتزايد فروق قيمة الأرض وويخلون منافسة غير عادلة مع ملاك العبيد ، ويدمرون فرصتهم في التقدم وكان معظم الشماليين مثلهم مثل الجنوبيين يعتقدون أن الحصول على الأراضي الجديدة شرط مسبق للنمو الاقتصادي والعصامية . ولكهم أرادوا أيضاً أرضاً لم تلوثها العبودية التي تمنع العمال الأحرار من أن يصبحوا " صالحين بكفاءة للحياة " كما لاحظ لنكولن بقوله ،

"أنه ربما تكون أجيراً اليوم، لكن بالحصول على الأراضي الخالية
سيمكنك الاستمتاع بشرة عملك على الفور."

وعقب صدور قانون كانساس - نبراسكا (الذي أصبح قانوناً في
مايو ١٨٥٤، جذبت خطاب لنكون " انتباه الناس بصورة أكثر تميزاً
عما فعلته من قبل". وواصل هجومه، سعيداً بشعبيته الجديدة،
مسدداً ضرباته للقاضي دوجلاس كالملاك الذي يسدد ضرباته نحو
خصمه بسرعة ويتراجع، ويرهقه ببطء حتى الانهيار. وفي خريف
عام ١٨٥٤ رشح نفسه للمجلس التشريعي للولاية ونجح بسهولة، وفي
الحال تطلع إلى ما هو أعلى، إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة
نفسها. لم يكن شاغل هذا المكان سوى خصمه القديم صاحب
السيف العريض جيمس شيلدرز، مساعد من دوجلاس الأمين الذي
عاونه على تقديم قانون كانساس - نبراسكا. وأصبحت هزيمة
شيلدرز ضرورة ليتساوى لنكون مع القاضي دوجلاس، حيث
يستطيع محاربته من أجل مصير الوطن. وكعضو في المجلس التشريعي
كان يتمتع عليه الترشح لمجلس الشيوخ، فاستقال من مقعده، الذي
كان فاز به حديثاً كيما يواصل كاحه ضد شيلدرز و
س. دوجلاس.

كان توقيت لنكون سليماً تماماً، لأن الشماليين كانوا غاضبين من
س. دوجلاس لقيامه بفتح أراضيهم أمام العبودية، وعندما عاد

القاضي إلى إيلينوي في خريف ١٨٥٤ ليقود حملة ترشيح شيلدرز وباقي الزعماء الديمقراطيين، أدرك على الفور مدى الكراهية الموجودة في نفوس مواطنيهم حيث قال: "كنت أستطيع السفر من بوسطن إلى شيكاغو في لمح البصر اعتماداً على شهرتي". وفي بداية حملته الجديدة في شيكاغو، وأثناء إلقاء خطابه قابله الجمهور بالصياح والصغير وصرخات الاحتجاج بمجرد صعوده منصة الخطابة، ورماء بعض المشاهدين بالبيض الفاسد والحجارة، وفي كل مرة كان يحاول فيها فتح فمه ليكلم "تعود الثورة ضده من جديد"، فقد صبره وأخذ يلوح بقبضته في وجه الجماهير "فزادت الجلبة صخباً". وحاول عندئذ إسكات الضوضاء كأب بلغت به الثورة على ابنه الصغير حد الانفجار، لكن الجماهير واصلت الصياح. وتحمل الإهانات طوال ساعتين منتظراً أن يفقد الناس طاقاتهم أو يدركهم التعب كيما يشرح لهم مزايا قانون كانساس - نبراسكا، لكن الجماهير لم تهدأ أبداً. لذا هبط من المنصة - أخيراً - ليلجأ إلى فندق ترعمونت هاوس الفخم حيث يمكن للمرء أن يتخيل كيف كان يريح نفسه من العناء بتناول زجاجة أو اثنتين من الخمر.

وخلال الحملة تبع لنكولن س. دوجلاس ككلب صيد يسمى وراء فرسته الجريحة. فقبه من بلدة إلى أخرى، والقاضي يتوسل معونة المخلصين له من الديمقراطيين، وكان يتحداه في كل موضوع

يشيره: "قيادة الشعب" تعبير لطيف يخفي وراءه تحالف
س. دوجلاس مع الجنوبيين للوصول إلى السلطة، ولو بلغ توافق توافق
ميسوري، في حين حقق ذلك قانون كانساس - نبراسكا، هادماً
عمل ثمانين عاماً من القوانين التي كانت تحكم العبودية على الأرض،
واتسرت تسمية س. دوجلاس التي أطلقها على الحزب الجمهوري
الجديد بأنهم "الجمهوريون السود"

وكانت النقاط الوحيدة التي اتفقا عليها تدور حول دور السود
في المجتمع الأمريكي. فقد اقتبس لنكون من كلمات القاضي
دوجلاس قوله: "إن تلك الحكومة قد أنشئت من أجل البيض لا من
أجل الزنوج" ولماذا؟ في الواقع لأنني أرى هذا الرأي أيضاً. ووافق
س. دوجلاس في معارضته لمخ السواد حق التصويت في إيلينوي ومنع
الاختلاط والزواج العرقي. ولكنهما اختلفا حول قضايا عرقية
أخرى. فكما أكد لنكون، فإن س. دوجلاس رفض الإقرار باعتبار
السود بشراً ولذلك فإنه لا يشعر بالندم الأخلاقي في "عما إذا كان
وطن جديد سيكون للأحرار أم للعبيد" تحدث لنكون عن "الكثرة
الأكبر من البشر الذين يتبنون وجهة نظر مختلفة تماماً" والذين يعتبرون
العبودية "خطأ أخلاقياً جسيماً" ومعارضتهم لها ليست أمراً
عارضاً بل موقفاً ثابتاً، ويمكن ذلك في أساس إحساسهم بالعدل.
أراد لنكون الارتقاء بالمقهورين دون هدم التراتب العرقي.

إنضم فردريك دوجلاس للنكون ولباقي معارضي الرق في خريف عام ١٨٥٤. كان يعرف أن الديمقراطيين في الجزء الشمالي من الولاية خاصة معرضون للمضايقة من قبل الجمهوريين، لذا جاء يصحبه جوشوا جيدنجز وسالمون تشير وبعض دعاة التحرير السياسيين الآخرين لتأييد لنكون وغيره من المرشحين المعادين للعبودية. ليس هناك أي تسجيل للقاء دوجلاس ولنكون، لكن ربما كان ذلك بسبب أن لنكون لم يرد أن يظهرها معاً للبيان لأن ارتباطه برجل أسود من دعاة التحرير قد يفسد فرصة نجاحه. وقد هاجم فردريك دوجلاس القاضي دوجلاس بمهارة وسخرية عاليتين، وامتلاً دوجلاس الأبيض بالغضب الشديد لظهور دوجلاس الأسود (كما أسماهما أحد الصحفيين) لدرجة أن القاضي الغي برامج لقاءاته في أوروبا لأن الخطيب المفوه (فردريك) خطط للحضور هناك للرد مباشرة على خطبه. وأبدى فردريك دوجلاس اهتماماً خاصاً بستيغن دوجلاس وكان اهتماماً طبيعياً حيث قال "لا أحد يقبل أن يقرأ في صحيفة ما خيراً عن شق رجل يحمل اسمه تماماً) مشيراً لصور ورموز السيناتور التي أداها الشعب). ونظراً لأن ستيغن كان يعتبر نفسه آنذاك "أكثر رجال الولايات المتحدة معاناة من سوء المعاملة، كان فردريك دوجلاس يأمل أن يتعلم التعاطف مع الملايين الثلاثة من العبيد الذين يعانون من سوء معاملة ارتكبتها الرجال الذين

كان دوجلاس متحالفاً معهم. وأكد على أن قانون كانساس - نبراسكا قد خلق حالة من الحسم يجب أن يحدث فيها واحد من الأمرين: "إما أن يتخلى الجنوب عن العبيد أو أن يتخلى الشمال عن الحرية.

لم يصل لنكونن لذات النتيجة تماماً، إلا أنه بعد خطاب دوجلاس بشهور قليلة أثار سؤالاً مشابهاً هو "هل يمكننا، كأمة، أن نستمر للأبد ونصنفنا من الأحرار ونصنفنا الآخر من العبيد؟" أن المشكلة أكبر مني كثيراً، فلعل الله برحمته يدبر لها حلاً. وسرعان ما اتفق مع دوجلاس.

هزم لنكونن - تقريباً - غريمه جيمس شيلدز، لأنه حاز المركز الأول في المرحلة الأولى من التصويت في مجلس الولاية الذي ينتخب (الشيوخ) بأربعة وأربعين صوتاً مقابل واحد وأربعين لشيلدز. لكن الفائز كان يجب أن يحوز الأغلبية العامة للأصوات (بديلاً عن الأغلبية البسيطة)، فأدرك لنكونن أنه لكي يمنع فوز أحد مؤيدي العبودية عليه أن ينقل أصواته لصالح عضو ديمقراطي آخر معارض للعبودية - كان قد حصل على خمسة أصوات فقط من الجولة الأولى. لذا قال: "كان من الصعب لمن حصل على ٤٤ صوتاً أن يضطر للتنازل لمن حصل على خمسة فقط، ولو كان هذا رجلاً أقل تبسطاً مني ربما ما وافق على ذلك لكنني - على أية حال - ما

كنت لأترك النتائج السياسية برمتها تتعرض للضياع بسبب شخصي يعود مرجعه إلى " .

ورغم ذلك خسر لنكون الانتخابات، إلا أنه أنجز عدة أشياء .
فقد ساعد معه فردريك دوجلاس في إفشال خطة الديمقراطيين
مؤيدي العبودية، في إيلينوي . فحينذاك كانت خطب لنكون أكثر
حسماً عما مضى وبدأ قليل من الصحفيين المعارضين يعترفون به " .
خطيباً رائعاً وواحداً من أكفأ الجمهوريين .

كما بدأ ينال بعضاً من الانتشار القومي بسبب هجومه على
القاضي دوجلاس . ولم تبدأ مناظرات دوجلاس - لنكون الرسمية
حتى عام ١٨٥٨ . لكنه في الحقيقة كان قد بدأ الجدل معه من
خريف ١٨٥٤ بعد أشهر قليلة من إصدار قانون كانساس -
نبراسكا .

كان القاضي دوجلاس منافساً خطيراً في انتخابات الرئاسة لعام
١٨٥٦، ففي اجتماع ترشيح ممثل الحزب الديمقراطي للرئاسة، وصل
هو وجيمس بوكاتان إلى موقف شديد التعقيد بعد المحاولة السادسة
عشرة للتصويت ولم يحصل أي منهما لتأمين الأغلبية المطلوبة إلا أن
بوكاتان كان قد حاز أصواتاً أكثر، وكان أكثر رغبة في تمثيل الجنوب
من دوجلاس، لذا فعل مثل ما فعله لنكون قبل عام مضى ' فأصدر

تعليماته لندوبيه بالتصويت لبوكانان بقوله "إن السيد بوكانان، في رأيي، يستحق الترشيح".

ارتحل لنكون عبر الولاية كلها داعياً للمرشح الجمهوري جون فيرمونت. كانت إيلينوي ولاية متأرجحة، واعتقد معظم المتقنين أنه لو تحولت هذه الولاية ومعها بنسلفانيا لصالح الجمهوريين، سوف يفوز فيرمونت. وألقى لنكون أكثر من خمسين خطاباً وسط جماهير تصل إلى خمسة وثلاثين ألفاً في مدينة ألون وإلى عشرة آلاف في برنستون مثلاً. (وكان له هو ودوجلاس حنجرة قوية)، وأكد أن الفارق بين فيرمونت وبوكانان، هو أن الأخير أراد أن يمد ظلال العبودية إلى الأراضي الجديدة "التي هي الآن حرة بالقانون" لكن فيرمونت لا يريد لها ذلك، "تلك هي الحقيقة المجردة بكل ما فيها". وبتحديد الحملة في ذلك الإطار أنكروا أن الجمهوريين كانوا حزباً اقليمياً يعادى الجنوب.

حاول حقيقة أن يتجنب إثارة النزعات الإقليمية. فلم يذكر شيئاً عن الحرب الأهلية التي كانت تستمر - عندئذ - في كانساس وبريستون والتي صدمت مشاعر تشارلز سومر. ودافع عن فيرمونت ضد اتهامه بأنه كان وغداً وكاثوليكياً خفياً ومطرفاً أراد إلغاء قانون العبد الهارب، وإلغاء العبودية في الولايات. فقد كان القاضي دوجلاس ومؤيدوه يسمعون إلى استقطاب الناخبين بالقول أن

فيرمونت لو فاز فسوف يتفكك الاتحاد . إذ هددت برستون بروكس، التي كانت تتصاعد ثقتها مع كل انتصار تحقّقه، بغزو واشنطنون إذا نجح فيرمونت في الانتخابات وأن "تبسط اليد القوية لرجال الجنوب الأحرار على خزانة وسجلات الحكومة." وقد حذرت تقارير كثيرة من أن العبيد عبر بلدان الجنوب كانوا يخططون لثورة شاملة تتزامن مع الانتخابات. واعتقد الناس انه في حالة فوز فيرمونت، فإن العبيد سوف يعلنون " ثورة دموية " في الحال، كما قالت جريدة شمالية. وملأت هذه القصص قلوب الشماليين بالرعب لكنهم واصلوا منح الأصوات لفيرمونت أكثر من أي مرشح آخر، واكتسح بوكنانان مناطق الجنوب كما فاز بأصوات الولايتين المتأرجحتين إيلينوي وبنسلفانيا .

وبينما كان لتكوين يدعو إلى مناصرة فيرمونت في مدينة جالينا، أقسم أن يدعم الدستور وأن يحترم سلطات المحكمة العليا . ورداً على مقولة أن حظر العبودية أمر غير دستوري، قال: "أنني أؤكد لكم وأضمن ألا يصبح أي تصرف غير دستوري قانوناً" لكنه رفض قبول تفسير الديمقراطيين للدستور، مضيفاً "إن المحكمة العليا للولايات المتحدة هي جهة الاختصاص التي تقرر هذه المسألة، ولسوف نمثل لقراراتها".

بالطبع كان سيتمسك بالقانون الأعلى للبلاد . ولم يكن هناك أي سبب للظن أنه لن يفعل، حيث كرس مسيرة حياته للدفاع عن القوانين التي وضعها الإنسان، وكان يعارض "القانون الأعلى" الفوضوي الذي يطرحه دعاة تحرير العبيد . وما كان لينضم إلى الحزب الجمهوري لو أنه دعا " للقانون الأعلى " أو تنكر لقانون العبد الحارب . لأنه تربي على اعتقاد راسخ انه بدون المحكمة العليا " يصبح الدستور خطاباً ميتاً . وقضت المحكمة في القضايا القانونية الكبرى بتلك الفترة، حيث صرح قاضي القضاة جون مارشال سلف القاضي تاووني في قضية ماريوري ضد ماديسون عام ١٩٨١ أن أحكام المحكمة العليا تعد قانوناً أعلى " يجب أن يعلو سلطة " الكونغرس والرئيس .

وقد قبل صناع القانون ذلك . وبالنسبة لأغلب الأمريكيين لا تعد أحكام المحكمة العليا مفسرة للدستور بقدر ما هي كاشفة له، وبدلاً من إعادة صياغة القانون، فإنها تحدد كله . لكنهم اعتمدوا أيضاً - وذلك ما لاحظته الفرنسي اليكسيس دوتو كوفيل - على الرأي العام مثلما لاحظ اليكسيس دوتو كوفيل الفرنسي بجلاء إذ لو أنهم تصرفوا دون حكمة " لأغرقوا البلاد في الفوضى أو الحرب الأهلية " .

وهذا تماماً ما حدث . فبعد ثمانية أشهر من قسمه أن يتمسك بقرارات المحكمة العليا، ناقض لنكولن نفسه . ففي مارس عام ١٨٥٧

أصدرت المحكمة قرارها في قضية دريد سكوت الذي أعلن بأن برنامج الحزب الجمهوري غير دستوري، وأخرج لتكوين ومعه الجمهوريون ألسنتهم للمحكمة، لأنهم ازدادوا صخباً مطالبين - حتى - باستبعاد الرق من البلاد . وحينذاك طالب لتكوين بأن يعد ذلك الحكم أمراً غير دستوري قانوناً . إذ كان يرى أن المحكمة لم تدرك أن العبودية تعد شراً - يتعين احتوائه - وأنها لم تفهم بشكل سليم أيضاً - القانون الطبيعي الذي يقول أن "جميع البشر خلقوا أنداداً" . فمؤسسو الدولة عنوا ما قالوه قصداً ولتكوين يؤمن بإخلاص أن الله يعتبر الرق خطيئة : "إن أبانا الطيب في السماء" جعل شرور العبودية "واضحة لدرجة أن" الجميع يشعر بها ويدركها، نزولاً حتى المتوحشين والحشرات الزاحفة . لكن المحكمة رددت آراء القاضي دوجلاس بتجاهلها عدم أخلاقية الرق، مدعية إن مبادئ ومثل إعلان الاستقلال هي "أكاذيب بديهة" .

ورفض لتكوين المحكمة العليا كأعلى سلطة في البلاد . وفجأة أخذ يعتمد على مبدأ القانون الطبيعي "أو الأعلى" واتباع الطريق الذي كان قد سلكه فوردريك دوجلاس منذ زمن بعيد، وكان ذلك تحولاً مذهلاً عن ادعاءاته القديمة منذ عشرين عاماً خلت، في خطابه بقاعة محاضرات "الشباب"، عندما حرص الناس على الالتزام بالدستور واحترام القانون . لقد ظل يفكر دوماً

كبحام، وأظهر دائماً احتراماً للقانون وللسوابق القانونية، وكان يرتعد
لجحد فكرة تجاهل القانون ومقاومة الأحكام العليا في الوطن. لكنه
الآن يتنكر للدستور وللسوابق القانونية، ويحدد أن وثيقة إعلان
الاستقلال هي محور ارتكاز الحكومة. وقد اقتبس على نحو ملائم
فقرات من الكتاب المقدس لتوضيح معتقده الجديد في مبدأ القانون
الطبيعي، فأعلان الاستقلال يمثل تقاحة ذهبية داخل صورة الدستور
الفضية، وفقاً لما كتبه مضيئاً: "أن الصورة صنعت للتقاحة ولم
تصنع التقاحة من أجل الصورة".

ومن المفهوم طبعاً أن القاضي دوجلاس هاجم لنكون وحزبه
بسبب مقاومتهما الجريئة للمحكمة العليا. وأنكر لنكون ذلك بقوله "أنا
أناؤمن مثل القاضي دوجلاس وربما أكثر بطاعة واحترام الهيئة
القضائية بالحكومة"، في خطابه بسبرينجفيلد، الذي طبع ووزع توزيعاً
كبيراً. غير أنه ظل يصف حكم دريد سكوت بأنه كان "مغالياً في
الخطأ"، وأقسم أن يبدل ما في وسعه كي يجعل المحكمة تبطل
حكمها ذلك فشجعه رفاق حزبه وصفقوا له على تحديه
للمحكمة. بادر القاضي دوجلاس بالهجوم عندما أستشعر احتدام
المعركة، وأخذ يسأل مشاهديه من الديمقراطيين ساخراً: "إن
المحكمة العليا هي أعلى سلطة قضائية، وأسمى هيئة قانونية على
الأرض، بينما نجد السيد لنكون في طريقه لاستئناف حكمها؟".

فتضاحكوا ولنكونن يبدو مرتبكاً .

ربما أراد لنكونن أن يجيبه "نعم أريد أن أستأنف إلى الله الأعلى قرار المحكمة العليا " لكن ذلك لم يكن مجدياً من الناحية السياسية، إذ كان يعرف أن مناداته بفرضية القانون الأعلى " ستؤدي باتهامه بالفوضوية، لأن المرء لا يعرف ما يريد الله؟ حيث يعتقد مزارعو الجنوب أن الله يدافع عن وجود العبودية كذلك يؤكد رجال الدين هناك بلباقة أن الكتاب المقدس يقره، بل وكما يقر لنكونن - بنفسه - أن العبودية كانت تعد مؤسسة لها جدارتها لآلاف السنين .

وبدلاً من اللجوء لقانون الله علانية، اعتمد على التاريخ في دفاعه . فحاج بأن الرئيس اندرو جاكسون - وهو بطل دوجلاس والراعي لكل الديمقراطيين - قد عارض المحكمة العليا، عندما أصدرت قرارها بدستورية تأسيس البنك الوطني، فنقض القانون لإعادة إصداره على أساس دستوري جزئي، واقتبس منه عبارة يقول فيها " أن كل موظف عام يجب عليه أن يؤيد الدستور وفقاً لما يفهمه "

ولم تكن كراهية لنكونن لجاكسون لأن جاكسون كان بالنسبة له وللحرس القديم من المحافظين طاغية يفضل القتال بالسلح والمبارزة على المناقشة، ولم يكن متهماً أو كان ذلك موقفاً لا يعتد به لأن جاكسون - في حقيقة الأمر - لم ينتهك الدستور حينما اعترض

على مشروع البنك. فالهم هو أن نكون استطاع التصريح بأن موقفه من المحكمة العليا كان مماثلاً لموقف بطل دوجلاس.

عندما رشح القاضي دوجلاس لإعادة انتخابه الانتخابات تحداه لتكون رسمياً. فقد واثقه الفرصه لأن يكون نفس الحلبة أمام خصمه وبصارعه رأساً برأس، واتخذ الحزب الجمهوري ولاية إلينوي خطوة غير معادة بترشيح لتكون رسمياً لمجلس الشيوخ. (كانت خطوة غير عادية لأن نواب مجلس الشيوخ يتم انتخابهم بواسطة مجلس الولاية التشريعي) وكان خطاب لتكون المسمى " البيت المتقسم " هو تحديه الرسمي للقاضي دوجلاس. ولم يكن الخطاب سوى حديثاً ثورياً، حيث صرح بأن الرئيس السابق للولايات المتحدة (فرانكلين بيرس) والحالي (جيمس بوكنانان) ومعهما رئيس قضاة المحكمة العليا (روجرتاوني) بالإضافة لمهندس قانون كانساس- نبراسكا (القاضي ستيفن دوجلاس) كانوا يتآمرون ضد الوطن في طلبهم لتأميم العبودية ونشرها بكل الولايات والبلاد. وكان رجال الدولة الأقوياء على رأس " جماعة سياسة سرية " معروفة باسم "سلطة ملاك العبيد"، كانوا أشراراً، غير مخلصين لمبادئ الأمة وخونة لبلادهم". أن ستيفن وفرانكلين، وروجر وجيمس كانوا يتآمرون للقضاء على الحرية أينما كانت، وحتى في الولايات الحرة.

وبالفعل قام لنكونن بالتحذير من صدور قرار آخر من المحكمة أشبه بقرار دريد سكوت، سيفتح أبواب كل الولايات للعبودية على مصراعيه. فعاجلاً سوف تمتلئ بوسطون ونيويورك وفيلادلفيا وشيكاغو بملاك العبيد وعبيدهم، وسيكون على العمال الأحرار أن يتنافسوا مع العبيد على الوظائف، في حين أن الأعمال الشاغرة نادرة بالفعل بسبب انهيار مالي آخر كان اجتياح ولايات الشمال منذ عام مضى. وقد ألقى العديد من رجال الشمال اللوم في ذلك على الجنوب الذي لم يعان كثيراً، وكان هناك قرار مقترح جديد بإصدار حكم وشيك مماثل لحكم دريد سكوت، وقال لنكونن "سوف نخلد للنوم بسرور نحلم أن شعب ميسوري على وشك أن يجعل ولايته حرة، ثم سنصحو على واقع بديل، هو أن المحكمة العليا قد جعلت إيلينوي ولاية العبيد"، فلا غرو أن يهوى فردريك دوجلاس الخطابة، لأن حديثه كان قوياً مدمراً ويجعل الأنفاس تنقطع.

وامتاز لنكونن بأنه كان على حق، إذ كان خطابه حول "البيت المنقسم دقيقتاً تماماً، فهو لم يكن مجرد استثارة لمخاوف الناس من "سلطة ملاك العبيد" ببساطة وحذر من دعاة الرق يحاولون جعله قانونياً في كل الولايات قديمها وجديدها وأكدت الصحافة المؤيدة للعبودية لماذا دافع لنكونن عن قوانين ظالمة تحمي بقاء العبودية؟ لأنه أراد التصالح مع ملاك العبيد لإتخاذ الاتحاد فقال في خطابه موجهاً

حديثه لأهل الجنوب: "إننا لسنا أعداء، بل نحن أصدقاء." لكنه عندما يسمي ملاك العبيد الخونة أصدقاء، فإنه يضحى بحقوق السود في المقابل. لم يكن أصدقاء الجنوب من الشماليين أكثر أخلاقاً من ستيفن دوجلاس أو جيمس بوكاتان. فقبل ثلاث سنوات سابقة اتهمهم لنكونن بالآمر لقلب الحكومة. ثم عند انتخابه فجأة رئيساً وأصبح أول رئيس عصري مناهض للعبودية - كما أسماه فريدريك دوجلاس - هاهو يتهاون مع ملاك العبيد بقدر ما فعل أولئك المتآمرون.

وجعلت النهاية الشعرية لخطاب لنكونن الافتتاحي، دوجلاس يشعر بالغثيان، وفيه يقول لنكونن: "يجب ألا نكون أعداء، فرغم أن مشاعرنا قد تحمل أثراً مما سبق إلا أنها يجب ألا تقطع أو اصر محبتنا. إن الروابط الروحية للذاكرة التي تستمد من كل ميدان معركة ومن كل مقبرة لوطني، كمستقر في كل قلب حي وكل قلب حجر فوق كل بقاع أرضنا. تلك الروابط ستكبر الصوت الجماعي للاتحاد عندما تلمسها اليد الملائكية الجميلة لطبيعتنا مرة ثانية. لكن تلك الروابط الروحية من الذاكرة بالنسبة لدوجلاس هي التي تجاهلت صرخات السود القابعين في الأصفاد. وما لم تتم محاكمة ومطاردة أولئك الخونة فإن أي اتحاد بين الشمال والجنوب سيرك السود غير أحرار للأبد. لقد دمر لنكونن في سعيه لإيقاظ الاتحاد كل مثله.

كان دو جلاس يتوقع الكثير من لنكولن . كان يفهم مدى صعوبة الأمر أمام رئيس منتخب، فقد أعلنت ولاية ساوث كارولينا - بعد أيام من انتخاب لنكولن وقبل أربعة أشهر من تولي منصبه - خطتها للانشقاق عن الاتحاد، ومع أول فبراير كانت سبع ولايات أخرى قد هجرت الاتحاد . وبعد ذلك بواحد وعشرين يوماً، وفي ذكرى ميلاد جورج واشنطن، تم تنصيب جيفرسون دافيز أول رئيس لكونفيدرالية الاتحاد الأمريكي للجنوب .

وخلال تلك الأزمة لم يكن الرئيس بوكانان قادراً على الرد بصورة مؤثرة، فقد كان هدفه الأساسي هو تجنب الحرب وفي حين كان يرى لانشقاق فعلاً غير دستوري، فإنه لم يفعل شيئاً لإيقافه بل شجعه نظرياً بالفعل عندما أكد للجنوب أن الحكومة الفيدرالية ليس لها حق استخدام القوة في ذلك الشأن . وألقى اللوم في حدوث حركات الانشقاق على عاتق حركة مناهضة العبيد، وقام بالدعوة لاجتماع دستوري يقدم تعديلات يمكن أن تحمي بقاء العبودية في الولايات والأراضي الجديدة وتمنع ولايات الشمال من التدخل في تفعيل قانون العبد الهارب .

كان دو جلاس يعتقد أن بوكانان تجنب محاكمته بتهمة الخيانة وكان يعلم أن لنكولن لا يستطيع اتخاذ خطوة في ذلك إلا بعد اعتقاله

كرسي الرئاسة، فقام بشحن "الصمت المهيّب" للنكولن منتظراً استلامه مهام منصبه في الرابع من مارس ذلك العام، وقد ملأه الإعجاب "برفض لنكولن الصارم" للدعوة لأي برنامج توافقي قد ينتهك "الوعد الجمهوري" بمنع امتداد العبودية، واعتبركية لنكولن "أبراهام العجوز" كنية صادقة وتعكس بدقة كلمات وأفعال الرئيس المنتخب.

في صباح يوم ١٨ فبراير انضم دوجلاس إلى آلاف من مواطنيه الرفاق للترحيب بقطار لنكولن الخاص وهو يتوقف لبرهة بمحطة نيويورك سنترال بروشيستر خلال رحلته المتعرجة من سبرينجفيلد حتى واشنطن. كانت هناك فرقة موسيقية تعزف، وظهر الرئيس المنتخب بالشفرة عند مؤخرة القطار وأخذ ينحني للحشود، وكانت انحناءاته متصلبة ومتردة. كانت ذقنه بارزة وبدا جسمه منكسراً إلى ضلعين عند وسطه، فبدا أشبه بكسارة بندق خشبية. كان دوجلاس يعرف بالفعل ما سوف يقوله لنكولن عاجلاً بالفعل، لأن خطبه خلال رحلة القطار كانت واحدة عند كل محطة توقف. وهكذا قال لنكولن: "أنا لست مغروراً لدرجة أعتقد معها أنكم جثم هنا رغبة في رؤيتي كفرد، ولكن لأنني - الآن - أمثل الشعب الأمريكي . . . وأنا أظهر أمامكم مجرد أن أراكم، وأن أدعكم تروني، ولكي أقول لكم إلى اللقاء."

توقع دو جلاس، وهو يتذكر كيف تحدى لنكولن ستيفن دو جلاس
بنبل وفروسية منذ سنوات سابقة، أن يواجه لنكولن الجنوب بنفس
الأسلوب. إذ يجب عليه أن يأمر "سادة العبيد المتعالمين" أن يضعوا
أسلحتهم وأن يعودوا للاتحاد وإلا واجهوا اتهامات بالخيانة (وهي
جرمة عظيمة). وعليه أن يرد على تلك الأزمة بحزم وحسم مثلما
فعل الرئيس أندرو جاكسون في أحداث مشابهة عام ١٨٣٢، عندما
أبطلت ولاية ساوث كارولينا قانونا اتحاديا ورفضت سداد رسوم
معينة، فبادر جاكسون من فوره باتخاذ إجراءاته الحاسمة، وو أعلن
أن الخروج على الاتحاد خيانة وهدد بغزو تلك الولاية وشنق الخونة
مما أدى بالمتمردين للتراجع. كان على لنكولن أن يفعل تلك الأمور
"والا سيصبح ممثلا محقرا لحكومة رعدية بائسة"، وواصل تحريضه
للنكولن بقوله: "افعل الصواب، ودع الصراع ينشب، وسيوفق الله من
هو على حق!".

كما راودت دو جلاس الآمال أن تؤدي أزمات الانفصال إلى
إضفاء طابع راديكالي على لنكولن. وفوق ذلك كله، فقد دخل
الرئيس المنتخب إلى عاصمة البلاد في ظل تهديد واضح له
بالاغتيال. وقد أقنع آلان بنكرتون - وهو رجل ذو لحية كالفرشاة
ومن دعاة التحرير ورئيس وكالة بنكرتون للتحريات - لنكولن كي
يفادر بالتمور متوجهاً لواشنطن متكرراً ليلاً، بعد اكتشاف دليل

مادي على وجود مؤامرة ضده. أصبح لنكونل فجأة "عبداً مسكيناً" مطارداً وهارباً" . . . هكذا علق دوجلاس مضيفاً: "وهو يبحث عن مخبأ متجنباً المطاردين . . زاحفاً . . مضللاً من يسعون وراءه في جنح الليل." بالفعل، غادر الرئيس المنتخب بالتيمر في قطار بالطريقة نفسها التي فعلها الشاب فردريك بيلي منذ ثلاث وعشرين سنة فائتة، متكرراً ومطارداً كذلك. وقد تعاطف دوجلاس مع مافعله لنكونل بعكس العديد من الشماليين الذين سخروا منه فقال: "لقد فعل مافعله رجال أكثر شجاعة . . . ولاشك أن ذلك كان مؤلماً لروحه أن يضطر لتكييف نفسه مع أساليب حياة عبد هارب. ربما تدفعه تلك الأزمة إلى التعاطف مع السود والشعور بالآلم العبيد أكثر مما كان عليه من قبل."

هكذا، صعد دوجلاس من آماله عالياً لكي تهبط محطة تماماً، فخلال الشهر الأول من تولي لنكونل لمنصبه تصرف بطريقة أفضل قليلاً من الرئيس السابق بوكانان. لقد وعد - مثلما فعل بوكانان تماماً - ألا يهاجم الجنوب، فقد صرح: "إن الحكومة لن تهاجمكم." وخفف من قلقهم مؤكداً لهم أنهم "سوف يحصلون على الإحساس الكامل بالأمن المطلوب لتهدئة الفكر والتأمل." كما نادى بالتعديل الدستوري لحماية بقاء العبودية للأبد في الولايات. وكرر دعوة بوكانان

بالتعهد "فقط بالاستيلاء على القلاع الفيدرالية وترسانات الأسلحة في الجنوب واحتلالها وامتلاكها".

كانت قلعة سومتر من تلك القلاع. كانت قلعة غير مكتملة البناء من القرمي دتقع على صخرة من الجرانيت على بعد أميال قليلة من منتصف مدينة شارلستون بولاية ساوث كارولينا . ومن أوائل البرقيات التي تلقاها لنكولن فور استئناف واجباته الجديدة كانت برقية من الميجور روبرت أندرسون قائد قوات الاتحاد بقلعة سومتر يقول فيها إن إمدادات تموين قواته آخذة في النفاد، وأنه خلال أسابيع قليلة لن يجد رجاله الطعام. وطوال الشهر التالي أصبح الشماليون مهومين بتلك القلعة، منتظرين ما سيفعله لنكولن في ذلك. وبتمسكه بوعده ، أخبر لنكولن حاكم ساوث كارولينا فرانسيس بيكنز أنه سيقوم بإمداد القلعة بالطعام لا بالرجال أو السلاح، وكان- بهذه الخطوة- يضع الطعم للجنوبيين ليستدرجهم لارتكاب اعتداء آخر على سلطة الاتحاد، وهذا ما فعلوه. ففي يوم ١٢ أبريل، بمجرد وصول قوارب الإمداد، قام الكونفيدراليون بإطلاق النيران على قلعة سومتر، وقصفوها لمدة ٣٣ ساعة حتى استسلم الجنرال أندرسون وحاميته ٣٣. فقال دوجلاس: "المجد لله .. لقد أنتت الحرب أخيراً!" ٣٤ هنا سنحت الفرصة لتدمير العبودية "دعوا ذلك العبد المسحوق ينهض، وفي تلك اللحظة المبشرة ينزع حرته!" وصل

عداء ملاك العبيد حداً لا يحتمل أخيراً، مما دفع بالحكومة الأمريكية إلى قمع ذلك التمرد. فقد أضفى قصف القلعة الثورية على الأمة، وقبل أن يتلاشى دخان القصف في الهواء أصدر لنكونلنداءاً يطلب فيه قواتاً عددها خمسة وسبعون ألفاً من الجنود لمدة تسعين يوماً لإخماد ذلك العصيان المسلح. وكانت الاستجابة لندائه شديدة لدرجة أنه حصل على خمسة أضعاف ما طلب، حتى إن دوجلاس اهتزت مشاعره فصيح بقوله: "إن الشمال الميت مازال على قيد الحياة، وشعبه المنتقم يعود للوحدة." واعتبر محاربة الشماليين للتمردين الكونفيدراليين محاربة للعبودية كذلك في اعتقاده، فأنهى رحلته إلى هايتي. لكن لنكونل خيب رجاءه مرة أخرى، لأنه عندما أعاد قراءة نداء لنكونل بدقة، أدرك دوجلاس أن الرئيس سوف ينحرف عن طريقه ويعود لحماية ملكيات الساد. فالنداء يقول: "يجب أن تولى القوات عناية شديدة لما تفعل... كي تتجنب أية أعمال تخريبية أو تدميرية أو تدخل في شؤون الملكية". عندئذ انفجر دوجلاس ساخراً: "جميعنا يعلم أن ذلك يعني أنه لن تبذل أية محاولات للقضاء على العبودية."

لم يحدث هذا، فقط بل أنه فور صدور النداء قامت إدارة لنكونل بإعادة آلاف من السود الذين كانوا شغوفين لقتال ملاك العبيد إلى حيث جاءوا، لأن دوجلاس وحده استطاع تجنيد عشرة آلاف

جندي أسود خلال ثلاثين يوماً؛ لقد صرح بذلك في اقتحار وأكد أن
كثيرة سوداء واحدة تطلأ أرض الجنوب "سكون ندا لكيتين كاملتين
من البيض". فالسود حين يحملون السلاح سيرعون رجال الجنوب.
إن انتخاب لنكون "جعل العديد من ربات المنازل عبر مناطق
الجنوب يذهبن إلى النوم ليلاً وهن يتساءلن في رعب ماذا سيفعل
عبيدهن، الذين امتلأوا أملاً بمباديء الحرية حديثاً، بهن
وبأطفالهن". كما جعل العديد من السادة يقعون متيقظين طوال الليل
والسلاح بأيديهم، مستعدين لمواجهة أية انتفاضة، لم تحدث على أية
حال. والمشكلة أن جموع المتعصبين من بيض الشمال كانوا تقريباً
مرعوبين من أية انتفاضة للعبيد بنفس قدر الرعب الذي يملأهم من
تمرد ملاك العبيد. حتى الجنرال بنجامين بتر - ذلك الضخم المرعب
لقوات الاتحاد - بدا خائفاً بعد سماعه بوجود مؤامرة بين عبيد ماري
لاند للتمرد، خاصة وأنه من مؤيدي العبيد وعضو بالحزب
الديمقراطي في ماساتشوستس، ويميل لإطالة شعر رأسه في المناطق
القليلة التي ينبت فيها ربما لإعطاء مظهره بعضاً من الصرامة، فتمركز
بقواته عند أنابوليس، وباعتباره أمراً لقوات كثيفة الولاية كتب لحاكم
ماري لاند توماس هيكس يوم ٢٣ أبريل وذلك بعد أسبوعين من
واقعة قلعة سومر ليؤكد له أن قواته لن تتدخل بأي صورة بأمر

ملكية العبيد، مضيئاً: "لذا، فأنا مستعد للتعاون مع فخامتكم في قمع أية محاولات لعصيان القانون فوراً وبكفاءة في ماري لاند".

أغضب ذلك الخطاب دوجلاس، ولكن ما زاد شعوره بالمرارة سماعه أن ضباط الاتحاد أعادوا العبيد الهاربين إلى أسيادهم بسعادة بالغة. وحتى قبل واقعة القلعة، كان العبيد قد أخذوا يهربون إلى قوات الاتحاد مقدمين خدماتهم مقابل الحماية والحرية. ففي مارس مثلاً هرب ثمانية عبيد من مزرعة قرب ميلتون بولاية فلوريدا بعدما سمعوا أن الحكومة تسعى لحماية قلاعها في الجنوب، وسافروا عبر المستنقعات والسبخات والأنهار عبر ثلاثين ميلاً دون راحة ووصلوا أخيراً بواسطة قوارب مسروقة إلى قلعة بيكنز عند فم خليج بنساكولا. وصلوا يتساقطون من الجوع لكنهم كانوا يشعرون بالارتياح. كانوا قد توصلوا إلى أن القوات سترحب بخدماتهم ستقبلها القوات بكل سرور نظير إرسالهم إلى الشمال أحراراً، وكانوا على حق في افتراضهم أن القلعة تحتاج إلى الدعم والمساعدة. لكن الملازم أ. سليمر أمر القلعة وضعهم في القيود "وأعادهم إلى عمدة المدينة تسليمهم لما لكم". "ووفقاً لما ذكره أحد الشهود، قام مالكهم يجعلهم عبرة للآخرين فجلدتهم بلا رحمة لساعات طوال ليحذر مئات الآخرين من أن تجذو حذوهم. البعض جلد حتى الموت بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأصيب الآخرون بجراح ظلوا يعانون منها طوال

أسبوعين . وقع ذلك التعذيب بسبب أن الحكومة الفيدرالية حكومة الاتحاد طبقت قانون العبد الهارب لصالح أناس كانوا قد ارتكبوا الخيانة ضد الاتحاد للتو . كان ذلك الموقف يعادل إعادة رجال الجنوب إلى الهاربين من قوات جيش جون براون ، وهذا وضع غريب ولا يمكن أن يحدث أبداً للرجال البيض . وعندما قرأت ليديا ماريا تشايلد - وهي من دعاة التحرير - أنباء قلعة بيكنز في جريدة دوجلاس شعرت بأنها تريد أن تظاً بأقدامها العلم الوطني قائلة: " يعلم الله أنني أريد أن أحب وأن أكرم علم بلادي، لكن كيف أفعل ذلك لعلم يُستخدم في تلك الأمور؟ " . وهذا ما شعر به دوجلاس تماماً ، وإلى أن يقرر الاتحاد قراره "القضاء على العبودية" فالعلم "لا يستحق دعم ذراع سمراء واحدة ."

لكن عداء ملاك العبيد كان قد أخذ يزداد أيضاً ضد البيض ، واغتالوا البعض منهم فتار غضب أهل الشمال عليهم . وخلال شهر من نداء لتكوين انضمت كل من فيرجينيا ونورث كارولينا وتيسي وأركنصو إلى الكونفيدرالية الجديدة كذلك . وفي ٢٤ مايو - أي بعد يوم من انشقاق فرجينيا رسمياً - قاد ضابط من قوات الاتحاد اسمه إيلمر إيلزورث كيبته إلى مدينة الإسكندرية . لم يكن إيلزورث أنيقاً لدرجة مذهلة فقط - إذ كان يشبه جون ويليكس بوث - لكنه كان صديقاً مقرباً للتكوين وكان يعامله كابن له

ومستشاره القانوني بل ودعاه للسفر معه في عربة الرئاسة الخاصة إلى واشنطن. وفي الإسكندرية، استولى إيلزورث على مكتب البرق والتلغراف وهناك لاحظ أن علم الكونفيدرالية يرفرف على سطح فندق هاوس القرب وهو مبنى ذو ثلاثة طوابق من القرميد أشبه بالصندوق، فاندفع هائجاً نحو الفندق وارتقى الدرج إلى السطح ومزقه وألقاه أرضاً. وعند نزوله كان مالك الفندق بانتظاره يحمل سلاحاً وأطلقه عليه من مسافة قريبة جداً فمزقه إرباً. كما كانت هناك تقارير تفيد بقيام الكونفيدراليين بتسليم القوات المركزية الفيدرالية، وقيام بعض القراصنة بإرسال أسلحة الشمال إلى الجنوب. وأن بعض رجال الاتحاد تم محاکمتهم رمزياً أو يهاجمهم الرعاع. فقال دوجلاس: "ربما بعد قتل بضعة من أمثال إيلزورث قد تبدأ الحكومة في معاملة المتمردين كأعداء بدلاً من اعتبارهم أصدقاء، وربما تبدأ إدارة لنكون عندئذ في معاملة السود على أنهم بشر."

بدأت الأمور تتغير بعد مقتل إيلزورث، ففي ٢٤ مايو شعر بنجامين بتلر بتغير أحاسيسه تجاه السود بسبب تأنيب جون أندرو له - وجون هو حاكم ولاية ماساتشوستس ومن دعاة التحرير - لرغبة بتلر على قمع انتفاضات العبيد. كان بتلر معسكراً في قلعة مونرو بفرجينيا، وسمح لثلاثة من العبيد بدخول معسكره ويوشك

على إرسالهم إلى جيش التمرد لبناء التحصينات. وكان بتلر يحتاج إليهم فقام بتشغيلهم. لكن سرعان ما أرسل مالكهم وكبله الذي اعتمد في حديثه على قانون العبد الهارب وأن على بتلر التزامات دستورية بضرورة تسليم العبيد إليه.

فأجابه بتلر قائلاً: "إن فيرجينيا أقرت مرسوماً بانقصالها ووأعلنت أنها بلد أجنبي... وليس عليّ أية التزامات تجاه بلد أجنبي."

فعارضه الوكيل قائلاً: "لكذك تقول إننا لا يمكننا الانفصال عن الاتحاد ومن المنطق ألا تستمر في اعتقال أولئك الزوج."

فرد عليه بتلر: "وأنتم أكدتم أنكم قد انفصلتم، وبالتالي فليس لكم حق عليهم." وواصل رغبته في الانتصار والفوز بتلك الحاجة قائلاً: "ولسوف أعتقلهم باعتبارهم محظورات حرب."

استقر ذلك المصطلح في ذاكرة الشمال، وراجت كلمة "محظورات/مهربات" فوراً عبر مجتمعات العبيد بوسيلة التواصل السريعة وهي "جماعات قطاف العنب". وخلال ثلاثة أيام حصل بتلر على ما قيمته ٦٠٠٠٠ دولار "بمحاسبات اليوم" من أولئك العبيد المحظورين، وبحلول شهر أغسطس كان عنده ألف رجل وطفل وامرأة.

في ذلك الوقت، تحرك الكونجرس الذي كانت تسيطر عليه أغلبية
جمهورية، وفي السادس من أغسطس وقع القانون الأول للمصادرة،
مصرحا للجيش الاتحادي بمصادرة العبيد الذين ساعدوا الولايات
الكونفيدرالية في الأعمال الحربية. فالتقارير التي ذكرت أن آلافاً من
العبيد قد أرغموا على الخدمة لصالح الكونفيدرالية، وساهموا في
تحقيق انتصارها في المعركة الأولى "موقعة بول ران" في يوليو، أقنعت
الحكومة بحاجة الجيش لمصادرة العبيد. ووفقاً لما قاله دوجلاس
فإن العبيد لم يقوموا فقط بتأدية المهام القذرة للمتمردين، وبناء
التحصينات والعمل كحוזين فحسب بل شاركوا في الحرب كجنود
متمردين في وحدات الميليشيا بعد أن أرغمهم سادتهم على حمل
السلاح ضد الشمال. واشتكى دوجلاس من أن هذا شيء يدعو
للأسف والضييق، فبينما كان جيش المتمردين يستغل الرجال السود
"كجنود فعليين يحملون بنادقهم على أكافهم والطلقات في جيوبهم
مستعدين لإطلاق النار على القوات الحقيقية للوطن"، تغض إدارة
لنكولن بصرها متظاهرة أن أربعة ملايين عبد ومعهم نصف مليون من
الأحرار غير موجودين على أرض الوطن.

عندئذ وفي نهاية أغسطس راودت دوجلاس بارقة أمل أخرى،
حيث تمركز جون فيرمونت - القائد العام الاتحادي للإدارة الغربية -

في منطقة ميسوري وهي ولاية حدودية تشهد بعضاً من أسوأ حروب العصابات. كان هناك حوالي ٦٥ ألف انفصالي محبوب كثيرون منهم الولاية في جماعات صغيرة ويقومون باغتيال المزارعين وسرقة الخيول وقطع خطوط البرق، ويدمرون في طريقهم خطوط السكك الحديدية والجسور. ونظراً للفوضى المنتشرة في ميسوري، اتخذ فيرمونت "إجراء حاسماً" وقد أصدر في الثلاثين من أغسطس أول اعلان بتحرير للبيد في تاريخ الأمة معلناً قانون الطواريء في الولاية، وأمر بمحاكمة الانفصاليين المسلحين محاكمات عسكرية، وإعدامهم حال ثبوت جرمهم، وأن يصبح جميع البيد المملوكين لأولئك المواطنين الخائنين أحراراً بهذا الأمر.

أدرك فيرمونت أن الطريق الوحيد لكسب تلك الحرب هو حرمان أولئك العصاة من أملاكهم للأبد. وقد وافق في ذلك مستشاروه من دعاة التحرير أوينلاف جوي وجون جيرلي وزوجته جيسي. وكما طرح الأمر له لاف جوي: "لماذا نتخذ طريقاً مكلفاً ومجهداً" لقمع التمرد" في حين يوجد أمامنا طريق رخيص وقصير؟ ... دع الرئيس بسلطاته كهائد عام للجيش يعلن ذلك التحرير وسوف تنتهي الحرب في ثلاثين يوماً!" ومنذ بداية الحرب وحتى ذلك الحين أراد فيرمونت أن يحول الصراع إلى ثورة إجتماعية بدلاً من إبقاء الوضع القائم على ما هو عليه. كانت الحرب بالنسبة إليه حرباً عسكرية

وأخلاقية من أجل حرية العالم، لاجراً من أجل إنقاذ الاتحاد بإهمال
مأساة السود .

هز اعلان فيرمونت كل الجمهوريين عبر كافة أنحاء البلاد، فقد
عقدت بلدان الشمال مسيرات وتجمعات حاشدة بالمشاعل لتكريمه،
وأطلق أحد الصحفيين الجمهوريين على تلك اللحظات أنها أكثر
أحداث الحرب إثارة حتى ذلك الوقت . كما أن الكاتبة هاريت
بيتشرستو قالت نيابة عن الكثيرين: "إن الساعة قد حانت ورجلها
كذلك . " تأثر وزير الحرب سيمون كامبرون لدرجة أنه أرسل برقية
لفيرمونت يهنئه على شجاعته .

وبعد إثني عشر يوماً ألغى لنكولن اعلان فيرمونت بتحرير العبيد
خشية أن يفقد ولايات الحدود وفقاً لما أخبر به فيرمونت في خطاب
خاص . لذا، طلب منه أن يقوم بتعديل اعلانه كي يتوافق مع قانون
المصادرة الذي لم يسهم في تحرير عبد واحد، فرفض فيرمونت
بشجاعة وأخبر لنكولن أنه لو سحب اعلانه "فسوف يتضمن ذلك
أنني أراه خطأً، وأني تصرفت دون النظر لخطورة الموقف المطلوب،
لكنني لم أفعل إذ تصرفت بدراسة عميقة وبناءً على قناعات معينة
بأن ذلك إجراء صحيح وضروري ومازلت أعتقد أنه كذلك . "
وهكذا، اضطر لنكولن لسحب اعلان فيرمونت بتحرير العبيد

علانية، الأمر الذي سبب له كثيراً من الإحراج، وكثوع من الرد سرعان ما قام بإعفاء فيرمونت من منصبه.

أطلق دوجلاس على لنكولن أنه رئيس مؤصل في تأييد العبودية. وأكد أنه لا يقصد أية إهانة بذلك، لكن سحب اعلان فيرمونت بعق العبيد هو أكبر خطأ فادح في الحرب حتى اليوم، أسوأ حتى من خطاب لنكولن الاقتحائي الفادر. "وأعلن في صحيفته أن تصرف فيرمونت هو المفصل والمحور الذي كان يجب على أساسه أن تدور الحرب" كانت أمام لنكولن الفرصة كاملة لتشكيل الرأي العام لا مجرد الاستجابة الخائفة له. كان عليه أن يشكر فيرمونت لإتاحة الفرصة له لإعلان صدقه أمام العالم ورفضه التوافق مع الخونة. ولوهلة قصيرة ظن دوجلاس أن الحرب سوف يقوم بشنها "مقاتل حاسم" لا "محام مأكّر".

وبالنسبة لدوجلاس كانت التضحية بفيرمونت هي عمل "لتهذئة مشاعر أنصار العبودية في ولايات الحدود". "كان ذلك عملاً محبطاً جديداً في حرب لم تثمر سوى إحباطات، إلا أن دوجلاس شعر أن كلمات فيرمونت الشجاعة سوف تنفض عاجلاً مثل قيامة المسيح من المذبح لتدمر العبودية المتوحشة. لقد أكدت تضحية فيرمونت لدوجلاس النتيجة الحتمية في صراع ملحمي كان الوحى قد بينه لنا منذ زمن طويل عندما كان الملك ميخائيل وباقي الملائكة يقاتلون

"الحشد الشيطاني للمشاعر السيئة". ورغم الإحباطات الكثيرة التي سببها له لنكون، لم يأسف دوجلاس يوما على إلغاء رحلته إلى هايتي إذ آمن أن قوى الحق لا بد أن تسود في النهاية.

لقد ألهم موقف فيرمونت دوجلاس كي يهاجم لنكون بشدة أكبر. كان دوجلاس "صوتا واحدا متواضعا" فقط. لكنه كان يعلم أن قول الحق بقوة يمكنه أن يغير العالم. وفي مقالة وراء أخرى أدان لنكون داعيا إياه لتحرير العبيد والسماح بتجنيد قوات سوداء. فكتب: "إن الزنوج هم معدة التمرد" وكل عبد يهرب من ولاية متمرده "هو خسارة لقوى التمرد ومكسب لقضية الولاء" وإن رفض تسليح السود يمثّل القتال "بذراع واحدة". كما أدرك أن أسرع وسيلة أمام السود للحصول على حرياتهم هي أن يصبحوا جنودا بقوات الاتحاد. كان عبيد الأمة البالغ عددهم أربعة ملايين ومعهم نصف مليون أسود حر يعادلون ربع تعداد سكان الشمال ويمثلون مصدرا لا ينضب للقوة. حقيقة كان عدد نصف السود يمثل نصف البيض العصاة. وقد يفي استخدامهم باحتياجات البلد للقوات، ويمنع الحاجة للتجنيد الإجباري، وهو أكثر من تعويض لتراجع الجنود البيض الذين يرفضون الحرب من أجل حرية العبيد. وكاستراتيجي عسكري، فضل دوجلاس الديموقراطية على الجغرافيا. كما فقد دوجلاس افتراض لنكون أن ولايات الحدود التي بها عبيد مثل ماري

لاند وكينتاكي وميسوري وديلاور ستفصل عن الاتحاد إذا تم تحرير العبيد. كانت معضلة ولايات الحدود هذي تدور حول سؤال بسيط: هل مواطنو الاتحاد الذين يملكون عبيداً يقدرون وطنهم ويفضلونه على العبودية أم لا؟ ورأي دوجلاس أنهم يقدرون الوطن، مما يعني أن تلك الولايات لن تنفصل. ولو كان رأيه على خطأ ووضح أنها تفضل العبودية على الوطن فدعها تذهب! فهذا خلاص خير منها. لقد كانوا ذئاباً في ثياب حملان.

لا ريب أنه كان لا بد أن تنشب بعض حروب العصابات في ولايات الحدود حتى لو اختار رجال الاتحاد العبودية وفضلوها على الوطن. لكن ولايات ميسوري وكينتاكي وماري لاند كانت تشن حرب العصابات فعلاً. واعتقد دوجلاس أن لنكون يستطيع التعامل مع الموقف. وعندما أثار انفصاليو ماري لاند الشغب وهددوا بالانفصال أواسط عام ١٨٦١، قام بإعلان قانون الطواري وأوقف العمل بقانون "ضويرة المثل أمام القضاء" واعتقل كل دعاة الانفصال قبل أن يتمكنوا من التصويت على قرار بالانفصال. كانت النتيجة "انتصاراً ساحقاً لمؤيدي الاتحاد". وفي ميسوري أيد لنكون قرار فيرمونت في إعلان الأحكام العرفية، وأخبره ألا يقتل أي سجين دون موافقته.

لم تكن النقطة الهامة في موضوع ولايات الحدود تكمن في الوضع الرسمي للولاية وإنما في قدرة الاتحاديين على السيطرة على طرق النقل، وافق الصناعة ، ومستودعات الأسلحة في خضم حروب العصابات. فإذا لم يستطع جيش الاتحاد السيطرة على تلك الموارد، فإنه سيواجه صعوبة في الدفاع عن واشنطن العاصمة ، وسوف يفقد مصانع هامة ومعها نهر أوهايو الإستراتيجي ليقع بيد المتمردين. وطالما بقي لتكوين آراء قواده بسجن كل دعاة الاشتقاق، فإن حرب العصابات في ولايات الحدود تبقى مشكلة قابلة للحل.

كانت تلك الأفعال دستورية كما ذكر دوجلاس، وبحلول شهر سبتمبر ١٨٦١ طبع من جديد في الصفحة الأولى من صحيفته ، تحت عنوان رئيسي يقول:

" حجة جون آدمز كوينسي بشأن سلطات الحرب: وهي أنه خلال الحرب الأهلية "تحل السلطات العسكرية- في هذه الأوقات- محل المؤسسات البلدية والعبودية بين باقي المؤسسات الأخرى" وفقاً لرأى واحدة من أكثر المؤسسات القانونية حكم في البلاد فإن إعلان قانون الطواري، وتعليق العمل بقانون الإجراءات الجنائية العادي، وتحرير جميع العبيد هي إجراءات دستورية تماماً خلال الحرب الأهلية. وليس فقط لرئيس الولايات المتحدة، ولكن لقائد الجيش- أيضاً- السلطة لأن يأمر بتوقي جميع العبيد. "كان جون آدمز سيقتر

اعلان فيرمونت وسأل دوجلاس لنكون: "لماذا لا تستطيع أنت فعل ذلك؟".

لم تكن سياسة لنكون بالتعاضّي عن قضية العبوديّة حماية لولايات الحدود خاطئة أخلاقياً، وضالة عن طريق الدستور فقط، وإنما كانت كارثة من المنظور العسكري. ، وقد حدد دوجلاس أربع مشكلات رئيسية في سياسة لنكون. أولها: أنه شجع إنجلترا وفرنسا على التدخل لصالح الكونفيدرالية "الولايات المنشقة"، فالحظر الذي وضعه الاتحاد منع المتمردين من إرسال القطن إلى أوروبا وتسبب في انتشار البطالة في إنجلترا وفرنسا. وما كانت تلك الدول لتحمل حرباً طويلة الأمد تؤدي إلى تجويع آلاف من شعوبها، وذبح آلاف منا، وإغراق الملايين من الأموال. "فلتجعلها إذن حرب تحرير" وستوحد العالم في الحال معك في مواجهة المتمردين، ولصالح الحكومة.

ثانياً: سيوصل العبيد عاجلاً إلى نتيجة مفادها أنه لو كان عليهم أن يبقوا عبيداً، كما تملي سياسة الاتحاد، فلسوف يفضلون الحرب ضد الاتحاد بدلاً من الحرب معه، وسيكون عليهم حماية أنفسهم فقط، فاختيار سيد يعرفونه أفضل من اختيار طاغية لا يعرفونه. إنهم مترددون الآن. لكن لو استمرت سياستنا تلك "سوف يقررون

أنه من الأفضل لهم أن يتحملوا شروراً يعرفونها فعلاً عن الذهاب
لآخرين لا يعرفون عنهم شيئاً."

ثالثاً: "إن مشكلة سياسة لنكون مع ولايات الحدود هي أنها
مصدر إلهام للمتمردين حيث أمدتهم بالأساس الأخلاقي لما يفعلون
بقولهم إن تلك الحرب تدور حول حقاً في حكم نفسها وليس حول
العبيد، وبالطبع كان مبدأ الحكم الذاتي مبدأً طبيعياً له جذوره في
فكر الثورة. لقد كان هو السبب الرئيسي الذي جعل الجماهير
ترغب في القتال أو الموت دونه. إذن، فلتجعلها حرب تحرير للعبيد
فيصبح قتال الاتحاد - فجأة على أية حال - من أجل الحرية بدلاً من
الحرب للسيطرة على الجنوب، وليصبح قتال المتمردين من أجل
ملكيتهم للعبيد لا من أجل الاستقلال."

وأخيراً، لقد تطلبت السياسة القائمة مزيداً من التهادن مع
العبودية. فالجمهوريون مثل وليام سيوارد قدموا وعوداً بالفعل بمنح
الجنوب امتيازات عديدة ولم يكن هناك شك في استعدادهم لمنح
المزيد من أجل إنهاء الحرب. إلا أنه كما لاحظ لنكون نفسه: فإن
"أمة منقسمة على نفسها لا تستطيع البقاء. فاستمرار مهادنة العبيد
حتى تصبح الأمور كلها في وعاء واحد يجعل العبودية مشروعة في
كل الولايات."

كاد دوجلاس يُعدم من غير محاكمة لاستقاده القاسي للنكولن .
ففي نوفمبر من عام ١٨٦١ ذهب إلى سيراكيوز لإلقاء محاضرة حول
"التمرد ، أسبابه وعلاجه" . وعندما وصل إلى محطة نيويورك رأى
"عند كل ناصية" إعلانات عن محاضرته إلى جانب بيانات توزع
يدوياً تطالب بإخراسه مكروب فيها الزنجي قادم، فهل ستسامح مع
مشاعره الدينية في مجتمعنا مجرة أننا شعب يحب الحرية الدستورية
أم سوف نلقيه باستقبال (حار) يلائم وقاحته كما يستحق؟

اختار دهماء الاعداء بغير محاكمة المدينة الخطأ التي يقومون فيها
بمهاجمة دوجلاس لأن سيراكوز كانت واحدة من أكثر المدن حباً
لتحرير العبيد في البلاد . وقدم العمدة وقوة الشرطة والعديد من
المواطنين حماية كافية له حال وصوله . وتقدم للترحيب به الدكتور
فيتنج، الرجل الرقيق الهش صاحب المسرح الأثيق الذي سيتحدث
فيه لنكولن . وقام بإدخاله المسرح بنفسه رغم تهديد الدهماء
بتخريب المكان . وعندما سخر الرعاع من فيتنج بكلمة "عاشق
الزنجي" ، كان رده أن "مبادئه حول الحرية تنطبق على البشرية لاعلى
اللون" ، وبعدها تحدث دوجلاس للحاضرين الذين ملأوا المكان وقال
تصفيقاً هائلاً .

أدت الحرب إلى توحيد دعاة التحرير ووفقت بينهم بصورة لم
تحدث من قبل . ظل دوجلاس لفترة طويلة يجعل ساحات الخطابة

تمتلى بكاملها بجمهور المؤيدين . لكن مستمعيه الآن أصبحوا يضمون العديد من المحافظين والديمقراطيين الذين لم يستمعوا بأدائه الساحر فقط ولكن أيضاً بالرسالة التي يحتويها . ٧٨ ولأول مرة خلال خمسة عشر عاماً ، لم يعد لون جاريسون ولا مجموعته الصغيرة تنظر لدوجلاس كعدو لمنهاجهم السياسي في تحرير العبيد . ذلك أنهم عندما نشبت الحرب هجروا فجأة دعواهم بشأن الخروج على الاتحاد وكرامية الدستور وأخذوا يتفقون مع دوجلاس على أن الحرية تحتاج للقتال من أجلها في إطار الاتحاد وليس خارجه . وقد تأثر دوجلاس بشدة لتغير موقف رفاقه السابقين وسرعان ما انضموا جميعاً تحت لواء عصبة العبيد الوطنية التي وحدت دعاة التحرير من كل المذاهب . كان يعرف جيداً أن الصوت الموحد هو أكثر الأسلحة فعالية في مواجهة عناد لنكولن .

في بدايات عام ١٨٦٢ ، ملأ دوجلاس قاعة اتحاد عمال البراميل في مدينة نيويورك بمستمعيه تماماً مثلما فعل لنكولن قبل عامين سابقين . ومثل خطاب لنكولن السابق ناقش هو أيضاً مصير أمريكا وهنا تنتهي المشابهة . فقد أعلن دوجلاس محاربة سياسة لنكولن بشأن الاستعمار الأسود ، مصرحاً بأن مصير الأفارقة الأمريكيين هو "مصير أمريكا" وشبه الأمة بكتاب مفتوح ، حبره الأسود هو ما يعطي

معنى لصفحاته البيضاء، وألقى دروساً في الحكمة والقوة والطيبة
"وقداسة الأخوة الإنسانية."

تغلغلت روح العصر التغيرية هذه في مبنى الكابيتول . ، فأعضاء
الكونجرس أخذوا حينذاك يتحدثون عن المشاعر بانتظام أو على
الأقل بأسلوب ثوري أشبه بأسلوب دوجلاس، بل إن رئيس المجلس
ثاديو ستيفنس الصارم كبير القدم فاق حتى تشارلز سومنر في حديثه
في مجلس الشيوخ فارتفعت نبرته منادياً: "حرروا كل عبد . . اذبحوا
كل خائن واحرقوا كل مأوى للمتمردين، لو كانت تلك الأفعال ضرورية
لبقاء معبد الحرية هذا . . . فلا بد أن نعامل . . . تلك الحرب كثورة
جزرية ونعيد صياغة مؤسساتنا!"

أبدى راديكاليو أوروبا أيضاً اهتماماً صادقاً بالروح الأمريكية
الجديدة نحو تحرير العبيد . فكتب كارل ماركس بإسهاب عن الحرب
من مقره ببينا، وربما يكون قد قرأ لدوجلاس في ترجمة ما، وأخذ
يردد بعضاً من أفكاره بالتأكيد لأن ماركس كتب يقول إن الولايات
الحدودية "قد شكلت حلقة الضعف الرئيسية للشمال . . . إن
النظر بعين العطف لمصالح حلفاء غامضين أصاب حكومة الاتحاد
بضعف لا يمكن الشفاء منه وحمى للخصم أكثر نقاطه ضعفاً وهي
جذور الشر ، متمثلة في العبودية ذاتها ."

بدا الأمر كما لو كان عتق العبيد عالمياً فكرة حان موعد تحقيقها أخيراً، كما لاحظ فيكتور هوجو، وهو معجب آخر بدوجلاس. ظل دوجلاس ورفاقه عرضة للضرب والإهانة لعدة عقود، متهمين بأنهم يهددون استقرار الاتحاد. لكن بعد قيام المتمردين بإطلاق النار على قلعة سومتر، بدأت الجماهير فجأة تنظر إليهم كمرافقين حاولوا طويلاً كشف شرور العبودية وانتقاد وطنهم. وببطء شديد بدأ لنكون ينصت.

في عام ١٨٦١ كرس دوجلاس نفسه تماماً للصحافة فكتب كثيراً من المقالات وألقى قليلاً من الخطب أكثر من أية فترة أخرى منذ عام ١٨٤٣. بدا الأمر كما لو كان يريد دوام انتقاداته للنكون، فإذا لم يستطع أن يتحدث مع الرئيس مواجهة، فهو على الأقل يستطيع إرسال إصدارات جريدته إلى البيت الأبيض. ويلمح الشاعر الجديد، المدون أسفل المانشيت الرئيسي والمقبس من سفر الأمثال ، إلى أن جريدته أصبحت أداة كلامه بدلاً من صوته: "افتح فمك، واقتض بالعدل، وحام عن الفقير والمسكين!"

22 الآية ٨: الإصحاح ٣١ من سفر الأمثال في طبعته العربية يقول: "افتح فمك لأجل الأخرس دعوى كل يتيم افتح فمك تقضي بالعدل في، وحام عن الفقير والمسكين!"

وقد عكس اسمها الجديد " شهرية دوجلاس " شكلها الجديد .
ومنذ عام ١٨٦٠ تحولت إلى جريدة شهرية من ست عشرة صفحة
بدلاً من جريدة أسبوعية من أربع صفحات فقط، مما سمح له بتوفير
بعض المال مع الاستمرار على إصدار العديد من الصفحات كل
شهر . قام دوجلاس بترتيب مقالاته تابعياً حتى يمكن للقاري
متابعة الأفكار على مدار الشهر . وكانت النتيجة نوعاً من الكتاب
الشهري المسلسل ، وفي كل عدد ينتقد حالة الأمة .

كانت " شهرية دوجلاس " شكلاً ملائماً لأمة تمر بمرحلة جيشان
اجتماعي وجذري . وكان الزمن الزمن يمر خلال الحرب الأهلية
بصورة مختلفة . فينتضي الأسبوع أو الشهر كلمح البصر . أما عندئذ
فكانت اللحظة تمر بطيئة متراخية كما لو كانت دهرًا يتجمد فيها
الزمن . كان الناس يتذكرون جيداً المكان الذي كانوا فيه عندما
قرأوا خطاب لنكولن الافتاحي . وكانوا عندما يتصفحون قائمة
الضحايا في جريدتهم اليومية بعد موقعة ما ، تبدو قائمة الموتى
مناسبة كالنهر "نحو أسفل الصفحة الشاحبة" حتى تصطدم فجأة
أعينهم وعالمهم باسم عزيز لديهم . أضفت جريدته ثباتاً وتركيزاً
على الأحداث المتابعة المتدافعة . فعملت كألبيوم للصور يقوم بتجميد
بعض اللحظات في حين يستثير الاندفاع المتقدم نحو الحرب عبر
ترتيب تلك الروايات . وقد تمنى الكثيرون من أهل الشمال أن يمر

الزمن مسرعاً من أجل استعادة النظام، وتخفيف الحزن على الأبناء
المفقودين. هنا يقول هيرمان ميلفيل في إحدى قصائده الميثرة
للعواطف والذكريات: "يا الله... أمل أن يمر الوقت بسعادة، وأن
يلقي بالنحيب والنصر معاً لضياح، وأن تنتهي الحرب!" لكن
دوجلاس أراد الثورة الاجتماعية، فعالمه لم يكن يتغير بالسرعة
المناسبة والكافية.

كان يقضي أغلب أوقاته في المنزل بروشستر يكتب أو داخل
مكتبه الذي مازال يحمل اسم "نورث ستار". وكان قبل سنوات
قليل مضت قد نقل عائلته إلى منزل أوسع رقم ١٠٢٣ شارع ساوث
في بيناكل هيلز على بعد نصف ساعة من وسط المدينة. ٨٧. وبدأ
بيتهم الجديد أشبه بفيلادوربية الطراز محاطة- في وقتها- بحديقة
متسعة مطلة على تلال مائلة بخلفية طبيعية تنتشر فيها أشجار
الفاكهة، وقد وصفها أحد الأصدقاء بأنها تمتلك "مظهراً شعرياً
فريداً، وتشبه بصورة أو بأخرى جزيرة ما في عالم صغير منعزل حيث
يجد أولئك- الذين يملكون شجاعة تحدي أحكامهم المسبقة
المشينة- حياة ثقافية ثرية بالداخل واستقبلاً يمتليء طيبة وكرماً،
وقلباً دافئاً أمريكياً إلى حد ما". كان منزله الجديد يبنى على
مستوى ما بأسرة برجوازية سوداء لأن دوجلاس أصبح آمناً من
الناحية المالية أكثر من ذي قبل حيث حصل طوال العقد الفائت-

على أموال من إلقاء المحاضرات تعادل ما كان يتقاضاه أشهر الخطباء البيض في وقت كان المحاضرون فيه يعيشون جيداً. لكنه عندئذٍ، وكما لو كان يريد تعويض واجهته الأمن هذه، قام بعزل نفسه من مجتمع البرجوازيين البيض، واكتسب مظهراً ملتقفاً ثوري يترك شعره لينمو كثيفاً مع لحية صغيرة مشدبة. لأن الشعر كان بالنسبة لكثير من المستقنين البيض تعبيراً عن الذات، أي مظهر خارجي للروح الداخلية للمرأة. كما كانت "موضة" ترك جزء من الشعر على الحدين واللحية المدلاة، ولحية الجدي الرفيعة والشوارب الممتدة تحت الذقن والشعر المنتصب تدل على عقل كهربائي يمتد تياره عبر البشرة فتشتق أطراف شعره. كانت كلها مظاهر شائعة في تلك الأيام، وبدا دوجلاس حتى بلحيته - الأشبه بلحية جدي - الجديدة رزيناً مقارنة بكثير من أصدقائه. فهو لم يريد أن يتطرف كثيراً في مظهره الجديد، ولم يرغب في جذب المزيد من الانتباه لنفسه والمخاطرة باعتباره خارجاً عن أعراف البورجوازية البيضاء.

في عام ١٨٦٠، لم تكن أنا في حالة جيدة. فابنتها الصغرى آني ماتت بعمر العاشرة، وكان موت الطفلة أدى إلى انهيارها الجسماني والوجداني، فعانت كثيراً من الآلام العصبية (مرض شينجل) الذي أبقاها حبيسة المنزل بمزاج ممرور. كان دوجلاس قد كتب لأحد أصدقائه يقول: "إنني جدٌ حزين أن أخبرك أنها ليست بحالة جيدة

.... وإذا ما كان على أن أذكر جميع شكواها فلن أجد مساحة كافية بالورق كي أوقع في نهايتها باسمي رغم أن العالم سوف يدرك أنني أقع تحت ثقل هذا كله. "كانت تمثل لدوجلاس فرساً هراماً يستخدم كل "قواه الكلامية بسهولة وطلاقة لإبراز أخطائي في حالاتي المزاجية ووضعني كزوج وأب، ورب أسرة."

كان لأننا أسبابها القوية للقلق منه. فرغم أن جوليا جريفيث لم تعد مصدر تهديد لها حيث كانت قد تزوجت من موظف بريطاني ورحلت إلى إنجلترا منذ سنوات قليلة مضت، فقد ظهرت امرأة بيضاء أخرى تنافس بشراسة على استمالة عواطف دوجلاس. إنها أوتيلي آسج التي أتت إلى أمريكا من ألمانيا عام ١٨٥٢ لتبدأ حياتها من جديد، وكانت أصغر من دوجلاس بعام واحد، وهي تشبهه في كونها غريبة اجتماعياً هجرت وطنها قاصدة نيويورك وأصبحت أديبة رومانسية. لكنها كانت تفقر إلى إدراكه البراجماتي الواقعي.

نشأت أوتيلي في مدينة هامبورج، وهي ابنة لأب يهودي وأم وثنية. وكانا كلاهما بورجوازيًا متقناً. وكانت ابنة مخلصه للرومانسية الألمانية وشملت دائرة أصدقائها ومعارفها في ألمانيا كتاباً وفنانين أو بدقة ممثلين، وحاولت أوتيلي ممارسة المهارات الثلاث. لكنها وصفت نفسها "تقريباً كمثلة". كان الفن حياتها، بما في ذلك

فن الغاء الرق وفي الواقع طبعتهما تقاليد الرومانسية الألمانية نفسياً
حتى إنها ككتاة بالغة رأت نفسها في بعض الشخصيات الروائية
وتعاملت مع رواياتها المفضلة على أنها دليل هداية لما يجب أن تكون
عليه حياتها .

حدثت أول هزة رئيسية لها ذات ليلة من عام ١٨٤٣ عندما
كانت في عمر الرابعة والعشرين إذ مات والداها وانتقلت هي وأختها
إلى برلين للعيش مع أحد أعمامها . واتفق العم والأخت جيداً بينما
كرهته هي . وخلال جدل حاد بينهما صفعها العم فاندفعت تاركة
المنزل وقررت أن يكون الرد الأمثل والشجاع على تلك الإهانة أن
تتبع خطى بطل جوتة "فيرتر"^{٢٣} . فهربت إلى حدائق تيرجارتن في
برلين - وهي أكبر منتزه عام بالمدينة - واختفت وسط الشجيرات ثم
طلعت نفسها ثلاث مرات بسكين . لكنها عاشت إنما أكثر تمسكاً
بإيمانها بأن الحياة لا بد وأن تتبع خطى الأدب .

جاءت الهزة الثانية في حياتها عام ١٨٥٦ عندما قامت بالهجرة
إلى رويستتر لمقابلة فردريك دوجلاس . كانت تقيم في هوبوكن
وتعمل كمراسلة أمريكية للصحيفة الألمانية القديمة "ذا مورنيغ
جورنال للقراء المثقفين" وبعدما رسخت وجودها ضمن دائرة دعاة
التحرير، رأت لوحات لدوجلاس وقرأت كُتبه وعرفت مدى طلاقته

^{٢٣} "ألام فيرتر" قصة حب يانوس كتبها الأديب العالمي فولفجانج جوتة ونشرت عام



وجاذبيته . كان الهدف من مقابلته بروشستر أن تطلب منه التصريح لها بترجمة كتابه الثاني الأفضل مبيعاً عن سيرته الذاتية إلى الألمانية "عبوديتي وحررتي" ، وعندما قابلته في منزله رقم ١٠٢٣ بشارع ساوث، ازدادت تأثراً بصوته ومظهره . وعندما رأت أنّ لأول مرة ظننتها الخادمة .

منذ بداية علاقتهما، أضفت عليه آسنج طابعاً مثالياً أمامها . في مقدمة ترجمتها لكتابه ذاك تصوره كجسيد حي "لبطل خيالي" و"سيد كامل" لفن الخطابة، له صوت حاد مرن يقطر شهداً يصل للقلب كلما سمعته وتقول: "عندما يتكلم دوجلاس، ينداح مستمعوه مع كلماته . . كما لو كان حوارياً جديداً قد بدا لهم للمرة الأولى كحقيقة سكنت في صمت في سويداء قلب كل امريء . " ومثل القديس بولس استطاع دوجلاس أن يقلب إيمان الجماهير . ووفقاً لما ذكرته آسنج، كان ازدياد حركة مناهضة العبودية يرجع أساساً لإنجازاته وشخصيته، وعندما وصفته جسمانياً وصفته باتشاء بأنه: "رفيع وطويل ذو سمرة خلاسية خفيفة وبنية قوية . . وجبهة منتصبة دائماً . . وعبقرية واضحة وأنف معقوف . . وشفاة ضيقة انحنّت في جمال خلاب . "

وقعت آسنج في هوى دوجلاس فما هي ترى الحياة تماثل الفن، لكن هذه المرة في قصة أخرى إذ ترى نفسها الآن البطلة الجميلة

الرائعة المستمدة صورتها من إحدى رواياتها المفضلة "أفرا بن"
الصادرة عام ١٨٤٩ للكاتبة الألمانية كلارا موندت. وفي المشهد
الرئيسي لرواية موندت تقع أفرا في حب رجل ثوري مهذب أسود.
وفي الدراما التي خلقتها تقول آسج لنفسها، تماماً كما حدث في
أحداث موندت، فإن البطل الأسود متزوج بالفعل. وهذا لا يهمها
حيث أنه في الأدب العظيم - وهو يشبه الحياة المعاشة تماماً - يتعين
على البطلة أن تتحم قصة حبها وتضحى بنفسها في سبيل من
تحب. كانت تلك الحبكة الرئيسية الحقيقية الوحيدة، فلا عجب إذن
أن تتجاهل آسج ذكر آنا في مقدمتها للكتاب. كما كتبت في تناقض
غرب: "إن زوجة دوجلاس سوداء تماماً"، وفي تصريحاتها الخاصة
كانت تشير لآنا على أنها "ولاية حدودية" تحمل حجر رحن حول
عنقها". (تقصد دوجلاس)

بالفعل، ضحت آسج بنفسها من أجل بطلها لأن شقتها هي
التي اتخذها دوجلاس ملجأ في هوبوكن مع بدايات أحداث غارة
جون براون وكان رجلاً مطلوباً تبحث عنه السلطات الفيدرالية من
أول الرئيس حتى أدنى مسئول في كل مكان. وكانت آسج هي التي
هرعت إلى مركز البرق "التلغراف" لترسل إلى دوجلاس رسالة
شفرية تخبره بضرورة تدمير أو إخفاء أية وثائق حساسة تتعلق

براون. ودون معوتها، ربما كان قد تم القبض عليه وإرساله الى
فرجينيا حيث يحاكم ويعدم بالتأكيد.

لقد حققت آسنج قصة حبها لبطلها، في خيالها على الأقل،
وأخبرت أختها في أحد الخطابات: "عندما ترتبطين بشكل حميمي
برجل مثل ارباطي بدوجلاس، فستعرفين رجالاً . . . من منظور لا
يمكن أن يكشف لك بغير هذا". وفي خطاب آخر تفخر بأنها
ودوجلاس "قد اتحدا في حب أعمق من حب الكثيرين ممن
تزوجوا". كانت آسنج تضي معظم أوقات كل صباح مع أسرة
دوجلاس، وعندما تعود إلى هوبوكن في الخريف كانت تبقى متعلقة
لإجازتها الأسبوعية "موعد خطابات دوجلاس لها". وعندما
خطط دوجلاس رحلته إلى هايتي، قامت بترتيبات الذهاب معه.
كان واضحاً أنهما سيكونان معا فقط طالما كان على آنا والأطفال
البقاء في المنزل في روشيستر، وطمعت آسنج في قضاء بعض من
الوقت مع دوجلاس في بلد بعيد بدون "ولاية الحدود" أنا التي
تدخل في شئون حبهما.

لا ريب أن دوجلاس وآسنج كانا صديقين حميمين. لكن إلى أي
مدى كانت علاقة حبهما عميقة وجنسية بشكل معروف؟
فالمصادر الوحيدة الباقية تفترض وجود علاقة جنسية حميمة بينهما
تبدو من مجموعة الخطابات التي كتبها أوبتلي لأختها لودميلا بعد

الحرب. في ذهن آسج أنها حققت ما تحب. لكنها كانت تكره أختها، ففي الحقيقة كانت آنا "ودودة ومحبة مقارنة بلودميلا". إذ كانت أختها منافستها وغربتها وكان واضحاً أن آسج أخبرت لودميلا بعلاقتها بدوجلاس بعدما علمت بأنها تزوجت بأرستقراطي ألماني، ووصفها للحب بأنه أعمق من الزواج يعكس أمانى بالزهو والفخر، فمع الخصوم والغرباء كانت تغطي عدم شعورها بالأمان وغيرها بالتباهي التقافي. في كتابات دوجلاس في تظهر آسج كصديق غامض. وكان أكثر وضوحاً في مشاعره نحو أصدقائه المقربين الآخرين من أول جوليا جريفيث وإيمي بوست حتى جيريت سميث. والواقع أنه نادراً ما ذكر آسج في كتاباته العامة أو الخاصة عدا في خطاباته إلى جيريت سميث الذي كان صديقاً لآسج كذلك. قد نبغ ذلك الصمت من شيء يريد دوجلاس إخفاءه. إذ أمكنه إقامة علاقات جنسية معها دون المخاطرة بأن تحمل منه وبالتالي تدمر مستقبله لأنها كانت في عام ١٨٦١ قد وصلت إلى الثانية والأربعين من عمرها.

كانت هناك عوامل أخرى عدا آنا تمنعه من جعل ارتباطه بآسج أبدياً وجميعياً. من هذه العوامل - على أية حال - أنها كانت نخبوية "متعالية" إذ كانت غير متعاطفة كلية مع فقراء أمريكا وطبقاتها الجاهلة خاصة المهاجرين. كما أطلقت على نيويورك "ماوى حثالة

الأم بسبب الجماعات الأيرلندية الوقحة والجاهلة. " وصرحت في أحد خطاباتنا له: "أن تعليم قطة قواعد النحو أسهل من تعليم أحد سكان "ولايات الحدود". ظل دوجلاس يحمل مشاعر طيبة نحو زوجته رغم الضغوط الواقعة على زواجهما .

كما أن معتقداتهما النسبية أبقتهما متباعدين . فدوجلاس يؤمن بالله حي يستطيع تغيير أمور العالم فيقول: "كل الأمور ممكنة بيد الله، وأنا أؤمن بالعصر الأنفي السعيد الذي يسود فيه المسيح . " وكانت آسج تفزع من تلك المشاعر لأنها كانت ملحدة في الصميم ولا تعاطف كثيراً مع المعتقدات الدينية لأنني شخص آخر حيث أحلت الحقيقة في الفن والخبرة الجمالية محل الدين، وأقرت بالفجوة الروحية الشاسعة التي تفصل بينهما فصرحت: "إن التعاطف الشخصي وتوافق العديد من القضايا الأساسية تجمعنا معاً . لكن هناك عقبة تقف أمام الصداقة الودودة والدائمة هي بالتحديد . . . الإله المسيحي بشخصه ."

ربما لم تكن صدفة أنه في الوقت ذاته الذي دخلت فيه آسج حياة دوجلاس وشتت حربها الخاصة على أنا ، كانت الأمة تنقسم على نفسها . فالكثير من الأمريكيين كانوا يؤمنون بأن أمتهم عائلة واحدة . كانت ماري تشيسنوت قد كتبت في مذكراتها بعد فترة - رغم أنها أرسقراطية من الجنوب - "لقد انقسمنا بسبب عدم توافق

طباعنا . . . لقد تم طلاقنا . . شمالاً وجنوباً لأننا كرهنا بعضنا البعض. " في حين رأى دوجلاس أن هناك علاقة وثيقة بين العائلة والأمة وبين الطلاق والانفصال.

لو كان تدمير العبودية هو الطريق الأسرع لإنهاء الحرب، فإن إيقاف التمرد داخل الوطن أكثر صعوبة في تحقيقه ؛ فوسط ذلك الجو لم تعد قدرة دوجلاس على التمييز بين الصواب والخطأ قاطعة وواضحة. ففي حين كان يرفض المهادنة في معارضته للعبودية وتصميمه على أن يقوم الأمريكيون بالتفريق بين ولائهم للأمة وولائهم للعبودية، كان في علاقاته الشخصية يبحث عن التوافق والاعتدال. فقد أعاد وحدته مع ويليام لويد جاريسون خلال الحرب، مستبعداً صراعها الطويل المرير الذي امتد لعقد من الزمان. كما كتب خطابات ودودة لسيده السابق توماس أولد يخبره فيها أنه يحبه، بل ووزع عواطفه بين زوجته وأوبلي آسج طوال عشرين عاماً، واتخذ لنكولن صديقاً رغم انتقاده لسياساته.

أخذ المد يتحول ببطء، وبنهاية فبراير قام دوجلاس بتجميع قائمة انتصارات الاتحاد من جانب والكوفيدالية من جانب آخر واستنتج من منظور عسكري مجت أن الاتحاد قد سحق التمردين بفوزه بثلاث معارك مقابل كل معركة فاز بها العدو. كان الاتحاديون في كل

مكان يتهللون فرحاً بينما كان المتمرّدون يشملهم اليأس، وسوف تستمر مسيرة الإلتصار طالما امتلكت قوات الإتحاد قواتاً مدربة تعادل ثلاثة أضعاف قوات الكوفيدالية. كان المتمرّدون يتباهون بأن رجلاً واحداً من الجنوب يكافئ خمسة من رجال الشمال، فأخذ ذلك الفخر يتلاشى من صفحات جرائدهم، وأبدلوه "بصرخة السخط" وبالتالي يكون المتمرّدون قد فشلوا عسكرياً، وهذا ما استخلصه دوجلاس.

كان "قلب الشعب" في مكانه الصحيح لدى مواطني الشمال. ففي فبراير ١٨٦٢ انطلق دوجلاس في رحلة كالاعصار لمدة أسبوعين قطع فيها آلاف الأميال. تحدث فيها لصالح رابطة تحرير العبيد وقابل عشرات الآلاف من الناس، وتعامل مع تلك الرحلة على أنها حملة سياسية. وكبداية لكل حديث، كانت موضوعات الحرب والعبودية أكثر انتشاراً وشعبية من أخبار الطقس. وهكذا، كان من السهل اجتذاب الناس إليه رغم كونه أسوداً. كان يتحدث إلى المسافرين في محطات القطارات ومراسي الأنهار وفي العربات وعلى أسطح السفن، وأثناء تناوله طعامه بالمطاعم، بل مر بالموائد ليرى كيف يشعر الناس تجاه الحرب والعبودية. وفي المساء كان يذهب للناس في بيوتهم ويجلس حول النار للحديث حول مستقبل الأمة. كما اختلط بالناس في الكنائس وصالات الاستقبال بعد محاضراته

ليتوصل للرأي العام ومشاعره. ورغم الطبيعة القاسية للرحلة والطعام السيء والدخان الذي ملأ جو القطار ومرور بعض المخمورين من الديمقراطيين الذين تجاهلونه مغضمين بكلمة "زنجي"، إلا أن تلك الرحلة ملأته بالشجاعة وخلص إلى: "أن الشعب جاهز تماماً لإزاحة العبودية من الوطن حالما تبدأ الحكومة في قيادة الطريق، أو تتحى عنه." فالرأي العام كان إلى جانبه، واتصارات الاتحاد ورابطة تحرير العبيد أخذوا يحولون الشمال ضد العبودية.

وبعندئذ، وفي أبريل من عام ١٨٦٢ أصدر الكونجرس قانوناً لإلغاء الرق في ولاية واشنطن وكانت تلك أول مرة منذ عام ١٨٤٦ - عندما ألغت نيوجيرسي العبودية في تاريخ الأمة يصدر فيها قانون بشأن تحرير العبيد. منذ ذلك الوقت تزايدت أعداد العبيد بنسبة ١٥ مليون نسمة.

أرسل دوجلاس إلى تشارلز سومر ليشكره على تقديم جهوده للدفاع عن القانون إذ كانا قد أصبحا صديقين مؤخرًا، خاصة وأن ضرب سومر بالعصا قد أدى به للتواضع، وأزال الكثير من التعالي الذي وقف في طريق علاقته بالسود. ترأسلا بانتظام وأرسل لبعضهما مجموعة من كتاباتهما، وكما قال دوجلاس في مذكرته، كان سومر "أفضل تجسيد لمبدأ مناهضة العبودية الموجود الآن في مجالس الأمة." وأضاف: "فليحفظك الله!"

رغم تلك النجاحات الأخيرة ، نظر دوجلاس للتكوين على أنه مازال عائقاً ، فمهما كانت نواياه ، كانت أفعاله "تحتسب في خاتمة حماية ووقاية النظام العبودي. " ، كما قال دوجلاس لجماهير يفوق عددها ألفي شخص في الحلاء احتفالاً بيوم الرابع من يوليو في منطقة هيمرود بإقليم فنجر ليكس في نيويورك . فقد وقف كني وسط أشجار الصنوبر وهو يلقي خطابه خطابه ، وتجمع الناس حوله في دائرة . كان يرتدي بزة زرقاء فاتحة اللون تباري لون السماء ، بدت ترسل أشعة لامعة منعكسة من الشمس على فترات . وعلى مبعده ، كانت فرقة موسيقية تعزف بهدوء كما لو كانت ترافق ابتهاجته الثرية والمتنافرة مع سياسات الرئيس المضللة .

منذ بداية الحرب ولتكوين تقوده فكرة ولايات الحدود لا الولايات الحرة . إذ أراد "إعادة بناء الاتحاد على أساسه الفاسد القديم القائم على التوافق" وفيه يحتفظ ملاك العبيد بكل السلطات التي كانوا يملكونها دوماً .

لذلك ، رفض تسليح العبيد كما رفض تحريرهم . كما ألغى اعلان الجنرال فيرمونت بتحرير العبيد ، وبعد ذلك ألغى قرار الجنرال دافيد هينتر الذي أعلن في مايو ١٨٦٢ قانون الأحكام العرفية في ساوث كارولينا وجورجيا وفلوريدا وجاء فيه : عبيد تلك الولايات أحراراً للأبد . وفي ذات الوقت ، منع الجنرالات الذين يناهضون العبودية من

التدخل في شئون نظام الرق، بل وسمح للقادة مؤيدي العبودية مثل الجنرال هنري هاليك وجورج ماكيلان "باتهاك روح قانون المصادرة الذي اعتمده الكونجرس والذي يمنع جيش الاتحاد من إعادة العبيد الهاربين إلى سادتهم الخونة، وكأنما أراد أن يضيف الإهانة للظلم . في نفس يوم تعطيله لقرار الجنرال هنتر بعق العبيد، صرح علانية أنه سوف يدافع بصرامة عن قانون العبد الهارب.

أضحت سياسات لنكولن أكثر مأساوية لأن الأمة أصبحت الآن أكثر قدرة عن ذي قبل على تحقيق مثلها العليا . ولاحظ دوجلاس : "هناك مبادئ في وثيقة إعلان الاستقلال سوف تطلق سراح كل عبد في أرجاء المعمورة، وتعد الأرض لاستقبال ألفية الحق والسلام." لكن بالنسبة للنكولن "يا للحسرة!" .

أخبر دوجلاس مستمعيه أن هذا الاتحاد لا يمكن إنقاذه حيث لا يمكن إعادة بنائه كما كان قبلاً. قال: "عليكم أن تعرفوا تلك الحقيقة!" وقدم استراتيجيتين بسيطتين لتدمير الوحشين التوأمين: التمرد والرق. فأولاً، يتعين على "الكونجرس أن يقر قانوناً حاسماً للمصادرة يعلن أن كل عبيد السادة المتمردين أحراراً للأبد!"

وثانياً، يتعين على الرئيس - كقائد للأمة - أن يصدر قراره الخاص بتحرير العبيد ليمنح قانون المصادرة أسنانياً .

أعلن كثيرون ممن حضروا احتفالات الرابع من يوليو، في بستان
الصنوبر ، أن لنكون كان نبياً ذلك أنه بعد ثلاث عشرة يوماً أي يوم
١٧ يوليو اعتمد الكونجرس قانون المصادرة الثاني الذي أعلن أن كل
العبيد داخل حدود الاتحاد أحراراً للأبد . ودعا الرئيس لتحرير كل
عبيد السادة المتمردين . طلب القانون من الرئيس أن يمنح المتمردين
مهلة قدرها ٦٠ يوماً للعودة إلى الاتحاد أو مواجهة المطاردة واحتجاز
أموالهم . كما منح السلطة للرئيس لاستخدام وتسليح السود في
الجيش وتوفير "توطن اختياري" في بعض "البلدان الأجنبية" للعبيد
الذين تم تحريرهم أثناء الحرب .

كان قانون المصادرة الثاني ثورياً في محتواه، رغم مادته الخاصة
بالمستعمرات . فتأثيره يعتمد على لنكون ، ووفقاً لما لاحظته
دوجلاس ف : "إن السلطة الوحيدة القادرة على فتح الحياة في ذلك
القانون مخولة للرئيس . " فلو أمر لنكون قواده بمصادرة جميع أملاك
المتمردين، وأصدر تصريحاً بعق العبيد وأمر الجيش والقوات البحرية
بتشغيل السود، عندئذ سوف يؤدي القانون - مدعماً بتصرفات
لنكون المؤيدة - إلى تغيير الأمة . وإذا لم يفعل لنكون شيئاً، فلن يزيد
القانون كثيراً عن رسالة ميتة .

انتظر دوجلاس ماسي فعله الرئيس بقلق . وفي يوم ٢٥ يوليو
أصدر لنكون بياناً يحذر فيه الجنوبيين بإيقاف تمردهم وإعلان

عودتهم للولايات المتحدة والا ستعرض أملاكهم للمصادرة. لم يرد
دوجلاس أن ذلك التصريح قد وصل إلى المدى المطلوب لأنه لم يذكر
شيئاً عن حالة العبيد، وصمت عن تشغيل وتسليح السود. ولا يزال
لنكولن كثير التردد شديد البطء في أفعاله.

كان مصدر واحد مشجع جاءه من تشارلز سومنر، الذي قال
إنه يعرف الرئيس عن قرب وحث دعاة التحرير على الوثوق به حيث
قال: "أتمنى أن تكونوا قد عرقتم الرئيس جيداً وسمعتكم تعبيراته
الصريحة عن قناعاته بشأن العبودية ولربما تمنيتم لو كان أقل حذراً.
لكمكم ستحمدون له أنه خصم عنيد للعبودية في قرارة نفسه."
ودعى لتقديم الدعم للنكولن: "... حتى لو كان عليكم أن تدفعوه
قدماً." قام دوجلاس بنشر خطاب سومنر في صحيفته.

بعد أسابيع قلائل، فقد دوجلاس الثقة في لنكولن من جديد،
ففي أغسطس التقى الرئيس بوفد من السود الأحرار من واشنطن
وشجعهم على الهجرة. ربما شعر دوجلاس بأنه عومل بازدراء
عندما لم تتم دعوته للقاء. وكان قد اشتعل غضباً برسالة لنكولن أن
السود هم من تسببوا في الحرب وأنهم لا يمكن أن يتساووا بالبيض،
وأنهم يجب أن يهاجروا إلى بلد مداري. كما خلس دوجلاس إلى أن
استجابة لنكولن على أنها "إنني لأحبكم. عليكم أن ترحلوا عن
أرض الوطن!" لم يكن الرئيس يهتم بالإنصاف لما يقوله السود. فكل

خطوة في مسيرته الرئاسية تتعلق بالعبودية ثبت أنه كان نشطاً في تدعيمها وسلياً "نحو قضية تحرير الذين يدين لهم بانتخابه."

وفجأة في ٢٢ سبتمبر، ومثل انفجار جاء من السماء، أعلن الرئيس بيانه المبدئي بشأن تحرير العبيد. إذ أعلن أنه يوم ١ يناير عام ١٨٦٣ سيصبح كل عبيد الملك المتبردين "أحراراً للأبد"، وأمر أفراد القوات المسلحة بالاعتراف بحريتهم، بل إنه مضى خطوة أبعد من خطوة قانون المصادرة فحث الكونغرس على تحرير العبيد في ولايات الحدود بتعويض سادتهم. وبعد يومين، علق العمل بقانون "المثول أمام القضاء" لكل المتبردين ومخرضيهم وأمر بمعاملتهم كأسرى حرب.

كانت اللحظة التي وردت فيها أنباء البيان التمهيدي لقرار تحرير العبيد أسعد لحظات حياة دوغلاس. كان يعمل بمنزله في روشيستر عندما سمع الإعلان وكتب رده على ذلك ونشره في الصفحة الأولى لجريدته. كاد لنكون قد حطم فولده بسبب "بطء التشاور" وأغرقه ذلك في أعماق اليأس. لكن مثل شيء ضاع وتم استرداده، تجددت آماله فجأة من أجل الأمة فأعلن: "اننا نصرخ فرحاً لأننا عشنا لنسجل هذا القرار الصحيح." إذ كان قد كرس كل ساعة من ساعات يقظته منذ لحظات صباه لإنهاء العبودية. فحينما كان طفلاً على الشاطئ الشرقي لماي لاندا، كان يسأل لماذا السود هم

العبيد ؟ ومن تلك الساعة فصاعداً كانت "الصرخة التي وصلت إلى شغاف روحي وأكثرها سكوتاً، ليلاً ونهاراً وهي إلى متى ؟ إلى متى . . رباه ؟ أيتها القوة الأبدية للكون، إلى متى ستستمر تلك الأوضاع ؟" الآن عرف . إن خلاص الملايين أوشك على التحقق .

لم يعد لدى دوجلاس أي شك في أن إعلان الرئيس بالتحريض مع قانون المصادرة الثاني سوف يؤديان سريعاً لنهاية الرق في جميع أرجاء أمريكا . "قالبودية بمجرد إلغائها في ولايات التمرد سوف تصاب في مقتل في ولايات الحدود إذ عندما تتحول أركنصو إلى ولاية حرة، لن تستطيع ميسوري الاستمرار كولاية للعبيد . " وما لم يكن دوجلاس متأكداً منه هو إلى أي مدى سيستطيع لتكوين الاستمرار في التسك بقراره ؟ لأنه خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت ٢٢ سبتمبر نادراً ما ذكر الرئيس أي شيء عنه . الأكثر من ذلك أن دوافعه بدت نابعة من الضرورة العسكرية المجردة . كما أنه أبدى في كل تصرفاته السابقة افتقاراً واضحاً لمشاعر العداء الحيوي للعبودية . لكن دوجلاس عرف أنه لا لتكوين ولا أي إنسان آخر له السيطرة على حركة العتق . فهناك أحداث أعظم كثيراً من سلطات الرئيس "قد انتزعت ذلك القرار منه . "هذا ما ذكره دوجلاس مضيفاً أن نفس تلك الأحداث سوف تدفعه للمزيد : لتوقيع القرار النهائي بالخلاص . كان العبيد يفرون يومياً من ساداتهم باتجاه حدود الاتحاد . وكان دعاة

التحرير يتحدثون بلغة واحدة وعمل الجمهوريون في الكونجرس على إلغاء العبودية، وقام جنود الاتحاد بقتل خونة الوطن. كان كل ذلك جزءاً من موجة العناية الإلهية المتقدمة لاكتساح الأرض. لذلك كان غريباً أن نفترض أن رجلاً واحداً بيده خلاص أربعة ملايين عبد. إذن، لن يتخذ أبراهام لنكولن أي خطوة للتراجع، وحتى لو حاول فسوف تخرسه وتكسحه موجة التقدم.

ومع اقتراب يوم الخلاص، بدا دوغلاس غير قادر على الكلام. كان يوم ٢٨ ديسمبر، وهو الأحد السابق لتفعيل قرار التحرير، قد تحدث في كنيسة جبل صهيون الأمريكية بروشيستر وهي من الأماكن المفضلة لديه لأنه عرف شعبها وأحب حجارتها القوطية الطراز بزجاج نوافذها المتداخلة الألوان الذي يبدو - خاصة الآن - مترججاً. كانت السماء بلا سحب، "شمسها مشرقة والجو معتدل" وكان ديسمبر بهيجاً كما لو كان مايو. وكان اليوم "منسجماً مع صباح الحرية الجيد الذي على وشك أن يهل علينا." توقع المصلون ساعتين تقريباً من الوقت لأداء خطبة دوغلاس لكنهم بدلا من ذلك تلقوا موعظة في عشر دقائق. كان ذلك أقصر خطاب في حياته لأنه بدأ بقوله: "ذلك يوم يصعب فيه الكلام ثراً... إنه يوم الشعر والغناء... أغنية جديدة." كان واحد من أعظم خطباء العالم، يبدأ كلامه بقوله إن ذلك ليس وقت الكلام! فالكلام لا يمكنه

أن يحمل العاطفة التي يريد نقلها للآخرين . إن الكلمات لا يمكنها أن
تصور العهد الجديد القادم على نحو كاف . لقد طنى أمله المستعاد
من أجل الوطن على إيمانه بقوة تأثير "الحكي" ١٤١ .
في يوم رأس السنة الجديدة لعام ١٨٦٣ ألقى دوجلاس خطاباً
قصيراً آخر . وقد استلهمت مئات الاحتفالات عبر بلدان الشمال
روح العصر الجديد ، ولم يكن دوجلاس وحيداً في تفضيله الموسيقي
والشعر وصيحات الفرح على إلقاء المحاضرات . أما في بوسطن
فقد شهد ثلاثة آلاف شخص من بينهم أغلب الطبقة المثقفة في نيو
إنجلاند حفل الابتهاج الموسيقي بقاعة "ميوزيك هول" بينما فضل
دوجلاس حضور احتفال أقل أناقة في تيرمونت تمبل القريبة وهي
كنيسة معمدانية تقع على بعد مبنى واحد في مجلس العموم . كانت
هذه الكنيسة من اللكنائس المتكاملة القليلة في بوسطن وكانت لها
شهرة مثيرة بين الراديكاليين . فغالبا ما ألقى كل دعاة التحرير الرئيسيين
خطبهم هناك ، من ويليام لويد جارسون ووينديل فيليبس حتى جون
براون وجيريت سميث . حتى لنكولن ألقى محاضرة بها ، ودوت
رنات لكنته الغربية في أرجاء حوائطها عام ١٨٤٨ أثناء دعوته
لانتخاب زاكري تايلور . كما خطب دوجلاس في هذا المبنى في عدة
مناسبات ، كان أقربها قبل عامين في ذكرى استشهاد جون براون ،
وقد حاولت جماعة من الدهماء منعه من الكلام . لكنه شق طريقه



بقوة للمنبر "مثل ملاكم مدرب" وألقى رثاءه. فإذا لم تستطع الكراهية أن تخرسه، حينذاك فالسعادة الآن تطير به فلا يقدر على الكلام. تقابل أكثر من ثلاثة آلاف من السود والبيض ودعاة التحرير في الصباح عند الكنيسة، وألقى المؤرخ الأسود ويليام كوبرنيل محاضرة حول معنى "عيد العام الجديد للعبيد" وكان الاحتفال تقليدياً علامة على نهاية أسبوعٍ بكامله من الشراب والاحتفال والراحة في العمل. وكان معروفاً أيضاً "يوم انكسار القلب" لأن كثيراً من العائلات كانت تباع فيه وينفصل أفرادها. لكنه من الآن فصاعداً سوف تميز رأس السنة الجديدة "بالمجد الخالد في تقويم الزمن". وطوال اليوم، أقيمت عدة خطب وقطع الموسيقى، لكنهم يصدر أي إعلان عن قرار العقق النهائي. اختتم دوجلاس تلك الجلسة المسائية بقوله إن تلك اللحظة تمثل اقترافاً حاداً عن خطايا الماضي. "لقد مررنا بفترة من الظلام الحالك، لكننا الآن نرى ضوء الفجر ونلتقي الآن للاحتفال به." وفي المساء، امتلأ المكان بالموسيقى والعروض وغيرها بينما كان ينتظر كل امرئ كلمة من واشنطن بقلق شديد. وفي الساعة ١١ مساءً قال دوجلاس: "إن نعود لبيوتنا حتى الصباح." إذ شعر بالكآبة وبدأ يفقد الأمل كله من جديد. لماذا يتأخر لتكون دائماً إلى هذا الحد؟. وفجأة اندفع رسول داخل القاعة وأعلن: "إنه قادم... إنه على أسلاك البرق" وانفجرت قاعة الكنيسة بصيحات الفرح. قال

دوجلاس: "لم أر سعادة مثلها قبلاً . . . ولم أر حماسة مثل تلك من قبل. لقد صفقتنا لأبراهام لنكون ثلاث مرات ولكل اسري آخر ثلاثاً". وعندئذ، بدأ دوجلاس يغني تلقائياً الأغنية البطيئة "فلتدو أيها البوق . . . دو!" وهي أنشودة جون براون المفضلة. "

فلتدو أيها البوق . . . دو،

بذلك الصوت المبهج الجاد

ودع كل الأمم تعلم

إلى أبعد حدود الأرض،

أن يويل العتق آتٍ الآن،

ليعيدكم أيها المرتهنون بالخطيئة لوطنكم!

بصدور قرار التحرير، تغيرت اتجاهات دوجلاس نحو لنكون فجأة بصورة درامية. ولم يعد ثانية لانتقاد الرئيس بقسوة رغم أنه واصل الاختلاف معه حول الكثير من الأمور. لقد عرف جيداً أن ذلك القرار يعد وثيقة ثورية حولت الحرب إلى "سباق حضاري ضد البربرية" بدلاً من القتال من أجل الأرض. وكان هذا يتطلب "طاقة وحياة أبعد كثيراً مما به من كلمات." كما أصبح وثيقة مقدسة أخرى أعادت إعلان الاستقلال لمكانه الصحيح وسط قوانين الأمة. وصرح أنه من الآن فصاعداً سيعد يوم الأول من يناير ومعه الرابع من يوليو عيدين توأمين لميلاد الحرية.

كان الزمن هو كل ما كان يحتاجه لنكون. فكل شيء كان يحدث بصورة متسارعة يهتز ويدور خارج السيطرة حيث بدا عالمه كله في دوامة أبدية من الحركة. لقد أراد من كل فرد في الوطن- خاصة الجنوبيين- أن يسيطر على نفسه وأن يبدأ قليلاً. لقد ضرب مثلاً كرجل دولة يسيطر على الزمن وعلى عواطفه.

وخلال الأشهر الأربعة ما بين انتخابه ووصوله إلى واشنطن، تصرف كما لو كان يمتلك كل الوقت في العالم. وفي الواقع فقد قام هو وماري بالتعامل مع تلك الفترة كأنها شهر عسل رئاسي، فذهبت ماري لنيويورك ثم إلى سانت لويس لشراء خزانة للثياب طالما سيتقاضى زوجها ٢٥٠٠٠ دولار في العام أي خمسة أضعاف متوسط راتبه السنوي السابق، ولن تقلق بعد ذلك بشأن الأسعار، خاصة وأنها تحب التسوق. ولقد ذلك أنظار التجار الذين كانوا يتلهفون على عرض بضاعتهم وإقناعها بشراء ثوب آخر.

بقى لنكون في سبرينجفيلد يتمتع جحافل زواره بحكاياته الطويلة، ونكاته الرديئة مقتبساً الكثير من خرافات يسوب، واستمع إلي عدد لا يحصى من الساعين إلى مكتبه لقصته التي تتطوى على مفارقة في القول عن . فقد قال باتريك: "لن ألبسه أبداً . . . حتى أرديه يوماً أو اثنين فيتسع قليلاً." وفي هذه اللحظة كان لنكون يضرب فخذه

أو "يجذب ركبته لأعلى حتى يقتربا من وجهه" ويضحك بصوت كالزئير حيث تتردد أصدااء ضحكته حادة النبرات في أرجاء مقر الولاية بسبرنجفيلد . بل لقد قام لتكوين باستقطاع جزء من وقته خارج العمل لزيارة زوجة أبيه سارة بوش جونستون لتكوين التي لم يرها منذ سنوات، وكانت تعيش بمقاطعة كولز في جنوب شرق الولاية . وكما يصل إليها، كان عليه أن يسافر بقطار شحن بارد قذر ثم بواسطة عربة يجرها جواد ليصل إلى هناك . صرخت سارة عند رؤيته، فلم ترغب يوماً أن يرشح نفسه للرئاسة والآن يملؤها القلق "لما قد يحدث له في واشنطن". "فاكد لها: "لا.. لا يا أمي! بقي في الله وسيكون كل شيء على مايرام، وسوف يرى بعضنا البعض قريباً .

بدأ لتكوين يترك لحيته تنمو استجابة لمستشاريه من الجمهوريين والحسين رغم أنها بدت كشعر العارضين المشوه حيث أنه كانت له سوائل خفيفة على جانبي خديه . كان ما أقنعه لتجربة ذلك الشكل الجديد خطاب تلقاه منذ أسابيع قليلة سابقة على الانتخابات من الفتاة جريس بيريل - ذات الأحد عشر عاماً - في ويستفيلد بنويويورك بالقرب من بحيرة إيري . كانت جريس قد وعدته باحضار أخوتها لانتخابه إذا ماترك لحيته تنمو قائلا: "سوف تبدو أفضل كثيراً لأن وجهك رقيق جداً . . . فكل السيدات يحبن

سوالف الرجل وسوف يدفعن أزواجهن للتصويت لك. عندئذ،
ستصبح رئيساً. " تأثر لنكون كثيراً باقتراحها وأجابها بملحوظة
شخصية صغيرة، قال لها فيها إنه لسوء الحظ ليس لديه بنات وأن
لديه ثلاثة أبناء "أكبرهم في السابعة عشر من عمره والثاني في
التاسعة والأصغر في السابعة من عمره. أما بالنسبة لسوالفي، فلم
أترك أياً منها تنمو من قبل. أفلا تظنين أن الناس سيقولون إنه شيء
سخيف إذا ما بدأت الآن؟ ". إلا أنه نفذ نصيحته على كل حال
ربما لاعتقاده أن السوالف ستضفي عليه مظهراً أكثر تبجيلاً، أو ربما
واقفها لأن وجهه - فعلاً - رقيق جداً.

علق العديد من الناس على طيش لنكون وخفته خلال الشهور
بين الانتخابات وبين استلامه لمهامه. لم يفهم ذلك الكثير من الزوار،
أو استنجوا أنه غير صالح لحكم البلاد. لكن روح الدعابة كانت
طريقته في التعامل مع الأزمات الخطيرة.

ذات ليلة خلال عشائه بأحد المطاعم، تقدم إليه أحد المعجبين
ليخبره بأنه يأمل أن يسخر حياته لحمايته، فابتسم لنكون واندفع
يقص عليه قصة جندي نسجت له أختاه حزماً مكتوب عليه:
"النصر أو الموت!" فقال الجندي "لا،... لا تكتبوا تلك الجملة بهذه
الصراحة، بل اكتبوها هكذا "النصر أو الجراح البالغة!" .

استخدم لنكون روح المرح - أيضاً - مع السياسيين الذين كانوا يعارضونه . ذات مرة ، سافر الحاكم السابق لولاية كينشاسي إلى سبرنجفيلد ليحثه على الاستجابة لمطالب الانفصاليين ويتسم لنكون - من جديد - ثم يروي له خرافة من يعسوب عن الأسد الذي يقع في حب ابنة الفلاح ، فطلب الأسد يدها - وهو منهار تماماً - للزواج ، ووافق الفلاح شرطه أن يقوم الأسد بمجمل أنيابه ونزع مخالبه كيما يهديء من روح ابنته فوافق الأسد ، وحالما نزع أنيابه ومخالبه ، ضربه الفلاح بهراوته وطرده بعيداً . أعجب المسئول من الكينشاسي بالحكاية ، ولكن لم تعجبه المقارنة بين الفلاح صاحب العصا وبين ملاك العبيد .

نبح جزء من طيش لنكون بسبب اقتراضه أن الانفصاليين كانوا يبلغون وأنهم سوف يعودون سراعاً للاتحاد . فمئذ اتفاق ميسوري لعام ١٨٢٠ ، كان ملاك العبيد وحلفاؤهم يتحيلون ويبلغون للالتفاف حول واشنطن حتى أصبحت العبودية مؤسسة قومية كاملة ، وأصبحت الحرية - في المقابل - ترقاً فتوياً . وفي مواجهة العديد من خطط التوافق التي كانت تدور في قاعات الكونغرس ، وتهديدات القتل التي تجاهاها لنكون ، التزم "صمّاً مطبقاً" وفقاً لصياغة دوجلاس عدا محاولته طمأنة الجنوب إلى أنه لن يتدخل في شئون العبودية بولايات العبيد . وفي خطابات "الخاصة والسرية" ، هجر

لتكون نبرة الطيش والتهور أخذ يكرر قوله للجمهوريين عبر أرجاء البلاد: "لا تجعلوا هناك مجال للحل الوسط بشأن العبودية إذ لو تحقق لضاع كل عملنا هباءً، ولا ستر الخطأ طويلاً، وأصبح علينا أن نبدأ من جديد . . . فلأن يأتي زورق القطر الآن أفضل كثيراً من أن يأتي فيما بعد . " إن هدف كل الحلول الوسط هو "وضعنا مرة أخرى على الطريق السريع للإمبراطورية العبيد . " وإذا لم نقم باحتواء مسألة العبيد بجذر، سيحاول الجنوبيون مرة أخرى غزو أراض جديدة أو الاستيلاء عليها لإشباع شهوتهم في الشر .

لم يجد لتكون مشكلة في منح الجنوب المزيد من الإمتيازات، ووافق على إبطال قوانين الحرية الشخصية في ولايات الشمال التي تعوق تفعيل قانون العبد الهارب . كان ذلك تنازلاً هائلاً لأنه في حين يرفض التدخل في شؤون العبودية بالجنوب، يريد أن يقلص حرية السود بولايات الشمال . كان يقول: "بالنسبة للعبيد الهاربين . . . فأنا لا أهتم بهم قليلاً" ، بل إنه وافق على جعل نيومكسيكو ولاية للعبيد إذا تم منع المزيد من امتداد الرق . "كانت تلك المشروعات والمفاوضات تجري في خطابات السرية، أما في العلن فقد قدم نفسه كمؤيد لرجل الدولة الواثق الذي ينتظر في صبر أن تهدأ أهواء الجنوب .

وصل لتكون لأقرب مرحلة إلى فقدان السيطرة أثناء أزمة الانفصال التي حدثت وهو يعد نفسه لمغادرة سبرنجفيلد متجهاً

للبيت الأبيض، بل كان قد قام بحزم منقولات أسرته بنفسه مسجلاً عنوانه عليها (أ. لنكولن - البيت الأبيض - ولاية واشنطن) ناسياً أن كل مواطن يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب. كان قد قضى نصف عمره في سبرنجفيلد وفيها تحول من صبي فقير وحيد جاهل إلى أول رئيس عصامي. وعجلت تعبته لمنقولاته بدقة عاطفية بدا معها ماضيه وحاضره أشبه بدوامة من الفوضى فجأة مثل صور تلتقطها من ألبوم الأسرة وتشرها في الهواء .

قبل المغادرة يوم ١١ فبراير، بعد عيد ميلاده الثاني والخمسين بيومين، ذهب ليودع شريكه القانوني ويليام هيرندون، فأشار للوحة الخشبية المعلقة خارج المكتب قائلاً : " أتركها معلقة هناك دون إزعاج ! " ثم خفض صوته وأضاف : " و اشرح لعملائنا أن انتخابي رئيساً لا يغير من مؤسسة لنكولن وهيرندون للمحاماة في شيء . فلو عشت سأعود ذات يوم وعند ذاك سنمضي معاً في ممارسة أعمال المحاماة إذا لم يحدث شيء آخر . "

ودع جيرانه بكلمة واختنق بالعبرات حتى أنه كان عليه أن يتوقف برهة ليجمع شتات نفسه ليقول : " إنني أدين لهذا المكان ولأولئك الناس بكل شيء ... لقد عشت هنا ربع قرن، ومررت من الصبا إلى الكهولة، وولد أطفالي ومات واحد منهم ودفن هنا، وأنا أرحل الآن لا أعلم متى قد أعود، وما إذا كنت سأعود أم لا،

وأمامي مهمة أعظم بكثير من تلك الملقاة على عاتق جورج واشنطن. وبدون معونة الإله القوى القدير لا يمكنني أن أنجح فبذلك المعونة لن أفشل أبداً . . فعناية الله ترعاكم ! وآمل في صلاتي لكم أن تقودوني، إنني أودعكم وداع المحبة. " ثم صعد قطار الرئاسة ولم ير سبرنجفيلد ثانية مطلقاً .

عكس خطاب الوداع الذي ألقاه لتكون إيمانه المتزايد بالله باعتباره المصدر الأساسي للقيم، ولكن احترامه غير المشروط للقانون والدستور باعتبارهما "الدين السياسي للأمة" كما اعتاد الحديث عنهما منذ أمد طويل ، حطمته أفعال ستيفن دوغلاس وروجر تاونسي وباقي قادة "سلطة ملاك العبيد" . وحلت قوانين الطبيعة والقانون الإلهي حينذاك محل تلك القواعد العلمانية. لكنه بعكس فردريك دوغلاس لم ير في نفسه نبياً ينفذ إرادة الله، أو حتى يدعي علمه بما يريد الله تحديداً . فالله لا يحيط به شيء أكثر منه روحاً كامنة . إن أقصى ما يأمله المرء على الأرض هو أن يتعرف على علامات وجود الله ثم يعقد اتفاقاً (أو عهداً مقدساً) معه . وبالإيمان به، وهو الذي لم يتخلى مطلقاً عن هذه الأرض المفضلة سوف يبادل الله تلك الثقة وذلك الإيمان بإرشاد ذلك المؤمن به إلى طريق الحق .

أمل لنكون في اتفاق مشابه بينه وبين ناخبيه . وخلال رحلته التي استغرقت إثني عشر يوماً حتى واشنطن توقف القطار الرئاسي عند كل مدينة وقريّة، وخرج لنكون من عربته إلى الشرفة ليلقي خطاباً موجزاً طلب فيه من الناس أن يساندوه طالما ساند هو الوطن ودعم قوانينه حسبما يفهمها .

كانت عربة لنكون أفخم عربة نقل رآها هو أو أي شخص آخر في حياته؛ كانت عربة تحتل مساحة ٨ x ٤٠ أقدام من الفخامة . وقد أصبحت هذه العربة نموذجاً لعربات سفر الدرجة الأولى لرجال الأعمال بعد الحرب الأهلية، وشابهت شقة طويلة ضيقة لها مدخل وصالة عند أحد أطرافها، وغرفة نوم رئيسية، وسرير ذو طوابق للطفلين ويلي وتاد، وأريكة نوم لروبيرت الذي كان طالباً في هارفارد، وحجرة جلوس ضخمة عند الطرف المقابل بباب يؤدي للشرفة حيث وقف لنكون لتحية ناخبيه .

قضى لنكون وقتاً أطول مع عائلته في القطار عما كان يفعل منذ زواجه، وأحب وروبيرت الذي شعر بهجر أبيه من قبل هذا الابتاه فضاع خجله وبدأ يثرثر مع الفتيات، ويشرب كثيراً من الخمر (دون أن يعرف والده) "بل وقاد القطار لفترة . " وقد تجاهل الواجب الوحيد الذي كلفه به والده ربما لأنه شرب كثيراً مما أدى بأبراهام إلى أن يفقد أعصابه ويصرخ في وجهه .



كان قد طلب من روبرت حراسة حقيبة تحوي أوراق خطابه
الافتاحي حيث انكب على إعدادة بحدية أكثر من أي مقال آخر
كتبه، وطبع منه نسخاً لتوزيعها بين الجمهوريين لتلقي الاقتراحات
حوله. وخلال ليلة استراحوا فيها، سلم روبرت الحقيبة بغير لبواب
الفندق الذي قذف بها وسط الحفائب التي لم يطلبها أحد، وجمال
لنكون بين الحفائب يحنون بجمال عنها، ولحسن الحظ وجد الحقيبة
وكل النسخ سليمة.

في ١٦ فبراير توقف قطار الرئاسة عند وستفيلد بنيويورك فتذكر
لنكون أن الطفلة جريس بيدل من تلك البلدة، وعندما أطل من
الشفرة أخبر الجماهير أنه تلقى خطاباً منها منذ ثلاثة أشهر فقال:
"كان خطاباً رائعاً، وقد نصحتني فيه أن أترك موالفي تنمو لكي
تحسن مظهري ... وقد عملت جزئياً باقتراحها .. وها قد
فعلت." ثم واصل حديثه: "إذا ما كانت موجودة بينكم ... فإنني
أود رؤيتها." فقام صبي صغير يجلس على قمة أحد أعمدة السور
فاغراً فمه وعينيه على اتساعهم، وتفحص الجمهور وصاح فجأة:
"هاهي ... ياسيد لنكون." مشيراً نحو فتاة جميلة ذات عيني
سوداوين تقش وجهها الجميل حمرة الخجل.

فهب لنكون من العربة وشق طريقه إلى حيث تقف جريس
يمتلؤها الخجل "وقبلها عدة قبلات صادقة، ثم ألقى عليها تحية الوداع

وسط صيحات الفرح الصادرة من المشاهدين المنفعلين . وبعدها
واصل طريقه للمحطة التالية ."

اتهى شهر العسل في بالتي مور عندما علم لنكون بمخطة وضعت
لاغتيا له ، حيث خطط حلاق بالمدينة مع بعض من رفاقه لاصطياده
خلال تغيير القطار على خط بالتي مور - أوهايو الذي يؤدي إلى
واشنطن . وبناء على نصيحة آلان بنكرتون والعديد من المستشارين
الآخرين ، تسلل الرئيس المنتخب للعاصمة كالمطارد لتضليل القتلة
المحتلمين ، وعندما انتشرت الأنباء أنه دخل العاصمة ليلا متكرأ ،
اتهمه الكثيرون من أبناء الشمال (عدا السود بشكل ملحوظ)
بالجبن .

في ذات الأوقات ، تم تنصيب جيفرسون دافيز رئيساً
للكونفيدرالية المنشقة قبل أسبوع سابق على هذه الوقائع . وخلال
الاشهر الثلاثة السابقة كان يقف نائب وراء آخر بالكونجرس
بالعاصمة ليعلن أنه سيستقيل من منصبه ، وييدي نيته للانفصال دون
أن يقوم أي فرد بالقبض عليه أو اعتقاله .

كان أمام لنكون الآن عشرة أيام لينهي إعداد خطابه الإفتاحي
وينهي تشكيل الحكومة ويقابل المئات من البشر ويحدد كيف سيقوم
بإغراء المتمردين للعودة إلى الاتحاد دون التضحية بعهدده أن يمنع
انتشار الرق وأن يسعى لإلغائه نهائياً . كانت أكثر عشرة أيام انشغالا

في حياته حتى الآن. كان ينام ساعات قليلة فقط كل ليلة، وهي عادة استمرت معه للسنوات الأربع التالية معجلة بقدومه في العمر. وفي أول يوم له في واشنطن، تقابل لنكولن مع ستيفن دوغلاس ووفد من سياسيي ولاية إيلينوي بفندق ويلارد، وهو مبنى ضخم من ستة طوابق بالقرب من البيت الأبيض حيث سكن لنكولن بعائلته إلى أن ينعقد حفل الافتتاح. كان لقاءه بخصمه القديم "مبعث سرور خاص" كان لنكولن هو من طلب أن يرى دوغلاس حيث كان يأمل في الحصول على تأييده. كانت تلك المرة الأولى في مسيرته السياسية التي يشارك فيها معاً في استراتيجية سياسية واحدة لإقناع الاتحاد في هذه الحالة. وفجأة لم يعد دوغلاس خصماً، وشعر لنكولن أنه إلى حد ما له قرار بعد كما لو كان مداره السياسي في السنوات السبع الماضية قد تناثر قطعاً فجأة.

وزع لنكولن خطابه الافتتاحي طلباً لأقتراحات، وكان غرضه أن يهدي من فورة ولايات الجنوب الأعلى (فيرجينيا، وماري لاند، وديلاور، ونورث كارولينا، وتينيسي، وكينساكي، وأركانساس، وميسوري). تلك الولايات التي بقيت ضمن الاتحاد حتى ذلك الحين. كما ملاه الأمل في "أن يهدي" الانفعالات وأن يكسب وقتاً. وفي النسخة الخطية، أقسم لنكولن أن يحمي الملكية الفيدرالية وأخير المتطرفين أن الاختيار بين الحرب والسلام في أيديهم. واجمالاً،

كانت تلك النسخة المخوطة تعد أقل تهادناً من الخطاب الذي قام
 بإلقائه، إذ عارض جهود الكونجرس لتعديل الدستور بقوله: "(إنه) لم
 يتأثر كثيراً بأرائهم . . . وأنا أعلم من أجل السفينة القديمة ومع
 خريطة ربابنتها القدامى." مما يعني دستوراً لم تعيث به الرضيات
 الهيسيرية، وأقسم على استعادة القلاع الفيدرالية التي استولى عليها
 المتمردون وليس مجرد حماية القلاع التي مازالت تحت سيطرة الاتحاد
 كخطة نهائية للولايات. وأنهى خطابه بمقارنة واجباته المقدسة
 بواجبات المتمردين العلمانية قائلاً: "إنكم لا تملكون قسماً مسجلاً في
 السماء لتدمير الحكومة في حين أنني سأحوز قسماً أكثر قداسة
 للحفاظ على الحكومة وحمايتها والدفاع عنها، ويعود إليكم لا إلى
 ذلك السؤال الخطير حول "هل سيكون سلاماً أم لسيافاً؟" كان
 لتكوين يعامل المتمردين بيد حازمة ولكن متفهمة، ولو كان لتكوين
 ألقى تلك المسودة لأصبح فردريك دوغلاس أكثر تعاطفاً معه ومع
 أزمته. قدم له قلة من الزملاء بعض الاقتراحات ومنهم فرانسيس بليز
 الكبير العضو الجمهوري عن ولاية ميسوري، وصديقه في سبرنجفيلد
 أوفيل براوننج وكذلك ويليام سيوارد - الذي وافق على أن يعمل معه
 وزيراً للخارجية. أحب بليز وثيقة الخطاب لأنها تذكره بالقبضة
 الحاسمة لأندرو جاكسون حينما واجه دعاة أبطال القوانين الاتحادية
 في ساوث كارولينا قبل سنوات. بينما وجدته براوننج "كفناً،

ومدروساً بشكل جيد، وملتماً." وطلب تغييراً واحداً فقط إذ
حضّ لتكوين على إلغاء قسمه باستعادة القلاع الفيدرالية التي سيطر
عليها المتمردون فكتب له على هامش الخطاب: "من حيث المبدأ،
النص صحيح وسليم كما يبدو الآن . . . والأماكن المستولى عليها
يجب أن يتم استردادها . . . ولكن، ألا يمكن تحقيق ذلك دون
إذاعة أنبائه في خطابك الافتتاحي؟"

وكان سيوارد، الذي وجد عدة مشكلات جادة مع الوثيقة.
فرغم أنه اعتبر حجتها الأساسية لجدي "قوية وحاسمة"، فقد رأى
أن نبرتها حادة أكثر من اللازم وأنه لو ألقى الخطاب بهذا الشكل
سوف تعلن فيرجينيا وماري لاند انفصالهما على الفور وبذا تصبح
واشنطن محاصرة لم يخجل سيوارد من إبداء رغبته في التفاهم، لأنه
منذ هجوم جون براون على هاربرس فيري قد هجر سيادي
الجمهوريين بشأن احتواء مشكلة العبيد، ويريد الآن أن يسلم
المتمردين ويحقق عودة الاتحاد في سلام وبساطة، وكان مستعداً
للتضحية بكل قطعة من أملاك الاتحاد لهم. بل واقترح التهديد بشن
حرب على إسبانيا وفرنسا لامتناع حدة التوتر الحزبي.

وطلب سيوارد تغييراً في كل سطر تقريباً من سطور نسخة
الخطاب، وكان عدوانياً في استخدام قلمه كما كان برستون بروكس
مع عصاه.

وبعد أن قال كل ما بدا له اقترح ٤٢ تغييراً تبدأ من إلغاء أو إضافة كلمة حتى إضافة فقرة كاملة. وطلب من لنگولن أن "يستبعد كل الجملة التي يعارض فيها إصلاحاً دستورياً يحمي نظام الرق وهذا ما نقده لنگولن بالفعل". كما أراد أن يلفظ من الخاتمة واقترح فقرة نهائية هي: "إن الخيوط الروحية النابعة من الكثير من ميادين القتال ومن العديد من مقابر الشهداء سوف تتناغم من جديد في موسيقاها القديمة عندما ينفخ فيها الملك الحارس للأمة". كانت لنگولن أذن أفضل كثيراً مما لدى سيوارد، فوافقه على النهاية الجديدة واستعاد كثيراً من كلماته لكنه أبدع التماساً أكثر طلاقة لاستعادة الاتحاد، الذي أهمل محنة السود، وأضاف لنگولن أنه مازالت "جوقة إنشاد الاتحاد لنگولن ناصعة البياض تماماً". وكما لاحظ دوجلاس، فإن جمال اللغة أخفى على قبح الرسالة.

ألقي لنگولن خطاباً الافتتاحي المنفتح أسفل رواق مبنى الكابيتول، وكانت تطل من خلفه قبة التي لم ينته ترميمها بعد، ويقف تمثال برونزي جديد للحرية وسط الحديقة في مواجهة الكابيتول، تمثال لامرأة تحمل سيفاً بيد وتحمي الأخرى إكليلاً من الورود. تجتمع الآلاف حول الرواق للاستماع لنگولن، وبدأ عليهم تجاهل ذلك التمثال تماماً. كانت (المرأة التمثال) تقف وحيدة تحلق في ظهورهم كاليتيمة، كانت تنتظر إنهاء بناء القبة حين تجد عندئذ مأوى لها.

ترامت عشرات الإشاعات أن لنكون قد يُقتل قبل توليه منصبه أو يُطلق عليه النار أثناء الاحتفال. وأجرى بعض الرجال مراهقات حول ما إذا كان سيبقى حياً حتى يُنصب رئيساً أم لا، وقد سمع أحد الصحفيين المسافرين جنوباً في نيويورك بعض سيدات الجنوب يتحدثن عن الاغتيال. قالت واحدة:

- إنني سعيدة أن لنكون لم يُقتل.

فسألتهما الأخرى:

- ولماذا؟

ردت:

- لو أنه قُتل، فلسوف يصبح هانيبال هاملين (وهو أسود البشرة) رئيساً، وسيكون عاراً علينا أن يكون على قمة حكومتنا رجل خلاسي ملون.

وفي الثاني من مارس، أي قبل ذلك بيومين، كان الكونجرس قد أصدر التعديل الثالث عشر الذي يضمن بقاء العبودية في الولايات للأبد. وشعر لنكون بإمكان تأييده للقرار لأنه لم يسع أبداً للتدخل في شئون الرق في ولاياته. ورغم جهوده تهدئة الجنوب في خطابه، فقد فسر المستردون ذلك الخطاب على أنه إعلان بالحرب، فاستخدم أحد المحررين الصحفيين بساوث كارولينا مصطلحاً عنصرياً لوصفه فصيح: "إن قرد الأورانج - أوتاج في البيت الأبيض قد أطلق نقيده

الحرب... التي هي أيضاً رمز حريتنا. " وقال محرر آخر من ريتشموند أن رسالة لنكولن "تبدأ حرباً أهلية. " وأخبر محرر ثالث أصدقاءه في فيرجينيا أنه عليهم الآن أن يختاروا بين "غزو يقوم به جيش لنكولن أو يقوم به جيش جيفرسون دافيز. "

أسفر أمل سيوارد في إضافة مزيد من التساهل في خطاب لنكولن لمنع فيرجينيا وماري لاند عن الانفصال عن اخفاق تام إذ انفصلت فيرجينيا بعد أسبوع من قصف قلعة سومتر، وكانت ماري لاند على وشك أن تحذو حذوها لولا أن فرض لنكولن بجرأة الأحكام العرفية في الولاية لإخراص الانفصاليين " هنا استفاد درساً من الجنوب خلال الحرب الأهلية سواء بين الشمال والجنوب أو بين السادة والعبيد؛ فإن الطريق الوحيد لاستتاب الأمن هو تعليق العمل بالحريات الأساسية.

أصبح ستيفن دوغلاس مؤيداً متحمساً للنكولن، فوقف بالقرب منه لحظة إلقاء خطابه وبينما كان لنكولن يرتبك "فيما يفعله بقبعة على نحو أخرق" قام بجملة عنها في أدب. وخلال الخطاب، كان يغمغم موافقاً: "حسناً... حسناً إنه كذلك! دون إجبار... حسناً، مرة أخرى. " وبعدما أنهى لنكولن خطابه سارع بهتته ثم

²⁴ كان روجر تالوي قد أعلن أن تعليق لنكولن العمل بالقتلون العادي يُعد أمراً غير دستوري، إلا أن لنكولن تجاهل ذلك.

دافع عن الخطاب بحماسة قائلاً لأحد الصحفيين: "إنه لا يعني القسر." ثم إلى مراسل آخر: "إنه جيد تماماً!" ورداً على اتهام المراسل لتكولن بأنه خان مبادئه بتأييد الإصلاح الدستوري أضاف دوجلاس: "حسناً، وماذا في ذلك؟ إنه يبين أن السيد لتكولن لديه الشجاعة ليقول الحق سواء من البرنامج أو بدونه." وحث لتكولن على تأييد هذا التعديل بمجرد أن يعتمد الكونغرس.

رافق دوجلاس السيدة لتكولن إلى حفل التنصيب الذي أقيم في مبنى جديد عند ميدان جوديشاري، وتم تزيين قاعة الرقص بالأعلام من كل ولاية مع إضاءة وهاجة تصدر من خمس ثريات توقد بالغاز. وعند تمام الحادية عشرة مساءً بدأت فرقة مشاة البحرية عزفها لمقطوعة "المجد للرئيس" ومضى دوجلاس مع ماري "وذراعه في ذراعها"، وعند منتصف الليل رقصا الرقصة الرابعة، وكانت ماري ترتدي ثوباً أزرق مع ريشة زرقاء مشابهة وسط شعرها، وقام س. دوجلاس وزوجته بتقديم ماري لبعض نساء المجتمع في واشنطن. وفي ١٤ أبريل وبينما كانت البرقيات تنهمر على واشنطن بأنباء تسليم قوات الاتحاد لقلعة سومتر، والتقى دوجلاس بتكولن لمدة ساعتين. تميز لقاءهما "بالشعور القلبي نحو هدف وطني موحد وودود." ومرة أخرى أقسم السيناتور أن يقف "بجوار الرئيس"، وأظهر له لتكولن قراراً بتجنيد ٧٥٠٠٠ مطوع، فقال دوجلاس: "لو

كنت مكاتك لرفعهم إلى ٢٠٠٠٠٠، لأنه كان بين القلة التي تؤمن أن الحرب قد تطول. لكنه لم يعرف أبداً إلى متى لأنه مات بعد شهر بسبب مضاعفات الإسراف في تدخين السيجار والشراب. كان عمره ٤٨ سنة.

عكست صداقة دوجلاس للتكون خلال الشهور الأخيرة دعماً ضخماً من الحزبين الجمهوري والديمقراطي بين بيض الشمال الذين دعوا لقتال المتمردين وإتخاذ الاتحاد، كان في مقدور لتكون أن يجمع ٢٠٠ ألف من القوات. لكن المصالحة مع هؤلاء الخصوم السابقين عكست أيضاً شروطها المشتركة لاتخاذ الاتحاد. فالعبودية لن تتأثر ولن يؤدي السود دوراً في جيش الاتحاد كان دوجلاس لا يزال هو المتحدث باسم البيض العنصريين في أعماقهم الذين يعتبرون السود دون البشر ولا يرون خطيئة في وجود الرق. أما لتكون باعتبارهم المحافظين المناهضين للعبودية فقد أربعه احتمال قيام ثورة اجتماعية وملاذ الأمل في الإبقاء على الترتيب الاجتماعي القديم، وكما طرح الأمر في رسالته السنوية للكونجرس في ديسمبر ١٨٦١ فإنه: "بالنظر إلى السياسة التي يجب إتباعها لقمع التمرد، كنت قلقاً وحذراً من ألا يتحول ذلك الصراع، الحتمي لهذا الهدف، إلى قتال ثوري عنيف لا يمكن غفرانه." لقد ركزت الحرب على البيض وعلى أمتهم فقط. ولم يستطع دوجلاس أن يوافق على ما هو أكثر من ذلك.

وهكذا، فإنهما ببقائهما معاً تجاهل الخصمان القضية الرئيسية وهي "العبودية والعنصر" التي تعاركا بسببها سنوات طويلاً.

فلا عجب إذن أن يبطل لنكون قرار فيرمونت في سبتمبر ١٨٦١، ١٩١ لأنه يهدد رؤيته لإتقاذ الاتحاد. كان أغلب الجمهوريين قد أيدوا اعلان فيرمونت، حتى أورفيل براوننج صديق لنكون الذي كان من المحافظين في إيلينوي. فقد أخبره براوننج: أن الأعلان "كان من الضروري وكان خيراً، وأنه حصل على تأييد كل المواطنين المخلصين من غرب وشمال غرب البلاد. وبببره القانون الدولي وكذلك قوانين الحرب التي تقرها كل الأمم المتحضرة. وتوصل أغلب الجمهوريين بالفعل - من أمثال فردريك دوجلاس - إلى الاقتناع بأن إتقاذ الاتحاد يتطلب إقرار سياسة تحرير العبيد.

تأذى لنكون من رد براوننج فقال: "إن اعلان فيرمونت كان غير دستوري، وقانون المصادرة الذي أصدره الكونجرس حديثاً يمكن الجنرالات من مصادرة العبيد، لا تحريرهم، وإذا كان فيرمونت في حاجة للعبيد، كان يمكنه القبض عليهم وتشغيلهم وعندما تنقضي حاجته فليس من شأنه أن يصلح ظروف مستقبلهم الدائم، فمبدأ عتق العبيد لا يقرره إلا صانعو القانون لا الجنرالات، والأكثر أهمية أن اعلان فيرمونت لن ينقذ الحكومة، بل على العكس هو ذاته تسليم الحكومة."

لقد آمن لنكون أن أي سياسة لتحرير الرق ستهدد إخلاص ولايات الحدود، خاصة ولاية كنتاكي، ربما حظي إعلان فيرمونت بالشعبية في بعض الأماكن. لكن أهل كنتاكي كانوا على استعداد للانفصال بسببه. في الواقع، كان لنكون قد سمع أن فرقة كاملة من منطوعي كنتاكي يصبحون: "أسقطوا أسلحتهم وشتوهم!" بعدما علموا بإعلان فيرمونت. وما لم يبطل ذلك القرار لتوجهت بنادق كنتاكي نحو واشنطن، لا إلى الجنوب. فرد على براوننج بقوله: "أعتقد أن فقدان كنتاكي يعني أن نخسر اللعبة كلها... وبضياح كنتاكي لن نستطيع الاحتفاظ بميسوري ولا- فيما أظن- بماري لاند، فكلها ضدنا ومهمتنا التي تواجهنا تفوق طاقتنا، وسوف نسلم بالانفصال أيضاً بما في ذلك تسليم مبنى الكابيتول هذا."

كان لنكون مرعوباً من فقدان كنتاكي وبدا خوفه من مؤامرة نظرية الداعى بين ولايات الحدود. فلو أن كنتاكي ذهبت فستلها ميسوري ثم ماري لاند. وعددت، نكون قد خسرت الحرب. لكنه لم يشرح أبداً وبالضبط كيف يسبب انفصال كنتاكي انفصال ميسوري ثم ماري لاند بعدها. ولم يذكر كيف يمكن للانفصال أن يؤثر في كنتاكي في واقع الأمر، في ضوء حرب العصابات المتفجرة هناك، وأصبحت مخاوفه بشأن كنتاكي صارخة عندما قارنها بأغلبية رجال الدولة من الجمهوريين من أول المحافظين منهم حتى المتطرفين

الذين آمنوا- مثل براوننج- أن اعلان فريمونت "كان ضرورياً وفعل خيراً". كانت حساسية لنكولن تجاه أهل كنتاكي تابعة من وجود أصدقاء مقربين له يعيشون هناك ويقدمون له النصيح باستمرار، وليس منهم من هو أقرب أو أكثر تأثيراً من جوشوا سييد .

كان سييد قد أصبح حينذاك الآن من الأثرياء ملاك العبيد، وكان أحياناً يتاجر فيهم، وكان قد صوت ضد لنكولن . لكن علاقتهما الوثيقة لم تتأثر، وكان كل منهما كان يحمل قدراً كبيراً من الاحترام للآخر . وقد عرض لنكولن على سييد مكرماً بالوزارة، لكنه رفضه لأنه يريد البقاء في كنتاكي، وعمل كمستشار متخصص للنكولن في شئون كنتاكي للنكولن في ولايته وكان يكتب له بانتظام عن الوضع هناك، وأحياناً ما كان يأتي لواشنطن للتشاور معه .

غضب سييد من اعلان فيرمونت وحث لنكولن فوراً على إلغائه، فلم يكن إعلاناً غير دستوري فقط ، بل سوف يلهم العبيد للتمرد وقال له: "كلنا ممن يعيشون في ولايات العبيد سواء المنضمة إلى الاتحاد أو الموالية له نشعر بخوف شديد من التمرد "فإعلان فريمونت سيستميل كل العبيد "لمحاولة تأكيد حريتهم" ويسبب المعاناة للسيدات سواء كن على ولاء للاتحاد أم لا وللمجتمع كله . "كان سييد هنا يلح للاغتصاب والنهب . وظل سييد في حالة إحباط لدرجة أنه ظل أياماً لا يأكل ولا ينام، وكان الأمر أن أحداً أخبره أن

عضابة من المفتصين والقتلة قد أطلقوا بحرية داخل مجتمعه، فقام بإطلاق تحذيره: "لنتم إقرار اعلان فرعمونت، فسوف يحطم كل مكانة لحزب الاتحاد بالولاية. وسوف يبقى هو وحفنة من أصدقائه كرجال للاتحاد في الولاية كلها وسوف يمتد الشر والجريمة فيزداد التمرد على الأرض." باستارة شبح انتفاضة العبيد والخوف من الاغتصاب والنهب في أذهان وخيال البيض، أوضح سبيد للنكونن أنه لا يوجد مواطن فاضل في كينتاكي أو أي ولاية أخرى للعبيد يمكنه أن يتسامح مع سياسة العتق هذي.

بذلت جيسي زوجة فرعمونت جهدها لإقناع لنكونن أن يترك قرار زوجها نافذاً. كانت ابنة سيناتور ميسوري، السيناتور توماس هارت بنتون، وأكثر امرأة ترتبط بالسياسة في البلد. كانت قد قابلت تسعة رؤساء سابقين للدولة بالبيت الأبيض ومنهم أندرو جاكسون الذي قام "بمعكشة" شعرها وهي صغيرة، وكانت "عيناً ومترجمة للرئيسين التاليين لجاكسون". قامت برحلة خاصة من سانت لويس حتى واشنطن آملة في إقناع لنكونن، وبعد إرسالها بطاقة تعريفها متسائلة متى يمكنها مقابلة الرئيس، كانت الإجابة: "الآن، وفوراً!" كانت الساعة التاسعة مساءً وكانت مرهقة لكنها استجابت، وعندما رآها لنكونن أحنى رأسه قليلاً في سكون ولم يقدم لها مقعداً، وكانت "تلك إهانة يفهمها الإثنان" فسلمت له

خطاباً من زوجها يشرح أسباب صدور قراره كضرورة عسكرية ودبلوماسية، وقالت - وهي تردد كلمات فردريك دوجلاس - إن حرباً من أجل تحرير العبيد سوف تمنع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا من الاعتراف بالكونغريدالية. قاطعها لتكون قائلاً: "إنك امرأة سياسية تماماً." ثم قال إنه قد عقد العزم وأن على الجنرال فرمونت "ألا يجر الزنوج للحرب! إنها حرب لهدف قومي عظيم، والزنوج لا علاقة لهم بالأمر."

لكن كل يوم "والزنوج" يفرضون أنفسهم على الحرب ويطلبون أن يصبحوا جزءاً من ذلك الهدف القومي، وكل يوم يأتي المحظرون إلى خطوط الاتحاد، وكل يوم يقر ضباط الاتحاد بالضرورة العسكرية لتحرير العبيد وتشغيل السود. وكل يوم يردد الجمهوريون، من أول المحافظين منهم حتى الراديكاليين فيهم، رأي براوننج في حث لتكون إدارته على إقناذ الاتحاد بعق أولئك العبيد، وكل يوم يخاطب فردريك دوجلاس وزعماء جماعات السود متحدثين مع دعاة التحرير البيض ويمثلون شاهداً على حقيقة أن "الزنوجي" لا يمكن فصله عن إقناذ الاتحاد. وكما صاغ الأمر دوجلاس بعبارة "فإن مصير الأفريقي الأمريكي هو مصير أمريكا ذاته." كانت موجة التعاطف مع حركة تحرير العبيد تنمو ببطء.

وفوق كل ذلك، تم اعتماد قانون المصادرة يوم ٦ أغسطس عام ١٨٦١ وكان غموضاً يحتاج إلى بعض التوضيح. كانت أوضاع المحظورين مبهمة فلم يعودوا عبيداً. لكن "هل هم أحرار؟ لم يبت القانون في ذلك."

وفي بدايات عام ١٨٦٢ أخذ لنكولن يغير من وجهات نظره أخيراً بشأن تحرير العبيد. وفي الواقع، فقد مر لنكولن بما يعادل التحول للهداية ربما بدأ ذلك مع وفاة ابنه ويلي في فبراير، ففي وسط الاحتفاء بتجديدات ماري الاستعراضية الغالية في البيت الأبيض، شعر ويلي فجأة بالحمى. ربما كانت إصابة بالتيفود بسبب نظام الصرف الصحي بالمدينة. كما أن ابنتها تاد أصابته الحمى لكنه شفي منها سريعاً في حين ازدادت حالة ويلي سوءاً ومكث لنكولن مع ابنه لمدة أسبوعين يضع الكمادات الباردة على جبهته ولا يمارس - نظرياً - أي عمل آخر. وفي ٢٠ فبراير مات ويلي فأخبر لنكولن سكرتاريته بذلك قائلاً: "حسناً، إن نيكولاي ابني قد ذهب، لقد ذهب بالفعل ... ثم بكى صارخاً ... لقد كان صالحاً تماماً لهذه الأرض ... لكننا أحببناه كثيراً." وزاد انتحابه، وانهارت ماري لدرجة أن لنكولن بدأ يقلق على صحتها، ولزمت سريرها أسابيع ثلاثة. ولعدة شهور كان مجرد ذكر اسم ويلي يلقي بها في طوفان من

الدموع." وارتدت ملابس الحداد السوداء وبدأت تدعو الروحانيين للبيت الأبيض علماً تتصل بابنها الميت.

ربما أشعل موت ويلي تعاطف لنكون مع الآباء الذين فقدوا أولاداً في كل أرجاء الشمال . ففي كل أسبوع كان يمر، كانت الحرب تصبح أكثر دموية، وتطول قوائم الموتى في الجرائد اليومية. كان لكل مواطن تقريباً من يعرفه بين القتلى أو الجرحى في الصراع إلا أن لنكون كان يشن حرباً ساعياً "وراء" أدنى اضطراب في الحياة المدنية كانت سياسة تهزم نفسها بنفسها ، لأن الحرب الأهلية بطبيعتها تسبب الاضطراب في الحياة المدنية وشكلت الحاجة لتحرير العبيد من أجل إقناذ الاتحاد عبثاً ثقيلاً على أكافه. "فاتجه نحو الله طالباً معونه معتمداً على "الذراع الإلهية" وباحثاً عن الهدى من السماء "أمل في أن يكون أداة بيد الله لتنجز عملاً عظيماً" كما قال لوفد من جماعة الكويكرز الدينية الذي كان بحبه على إصدار قرار عتق العبيد، وأخذ يقتبس كلمات من هاملت: "هناك قدرة إلهية تشكل مصائرنا، وتصبغها كما تريد." لم يصف لنكون ذلك التحول بأنه تجربة في الهداية، وإنما قال إنه مر "بعملية بلورة" في معتقداته الدينية. وفي مارس ١٨٦٢ وضع لنكون مشروع قانون من أجل "إنهاء تدريجي للرق" وقد اتبعت خطته تقاليد حركة التحرير في ولايات الشمال التي تبنتها منذ حروب الثورة لأن تحرير العبيد يتطلب تأييد

الناخبين، وسوف يؤدي تحرير الرقيق عبر جيل أو ما إلى ذلك وسوف يقوم بتعويض ملاك العبيد عن خسارة ما يمتلكون. لذا قال: "في رأبي أن تحرير العبيد تدريجياً، وليس فجأة، أفضل لجميع الأطراف." كما شكل اقتراحه سياسة عسكرية سليمة لأنه إذا قبلت ولايات الحدود ذلك، فلن يفرها شيء للانضمام للكونفيدرالية. كان يأمل في أن يتمكن من شراء ولاء تلك الولايات، وتكاليف تنفيذ ذلك ستكون أقل "من تكاليف ثلاثة أشهر من الحرب."

استدعى تشارلز سومرز إلى البيت الأبيض وأطلعته على الاقتراح وطلب منه في صوت متلف قاتلاً: "أريد أن تقرأ رسالتي، وأريد أن أعرف مدى قبولك لها لأنني بصدد إرسالها للكونجرس اليوم." افعل سومرز لدرجة أنه قرأ الرسالة عدة مرات إلى أن قال له لنكون: "حسناً، لقد قرأتها بشكل كاف. هيا، عجل! إذ لا بد من إرسالها اليوم." واعتمدها الكونجرس في الحال.

وبالنسبة لفردريك دوغلاس كان مشروع لنكون محافظاً للغاية وفرص اعتماده ضئيلة، لذلك رفضه، فملاك العبيد كانوا ضد تحرير عبيدهم كلية حتى مع إغراء المال، وذلك لأن العبيد كانوا يدرزون معدلات ربح أعلى كثيراً من البضائع والسندات أو حتى إقطاعات الأراضي، ومن الصعب أن تشبع النهم الجنسي لإنسان

بشهادات البضائع . وكما توقع دوجلاس لم تقبل ولايات الحدود مشروع لنكونلن .

وفي أبريل مضى الكونجرس الجمهوري الاتجاه، متأثراً بوضوح بخطة لنكونلن حول الإلغاء التدريجي للرق، خطوة للأمام واعتمد قانوناً لتحرير الرقيق في كولومبيا . ولم يكن لنكونلن راضياً كلية عن القانون ، لأنه يحرق ثلاثة آلاف عبد فوراً وليس بالتدرج . كما تم فرض القانون على المقاطعة دون قبول ناخبها، لكنه كان قراراً يلتزم "بمبادئ لنكونلن" - التي يعتز بها - وهي "التعويض والاستعمار" فهو ينص على دفع ٣٠٠ دولار عن كل عبد للمالكه وتخصيص ١٠٠٠٠٠ دولار لنقلهم بحراً إلى أمريكا الوسطى، ولذا وقع القانون .

وفي مايو ألقى لنكونلن اعلان التحرير الذي كان قد أصدره الجنرال دافيد هنتر لأنه ينتهك مبادئ لنكونلن بشأن العتق . فهو يحرق العبيد على الفور، ولم يتم بتعويض المالكين ولاسمح لهم بأن يقولوا رأيهم في ذلك، ولم يذكر ارتباط ذلك باستعمار أرض جديدة لهم . وعندما ألقى اعلان هنتر، ناشد لنكونلن من مواطني ولايات الحدود أن يتبنوا اقتراحه بشأن تحرير العبيد، وبعمله ذلك قد يحفظ الاستقرار - كما قال - إذ قد نصل لنهاية سرعة للحرب وتقدم الحرية ببطء ولطف . فالسادة يمكنهم أن يتلقوا التعويضات والسود يمكن إرسالهم إلى أمريكا الجنوبية . وأكد أن ذلك التغيير الذي كانت تأمله

خطته قد "يأتي بلطف مثل الندى المتساقط من السماء لا يمزق ولا يحطم أي شيء". ثم يسأل: "هل من الممكن أن تقبلوا ذلك؟ إذا لم تقبلوه وكان ذلك يعنى ضمناً أنهم لم يفعلوا ، فلن يكون قادراً عل مد يد المساعدة في المستقبل . لكن الثورة الاجتماعية وتحرير العبيد العاجل كانا يتقلان أكتاف الأمة بينما كان هو وحزبه خارج السياق يبحثان عن التغير التدريجي . وبعدئذ طلب الكونجرس في ٢٢ يوليو دعم لنكونل رسمياً مصادرة أملاك المتمردين وتحرير عبيدهم، فقانون المصادرة الثاني يطالب الرئيس بإصدار تحذير عام للمتمردين يمنحهم ستين يوماً كفترة سماح للعودة تحت مظلة الاتحاد، ولو رفضوا، تعرض كل أملاكهم للمصادرة ، وسيضطر الرئيس إلى مصادرتها بالفعل . في قسم منفصل يقول القانون إن العبيد المصادرين سيكونون "أحراراً للأبد" . ولكنه لم يكن واضحاً ما إذا ما كان اعلان الرئيس مصادرة ملكيات المتمردين يتضمن في ثناياه مبدأ تحرير العبيد .

اعترض لنكونل على قانون المصادرة الثاني على أساس أنه غير دستوري . وكان أكثر ما أزعجه الحكم الخاص بتحرير العبيد . لكن اعتراضه نجم أساساً عن لغته المضطربة . وحقيقة أن القانون بأسره كان قد كتب بصورة مرعبة . وبعد مراجعته لغوياً مع سناطور لتفجير بعضاً من سوء لغته، قام لنكونل باعتماده قانوناً . لكنه اتخذ خطوة

غير معادة بإرساله انتقاداً مطولاً للكونجرس كنوع من المذكرة
الرئاسية الوجيزة .

وبعد خمسة أيام أي يوم ٢٢ يوليو، وضع مشروع اعلان
العق. وإذ اتبع فيه أحكام قانون المصادرة الثاني، فقد منح المتمردين
ستين يوماً للعودة إلى الاتحاد، فإذا قبلوا سوف يقوم بتشجيعهم على
تحرير عبيدهم بتقديم تعويضات والغاء الرق تدريجياً أسوة بما قدمه
لولايات الحدود. لكن إذا أصر المتمردون على "عصيانهم"
و"خياتهم"، فسوف تتعرض كل أملاكهم للمصادرة، وفي الأول من
يناير عام ١٨٦٣ سوف يصبح عبيدهم "أحراراً للأبد". بذلك يكون
قد أسك - بفاعلية - بغض زيتون يمح العق التدريجي بيد، ويعلن
بالأخرى الحرب والتحرير الفوري للعبيد، وطلب من المتمردين
الاختيار تماماً كما فعل في مسودة خطابه الافتتاحي.

سأل لنكونل معاونيه رأيهم في إعلان العق الذي يقدمه، فانقسم
الأعضاء؛ بعضهم يحثه على إصداره فوراً، وآخرون أخذهم القلق
من أن يفقدوا بعض أصوات الجمهوريين في انتخابات الخريف. ومرة
أخرى اتبع لنكونل نصيحة ويليام سيوارد الذي طلب منه أن ينتظر
نصراً عسكرياً حاسماً قبل إصداره، فتحرير العبيد يجب أن يعكس
قوة دولة الاتحاد لا ضعفها. وهكذا أخفى لنكونل الوثيقة بأحد
أدراج مكتبه.

وبدلاً من ذلك أصدر يوم ٢٥ يوليو "إعلان قمع العصيان المسلح"، وهو مرتبط بقانون المصادرة الثاني وفيه يمنح المتمردين ستين يوماً للعودة إلى دولة الاتحاد "وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة أو الاستيلاء على أملاكهم". لكن الوثيقة لم تذكر شيئاً عن تحرير العبيد، وكانت بالنسبة لفردريك دوغلاس ودعاة التحرير الآخرين قراراً يترك حالة العبيد في زاوية النسيان بنصف حرية ولم يقل شيئاً - كذلك - عن تشغيل السود بالجيش. واتفق لنكون مع الكونجرس على أن السود يجب أن يتم تشغيلهم كعمال في الجيش، لكنه عارض بشدة تسليحهم كجنود، ولم تتغير آراؤه حول تلك القضية منذ بداية الحرب. كما حذر ثانية من تمرد الولايات الحدودية إذا تم التصريح للسود بإطلاق النار على البيض، فصرح في أغسطس عام ١٨٦٢ بأن "الأمة لا يمكن أن تخاطر بفقدان كتابي في تلك الأزمة . . . إذ أن تسليح الزوج، سيحول ٥٠٠٠٠ من الحراب من الولايات الحدودية نحو صدورنا تلك التي كانت تحارب من أجلنا". وكان ما لم يقله هو أن تسليح السود ١٥٠ ألف حرية إضافية لصدور المتمردين.

قضى لنكون صيف ١٨٦٢ ينتظر ويصلي من أجل انتصار للاتحاد سيمكحه من إعلان نيته لتحرير العبيد أمام الجميع. وحث مراراً وتكراراً الجنرال المتفاجر جورج ماكلان للهجوم على قوات "لي"

وفرض حسم للنزاع. لكن ماكلان وهو منظم موسوس كان استراتيجياً سيئاً لأنه هول كثيراً في قوة عدوه، وأبدى كثيراً من الاحترام للمتمردين أكثر مما أبدى للجمهوريين. فعلى سبيل المثال، رفض مصادرة منزل السيدة روبرت لي لاتخاذ كستشفي ميداني مما حدا بطبيب القوات إلى أن يسأل لنكون: "هل على جنودنا الشجعان أن يموتوا مثل الخراف المتعفة لأن الجنرال ماكلان اختار أن يحمي أرضاً يملكها متمرّد؟" بل إن ماكلان تجاهل بعضاً من أوامر لنكون، فقواته تحبه ويعود ذلك - جزئياً - إلى أنه يحميهم من القتال ولأنه دائماً يخبرهم كم هم أبطال.

وفي الرابع عشر من أغسطس دعا لنكون وفداً من سود ولاية واشنطن إلى البيت الأبيض للترويج لخطته عن التوطين والاستعمار. كانت هذه أول مرة تلتقي فيها مجموعة من السود بالرئيس لمناقشة قضية من "القضايا العامة". كان الكاهن المحترم جيمس ميتشيل هو الذي رتب اللقاء. وكان ميتشيل من إنديانا وكان هو ولنكون من نشطاء جمعيات استعمار الغرب الأوسط. وقد عينه لنكون حديثاً مسؤولاً للهجرة والآن وقد أصبح العنق حقيقة واقعة، أمل لنكون في إقناع السود بواشنطن بقبول عرض الحكومة بإرسالهم إلى أمريكا الوسطى. لم يضم للوفد أي زعيم أسود رغم أن الصحافة تجاهلت تلك النقطة. وفي الواقع، كان منهم أربعة أو خمسة أفراد

منهم من المحررين حديثاً، بل وربما كانوا أميين. كان ذلك الاختيار يتواءم مع هدف لنكون إذ لم يكن يريد مناقشة الموضوع وإنما أراد فرصة للتحدث مع السود كمدرس يحاضر تلاميذ مطيعين ليعلمهم فضائل الاستعمار. وبالطبع كان فردريك دوجلاس آخر شخص يرغب في حضوره مثل ذلك اللقاء، لأنه سيحدثي لنكون عند كل نقطة حوار.

كان كثير من السود يتبنون فكرة الهجرة ووافقوا لنكون على أن السود والبيض في أمريكا لا يمكن أن يعيشوا في وئام. من هنا، دعم الزعيم الأسود هنري هاي لاند جارنيت رؤية لنكون بشأن الاستعمار "كأفضل حركة إنسانية رحيمة اقترحتها تلك الإدارة أو غيرها لصالح المستعبدين." لكن، على النقيض من لنكون، كان دعاة الهجرة السود قد هجروا في الأساس إيمانهم بأن أمريكا أمة ديمقراطية.

كان الاجتماع ناجحاً في إطار أن كلماته وزعت في أرجاء الوطن ونوقشت داخل مجتمع السود. واتقسمت ردود الأفعال حولها، لكن المعارضين "كانوا أكثر عدداً وأعلى صوتاً بالتأكيد" وعجلوا بعقد لقاءات للأعتراض في واشنطن وغيرها من مدن الشمال.

ربما أمل لتكون أيضاً في أن يجعل ذلك اللقاء قضية عتق العبيد أكثر قبولاً لدى ولايات الحدود . وإذا كان ذلك كذلك، فهو يعلم أنه يقاتل في معركة عسيرة . فكل مرة كان يعرض فيها مشروع قرار بتحرير العبيد تدريجياً مع التعويض والتقل للمستعمرات، يهبط ممثلو ولايات الحدود ومعهم ملاك العبيد لرفضها في الحال .

وفي ٢٢ أغسطس أصدر لتكون أهم بيان بشأن تحرير العبيد صدر حتى تاريخه . وجاء البيان استجابة لمقال كتبه العضو الجمهوري هوريس جريلي معنوناً باسم "صلوات العشرين مليون"، تحدث فيه هوريس بلسان الشماليين ستماً لتكون "إهمال مواد تحرير العبيد" في قانون المصادرة الثاني، والانحياز لسياسي ولايات الحدود .

ورد لتكون بتحديد مباشر وواضح لسياسته قائلاً إن "هدي في الأسمى في ذلك الصراع هو أن أُنقذ الاتحاد، وليس إتقاذ العبيد أو تدميرهم، فكل ما أفعله بشأن العبودية والعنصر الملون، إنما أفعله لأنني أعتقد أنه يساعد على إتقاذ الاتحاد . " كان خطاباً صادقاً، كما قال فيما بعد، ويتوافق مع كل تصرف فعله وكل كلمة قالها .

نشر فريدريك دوجلاس رد لتكون على جريلي بعد صدور اعلان العتق، وحض قراءه على إعادة مطالعته من جديد قائلاً: "فبين سطره ترون أكثر الكلمات دقة ووضوحاً التي تحدد سبب

صدور القرار متأخراً. " لقد أدرك لنكون - في النهاية - أن إنقاذ الاتحاد يتطلب تحرير العبيد .

وفي أواسط سبتمبر حصل لنكون على المعركة التي كان ينتظرها . إذ أجبر غزو الجنرال لي لأراضي ماري لاند ، ماكلان على الدخول في قتال لحسم الأمور . ظل لنكون غير متأكد بشأن سلامة اصدار الاعلان ، و تمنى أن يعرف ما يريد الله ، "ففي الصراعات الكبرى، يدعي كل من الطرفين أنه يتصرف وفقاً لمشية الله . ربما يظن كلاهما ذلك، لكن أحدهما لابد وأن يكون على خطأ، لأن الله لا يمكن أن يكون مع شيء وضده في نفس الوقت . ففي الحرب الأهلية القائمة يمكن تماماً أن يكون قصد الله شيئاً مختلفاً تماماً عن هدف أي من الطرفين ."

كان يريد أن يعرف إرادة الله في مسألة عتق العبيد خاصة، لذا صرح بقوله: "لو أعلم ماهي إرادته لنفذتها فوراً!" لكن الله الاحاطة بما يريد، حيث أن هذه الأيام "ليست أيام المعجزات" . وبحث لنكون عن علامة تأتيه عن إرادة الله . ومن وقع أخبار غزو "لي" ظهرت علامة فجأة . وكما أخبر وزرائه فقد "أدلى بقسم وعهد أن لو منحنا الله النصر في المعركة القادمة سوف يعتبر ذلك إشارة من الإرادة الإلهية، وأن واجبه أن يتحرك قدماً في قضية تحرير الرقيق ."

وفي ١٧ سبتمبر أعلن ماكلاان عن انتصار جزئي على "لي" عند
أنتيتاما وضع حداً لخطورة تهديدات الكوفيدالية. وبعد خمسة أيام
تالية في يوم ٢٢ سبتمبر، جمع لنكون مجلس وزرائه معاً وأعلن نيته
في أن يصدر قرار العتق.

وقبل أن يطلع مجلسه على الوثيقة قرأ عليهم قصة جديدة من
مجموعة أدبية للكاتب الساخر أرتيموس وورد. وكان واضحاً أنه يريد
إضافة قليل من الطيش إلى تلك اللحظة المشهودة. كانت الطريقة التي
تلاها بعنوان "الغضب المستبد في أوتيكاً" مكتوبة بضمير المتكلم
وتقول أنه: "ذهب فنان بمعرضه إلى أوتيكاً بمدينة نيويورك لعرض
أعماله الشعبية التي تمثل شخصيات العشاء الأخير. وجاء شاب
يافع بعد رؤية المعرض وأخذ يضرب شخص يهوذا الأسخريوطي.
قلت له:

- توقف يا حمار، دي تماثيل من الشمع... مجرد تماثيل لحواريي
المسيح، صور مزيفة.
قال لي:

- كل ده جميل إناك تقوله... بس سيبيني أقولك ياراجل يا عجز
إن يهوذا الأسخريوطي ما يقدرش أبداً يبين نفسه في أوتيكاً. هو غير
معفي من العقوبة في مكان ملعون زي ده، خصوصاً لما نشوف
الجروح المحفورة اللي هو السبب فيها في جبهة المسيح."

تجذب القصة الانتباه لشخص يتحدث بلهجة ريفية ويخلط بين
 الرموز المقدسة والأشياء الحقيقية. كان لنكولن يحذر مجلس وزرائه
 بأسلوب مرح، ويحذر نفسه من خطورة ادعاء معرفة إرادة الله.
 وبعد أن روى تلك الحكاية الرمزية لوزرائه، أطلعهم على اعلان تحرير
 العبيد التمهيدي. ويشجع الاعلان المؤرخ في ٢٢ سبتمبر، استعمار
 السود المحررين لأراض جديدة ويقوم بتعويض المضارين منه في ولايات
 الحدود، عاكساً في نفس الوقت توجهه المحافظ نحو قضية العتق.
 لكنه يعلن أيضاً أنه اعتباراً من الأول من يناير عام ١٨٦٣ "سيكون
 عبيد كل المتمردين من هذا التاريخ فصاعداً أحراراً للأبد."
 أضحت السّون يوماً التي يمنحها قانون المصادرة الثاني للمتمردين
 للعودة إلى صفوف الاتحاد ملغاة تماماً. وبما له دلالة رمزية ثرية أن
 الوثائق الثلاثة الهامة، التي كتبها لنكولن بشأن تحرير العبيد عام
 ١٨٦٢ صدرت جميعها في اليوم الثاني والعشرين من الشهر. فأول
 مسودة لاعلان العتق كانت مؤرخة ٢٢ يوليو، وكان رده على هوريس
 جربلي في يوم ٢٢ أغسطس، ثم يأتي اعلان العتق التمهيدي يوم ٢٢
 سبتمبر. وكما يعرف الجميع فإن الرجل الذي قاد أول ثورة للأمة وقام
 بتحرير عبيده علانية في وصيته كإحياء رمزي لتحرير العبيد تدريجياً
 وطواعياً كان جورج واشنطن وهو أيضاً ولد يوم ٢٢ من فبراير عام
 ١٧٣٢. ربما كان لنكولن يقدم الشكر لواشنطن في تلك الوثائق الثلاثة

وبتحويل الحرب - في النهاية - إلى ثورة ثانية ستقتي الخطى والمثل التي أرسنها مبادئ الثورة الأولى.

لم يكن فردريك دو جلاس الوحيد الذي خاف ألا يصدر لتكولن اعلان العتق النهائي . فالأديبة هاربيت بيتشستو لم تحضر احتفالات رأس السنة بسبب شكها في أن يقوم لتكولن بتأجيل أو تجنب إصدار الاعلان . كما أن ليديا ماريا تشايلد ظنت أن الرئيس واقع تحت تأثير سحر ويليام سيوارد الذي كانت تطلق عليه لقب "الحية" واسم "المنافق الأناني المحتال" الذي لا يمكن الوثوق به . كما أن صامويل جريدلي ازداد قلقه وكانت زوجته جوليا وورد قد حولت أغنية جون براون إلى نشيد "أنشودة معركة الجمهورية" وقالت: "إن الرئيس قد حول وجهه تجاه الرب رغم أنه يشعر بالحجل نوعاً ما من ربه."

لكن لتكولن لم ينظر وراءه أبداً . كان يقول: "إنني قد أتقدم ببطء ... لكنني لا أسير للخلف." وفي نوفمبر أخبر بعض أهل كنهاي أنه "يفضل الموت على أن يقوم بسحب كلمة من اعلان العتق." لقد عكس اعلان العتق النهائي التطور المستمر لتكولن في قضية تحرير العبيد ، فلم تعد وثائقه تذكر الاستعمار واخذت تدعو صراحة لضم السود للخدمة في القوات المسلحة حتى وإن لم يكونوا جنوداً . لم يهجر لتكولن فكرة الاستعمار كلية ولا إيمانه بالتدريجية ولا

بالتعويض أو العتق الإرادي. لكن لم يوجد بوثيقة القرار النهائي شيء من التدريجية ولا اللطف لأن هدفها كان سحق التمرد، وكانت تبيحها غير المقصودة هي الثورة الاجتماعية، لأنها أعلنت أن العبيد في جميع أراضي المتمردين أحراراً في الحال وللأبد، ودافعت عن مواد العتق في قانون المصادرة الثاني. واعتمدت بصراحة على حكم سلطة الحرب بالدستور. كان تحرير العبيد "إجراءً سليماً وضرورياً لقمع التمرد المذكور." كان استخدامه كحكم "سلطات الحرب" يتسق مع فهمه لطبيعة التمرد، ولم يشرف المتمردين بتسميتهم كوفيدرايين أو حكومة. كان أقصى ما وصل إليه هو مصطلح "الكوفيدرالية المدعوة" حيث كان يعتبرهم فوضويين وخونة، وقد مكن إعلان العتق لتكوين وقادته العسكريين من محاربة العصاة بكلتا اليدين، وفقاً لتعرف دوجلاس، ومطاردتهم كخونة.

وفي رأس السنة، جاء كل مسئول بالحكومة - تقريباً - بمن فيهم أعضاء الهيئة الدبلوماسية في أزبانهم المزركشة والمذهبة إلى البيت الأبيض لحفل الاستقبال. وظل لتكوين يصافح القادمين بيده ثلاث ساعات متواصلة، وتبيست يده لدرجة أنها أخذت في الارتعاش عندما أمسك قلماً ليوقع به إعلان العتق الشهير. لكنه قال: "لم أشعر في حياتي باليقين أنني أقوم بالعمل الصحيح أكثر مما أشعر به الآن عند توقيع تلك الورقة." ثم أطلق مزحة: "إن الناس قد يرونه

ببد مرتعشة أثناء توقيعه ويفترضون أنه يشعر بوخز الضمير. " بعد توقيعها، أعطى قلمه وعليه آثار أسنان خفيفة، للجمعية التاريخية بماساتشوستس لحفظه. وكان البيض والسود قد تجمعوا معاً في الخارج في حلقات مزاحمة على طول طريق بنسلفانيا وأخذوا يستمعون للوعاظ وهم يقرأون عليهم تفاصيل الاعلان. ووصف ذلك المشهد القس الأسود هنري تيرنر قائلاً: "صرخ الرجال وأصيبت النساء بالإغماء ونبحت الكلاب وتصافح الناس بيضاً وملونين، وارتفعت أصوات الغناء... لقد كان أزهى العصور وعصر الراحة أيضاً ولن تشهد شيئاً بذلك في حياتنا أبداً. " ورأى كثيرون أن المباديء الوطنية والنبوءات المقدسة كلها قد تم الوفاء بها، وبدأ أن الخط الفاصل بين الحاضر والمستقبل وبين السماء والأرض آخذاً— فجاء— في التلاشي.

وفي تلخيص تطور تفكيره بشأن تحرير العبيد، قال لنكولن إنه كان مناهضاً صارماً للعبودية دائماً وقال: "لو لم تكن العبودية خطأ، فلن يكون هناك شيء خطأ. " لكنه على النقيض من جون كوينسي آدامز وفردريك دوغلاس وتشارلز سومنر وآخرين، لم يؤمن بأن الرئاسة تمنحه (الحق المطلق) ليتصرف بناءً على ذلك الاعتقاد، حتى أثناء الحرب الأهلية، لأن إعلان الحرية أصبح قانونياً عندما صار جزءاً لا يتفصل عن الإبقاء على الدستور. " فقد ظل لمدة عام

يبطل قرارات التحرير لأنه لم يكن يعتقد أنها أصبحت "ضرورات مطلقة" للحفاظ على الاتحاد، وقد أكد أنه لا يملك السيطرة على الأحداث التي أدت إلى إصدار اعلان العتق بقوله: "أدعى عدم قدرتي على السيطرة على الأحداث، وأعترف بوضوح أن الأحداث قد سيطرت على". ربما اقتبس من إدموند بيرك، الناقد الداهية للثورة، الذي قال إن زعيم الأمة "يتعين عليه في أغلب الأوقات أن يكون راضياً بأن يتبع خطى غيره".

إنها مفارقة غنية وعجيبة أن يرأس جمهوري محافظ التحول الجذري الأكبر لتاريخ أمة. لم يكن فردريك دوجلاس الوحيد الذي أدرك هذا. فليس هناك حجة في الراديكالية أكثر من كارل ماركس الذي أكد الطبيعة الثورية لإعلان لنكونن بتحرير العبيد، فيكتب من فيينا عن ذلك القرار أنه "أهم وثيقة في التاريخ الأمريكي منذ تأسيس الاتحاد، وثيقة تقلت من إفسار الدستور الأمريكي القديم... لم يسجل العالم الجديد انتصاراً أعظم من انتصار هذه اللحظة (عندما) ... عندما يقوم أناس عاديون ذوو إرادة خيرة بتنفيذ مهام ما كان العالم القديم ليحققها إلا بوجود بطل يقوم بتحقيقها". إنه تقارب عجيب فيما بين ماركس ولنكونن، لكن تقارباً أكثر غرابية من ذلك شكل صداقة فيما بين الأجناس كان قد اقترب من التحقق.

الفصل الخامس

أصدقاء

"أتوسل إليك أن تصفح عن ذنب إخوتك وعن خطيئتهم، فإنهم صنعوا بك شرا." (سفر التكوين: ١٧/٥٠)

في بدايات أغسطس من عام ١٨٦٤ بدا لنكولن كرجل لحقت به الهزيمة. كانت هناك نقطة مجاهدة في عينيه، وكان هيكله الطويل النحيل على وشك التداعي تحت أعباء الحرب. إذ تدقت الأبناء طوال الصيف وأخذ نجم جرانت يأفل بعد انتصاره المذهل في فيكسبرج، وأطلق العديد من الناس عليه "الجزار ملوث اليدين الفارق في حملة الصحراء" وقد أقسم "أن يقاتل في تلك المواجهة حتى لو استغرقه ذلك الصيف كله". لكنه فقد - حتى الآن - أربعة وثلاثين ألفاً من رجاله في أقل من شهر، وهو رقم مذهل صارخ أجبر الصحف إلى طبعات إضافية عن ضحايا الحرب.

أثناء حملة لجمع التمويل لتجنيد المواطنين في يونيو، حاول لنكولن حشد الأمة فقال: "إن الحرب على أفضل صورها مرعبة . . . وتلك الحرب حربنا، وهي في حجمها ومدتها من أفظع الحروب. لقد حملت الحزن لكل بيت تقريباً حتى يمكننا القول أن السماء ترتدي السواد حزناً"، ووعد أن يقضي على العصاة حتى لو استغرق الأمر ثلاث سنوات قادمة. "لكن ذلك لم يلهم الناس الثقة. فقد اهتزت ثقة الاتحاد بدرجة أكبر أمام هجوم جريء، ففي يوليو عام ١٨٦٤ اقتربت قوات الجنرال الكونفيدرالي جوبال إيرلي حتى أصبحت تبعد خمسة أميال من البيت الأبيض، وأحرقت منزل الربيع "الفضي"



الخاص بمدير مكاتب البريد الجنرال موتجمري بلير. وخلال الغارة على واشنطن قام لنكولن بزيارة معسكر ستيفنز خارج المدينة ليرى ما تبدو عليه المعركة ، وتطلع وهو يرتدي قبعة الميزة عبر الحصن والطلقات تأز من حوله، وبدأ كما لو كان يتودد للموت. واعتقد الجندي المتطوع أوليفر ويندل هولز - الذي أصبح قاضي المحكمة العليا فيما بعد - أن لنكولن مدني ساذج فصرخ فيه: "انبطح أرضاً... أيها الغبي الملعون قبل أن يصيبك الرصاص!"

امتلات مستشفيات واشنطن بالموتى والمرضى لدرجة الاختناق، وتسبب تدفق عربات الإسعاف إلى المدينة في اضطراب حركة المرور. وفي شهر أغسطس ذلك حاول والت وإيمان أن يسجل "الوقائع المرعبة" في حياة المستشفيات بالتركيز على مصير شاب يافع من ويسكنسون ضئيل الحجم ذي لحية وهو جندي رافع يكاد يمثل النموذج الأمريكي. كان الشاب محارباً لمدة ثلاث سنوات وقيت له أيام قليلة كي يخرج من الخدمة. وأثناء إحضاره لمقاتل برتبة رقيب جرح بأحد المناوشات، فأصيب بطلقة في ركبته، وتم بتر ساقه إلا أن باقي الساق أصيب بالتلوث، فكتب في يومياته: "اليوم يقول الطبيب أنني سأموت حتماً ... لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي... ياه، صغير أنا على الموت!"

حتى مزاج لنكون المرح أصبح كدراً في أغسطس هذا. وتذكر
إحدى الحكايات أنه خرج لنزهة في حديقة لافاييت، ووقف عند
التثال البرونزي لآندرو جاكسون ممطياً جواده النافر على قدميه
الخلفتين، فاقرب منه رجل نحيف بادي الجوع وسأله قليلاً من المال
وهو لا يعرف أنه الرئيس. فسأله لنكون لماذا لم يلتحق بالجيش
فأجابه: "لم يسمحوا لي بذلك وسأكون مسروراً لو ميت في سبيل
بلادي! سيدي، لو منحوني فرصة لذلك!" فقال له لنكون إنه
يستطيع مساعدته، وسحب ورقة مما يحمل وكب عليها: "حامل
هذا في شوق للذهاب إلى الجبهة والموت من أجل الوطن، ألا
تستطيعون منحه فرصة؟" ثم وضعه داخل مظروف وأغلقه وأخبر
الرجل أن يذهب به إلى مكتب التجنيد واختفى الرجل ولم يسمع
عنه لنكون شيئاً بعد ذلك.

والقصة رغم تلفيقها تبرز حالة دولة الاتحاد في بدايات
أغسطس ١٨٦٤، فالمتطوعون نقص عددهم رغم دعوة لنكون
لتجنيد ٥٠٠٠٠٠ رجل آخرين، اختفت الروح العسكرية من الأغاني
الشعبية وحل محلها النواح والرثاء مثل "لقد تعبنا من الحرب على
أرض المعسكر القديم/ فالكثيرون قد ماتوا وذهبوا". كما أن إدارة
الخزانة قد أوقفت كل رصيدها الذهبي مما تسبب في تراجع قيمة
الدولار إلى ما يوازي ٤٠ سنتاً. أخذ الناس يصرخون طلباً

للسلام. ٧. حتى رجاله المخلصون كان الاحتفاظ بإيمانهم بالقضية صعباً، ورأوا أنه سيخسر الترشيح في إعادة انتخابه في نوفمبر بسبب الهزائم العسكرية بالإضافة إلى إصراره على جعل قانون العتق "مادة أساسية في أية مفاوضات حول السلام". وقال أهل الشمال "لنّ كان أبداً أكثر من ذلك في اعتناق قرار تحرير العبيد خلال السبعة عشر شهراً الأولى من الحرب. إنه الآن مرتبط بشدة به." هكذا قال أهل الشمال. كما أن أحد مؤيديه كتب يقول: "يمكن الحفاظ على رباطة الجأش هذه الأيام بقوة الإيمان فقط. لكن ذلك أضحي كقتل جبل من مكانه." تأكد لنكون من أنه سيخسر الانتخابات وقال: "سوف أهزم، ومالم يحدث تغير كبير، ستكون الهزيمة قوية." لقد كان يتلقى الهجوم من كلا الجانبين، فصفوف الديمقراطيين المعارضة للحرب المعروفين "بالرؤوس النحاسية" أخذت تنمو. وطالبوا بتحقيق السلام بأي ثمن في الحال، وذلك ماسوف يترك العبودية قائمة بالتأكيد، وكذلك سيمتص العفو للمتمردين. كما أخذت صحف ذوي الرؤوس النحاسية، وبعضها ممول من جواسيس المتمردين، تسعى خفية لاستثارة التعصب الأمريكي، وذلك في محاولاتها لإنهاء الحرب والإبقاء على العبودية. فقالت إحدى المقالات: "إن عشرات الآلاف من الرجال البيض يجب أن يلغوا التراب كيما تهدأ حالة "الجنون الزنجي" لدى الرئيس."

أصبح العرق هو القضية المركزية في الحملة، فصاغ محرورو الديمقراطية مصطلح "التهجين" أي خلط الأجناس، واتهموا الجمهوريين بتشجيع الزواج المختلط والمعاشرة الجنسية المختلطة، وبذلك يلوثن الجنس الأبيض. وفي رسم كاريكاتوري سياسي انتشر وأعيد طبعه مراراً يظهر لنكون وسط السود ومعه المتطرفون الآخرون في حديقة وهو ينحني بأدب لحبيبة تشارلز سومنر (أو خطيبته) السوداء قائلاً: "سوف أكون فخوراً أن أضم بين أصدقائي المخلصين أي عضو من أسر تكتم الصديقة".

واتهم ذوو الرؤس النحاسية لنكون وفردريك دوجلاس بأنهما صديقين حميمين. واستغل الديمقراطيون اجتماع لنكون مع دوجلاس بالبيت الأبيض قبل عام ليطلقوا عليه حملتهم، فاقبسوا عبارات مثل قول دوجلاس: "إن رئيس الولايات المتحدة قد استقبل رجلاً أسود بالبيت الأبيض. (مثلاً يستقبل سيد مهذب سيداً آخر)". ولو كانوا يعلمون بعلاقته بأوتيلي آسنج، فلا ريب أنهم كانوا سيرسمون رسماً كاريكاتورياً بصفهما في سهرة بالبيت الأبيض. وبالمقارنة، يُعد سباق الاصطياد الذي كان يقوم به ستيفن دوجلاس للنكون أمراً هيناً، ومع احتضار الموت الذي تعانیه العبودية حينذاك كانت العنصرية العرقية قد وصلت إلى مستويات جديدة من العنف للحفاظ على تفوق الجنس الأبيض. وبينما كان الديمقراطيون يقومون

بمهاجمة لنكون من اليمين، كان بعض أعضاء حزبه يهجرونه من اليسار. وبنهاية مايو عام ١٨٦٤، شكل الراديكاليون الجمهوريون حزبا ديمقراطيا راديكاليا جديدا ورشحوا جون فرعونت رئيسا وتوماس كوشرين - وهو ابن أخت جيريت سميث - زميلا له في حملته. وبما عجل بهذا الارتداد هو خطة لنكون لإعادة البناء التي اعتبروها شديدة التساهل، فهي تعد بالعفو عن كل المتمردين عدا بعض القواد أصحاب المراكز العالية، وتسمح للولايات بالعودة للانضمام للاتحاد لو أقسم ١٠% من الناخبين بالولاء للحكومة. كانت تلك الشروط تتواءم مع رغبة لنكون في تجنب اقتلاع المجتمع من جذوره. فإذا ما كان لابد من الثورة، يجب ألا تكون متطرفة ويتعين السيطرة عليها وإلا سوف تلوها ثورة مضادة. ووفرت لويزيانا التي احتلتها قوات الاتحاد فرصة اختبار لسياسة إعادة البناء المتساهلة التي وضعها لنكون. إذ أنه كان يرى هو وقائده ثاثنيا بأنكس أن مرحلة التحول من العبودية إلى العمل بأجر مضت في هدوء ونجاح.

لكن المتطرفين عارضوا ذلك وأطلقوا على بانكس أنه "السائق المولود عبدا" وأكدوا أن نموذج لنكون لإعادة البناء في لويزيانا وضع "كل السلطات بيد جنس أبيض لم يتغير (في مبادئه)". وبينما كان يُعد السود أحرارا اسميا، كانت أحوالهم تقترب كثيرا من أحوال

"أقنان الأرض"؛ فهم مقيدون بالأرض ولا يستطيعون مغادرة المزارع دون تصريح. كان عليهم أن يعملوا بالأجر من أجل البيض بأجور تقف عند ١٠ دولارات شهرياً في حين كان في إمكانهم اختيار من يعملون عنده، كانوا مكبلين بعقود سنوية تطلب منهم "العمل بإخلاص" و"بطاعة كاملة" لرؤسائهم بهذه الصورة تمنعهم القوانين من أن يتالوا بالجهد المتواصل من اقتطاع أربعين فدانا لأتقنهم ليعيشوا معتمدين على أنفسهم كزراعين، وهو ما كان يشجعه بعض الراديكاليين .

وفي يوليو مرر الجمهوريون الراديكاليون بالكونغرس خطة بديلة لإعادة البناء وأسموها قانون ويد - دافيز وتطلب أن يقسم أكثر من ٥٠% من الناخبين على "الولاء والإخلاص قبل عودة الولاية للاتحاد، ويحظر حق التصويت إلا على من يقسمون "بميثاق غليظ" على أنهم لم يساعدوا التمرد إطلاقاً، وأنكر حق التصويت على السود لإرضاء المعتدلين والمحافظين إلا أن لنكون قد اعترض على الخطة.

أدت المناقشات حول قرار إعادة البناء إلى انقسام الحزب الجمهوري، وظل ذلك مصدراً للتنافس طوال الإثنتي عشرة سنة القادمة. فلم يستطيع الجمهوريون الاتفاق الا على مظهرين فقط في خطة إعادة البناء: إصلاح دستوري يلغي العبودية واستسلام غير

مشروط تنفذه ولايات الكونغرس الرأى بينما أراد المحافظون من الرئيس السيطرة على عمليات إعادة الاتحاد بسلاسة وسرعة مع تحول بطيء إلى حرية السود وتقديم شروط كريمة للمتآمرين في حين كان الراديكاليون يريدون أن يهيمن الكونغرس على مستقبل الجنوب ضامنا للسود حرية فورية مع حرمان المتمردين من أي سلطة.

تقدم برنامج فريمونت خطوة أبعد من قانون ويد-دافيز في إطار تأمين حقوق السود. فقد سعى لضمان حق جميع البشر في المساواة المطلقة أمام القانون. "كما نادى بإعادة توزيع الأرض على المحررين الذين كانوا ضمن أملاك العصابة، وانتقد لإرادة لتكوين في تعليق العمل بحق المثل أمام القاضي بل وطالب بإلقاء الصحفيين المتعاطفين مع التمرد في السجن. وكان هذا البند الأخير من البرنامج تنمرا واستقواء، لأن فريمونت ومعه باقي الراديكاليين لم يشعروا بالندم لإعلان قانون الطوارئ بغية إسكات المتمردين ومؤيديهم.

تشابهت مبادئ برنامج فريمونت مع برنامج حزب التحرير الراديكالي عام ١٨٥٥ في مناداته بالمساواة. ويمكننا أن نفهم تأييد فردريك دوجلاس لمبادئ فريمونت رغم أنه لم يحضر اجتماع ترشيحه. فقد كان ناقدا حادا لخطة لتكوين لإعادة البناء لأنها لا تتطلب سوى ١٠% فقط من البيض في ولايات التمرد لإعلان ولايتها للاتحاد وحتى يمكن الاعتراف بحكوماتها. فذلك يناقض صلب

فكرة الديمقراطية ذاتها .وعلاوة على ذلك، يشير صنت لنكون
عن حق التصويت للسود إلى أن الرئيس يعارضه، فقال دوجلاس:
"إن ذلك عار لأن السود كانوا رجالاً بما فيه الكفاية. فقد حاربوا
وماتوا في سبيل وطنهم، ولكن ليس للتصويت فيه!!" كان متأثراً
جداً ببرنامج فيرمونت بشأن "المساواة الكاملة" أمام القانون بما في
ذلك حق التصويت للسود، والانتقام من المتمردين لقيامهم باستعباد
وقتل أسرى الحرب.

حددت تلك الانقسامات الحادثة في الشمال جهود الحرب. فبعد
ثلاث سنوات من حمامات الدم وموت ٢٠٠٠٠٠ من أبناء الشمال،
أصبح النصر العسكري يتوقف حينذاك على الانتخابات. فالحزب
الجمهوري قد انقسم فعلياً، والديمقراطيون سوف يعقدون اجتماعاً
لتحديد مرشحهم مع نهاية أغسطس. ولو فاز مرشحهم - كما يعتقد
لنكون ومعه أغلب الجمهوريين الآن - سيكون المتمردون هم الذين
فازوا بالحرب فعلاً.

ووسط تلك الانقسامات، أدرك لنكون - بصورة غير مسبقة -
أن مصير الاتحاد يتوقف على دور السود في المجتمع. فأقر علانية أن
"سياسة تحرير العبيد واستخدام القوات "الملونة" أسهمت في تسديد
أقصى ضربة وجهت للتمرد" فالانتصارات العسكرية الحاسمة ما
كانت لتحقق "لولا مساعدة الجنود السود." ربما كان السود

يَسْتَطِيعُونَ مُسَاعَدَتَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَازِقِهِ وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا إِنْقَازَ
الْإِتِّحَادِ، رِمَا يِعَاوَنُوهُ فِي اسْتِمْرَارِ الْعَقِّ. كَانَ لِنُكُولِنِ مُسْتَعْدَاً لَتَلْقَى
خُطَطَ أُخْرَى لِإِعَادَةِ التَّعْمِيرِ كِبْدَائِلَ (رَغْمَ عَدَمِ وَجُودِ خُطَّةِ
رَادِيكَالِيَّةٍ مِثْلَ خُطَّةِ فَرِمُونْتِ) يَهْدَفُ نَزْعَ قَتِيلِ الصَّرَاعِ بَيْنَ
الْجُمْهُورِيِّينَ.

فِي الْعَاشِرِ مِنْ أَوْغُسْطُسِ تَقَابَلَ لِنُكُولِنِ وَذَهْنُهُ يَمْتَلِي بِكُلِّ تِلْكَ
الْقَضَايَا مَعَ جُوَيْتُونِ وَهُوَ كَاهِنٌ شَابٌّ مَدْرَبٌ جَيِّدٌ مِنْ دَارْتْمُوثِ
مُتَحَمِّسٌ لِعَمَلِهِ وَكَانَ قَدْ حَقَّقَ نَجَاحاً مُشْهُوداً فِي رِعَايَةِ الْحُرَرِيِّينَ
مُؤَخَّرَاً بِمَنْطَقَةِ دَافِيزِ بِنْدِ بُولَايَةِ مَسِيْسِيِي وَهِيَ شَبْهُ جَزِيرَةٍ مَسَاحَتُهَا
٤٠٠ مِيلَ مَرِيعٍ جَنُوبَ فَيْكَسْبِرْجِ الَّتِي صَادَرَهَا جِرَانَتٌ مِنْ أَسْرَةِ
جِيْفِرْسُونِ دَافِيزِ. كَانَ جِرَانَتٌ قَدْ وَضَعَ ثِقَتَهُ الْكَبِيرَةَ فِي إِيْتُونِ، وَمَلَأَهُ
الْأَمَلُ فِي أَنْ تَصْبِحَ مَنْطَقَةُ دَافِيزِ بِنْدِ "جَنَّةُ الزَّنُوجِ"، وَهُوَ لَمْ يَخْطِئْ
فِي هَذَا لِأَنَّ السُّودَ عَمَلُوا بِاجْتِهَادٍ هُنَاكَ يَزْرَعُونَ الْقَمْحَ وَالْخَضِرَاوَاتِ
وَالْقَطْنَ لِصَالِحِ قَوَاتِ الْإِتِّحَادِ وَقَدْ مَكَثَ ذَلِكَ الْجَمْعُ بَدِيلاً رَاضِعاً لِلْوِزِيرَانَا
كَمْوُذَجِ لِإِعَادَةِ الْبِنَاءِ .

كَانَ إِيْتُونُ أَسَاساً مُهَنْدِساً وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُؤْمِنَ وَجُودَ الْأَرْضِ فِي
مَنْطَقَةِ بِنْدِ لِلرِّجَالِ الْحُرَرِيِّينَ. ثُمَّ شَكَلَ نِظَاماً لِلْعَمَلِ وَالْمَشْرُوعَاتِ
يَدَارُ ذَاتِيّاً كَمَا يَسْمِيهِ. وَكَانَ الرِّجَالُ الْحُرَرُونَ يَسِيطِرُونَ عَلَى
جَمْعِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ بِنَاءً عَلَى تَصْمِيمِ ابْتِدَاعِهِ إِيْتُونِ، فَعَمَلُوا كَزَارَعِينَ

مستقلين مع إشراف الأكثر خبرة على المبتدئين. كما كانوا مسئولين عن نظامهم القضائي ومحكماتهم، وبدأ إيتون في إنشاء المدارس. كانت دافيز بند أكثر إنتاجاً من أي مزرعة أخرى في وادي المسيحي. هذا ما قاله إيتون لنكولن وأضاف أن ويليام ويلز براون وهو من دعاة التحرير السود وصديق لدوجلاس قد زار ذلك المجتمع في يوليو وأطلق عليه "أنه نوع من جنة على الأرض للاجئين الملونين." كان الرجال المحررون في أنحاء المسيحي بعد تأثرهم بالتجربة يأملون في أن ينشئوا مستعمرة جديدة تتبع نموذج دافيز بند.

اتعشت روح لنكولن بقرار إيتون وخلال الأسبوع التالي تقابلا مراراً لمناقشة طبيعة ومصير السود المحررين. وافق إيتون لنكولن في إيمانه بأن "الزنج" مثل باقي البشر، وأنه من الأفضل أن نسرع في التجربة كيما يساعدوا الاتحاد. سأل لنكولن إيتون إذا ما كانت هناك وسيلة لتوصيل رسالة للسود عبر "تجمعات قطاف العنب" لتحريضهم على ترك مزارع ساداتهم و"اللجوء لحماية جيشنا".

ذلك أن مثل هذا التحرك سيقوي قوات الاتحاد ويدمر مصدر ثروة المتمردين، وربما يمنع التفاوض على اتفاق قد يُبقي أعداداً لاحصر لها من السود تحت نير العبودية.

لم يكن لدى إيتون أدنى فكرة عن استخدام هذا المصدر الفعال في اتصالات السود، لكنه اندهش لفهم لنكولن الدقيق "للموقف في

الجنوب".

ثم الملح لنكون لغارة جون براون على هاربرس فيري مضيئاً أنه عارض أسلوب براون وتوقيته، حيث ربط الناس بينه وبين الجمهوريين كي يفقد الشعب ثقته فيهم، (وكان واضحاً أن لنكون ليس لديه أدنى فكرة بأن أسلوب وتوقيت براون معاً ساعدا على انتخابه) والآن بعدما أضحت الحرب تقع على عاتقهم، ربما يجدون طريقة للاقتداء براون لتحرير عدد أكبر من العبيد لمساعدة الاتحاد. لكنه لم يدقق في الفكرة.

وجاء ذكر دوجلاس في حديثهما فكرر لنكون انتقاداته "بكل صراحة ممكنة". ودفع ذلك إيتون إلى وصف حديث سمعه حالياً من دوجلاس بأنه نوع من الدم القاسي.

كان إيتون قد قابل دوجلاس قبل أسابيع في توليدو بأوهايو حيث توقف لزيارة أخيه في واشنطن، وعندما سمع أن هناك خطاباً سيلقيه دوجلاس، حضر إيتون الخطاب وبعدها "وجد الإثنين ما يتحدثان عنه".

هاجم دوجلاس - في خطابه بتوليدو - خطة لنكون لاعادة البناء لأنها شديدة التساهل وتجاهل إصدار قرار بحق السود في الاقتراع. وأعلن دوجلاس غضبه العام من الرئيس لعدم توقيعه قصاص العين بالعين على المتمردين الذين كانت سياستهم هي

استعباد واغتيال الجنود السود من الأسرى . وكان لتكون عندما قابل دوجلاس في البيت الأبيض لأول مرة قبل ذلك بعام ، قد وعده بتطبيق ذلك القصاص . لكنه أضحى متردداً في قتل البيض قصاصاً من قتلهم السود . وقد وافق إيتون دوجلاس على ذلك الانتقاد لأنه باعتباره مسئولاً في الاتحاد عن السود المحررين، أدرك أنه قد يواجه ذلك المصير كالسود إذا أسره المتمردون .

كان لدى دوجلاس وإيتون مبرراً كافياً ليشعرا بالقلق . فقبل أشهر قليلة من حديث توليدو حدث نموذج شنيع لبربرية المتمردين في قلعة بيلو على نهر المسيسيبي على بعد أربعين ميلاً شمال ممفيس . كان للقائد المتمرد ناثان بيدفورد فوريسٲ تاريخ طويل في تعذيب السود ، وبعد الحرب ساعد في تأسيس جماعة الكوكلوكس كلان . كان فوريسٲ رجلاً عصامياً ، وهو التقيض الجنوبي للنكولن .

ولد فوريسٲ في فافة شديدة في كوخ خشبي على نهر تينيسي ولم يتلق تقريباً أي مستوى من التعليم ، واكتسب عيشه كعامل تنقيب لقضبان السكك الحديدية ، وفي العشرينيات من عمره عمل مع عمه بإحدى المزارع ، وادخر مبلغاً يكفي لشراء أحد العبيد ، وخلال سنوات قليلة أقام "فناء للزنج في ممفيس" . كما أسماه وكون ثروة من تجارة العبيد وامتلك ضيعة . وعند بداية الحرب ، كان يكسب حوالي ٣٠٠٠٠ دولار في العام ، أي ما يساوي اليوم ٢٢٥ مليون دولار .

وفي مذبحه قلعة بيلو، أحاطت قوات فوريسست البالغ عددها ستة آلاف جندي بحوالي ستمائة جندي من جنود الاتحاد الذين لجأوا للقلعة ثم سرعان ما استسلموا، وكان السود يمثلون نصف الأسرى. لكن فوريسست رأى أن أسراه السود وحلفاءهم مجرد عبيد متمردين، ولم تأخذه بهم رحمة. وهكذا ذبح رجاله حوالي ثلاثمائة رجل، أغلبهم من السود، وبينهم بعض المدنيين الذين كانوا بالقلعة، ووفقاً لشهادة بعض الأحياء فقد صرخ الجنوبيون: "اقتلوا كل الزوج!" ودوت الصرخة بأرجاء القلعة. وقد تفاخر فوريسست أمام قائده أن النهر المجاور للقلعة "اصطبغت مياهه بدماء القتلى واستدت لمائتي ياردة . . . ومن المأمول أن تبين تلك الحقائق للشعب الجنوبي أن الزوج لا يمكنهم أن يصبحوا أندادا للجنوبيين."

أشار لنكون تلك المذبحة يوم ١٨ أبريل بعد ستة أيام من وقوعها في خطابه بالتيور بقوله: "بعدما قررنا تشغيل الزوجي كجندي، فلا مفر من منحه كل وسائل الحماية المتوفرة لأي جندي آخر." ووعده بتطبيق العقاب إذا تحققت التقارير عن أعداد القتلى. لكنه رفض إصدار قرار بالرد بالانتقام.

كان لنكون يستمع حينذاك باهتمام وإيتون يذكر انتقادات دو جلاس بالتفصيل. ويمكن للمرء أن يتخيل المرء هاتين "البقعتين الجهدتين" بعينيه تملوان بصورة أكثر بروزاً. ورداً على انتقاد خطة

اعادة البناء، سأله لنكون هل يعلم دوجلاس شيئاً عن خطابه الحالي
الموجه لحاكم لويزيانا ميشيل هان. فأجابه إيتون أن ذلك غير محتمل
لأنه هو نفسه لا يعلم شيئاً عنه. قام لنكون إلى مكتبه وسحب
نسخة من خطابه إلى هان المؤرخ ١٣ مارس عام ١٨٦٤، وربما كان
في غير حاجة إلى نظارته البيضاء ذات الإطار الصلب والتي بدت
صغيرة على وجهه الضخم، لأنه كان خطاباً قصيراً وقرأه لإيتون:
"بصراحة اقترح تحت رعايتك الخاصة- ألا نترك بعضاً من الناس
الملونين خارج الموضوع (يقصد السماح لهم بالتصويت)، على سبيل
المثال ذوي الذكاء العالي، خاصة أولئك الذين حاربوا بشجاعة
ضمن صفوفنا لأنهم قد يساعدون في أوقات صعبة قادمة، في صون
جوهره الحرية داخل أسرة الحرية.

أذهل ذلك الخبر إيتون، فحتى الراديكاليون في الكونغرس لا يمكنهم
تقديم مشروع لإعادة البناء يضمن للسود حق التصويت. قال
لنكون إنه إذا ما قدم عفواً عاماً فهو يحتاج- كذلك- توفير تصويت
عام، أو على الأقل تصويت على أساس الذكاء والخدمة العسكرية.
ثم وضع الخطاب جانباً وسأل إيتون- بتلك الصفة المتواضعة الغربية
فيه- عما إذا ما كان فردريك دوجلاس "يمكن إغراؤه للحضور
لرؤيته".

فأجابه إيتون: "إنه يعتقد أنه يستطيع ذلك".

فأخبره لنكون عن مقابلة لدوجلاس منذ عام مضى وقال إنه
يعتبه "واحداً من أكثر الناس جدارة بالتقدير في أمريكا".

عندما هبط دوجلاس في محطة بالتيمور وأوهايو على شارع
نيوجيرسي وشارع سي، كان هناك رسول من البيت الأبيض قادماً
للقائه. كان لنكون قد طلب من المفوض الهندي ويليام دول أن يتأكد
أن دوجلاس سيصل في أمان. وفي يوم ١٨ أغسطس أعلم دول
الرئيس أن دوجلاس كان من المنتظر وصوله الساعة الحادية عشرة
من اليوم السابق، لكنه لم يصل إلا أنه "من المنتظر أن يصل اليوم
وسأقوم بتوصيله لكم فور وصوله".

اهتزت مشاعر دوجلاس عندما علم أن لنكون يريد رؤيته،
فأولى مقابلاته مع الرئيس كانت تمثل أعظم شرف حظي به في
حياته. إن مجرد أن وجوده في البيت الأبيض أمر سحري، فهو
يحب لنكون بشكل شخصي ويعتبه صادقاً ويشعر بالراحة في
حضوره. لقد عامله لنكون كرجل، لا كرجل أسود. وفي الحقيقة
أظهر له الرئيس احتراماً من رجل عصامي لرجل عصامي مثله.

لكن ذلك اللقاء لم يمنعه من انتقاد لنكون بسبب سياساته
الخاطئة، وكما يعلم دوجلاس جيداً فإن بعض المحافظين كانوا يؤمنون
بسياسات عنصرية لكنهم يعاملون السود باحترام عندما يلتقون بهم،

كما أن بعض دعاة تحرير العبيد متعالون ويتفضلون على قضايا السود، فالمعتقدات السياسية لا ترتبط بالضرورة بالسلوك الشخصي.

كان هجوم دوجلاس على خطة لنكونل لإعادة البناء ولا مبالاته البادية عقب كارثة قلعة بيلو هجوماً معدلاً مقارنة بالوقائع. وفي خطابه حول أحداث الستة أشهر باسم "مهمة الحرب" الذي ألقاه على عشرات الآلاف من الناس، أطلق على افتقار نكونل "لكل المشاعر الأخلاقية" أنه الخطر الأكبر على الاتحاد. على كل حال، كان نكونل قد أخبر هوريس جريلي بأنه لا يهتم بالعبودية في حديث مشهور قال أشياء من هذا القبيل في رسالته السنوية للكونجرس. لكن عندما عبر منافسه الرئيسي ستيفن دوجلاس عن نفس اللامبالاة تجاه العبودية عام ١٨٥٨ "استنكر نكونل ذلك الشعور وعده لا يستحق أن تلفظه شفاه سياسي أمريكي". كان ستيفن دوجلاس يريد السيادة للشعب ويقول: "إن السيد نكونل يريد الاتحاد." كان هناك اختلاف قليل بينهما. وربما أضاف دوجلاس أنه ليس هناك موقف شخصي، فالمسألة مجرد لعبة السياسة.

وفي البيت الأبيض تقدم الرسول ليقود دوجلاس إلى غرفة الإستقبال، وكان نكونل في لقاء آخر، فأخذ دوجلاس مقعداً في ركن الحجر وبدأ القراءة. ثم شعر بمحقة مألوفة من إنسان أبيض

تطلع إليه، وقد بدا عليه الغضب أن يشاركه نفس المكان إنسان أسود. فرفع دوجلاس عينيه البارتين و[ضبطه] بهذه الفعلة. حاول "المذنب" القاضي جوزيف ميلز من ويسكينسون أن يتغلب على إحراجة بالسخرية من دوجلاس فسأله: "هل أنت الرئيس؟" فأجابه بهدوء وكرامة: "كلا، أنا فردريك دوجلاس".

عندما قابل ميلز لنكونلن أخبره بما حدث، ثم أخذته عزة العرق فسأله: "الآن، سيدي الرئيس، هل أنت متعاطف مع اختلاط الأجناس؟ هل هذا نموذج ديمقراطي حديث لإنتاج رجال أصحاب للاتحاد. أنا لأقصد انتهاك براءة هذا الابتكار." تجاهل لنكونلن تلك المزحة بشكل واضح.

وجد دوجلاس لنكونلن "في حالة انزعاج". فمنذ لقائهما الأول قبل عام، صار كن كبر عقداً كاملاً. امتلأ وجهه بالتجاعيد وغارت حدوده للداخل. ٥٥ كان الإحباط يملأه بسبب الاحتمالات الكئيبة لعملية إعادة الانتخابات، وذلك وفقاً لما قاله لدوجلاس، مضيقاً أن أغلب الناس شعروا أن سياسة مناهضة العبودية منعت إبرام تسوية سلمية مع المتمردين. وأشار إلى خطاب حديث أرسله إلى هوريس جريلي الذي كان يأمل في التفاوض حول تسوية ما. وقد أوضح لنكونلن فيه أن أية اقتراحات للسلام يجب أن تبنى على "التخلي عن العبودية". أثارت تلك العبارة جلبة كبرى، وأصبح الناس الآن

يُتهمونه برفض التفاوض. الأكثر من ذلك، أن لتكولن خشي من أن يصبح أحد رجاله العسكريين السابقين وهو الجنرال جورج ماكلان المرشح الرئاسي في مؤتمر الحزب الديمقراطي القادم في شيكاغو، ولو حدث ذلك، فهو يشعر أن ماكلان سوف يفوز.

سعى لتكولن للحصول على نصيحة فردريك وأطلعه على خطاب كتبه ولم يرسله، دافع فيه عن نفسه ضد "ضجة السلام المثارة ضده"، وطالما لم تتقدم أية ولاية كوفيدرالية بمشروع سلام، فمن الخطأ القول أن لتكولن يرفض السلام. ذكر في الخطاب أنه لن يلغي قرار العتق ويعيد استعباد الذين خدموا قضية الاتحاد بإخلاص "وكبداً أخلاقي . . . هل يمكن لمثل تلك الحياة . . . أن تفلت من لعنة السماء؟ أو من لعنة أي إنسان طيب؟ وكمسألة سياسية، فإن إعلان اقتراح كهذا سيدمر قضية الاتحاد نفسها."

لكن ماذا لو لم يكن لدى لتكولن سلطة مواصلة حرب تحرير أخرى؟ هذا أساساً ما قاله وما أزعج دوجلاس. ففي الخطاب يتخلى لتكولن عن السيطرة على قضية إلغاء العبودية وبالتالي عن مسئوليته، وفي النهاية على الناس أن تقرر. انهم لم يوافقوا على محاربة الرق إلا كوسيلة لإنقاذ الاتحاد. لكن ماذا لو أراد الناس السلام دون تحرير العبيد ووافق على ذلك المتمردون؟ عندئذٍ، لن يكون بمقدور لتكولن عمل أي شيء لأنهم سوف يصوتون لإخراجه من

الرئاسة ولن يعضد الكونجرس موقفه، وهو لم يستطع أن يجعل تحرير العبيد شرطاً للسلام حتى لو أراد هو ذلك. كان خطابه طريقة عبقرية لاسترضاء دعاة السلام دون تنكر لسياساته. سأله لنكون: "هل أرسل هذا الخطاب؟"

ردّ عليه دوجلاس: "بالتأكيد ... لا... لأنه سيوحي بمعنى أوسع مما قصدت توصيله، وسيؤخذ على أنه استسلام كامل وتخلي عن سياستك المناهضة للعبودية، وإذا ما تكلمت عن "حاجتك إلى القوة، فسوف يُساء فهم ذلك". ولم يرسل لنكون الخطاب أبداً.

وقد احتاج لنكون مساعدة دوجلاس في أمر آخر حيث كانت لديه خطة لإحضار المزيد من العبيد داخل حدود الاتحاد، لكنه أراد أن يقوم دوجلاس بتنفيذها. شابهت خطته خطة براون في غزو الجنوب وتحرير العبيد هناك. أراد من دوجلاس تنظيم فرقة من الكشافة السود "لدخول ولايات المتمردين، فيما وراء خطوط قواتنا، لتحمل أنباء قرار العتق، ثم تحرض العبيد على الجُمُوع داخل حدودنا." ذلك وفقاً لتلخيص دوجلاس لما حدث.

ولو نجحت الخطة، فلسوف تساعد على بقاء الاتحاد وإنهاء العبودية. استولت الدهشة على دوجلاس من تلك الخطة، لأنه كان يعرف جيداً أن لنكون يعتبر جون براون مجرماً ومجنوناً إلا أنه الآن يقتبس من صديقه القديم، ويدبر خطة مشابهة للإغارة على الجنوب

وتحرير العبيد، وذلك يشابه أيضاً خطة طريق "الممر تحت الأرضي" الأصلية التي وضعها براون. تلك الخطة التي ظن دوجلاس أنها ستنجح.

أثارت خطة لنكولن المشابهة لخطة براون فزع دوجلاس، وأزعجته حيث تفترض أن اعلان العتق لن تكون له قوة فعالة بعد الحرب، وهزته لأنها كشفت أن لنكولن يكره العبودية أصلاً وأنه لم يصدر اعلان بعتق العبيد لمجرد أنه ضرورة عسكرية. لذا، لاعجب أن يطلب إصلاحاً دستورياً لإلغاء العبودية.

فجأة، رأى دوجلاس لنكولن تحت ضوء جديد، فالرئيس يرغب في الذهاب إلى أقصى مدى في قضية الحرية- أبعد مما ظنه دوجلاس ممكناً لأن خطته الشبيهة بخطة جون براون بينت اقتناعاً أخلاقياً أعمق بإلغاء العبودية أكثر مما رأيته فيما كتبه أو قاله من قبل. ظل لنكولن طويلاً متباطئاً عن حربه، لكنه غداً في مقدمته. تحدث الرجلان ساعات طويلاً، وعند نهاية لقائهما اعتبر كل منهما الآخر صديقاً، وكان سكرتير الرئيس قد أعلن خلال حديثهما مرتين أن الحاكم ويليام باكينجهام من كوينسكيكت في الانتظار لرؤيته، فكان يقول له: "أخبر الحاكم باكينجهام أن ينتظر لأنني أريد محادثة صديقي دوجلاس مدة طويلة." في المرتين عرض دوجلاس الخروج، لكن لنكولن عارضه.

اعتبر دوجلاس ذلك اللقاء أول لقاء في تاريخ الجمهورية "يظهر (فيه) رئيس مثل هذه النزاهة نحو السود." وكان على حق لأنه لم يكن وحده الذي كان الرئيس نزيهاً تجاهه. كان لنكولن تقابل مع سود كثيرين بالبيت الأبيض (وبالطبع ليس من بينهم العبيد أو الخدم) أكثر من أي رئيس سابق. وفي عام ١٨٦٢ قدم الأسقف دانييل بين اليه، فقام بالمقارنة بين كرم وسخاء لنكولن وتكبر واستعلاء الرئيس جون تيلر الذي قابله منذ سنوات عندما كان يلقي رثاء لأحد خدم تيلر. كما استطاع القس هنري هاي لاند أن يتعرف على لنكولن الذي طلب منه أن يلقي موعظة في الكونجرس في ذكرى صدور قرار العتق. كما أصبح شريك دوجلاس في إدارة الجريدة مارتن ديلاني أول عقيد في الجيش الأمريكي من السود بدولة الاتحاد، وتقابل مع لنكولن في بدايات عام ١٨٦٥ ليقترح عليه مشروعاً شبيهاً بخطة جون براون، كان دوجلاس ولنكولن قد ناقشاه.

وبالمثل، أكدت النساء السوداوات امتلاء قلب لنكولن بالرحمة، فاليزابيث كيكلي - خياطة ماري لنكولن - كانت تتردد على البيت الأبيض لأخذ المقاسات وكذلك للتشاور وأصبحت صديقة ماري الأمينة؛ وهي التي أطلقت عليها لقب "الروحانية" بعد موت ويللي. كما أطلقت على لنكولن "المبهدل". لكنها قالت عنه إنه كان طيباً

ومراعياً لمشاعرهما "أكثر من أي شخص آخر بالبيت الأبيض".
وهناك سوجورنر تروث التي كانت مشوقة لمقابلة الرئيس حتى إنها
أحضرت "أوتوجرافها" وطلبت منه التوقيع عليه وقالت إنها "لم
تعامل بمثل تلك الطيبة والصدق القلبي إلا مع ذلك الرجل العظيم
الرائع".

وبمجرد قيام البيض والسود بالعمل معاً لتحقيق أهدافهما
المختلفة من أجل إنهاء العبودية وإتخاذ الاتحاد، ازدهرت العلاقات
والتحالفات بين الجنسين. فقد كان معنى قتال المتمردين بكلاً
اليدين، أن إحدى اليدين هم البيض والأخرى هم السود. أصبح
تدفق السود جيئةً وذهاباً مراراً إلى البيت الأبيض منتظماً مما دفع
جريدة "الواشنطن كرونيكل" للتعليق عليه في بدايات عام ١٨٦٤
كالتالي: "منذ سنوات مضت، لو قدم رجل ملون نفسه للبيت الأبيض
زمن الرئيس ليفي، طالباً مقابلة الحاكم الأعلى، لكانوا عاملوه معاملة
سيئة لوقاحته في جميع الأحوال".

وقد حدثت أقرب سابقة من ذلك النوع بالبيت الأبيض قبل إثنين
وخمسين عاماً عندما تقابل مالك السفن الشري الأسود بول كوف
بالرئيس جيمس ماديسون، وكان أحد أعضاء طائفة الكويكرز من
ماساتشوستس وقاد حركة المستعمرات الجديدة كملاح للعبودية
الأمريكية والتعصب العنصري، وفي عام ١٨١٢ قام رجال الجمارك

باحْتِجَازِ سَفِينَتِهِ الشَّرَاعِيَّةِ بِصُورَةٍ غَيْرِ قَانُونِيَّةٍ وَهَدْدُوهُ بِتَدْمِيرِهَا .
وَكَانَ رَدُّ كُوفٍ أَنْ حَمَلَ مَشْكَلَتَهُ إِلَى الرَّئِيسِ . وَكَانَ مَادِيسُونُ مِنْ
مَلَائِكَةِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ - مِثْلُ أَغْلَبِ مُؤَسَّسِي الْوَطَنِ - يَسْمُونُ الْعَبوديةَ
خَطِيئَةً وَيَسْعَوْنَ لِإِحْدَاثِ تَحْرِيرِ تَدْرِيجِيٍّ . وَكَانَ مِثْلُ كُوفٍ مِنْ دَعَاةِ
الْمُسْتَعْمَرَاتِ ، وَفِي لِقَائِهِمَا خَاطَبَ كُوفٍ عَلَى مَا يَتَصَوَّرُ بِلُغَةٍ بَسِيطَةٍ
غَيْرِ مَزْخَرَفَةٍ نَاصِيَةً مِنْ عَقِيدَةِ الْكُوِيْكِرِزْ فَقَالَ : " جِيْمِسْ ، لَقَدْ
أَوْقَعُونِي فِي مَشْكَلاتٍ جَمَّةٍ ، بَلْ وَأَهَنْتُ وَجَنْتُ إِلَى هُنَا طَالِباً
حِمَايَتِكَ . " وَقَدْ اسْتَجَابَ مَادِيسُونُ لَطَلْبِ كُوفٍ الْمُسَاعَدَةِ فِي
اسْتِعَادَةِ سَفِينَتِهِ جِزْئِيّاً بِسَبَبِ تَمَاطُلِ رَوُؤْيَيْهِمَا بِشَلْثَنِ إِعَادَ لَأَمْرِيكَيْنِ
الْأَفَارِقَةِ .

كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يُقَابَلُ فِيهَا أَمْرِيكِيٌّ أَفْرَقِيٌّ رَئِيسَ الْوِلَايَاتِ
الْمُتَّحِدَةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ خَادِماً أَوْ عَبْدًا . وَمَعَ ذَلِكَ مَا مَدَى اخْتِلَافِ
لِقَاءِ كُوفٍ عَنْ دُوْجَلَاسٍ ؟ بَيْنَمَا مَادِيسُونُ وَكُوفٍ . يَتَقَاسِمَانِ رُؤْيَا
وَاحِدَةً لِلارْتِقَاءِ بِالسُّودِ تَعَمُّدَ عَلَى ثَقَلِهِمُ لِلْمُسْتَعْمَرَاتِ ، تَوْحِيدِ
دُوْجَلَاسٍ وَلِنَكُولِنِ بِصَدَدِ قَضِيَّةِ إِقَامَةِ إِتْحَادِ مُتَعَدِّدِ الْأَجْنَاسِ .

فِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا عَلِمَ جُونِ إِيْتُونُ بِلِقَاءِ دُوْجَلَاسٍ
وَلِنَكُولِنِ ، قَامَ إِيْتُونُ بِزِيَارَتِهِ . كَانَ دُوْجَلَاسُ يَقْطَعُ أَرْضِيَّةً بِهِوَ مَنْزِلِ
أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ جَيَّةٍ وَذَهَاباً حَيْثُمَا كَانَ يَقِيمُ مَشْتَتِ الْفِكْرِ وَوَاضِحِ

الاهتمام . وكانت الأوراق ملقاة مع زجاجة حبر مفتوحة على طاولة
الكتابة القريبة منه . وكان قد بدأ تحديد معالم خطة جون براون
وأخذته الدهشة عندما رأى جون إيتون فأخبره بانفعال : "لقد أتيت
توأم من عند الرئيس لنكون . " ثم مكملًا : "لقد عاملني كرجل ، ولم
يدعني أشعر ولو للحظة أن هناك أية اختلافات في لون بشرتنا ! إن
الرئيس هو أكثر الرجال عظمة . "

بعد أيام قليلة ، وصل رسول من البيت الأبيض يدعو دوجلاس
لتناول الشاي ، وكانت بالخارج عربة تنتظره لتقله إلى دار الجنود .
اضطر دوجلاس للاعتذار لأنه كان قد وافق من قبل على إلقاء
محاضرة في ذلك اليوم ، وتعني أن يكون أمامه أكثر من فرصة لتناول
الشاي مع الرئيس فيما بعد . وعند العودة لروشيستر ، واصل عمله
في خطة براون . استشار عددًا من الناس السود ، وكانوا كلهم
شغوفين بتدعيم الخطة . وأرسل تقريره النهائي يوم ٢٩ أغسطس إلى
لنكولن . كانت الخطة من حيث المفهوم تماثل خطة "الممر تحت
الأرضي" التي صاغها براون وتطلع إلى تشكيل قوات خاصة
للجيش كانت تقضى بأن يقوم عميل عام (سيكون دوجلاس
بلاشك) بتعيين عملاء فرعيين لأماكن مختلفة في كل أرجاء الجنوب ،
على أن يكون كل واحد عارفًا بمنطقته ، لقيادة فرق العبيد إلى
حدود الاتحاد . تقدم أولئك العملاء تقاريرهم مباشرة إلى جنرالات

الوزارة الذين سيساعدونهم "على متابعة مهمتهم دون عوائق". كما سيتم توفير الاحتياجات الضرورية للعبيد كاملة حتى يصبحوا مهينين لأداء الخدمة وسيتقاضى العملاء رواتب غير مقيدة. وقد ذكر دوجلاس للنكون أن "كل عبد يهرب من ولايات المتحردين يشكل خسارة للتمرد ومكسب لقضية الولاء".

وفي يوم ٢٩ أغسطس وهو نفس اليوم الذي أرسل فيه اقتراحه للنكون، اجتمع مؤتمر الحزب الديمقراطي في شيكاغو ورشح ماكلان للرئاسة. وكتب أحد مؤيدي لنكون له يخطره أن مرشحهم سيكون واحداً "لأن جيفرسون دافيز قد ينسحب". "وحيثذاك تبدت حاجة أكثر إلحاحاً لخطة براون.

حوّل دوجلاس دعمه إلى لنكون وتخلّى فريمونت عن ترشيح نفسه من أجل وحدة الجمهوريين. وأراد دوجلاس أن يحول في البلاد كي يحشد المصوتين من أجل لنكون، لكن لجان الجمهوريين كانت شديدة الحساسية نحو تهمة "حزب الزنوج" كما لاحظ دوجلاس. لذا، ظل يعمل من وراء ستار.

لم يتم تنفيذ خطة براون أبداً، لأن الجنرال ويليام شيرمان استولى على أطلانطا يوم ٢ ديسمبر في أهم انتصار للاتحاد منذ فيكسبرج، وانطلقت كلماته الشهيرة: "أصبحت اطلانطا لنا، وكسبنا معركتها بالعدل." تتردد عبر أرجاء الشمال. أمر لنكون بإطلاق مئة مدفع

نحية للنصر في كل واشنطن ودعا للاحتفال بيوم الشكر
والصلاة. وتمرور الوقت، بدأ شيرمان حملته نحو البحر، وانقضت
الفرصة أمام جهود اصحاب "الرؤوس النحاسية" من أجل
السلام. وبدأ واضحاً أن لنكون سيفوز في الانتخابات عاجلاً
واعتبرت خطة "براون" غير ضرورية حيث آمن كل شمالي - تقريباً -
أن الحرب ستنتهي قريباً .

عد جون إيتون صداقة لنكون - دوجلاس اختباراً
لدبلوماسية الرئيس المعتمدة على تعاون الحزبين إذ قال إن واحدة
من مهارات الرئيس الكبرى "تبدو في تعامله مع الذين يميلون للتقريب
عن الأخطاء في سياساته." لم يكن لدى إيتون وسيلة لمعرفة أن
لنكون قد طور تلك المهارة على جبهة إيلينوي مع خصومه بدءاً من
جاك أرمسترونج حتى ستيفن دوجلاس . لأنه أعلن من ٢٢ عاماً
خلت : "لو أردت أن تكسب شخصاً لصفك، فاقنعه أولاً بأنك
صديقه المخلص." وقد خدمته تلك العقيدة جيداً لأنه طبق تلك
السياسة مع عدد لا يحصى من السود بالفعل .

استطاع دوجلاس مصادقة لنكون لأن الرئيس تحول أخيراً
لصالح قضية العتق، وظل - أيضاً - مخلصاً لصداقه التي يعتمد
مبدأها على المشاركة في قضية واحدة. فكلا الرجلان احتاج كل
منهما الآخر. إذ احتاج لنكون لدوجلاس لإتقاذ الاتحاد، وهو قد

خدم هدف دوجلاس بتحرير العبيد، وعند لقائهما في أغسطس ١٨٦٤ أدرك الرجلان أن هديهما تؤمان يد عمان بعضهما بعضاً. لكن صداقتهما ارتككت أيضاً إلى قدرتهما على التسامح. وكرجلين عصامين يقومان بتغيير نفسيهما باستمرار، أدركا أن عدو الأس قد يصبح صديق الغد والعكس أيضاً صحيح، ورفضاً أن ينظرا لنفسيهما باعتبارهما جامدين أو ساكنين. ولكي يحققا التحول، احتاجا للتسامح مع أعدائهما السابقين ونسيان سيئاتهم، والثقة في احتمال تغيرهم، وأدى بهما إيمانهما بقوة المغفرة إلى توفير الامكانيات للتقارب، ومنحهما القوة لمواصلة التطور.

عندما تقابل دوجلاس ولتكوين للمرة الثالثة في ٤ مارس ١٨٦٥، كان الجو العام مبهجاً. إذ جاء دوجلاس إلى واشنطن ليحضر التنصيب الثاني له، فالحرب أوشكت على الانتهاء وتم تجنيد ١٧٠٠٠٠ جندي أسود يزحفون منتصرين عبر الجنوب وقد مرر الكونجرس مؤخراً التعديل الثالث عشر لإلغاء الرق في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

كان اليوم بارداً ممطراً، وغطى الوحل الشوارع غير الممهدة "وتدقق الناس حول مبنى الكابيتول وهم في حالة زهاق،" فالكثيرون منهم ظلوا متيقظين طوال الليل بعدما استقلوا قطارات خاصة للافتتاح الرئاسي تصل لواشنطن في الصباح وبين غبار

الرماد الجمر المتطاير من القطارات والوحد والأمطار، بدا الثلاثون ألف الحاضرين مرهقين تماماً ويغطيهم اللون الرمادي. "قمماش الكرنولين القطني "تكرمش"، والتنورات "تلطنخت"، والملابس المموجة العتيقة والقطيفة وما إلى ذلك من ملابس جافة لوثها الوحد من أطرافها لأطرافها.

وصل دوغلاس قبل أربعة أيام من موعد التنصيب، وفي ٣ مارس احتسى الشاي مع سالمون تشيز وزير الخزانة السابق والذي كان حينذاك قاضي قضاة المحكمة العليا. كان دوغلاس قد التقى تشيز أثناء سلسلة محاضرات عن تحرير العبيد قبل الحرب وأحبه، وقد فرح بإحلال تشيز محل تاووني الذي كان قراره في قضية دريد سكوت سبباً جزئياً في اشتعال الحرب، وقد خاطوا روباً جديداً لقاضي القضاة كي يملو- وهو يرتديه- قسَم العمل بوظيفته وساعده دوغلاس على تجربة الروب.

كانت القبة الحديدية الجديدة قد استقرت حينذاك في خيلاء على قمة مبنى الكابيتول، وكانت عمليات التجديد قد توقفت لفترة وجيزة عام ١٨٦١. لكن لتكون أمر باستمرار العمل في استكمال القبة، لأن في استكمالها رمز لعودة الاتحاد حسبما كان يعتقد. لكن بالنسبة للعديد من الديمقراطيين وبينهم هيرمان ملفيل، كانت القبة الحديدية الجديدة نذير شؤم... فكذب ملفيل:

قد تأتي القوة غير وهي لم تمسح بالزيت المقدس
والسلطان الذي لا يسعى إليه الأحرار كذلك.

أما القبة الحديدية،

بكل قوتها على الإحتمال ومواجهة الاجهاد

فتلقى بظلمها الهائل بطول الميادين،

بينما يهرب حلم المؤسسين منا . . .

ثار قلق ملفيل من أن قد (تلقى بظلمها الثقيل بطول وعرض
"الميادين والشوارع في أمريكا وتعرض سلطانياً غير مسبوق على
المجتمعات والمدن وبذلك تدمر حلم المؤسسين للدولة، حلمهم باتحاد
فضفاض وواسع لولايات الوطن، وحكومة غير مركبة".

كان تمثال "سيدة الحرية" البرونزي يقف في فخار فوق قمة القبة،
وبدت غريبة الشكل وهي ترتدي خوذة بدلاً من القلنسوة تماماً مثل
إلهة الإغريق. لكن وزير الدفاع جيفرسون دافيز، الذي أشرف على
نصب التمثال بحكم مركزه، كان يعلم أن وضع القلنسوة على رأس
امرأة لدى الإغريق القداسي كان يعني علامة على أنها "عبد محرر".
لذا، اقترح وضع خوذة بدلاً منها .

وقف دوغلاس بين الجماهير في انتظار بدء الاحتفال. ثم قام
أحد الأصدقاء بالإشارة نحو أندرو وهو نائب لنكونن الجديد، وما
أن لاحظ جونسون وجود دوغلاس حتى تحولت تعبيرات وجهه في

الحال إلى "حقد واحتقار ممرور" وعندما رأى دوجلاس يراقبه اتخذ مظهراً أكثر وداءً وصداقة". أما بالنسبة لدوجلاس، فقد كانت تلك اللحظة "تفتح فيها أبواب الروح الإنسانية فتبدى شخصيته الحقيقية". فعاد إلى صديقه وقال: "مهما تكن طبيعة أندرو جاكسون، فهو بالتأكيد ليس صديقاً لنا ولا لجنسنا." ورغم أن سياسات لنكولن وجونسون بشأن إعادة البناء متشابهة، إلا أن سلوكهما الشخصي تجاه العبيد كان متناقضاً.

ومع مثل هذه الأعداد الكبيرة من الناس مجمعة حول الكابيتول، انتاب دوجلاس القلق من أن تقع محاولة اغتيال. ولم يكن يشعر وحده بهذا القلق. فمتذخرف ١٨٦٤ في الشمال انتشرت تقارير المراسلين تحدث عن مؤامرات تحاك بالليل، وقد استأجر لنكولن مؤخراً حارساً شخصياً. وخلال إلقاء الخطاب وقف إلى جواره رجال شرطة في ملابس عادية مسلحين بمسدسات كولت ٣٨. وكان جونسون ويلكيس بوث أيضاً حاضراً يشاهد لنكولن من الشرفة اليمنى للمبنى، ووقف دوجلاس أمامه مباشرة، وكان بذلك يحتل موقعاً ممتازاً للرؤية. ربما كان على دوجلاس أن يقلق على نفسه لأنه قبل عام حاول أحد الأشخاص اغتياله في بالتيمور.

وكما ثبت بعد ذلك، فقد كان الحفل "رائعاً تماماً، وشيقاً، وجاداً، وقلماً للملاحظة دوجلاس." كما ساد "سكون ثقيل خيم

على الجماهير" وأثناء إلقاء لنكون لخطابه شعر دوجلاس أن الحفل يبدو كموعظة لا كخطاب دولة.

أكد لنكون في خطابه أن الله "لا يحيط به شيء"، فكلا الطرفين يقرأ نفس الكتاب المقدس ويصليان لنفس الإله، ويوسلان طلباً لمساعدته ومعوته ضد الآخر، قال أنه يتخيل أن غضب الله ينزل الانتقام على ملاك العبيد. لكنه تجنب في حذر شديد ادعاء معرفته إرادة الله. فمثل ذلك الادعاء سيكون غطرسة "لأن الله القادر له - دائماً - مقاصده الخاصة. وإن الاتجاه الأمثل نحو الناس والأمم يجب تمثّل في التواضع والتسامح والمغفرة. ينبغي عدم إضرار الشر نحو أي شخص، وتمني الخير للجميع."

وبعد الحفل، ذهب دوجلاس إلى حفل الاستقبال في البيت الأبيض، وبينما كان يهم بالدخول، جذبته إثنان من الشرطة بعيداً بوقاحة، وأخبراه أنه غير مسموح لأي شخص ملون بالدخول. فقال لابد أن خطأ ما قد حدث لأن مثل تلك الأوامر لا تصدر عن الرئيس. لكن الشرطين رفضا الاقتناع إلى أن قام بإرسال "كلمة" للرئيس بأنه موقوف عند الباب.

وجد دوجلاس الرئيس لنكون في الحجرة الشرقية الأنيقة واقفاً مثل شجرة صنوبر جبلية ببساطته العميقة وبهائه المألوف. قال لنكون: "ها هو صديقي يأتي إلي". وأخذ من يده مضيئاً: "أنا

سعيد لرؤيتك. لقد شاهدتك بين الجمهور اليوم تستمع لخطابي
الافتتاحي. " ثم سأله عن مدى تقديره للخطاب وأكمل: "ليس هناك
شخص في هذا البلد أقدر رأيه أكثر منك."
فأجابه دوجلاس: "سيد لنكون، لقد كان ذلك جهداً
مقدساً."

أصبح خطاب التنصيب الثاني بالنسبة لدوجلاس، واحداً من
أعظم فرائد الأدب الأمريكي. وكان كثيراً ما يقوم بالاقتراس منه ولم
ينقده أبداً رغم حفل بنعمة تهادن مشابهة لما جاء بخطاب "لنكون"
في تنصيبه الأول.

أدرك دوجلاس الآن أن مهادة المتمردين ليست في حد ذاتها
سياسة مضللة. ربما كان ذلك الفهم يرجع لعلاقته الودودة مع
لنكون، فهو- مثل الرئيس- يؤمن إيماناً عميقاً بقوة المغفرة التي تؤدي
للتصالح. لكن المغفرة لا تكون لها قوة أخلاقية الا عندما يعترف
المتمردون بأخطائهم، والا فهي تزيدهم قوة وتسمح لهم بالاستمرار في
الخطيئة وارتكاب الفظائع. فالمغفرة- عندئذ- سوف تؤدي لمسألة
البيض دون أي تغيير في سلوكهم تجاه السود، وفي النهاية كان ذلك
بالطبع هو ما حدث.

في يوم ٩ أبريل، بعد شهر تال، استسلم "لي" للقائد جرانث عند
أبوماتوكس. سمع لنكون الأنباء مساءً وفي اليوم التالي أمر بإطلاق

خمسمائة مدفع تحية لإعلان النصر، وتجمع آلاف من الناس حول البيت الأبيض للاحتفال به. عزفت الفرق موسيقاها، ورفرفت الأعلام، وانطلق الناس في الفناء، والضحك، والصياح، ووصف ذلك أحد المحتفلين أن "كله... كله يبهل". وبدأت الجموع تغني للنكون. وفيما بعد ظهر في نافذة من الطابق الثاني، وطلب من الفرقة الموسيقية أن تعزف لحن "ديكسي" وهو لحن مرح ارتبط بقضية المتمردين، وقال لنكون للجماهير: "إنه واحد من أفضل الألحان التي سمعها في حياته. لقد حاول أعداؤنا مدة طويلة أن يخضوا به أنفسهم، لكنني أصرت بالأس على أننا (أسرناه) لدينا بشكل عادل". وهكذا عزفت الفرقة لحن "ديكسي" * ثم انتقلت إلى لحن "يانكي دودل". وفي يوم ١٤ أبريل، بعد خمسة أيام من إعلان النصر، أرسل جون ويلكيس بوث رسالة إلى جريدة "الناشيونال إتلجنس" في واشنطن. فطوال الشهور القليلة الماضية كان بوث قد استطاع أن يحدد فرقة صغيرة من جنود الكونفيدرالية لاختطاف لنكون ليطلب مقابله إطلاق سراح ألف من سجناء الحرب المتمردين. كانت الخطة الأصلية أن يوقعوا لنكون في كمين خلال انتقاله بالعربة إلى دار الجنود وخطفه ونقله إلى ولاية فيرجينيا الكونفيدرالية. كان بوث قد تقابل مع جواسيس كونفيدراليين في مونتريال بكندا وربما يكون قد تسلم منهم (أموالاً وتعليمات سرية).

كما أن واحداً من رجاله قابل جودا بنجامين وزير خارجية الكونغرس الذي كان يشرف على العمليات السرية. لكن بعد أن استسلم "لي" لجرائنت، كان على بوث أن يغير خطته لأنه لم يعد يستطيع تطبيق عملية المقايضة، لكنه رفض أن يصدق أن الجنوب قد هُزم وأن العبودية انتهت تماماً، فكذب في يومياته: "إن قضيتنا أوشكت أن تضيع، ولا بد من عمل حاسم وعظيم." كان خطاب بوث للجريدة دعوة لجمع السلاح من أجل المتمردين. "قال إن بلدنا أنشئ من أجل البيض لا السود، فالعبودية تنشط النمو الاقتصادي وترتقي بالسود، وتمثل الخير العميم الذي أضفاه الله على بلدنا المحبوب." وقال إن لنكون يهدد بالقضاء على كل شيء ما هو فاضل في الجنوب، وشبه بوث لنكون بوليس قيصر، وهي شخصية يعرفها كلا الرجلان من خلال عشقهما المشترك لشكسبير. وكان لنكون قد شاهد عرضاً لمسرحية "بوليس قيصر" في مارس ١٨٦٤ بطولة إدوين بوث أخيه جون بوث. وفي نوفمبر من نفس العام مثل جون نفسه - دور مارك أنطوني في عرض خيري لهذه المسرحية من أجل جمع أموال لعمل تمثال لشكسبير في سنترال بارك. لكن جون بوث فضل أن يقوم بدور بروتس في الحياة، وختم خطابه للجريدة "الناشيونال إيتلجنس" بقوله: "عندما انتصر قيصر على أعداء روما، وهددت قوته وسلطاته حريات الشعب، نهض بروتس وقتله، وكانت

طعنات خنجره تنطلق من حبه لروما . كان بروتس يوجه ضرباته
لطموح وروح قبصر، وكان لا بد أن يتزف قيصر دماً لقاء أفعاله .
وصل أبراهام وماري ليلة ١٤ أبريل متأخرين عند مسرح فورد
بواشنطن لمشاهدة مسرحية "ابن عمنا الأمريكي" وهي كوميديا من
الدرجة الثالثة . كانا قد عزما الجنرال جرانت وزوجته جوليا . لكن
عائلة جرانت كانت قد سافرت إلى نيويورك لرؤية أولادهما . وفي
صباح ذلك اليوم كانت ماري تشعر بصداق وقالت له إنها ترغب في
البقاء بالبيت، لكن زوجها "كان مصرا على التزوج عن نفسه
وارتبط ذلك بالمسرح" فذهبت عائلة لنكون مع زوجين يجبان
مرافقتهما: الميجور هنري رايبون وخطيبته كلارا هاريس ابنة نائب
نيويورك . وبينما كانوا يدخلون مقصورة الرئاسة بالقرب من خشبة
المسرح بدأت الأوركسترا تعزف لحن "المجد للرئيس" لإيقاف العرض
قليلاً، فذهب لنكون إلى سور المقصورة وانحنى مبتسماً والجمهور
يحياه بحنون .

فجأة، بدا المسرح كعائلة متحابة ورمزاً مجسداً للأمة، على الأقل
هذا ما شعرت به جوليا شيرد التي جلست وسط المسرح تشاهد
العرض وهي تشرح لوالدها ما ترى: "الرئيس هناك، في أعلى اليمين
بالمقصورة الخاصة المزينة بالأعلام الحربية في أناقفة فوق صورة لجورج
واشنطن، وابنة النائب هاريس الصغيرة الجميلة هي الوحيدة التي

نستطيع رؤيتها من بين رفقة الرئيس لأن الأعلام تخفي الباقين، لكننا نعرف أن الأب أبراهام موجود هناك، مثل الأب الذي يتابع ما يهيم أبناءه من أجل متعتهم وليس متعته، وكم يبدو المشهد اجتماعياً، مثل أسرة واحدة تجلس حول نار الرواق . كان الجميع سعداء للأيام التي ضحكوا فيها وتصايحوا لكل طرفة كوميديّة. ذلك ما كان عليه الشعور العام ."

كان هناك واحد من أعضاء تلك الأسرة قد تهرّب من أداء مهامه ، فجون باركر ضابط الشرطة الذي تمّ تعيينه لحراسة مدخل مقصورة الرئيس ترك خدمته لمشاهدة المسرحية، وبعد ساعة من مشاهدته لها خرج ليتناول مشروباً . كان لباركر تاريخ سيء في العمل، فقد تمّ اتّهامه عدة مرات بالسُّكر . كما أهمل عمله لمدة أسبوع جبراً وراء متعته في بيوت العاهرات .

بعد العاشرة مساءً بقليل أبرز جون ويلكيس بوث بطاقته لبواب المسرح أسفل السلالم المؤدية لمقصورة الرئيس، وتعرف عليه البواب جيداً وتركه يمر لأن بوث كان قد قام بالتمثيل في مسرح فورد عدة مرات . وفي صباح ذات اليوم كان بوث قد أحدث ثقباً في باب المقصورة يتلصص منه، ورأى وهو ينظر من خلال الثقب لتكوين من الخلف جالساً على مقعد متأرجح، ثم دخل يهدوء إلى المقصورة ورفع مسدسه نحو رأس لتكوين على بعد قدمين فقط . ثم أطلق

الزناد . كانت الساعة نحو العاشرة والنصف مساءً .

حاول العقيد روثيون إمساك بوث . لكن القاتل جرحه بخنجره وقفز من المقصورة إلى خشبة المسرح . لكن مهماز بوث علق بشراف العلم المدلى من المقصورة للزينة ، وسقط فوق قدم واحدة وانكسر عقبه ، فلوح بخنجره الدامي صائحاً : "هذه نهاية كل طاغية !" وهذه الجملة هي شعار ولاية فيرجينيا . ثم هرب من خلفية المسرح . عندئذ ، وفي المقصورة ، سمع الجميع نحيب وعويل ماري : "لقد قتلوا الرئيس . . لقد قتلوا الرئيس . يا إلهي ! لقد أسلمت زوجي للموت ."

كان اليوم هو يوم الجمعة الطيبة . حالما أدرك الأطباء أن لنكون لن يموت لحظتها ، نقلوه إلى منزل خاص يملكه ويليام بيترسون بجوار المسرح ، وهو تاجر وترزي . كانت توجد في خلفية الدور الأول غرفة ضيقة بها سرير صغير . وحيث كان السرير صغيراً جداً بالنسبة لطول لنكون فقد وضعوه بشكل مائل . ورغم علمهم أن طلقة بوث كانت مميتة لكنهم لم يريدوا للرئيس الموت داخل مسرح فهو مكان غير ملائم إن لم يكن مكان للكفر في رأي الكثير من الأمريكيين .

وخلال التسع ساعات التالية انتظرت ماري أن تسمع خبر وفاة زوجها ، وظلت لساعات قلائل جالسة بجواره ، ومن بين زفرائها

المستمرة كانت تناديه بأسماء محببة وتطلب منه أن يقول لها بضع كلمات. لكن لنكون لم يستعد وعيه ثانية أبداً.

وعندما وصل روبيرت تود لنكون ورأى حالة أمه، أرسل في طلب إليزابيث ديكسون أقرب صديقات ماري من واشنطن، التي ساعدتها خلال الأزمة وأقنعها أن تستريح في غرفة ملحقه حيث أمكنها أن ترتاح وأن تظل على زوجها كل ساعة، وأرادت ماري أن يحضروا لها ابنها تود ذا الإثنتي عشرة سنة للمنزل ليحضر وفاة والده، لكن الأطباء رفضوا ذلك بسبب أن ماري كانت تقع في نوبة إغماء كلما صعب تنفس زوجها. ووجد إدوين ستاتون وزير الحرب الذي تولى مسؤولية الإجراءات التالية للحادث أن في وجودها خطر عليها، فأمر رجاله: "خذوا هذه السيدة للخارج ولا تدعوها تأتي هنا مرة ثانية!"

أكتظت الحجرة برجال الدولة، وكان كل وزراء لنكون حاضرين عدا ويليام سيوارد الذي تعرض للهجوم وكاد يُقتل على يد لويس بن شريك بوث. كما أن بوث كان قد أمر شريكاً ثالثاً هو جورج آتربوت باغتيال أندرو جاكسون نائب الرئيس. لكن آتربوت تجاهل الأمر وتجول بلا هدى "خلال شوارع المدينة". وكان ستاتون عالي الكفاءة لدرجة أن كل متأري بوث تم اعتقالهم خلال ساعات قليلة،

حتى بوث نفسه ثم تعقبه وقتله يوم ٢٦ أبريل في مزرعة بشمال
فيرجينيا .

ألقت ماري نظرة أخيرة على زوجها عند ظهور ضوء الفجر
المطر القادم من التوافذ مثل "شموع خافتة" . وبسماع صوت غرغرة
الموت أدرك الأطباء أنها بداية النهاية فاندفعت ماري في العويل: "
يا الله، هل أسلمت زوجي للموت؟" ثم انهارت فجذبها ابنها
روبيرت بعيداً .

عند الساعة ٢٢ و٧ صباح يوم ١٥ أبريل التقط لنكون آخر
أنفاسه، فطلب ستاتون من الطبيب فينياس جورلي، كاهن أسرة
لنكون وراعي كنيسة شارع نيويورك البريسبيترية بواشنطن، تلاوة
صلاته . فانهار روبيرت لنكون فجأة ومال على تشارلز سومنر
مستنداً، وعندما انتهت الصلاة انهالت دموع ستاتون فوق خديه،
ثم رفع ذراعه اليمنى قائلاً: "إنه الآن في ذمة التاريخ" .

عندما علم دوجلاس نبأ موت لنكون غلبه الحزن . كان في
منزله في روشيستر وشعر بأن ذلك النبأ "مأساة شخصية وقومية" .
وفي ١٥ أبريل بعد ذلك، ألقى خطاباً مرتجلاً في سيتي هول حيث
اجتمع عدد من المواطنين لرثاء موت الرئيس . لم يكن ذلك وقت
الخطب وإنما وقت الصمت والصلاة هكذا قال دوجلاس وكان
ذلك تردداً لمشاعره حول عدم قدرة الخطابة على التعبير عن مواقف

معينة عشية ذكرى الاتعاق وتحرير العبيد . وهكذا ألقى خطاباً راثعاً مرة أخرى . وبعد اقتباسه كلمات من خطاب لنكون في حفل تنصيبه ، سعى دوجلاس لإبراز معنى مأساة موته " رغم أن أبراهام لنكون يموت إلا أن الجمهورية تحيا . " وحد موت الرئيس فجأة بين السود والبيض في الشمال " وجعلت منا ذوي قرى " كان استشهاده رمزاً للمغفرة والتصالح العرقي ولسلام دائم لا يحمل شراً لأحد ويحمل الخير للجميع . وشبه دوجلاس لنكون بمسيح أمريكا : " ربما يكون في دم رئيسنا الشهيد المحبوب خلاص وطننا . " فالتناس سوف يتحدون ، ويصبحون كالأقارب بفضل ولائهم للأمة بدلاً من ولائهم للون بشرتهم . "

وإذا كان موت جون براون قد بدأ الحرب التي أنهت العبودية - كما يعتقد دوجلاس - فإن موت لنكون يمكنه أن يبدأ طريق التصالح بين السود والبيض . بيد أن أغلب البيض تعاملوا مع وفاة لنكون بأسلوب مختلف . فاستشهاده يؤدي لخلاص الأمة ، ويمهد لعملية إعادة الوحدة بين بيض الشمال وبيض الجنوب ، وأصبح يمثل مسيحاً أمريكياً غفر للمتوردين خطاياهم وسمح لهم بالعودة للاتحاد . قال أحد الكهنة يوم الأحد التالي لوفاة لنكون : " إن المسيح عيسى مات من أجل العالم ، وأبراهام مات من أجل وطنه . "

وأصبحت مشاعره الودودة لازمة شعبية يكررها الناس .
وبالتالي أصبح جون ويلكيس بوث يمثل يهوذا الأسخريوطي
الأمريكي . كما قال بعض الناس أنه "الأسوأ من سميه" لأنه قام
بالاغتيال في حين كان يهوذا الأول مجرد خائن يجمع الذهب ويترك
الآخرين "ليقوموا بأعمال القتل" .

قاد بيض الشمال عملية المصالحة، فضمنوا العفو لكل المتمردين
تقريباً وأعادوا الأملاك المصادرة لهم بدلاً من توزيعها على السود
الذين ساعدوهم في الفوز بالحرب . وعكست تلك السياسة رسالة
لنكون في التسامح في خطابيه الافتتاحي، وبالتأكيد خطته في إعادة
البناء كذلك .

والمشكلة في هذا الشكل من أشكال المغفرة هي أن الجنوبيين لم
يعتقدوا أنهم أخطأوا، وأنهم آمنوا بأن العبودية ليست خطأ ، وأن
الشمال هو المعتدي فلا عجب أنه في العام الأخير للحرب لم يمتنى
المتمردون أكثر من رؤية لنكون ميثاً (أو معزولاً من منصبه) . والواقع
أن الكونفيدراليين خططوا لتفجير البيت الأبيض . وعقب اغتيال
لنكون، انتهج المتمردون عبر أرجاء الجنوب . بيد أن ابتهاجهم توقف
بسرعة لأنه بعد انتهاء الحرب وفقدان قضيتهم أراد الجنوبيون أن
يعودوا للاتحاد فقبلوا سياسة لنكون بالتسامح دون إبداء أي ندم .
وبدأ قادة التمرد ذو التفكير المتزن وكذلك الشماليون المعاطفون

معهم في التعامل مع موت لنكولن باعتباره مأساة قومية. فأعلنت
افتتاحية إحدى الصحف الديمقراطية أنه "بوفاة مستر لنكولن، فقد
شعب الجنوب أفضل أصدقائه." كما كرر الجنرال جوزيف
جونستون قائد التمرد نفس المشاعر بقوله إن موت لنكولن "كان
أعظم مأساة ممكنة للجنوب"، بسبب سياسته في التسامح. كما قال
أليكساندر ستيفينس نائب رئيس الكونفيدرالية أنه اتابته "أحلام
مزعجة" غداة اغتيال لنكولن، وخصص يوماً للصوم والعزاء لتكريم
صديقه السابق. وتحولت مأساة موت لنكولن في الحال إلى عملية
استرداد للتمردين السابقين.

= خاتمة =

في الرابع عشر من أبريل لعام ١٨٧٦، في الذكرى الحادية عشرة لاغتيال لنكولن، ألقى دوجلاس الخطاب الرئيسي في حفل رفع الستار عن "نصب الرجال المحررين" في حديقة لنكولن في واشنطن العاصمة. وخلف منصة المتحدث، جلس رئيس الولايات المتحدة جرانث ومجلس وزرائه، وقضاة المحكمة العليا، وأعضاء الكونجرس، ورجال الدين والدبلوماسيون وقليل من قادة السود. وعلى اليمين كانت الفرقة الموسيقية التي افتتحت الحفل بلحن "المجد لكولومبيا" وأمامهم النصب الذي كان محاطاً بالأعلام الأمريكية واحتشدت في نصف دائرة حول النصب جماهير عددها خمسة وعشرون ألفاً، أغلبهم من السود.

نشأت فكرة النصب لدى امرأة محبرة اسمها لوت سكوت، كانت قد انتقلت إلى أوهايو عام ١٨٦٤ بعد اغتيال لنكولن بأسابيع قليلة، ووهبت خمسة دولارات لعمل تمثال لتخليد ذكراه. وتراكت الأموال عبر السنين في دفعات صغيرة أتت أغلبها من السود المحررين حديثاً أو من قدامى المحاربين السود. وفي النهاية تم سداد التكلفة

النهائية للتمثال البرونزي من تبرعات السود وصلت إلى ١٧٠٠٠ دولار. وقام الكونجرس بسداد ٣٠٠٠ دولار لقاعدة التمثال.

صمم التمثال الفنان توماس بول وهو نحّات من بوسطن كان قد انتقل إلى فلورنسا بإيطاليا أثناء الحرب، وألهمته أخبار اغتيال لنكولن بإبداع نصب عن الحرية من الرخام الإيطالي. ، وكانت اللجنة المسؤولة عن اختيار التصميم والمشكلة كلها من الرجال البيض قد سمعت عن نموذج بول، وكلفته بصناعة واحد من البرونز.

تقدم جرائد إلى أمام منصة الخطابة لكشف الستار عن النصب ، وبعد لحظة صمت شد الحبال لترفع الأعلام، وعزفت الفرقة "المجد للرئيس" وهتقت الجموع، ولم يبد واضحاً هل كانوا يهتفون لجرائد أم للنصب . كان التمثال يبين لنكولن واقفاً ويده اليمنى على منصة رفيعة تمسك بإعلان تحرير العبيد بينما يده اليسرى تلمح مرتبة فوق رأس عبدٍ راکع، وعند القاعدة كلمة وحيدة تعلن "العق".

كانت هيئة العبد الراكع أيقونة بين دعاة التحرير منذ بداية الحركة، ومع الحرب الأهلية أصبحت واحدة من أشهر (أو حتى أغرب) الصور في أمريكا ولأن الصورة الأيقونية ابتدعها البيض فهي ترى الصورة الأيقونية تصف العبد راکماً وحيداً تماماً متوسلاً في صلاة ومتسائلاً: "ألسْتُ إنساناً وأخاً؟" وبالنسبة لمعظم البيض،

كانت الصورة الرمزية توحى بالتسليم لله وللبيض من أجل الخلاص. تمنى دوجلاس أن يعيدوا تصميم تلك الصورة الأبوية لنمطية، وأصدر تكليفاً بأعداد نحت يمثل المسيح واقفاً وأمامه العبد الراكع وقام بتوزيع تلك الصورة كواجهة لكتاب هدايا لشعبي. لكن في تمثال فريدمان تحول لنكون إلى مسيح أمريكا.

ومع تقدم دوجلاس نحو منصة الخطابة لإلقاء كلمته، نظر إليه بعض ممن في وسط الجمهور ليرى إذا ما كان يسير متكئاً على عصا حيث أن ماري بعد وفاة زوجها أهدت دوجلاس بعضاً من أفضل عصي زوجها كذكر لصدقاتهما. ولما كان دوجلاس يعتبرها "رمزاً لعلاقة مقدسة" فرمى تركها في المنزل.

لم يحب دوجلاس ذلك النصب حيث أخبر أحد أصدقائه لاحقاً: "كان إضفاء لمسة أكثر رجولة للتمثال سيوحى بالحرية." لكنه حينذاك تجنب انتقاده وبدلاً من ذلك أشار إليه "كشيء مثير للاهتمام بصورة سامية" و"عطاء متواضع". وملأه الأمل في أن يوفر خطابه علاجاً لتلك الصورة الأبوية لعبد راکع أمام مخلصه الأبيض. كان دوجلاس يعرف أن تلك الكلمات قد تشعر بعض الناس بعدم الارتياح. واستطرد قائلاً: "إن الحقيقة تجبرني أن أصرح - حتى هنا وبحضور ذلك النصب الذي نصبناه في ذكراه - أن أبراهام لنكون لم يكن، بكل معنى الكلمة، لارجلنا ولا نموذجاً لنا، فقد كان

أساساً رئيساً للناس البيض، وكرّس نفسه كلية لرفاهية البيض وشارك أبناء وطنه الاحكام المسبقة تجاه السود. "وبعدئذ خاطب دوجلاس كبار الشخصيات من البيض في المنصة خلفه قائلاً: "أنتم أبناء أبراهام لنكولن. أما نحن فعلى أفضل تقدير فآباء زوجته". لاشك أن كثيراً من كبار الشخصيات البيض قد اعتبروا كلمات دوجلاس وقحة وأن مذاقها سيء. لكن أولئك الذين تبعوا مسيرته كانوا يعرفون ميله إلى تغيير مجرى حديثه ومفاجأة الجمهور، وهو أسلوب التقطه منذ زمن طويل من كتاب "الخطيب الكولومبي" الذي كان يستخدمه الآن.

واعترف دوجلاس "أنه بإعطاء الأولوية للاتحاد على مأساة السود، نجح لنكولن في تنظيم الشعب الأمريكي المخلص من أجل الصراع الهائل المائل أمامه ثم اخرجته بأمان من ذلك الصراع ... ولو وضع تحرير العبيد قبل إقازد الاتحاد لكان خسر عدداً كبيراً من مؤيديه، ولوجد أن مقاومة التمرد مستحيلة، وعندما ننظر للسيد لنكولن من أروضية دعاة تحرير العبيد نراه متردداً، وبارداً، وكيئاً بل وغير مبال. وعندما ننظر إليه بمقياس مشاعر أمتة، وهي المشاعر التي ارتبطت باستشعارها كرجل دولة، فهو سريع وغيور وثوري وحاسم أيضاً."

أجمل الخطاب على نحو مذهل خصائص رئاسة لنكولن، لقد قاد ذلك الجمهورى المحافظ " الأمة خلال الثورة. " والرئيس الأبيض الذي عامل السود كأبناء لزوجه تبناهم كأبنائه تماماً ، وكجزء من الاسرة الوطنية. وهكذا فإنه بتكريم لنكولن يكرم السود أنفسهم " هكذا قال دوجلاس.

والمفارقة الكبرى في خطاب دوجلاس هى أن ذلك النصب وبه ذلك العبد الراكع أمام لنكولن الواقف أمامه كشخص المسيح كان أكثر دقة مما أراد دوجلاس أن يصرح به، لأن العبيد في عام ١٨٧٦ بدلاً من التقدم في طريق الحرية "كانوا يفرقون ركوعاً على ركبهم بعدما وقفوا لبرهة قصيرة تحت الشمس. "

لقد ساعد رمز لنكولن كمسيح أمريكي على استعادة الكونفيدرالية، إذ استرد قادة التمرد السيطرة على إقليمتهم، واسقطوا الإصلاحات الدستورية التي أنهت العبودية ومنحت حق التصويت للسود وحق المواطنة لكل إنسان ولد على الأرض الأمريكية. كما ترك أغلب القوات الفيدرالية "المركبة" الجنوب، وخلال أقل من سنة تلت الانتخابات المتنازع عليها لروزرفورد هابس تم إخلاء البقية الباقية من القوات، مما أنهى إعادة البناء وترك الرجال والنساء المحررين لمصيرهم أمام المتمردين غير التائبين ، وتحققت

مخاوف دوجلاس من الحرب الأهلية، لكنه بقي - رغم ذلك - صامتاً. فلماذا كان هكذا؟

مثل معظم السود الآخرين والبيض من دعاة التحرير، اعتبر دوجلاس نهاية الحرب كخاتمة للعصر وخاتمة لعمل حياته. كما وسمتُ نهاية لصناعته المتواصلة لنفسه. إذ اعترف بقوله بعد الحرب: "لقد سيطر علىّ شعور غريب وربما شعور خاطئ". كما أن السعادة الكبرى التي شعر بها في مساعدته لإنهاء العبودية "شابهها بصورة طفيفة شعور من الحزن، لقد شعرت بأنني قد وصلت لنهاية أفضل وأنبئ جزء في حياتي، فمدرستي انهارت، وكنيسة تفرقت، وجماعة المصلين المحبوبين تشتتوا، ولم نجتمع معاً ثانية." وأصبح إنجاز حياته الآن "بين طيات الذاكرة".

كان ذلك اعترافاً مدهشاً. في خطابه المعنون "ماذا يعني الرابع من يوليو للعبيد؟" عام ١٨٥٢، لخص دوجلاس فوائد التاريخ بقوله: "يجب أن لا تعامل مع الماضي إلا بقدر ما يمكننا الاستفادة به في الحاضر والمستقبل." لكن الماضي أصبح حينذاك هو الموضوع الرئيسي. وتجاهل خطابه يوم نصب الرجال المحررين ما كان يحدث عندئذ للسود في الحاضر. إذ كانوا يقاتلون بصورة تكاد تكون منظمة. ويتم إرهابهم من قبل الكونفيدراليين السابقين الذين حاولوا إعادة العبودية دون تسميتها كذلك. ومع ذلك، فقد رفض الرئيس

جرانت ورجال الكونجرس وقضاة المحكمة العليا - الذين أيدوا
دوجلاس من قبل - أن يقاتلوا في هذه المرحلة الجديدة من الحرب
الأهلية. لقد أعلنوا الانتصار، لكنهم تحولوا إلى عميان لا يرون
ما يحدث. هكذا أيضاً فعل دوجلاس. ففي خطابه تجاهل
الانتهاكات المرتكبة في حق السود. وهو في ذلك الإطار يشبه رياضياً
معزلاً أو قائداً سياسياً أصبحت أعمال حياته وإنجازاته العظيمة
وراء ظهره، ولم يعد قادراً على العودة لدخول المعركة بنفس الحماسة
ونفس الأسلوب.

مثل نصّب الرجال المحرّرين لدوجلاس ولدعاة التحرير الآخرين
الوصول للذروة المرتجاة بدلاً من أن يكون بداية لنضال جديد. فقرار
تحرير العبيد كان "المفتاح للجنة الموعودة". ومثل باقي رفاقه، كان
دوجلاس قد حدد الحرب بمفهوم عصر سيادة المسيح كحرب رهيبة
مزلّزة تتم بمجيء الملك ميخائيل مع ملائكته لمحاربة الشيطان. لكن
الحلم أسفر عن كابوس مرعب، فالعصر الجديد ليس على مرمى
البصر. وفي مواجهة تزايد الشكوك كمصدر الإحباط، استدار
دوجلاس ومعظم رفاقه الدعاة إلى الماضي مصدراً للعزاء، وبالطبع
استمرت الحياة، ودوجلاس كان في السابعة والأربعين عندما انتهت
الحرب، كان قوياً من الناحية الجسدية والصحية وقد يعيش ثلاثين
عاماً قادمة. لكنه خلال تلك الفترة تغيّر أكثر من أي فترة أخرى في

حياته. ومنذ عام ١٨٧٠ حتى عام ١٨٩٥ أصبح قيادياً في الحزب الجمهوري ورجل دولة عجزوا إذ آمن أن الجمهوريين قدموا آخر فضل للسود، ونبع ولاؤه الراسخ لحزبه - جزئياً - من ذكراته عن ثورته السابقة.

وفي عام ١٨٧٠ انتقل دوجلاس إلى واشنطن "العاصمة" واشترى جريدة "نيو ناشيونال إير" من جرائد الحزب الجمهوري. بيد أنه بدا معتدل الاهتمام بها. فلم يخصص لها أوقاتاً كثيرة سواء ككاشف أو كمحرر. لذا، افتقرت إلى الأسلوب الأدبي والعاطفة والشعور بالهدف الذي كانت عليه جريدة "نورث ستار" وحلقاؤها وبدأت أحياناً أكثر اهتماماً بالقضايا الاقتصادية منها بقضايا السود وذلك ما عكس تحولاً للحزب الجمهوري من الحقوق المدنية إلى مصالح العصر الذهبي للرأسماليين. وبعد أربعة أعوام فقط من شرائه "نيو ناشيونال إير" وفي أعقاب اضطرابات عام ١٨٧٣، أخذت الجريدة في الهبوط، وفي آخر سنة لها كانت "تقرأ كجريدة يصدرها" "لوبي" كبار رجال الأعمال.

كان دوجلاس أكثر تأثيراً في الدعاية لمرشحي الحزب الجمهوري. ففي عام ١٨٧٢ ساعد في إعادة انتخاب جرانت، وأقنع السود بالبقاء مخلصين للحزب رغم الفساد الكبير والعيوب الخطيرة التي تسبب فيها كبار زعمائه مثل تشارلز سومنر لأن جرانت والجمهوريين

شكلوا لدوجلاس "الأمل المرئي الوحيد للجنس الملون في الولايات المتحدة، فخارج هؤلاء لا نرى أية قوة يحتمل أن تقف بين الزنجي والقتل"، وقبل عام أرسل جرائد القوات الاتحادية لقتال جماعة الكوكلوكس كلان وبقية الجماعات الداعية لتفوق الجنس الأبيض. لكن طالما كان الجمهوريون الأثرياء يسعون للتحالفات الاقتصادية مع المزارعين بالجنوب فقد أصبحت تلك الحملات نادرة.

إن حزب لنكولن، الموجود به الآن جرائد ودوجلاس الذي شجع كثيراً من البيض على صناعة أنفسهم ووفر الحرية والمواطنة لكل مواطن أمريكي والتصويت لكل الناس، يمضي متسارعاً ليصبح حزب رجال الصناعة الأثرياء الذين أغلقوا أبواب الحزب دون أولئك الذين كانوا يناضلون من أجل الوطن.

عندما احترق منزل دوجلاس بروشيستر عام ١٨٧٢ اعتبر ذلك علامة على العصر. فبمجرد علمه بنبا الحريق استقل أول قطار إلى روشيستر، وعندما وصل هناك ذهب إلى فندق لكنهم طردوه لأنه كان أسود. وبإله من تغيير أحداثه الحرب! ففى العقد السادس من القرن التاسع عشر كانت روشيستر واحدة من أكثر المدن مناداة بالمساواة بين الأجناس في الوطن والآن لم يعد يستطيع حتى تأجير غرفة، مما دفع به إلى الشك مع أن شخصاً ما قد أحرق منزله عمداً. هذا ما استنتجته قائلاً: "تلك الروح التي طردتني من الفندق

هى التى أحرقت منزلى. " فانتقل بآنا والأطفال - بعد ما خرجوا من الحريق دون أذى فى روشيستر - إلى واشنطن .

كان للإخلاص الحزبى والولاء للحياة السياسية فى واشنطن مقابل من الإكراميات، ففي عام ١٨٧٤ تم تعيين دوجلاس رئيساً لبنك فريدمان رغم عدم امتلاكه أية خبرة بنكية . وكان البنك بعد أن أنشأته الحكومة الفيدرالية عام ١٨٦٥ قد عمل كمؤسسة مستقلة لمساعدة العبيد المحررين على ادخار أموالهم، ولكن حالما استقر دوجلاس بمكتبه الوثير الجديد، أكشف أن البنك على وشك الإفلاس إذ كان مديروه البيض فاسدين أو غير أكفاء، حيث أقرضوا ٥٠٠٠٠٠ دولار للبارون اللص جاي كوك بفائدة قدرها ٥٥% (أقل من نصف الفائدة السائدة) وكان ذلك وسط أقاويل أن إمبراطورية كوك المالية فى طريقها للانهار . أدرك دوجلاس فى الحال أن مديري البنك أرادوا استغلال اسمه الموثوق به فى استعادة ثقة العملاء، وحاول بصورة مبدئية إنقاذ البنك مودعاً ١٠٠٠٠ دولار من أمواله الخاصة، وأرسل برقيات إلى العبيد المحررين بالجنوب يحثهم على عدم سحب أموالهم فى فروع البنك . لكن بعد ثلاثة أشهر على توليه الرئاسة، أغلق البنك أبوابه للأبد وقال جملاً ما حدث: "لقد كان بكرة الرجل الأسود . لكنه كان "حليب" الرجل الأبيض . " ورغم أنه

حصل على ١٠% فقط من رصيده، فإن السود المحررين فقدوا نصف إيداعاتهم.

تسلم دوجلاس أخيراً في عام ١٨٧٧ منصباً جمهورياً بجسد عليه، كان قد شارك في حملة الترشيح للرئاسة التي قام بها الحزب لمرشحه راذرفورد هايس العام الماضي، وهي الانتخابات التي جرى التنازع عليها مع المرشح الديمقراطي صامويل تيلدين. ثم منحت لجنة انتخابات الرئاسة لراذرفورد هايس، معتمدة على التأييد - غير المسبوق - لأعضاء الكونجرس. ولتهدئة ديمقراطيي الجنوب وافق هايس على سحب باقي القوات الفيدرالية من الجنوب وهكذا أنهى مشروع إعادة البناء. وتغطية خيائه للسود عين دوجلاس مارشالا لمقاطعة كولومبيا، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يحصل فيها رجل أسود على وظيفة فيدرالية تحتاج إلى موافقة مجلس الشيوخ وكان منصباً مرموقاً لأن هذه الوظيفة تستلزم قيادة الأعيان في موكب يدور حول المدينة. كان دوجلاس متباطئاً في الهجوم على هايس مما حدا بالنقاد إلى القول بأن "وظيفة سمينة أخرسته".

وأحيانا ما أدى إخلاص دوجلاس الحزبي إلى عماء عن الصراع الطبقي الذي بدأ يشعل الانقسام العرقي من جديد. فالكثيرون من أثرياء الحزب الجمهوري أظهروا اهتماماً بالسود كوسيلة للحصول على الأصوات والسلطة السياسية. ولكن بمجرد ادراكهم أنهم لم يعودوا

في حاجة لأصوات السود يهملونهم ويعودون لصياغة تحالفات مع
النخبة الجنوبية التي لم تندم على ما فعلت بعد .
ان حالة دوجلاس الاقتصادية أعمته عن أحوال جموع السود .
فخلال العصر الذهبي أصبح جمهورياً ثرياً . وكان يتقاضى من
خمسائة إلى ستمائة دولاراً لكل محاضرتين، وفي فترة قدرها ٣ أشهر،
تلقى ٣٧٠٠ دولار لإلقائه محاضرات على النخبة البيضاء حول
موضوعات متنوعة مثل الصحافة والتراث الشعبي . وفي عام ١٨٧٧
اشترى ضيعة في أناكوسيا المعروفة بـ"التفاح بها بيت من الطوب و
١٦ فدانا تطل على مبنى الكابيتول . وبين الأتعاب التي يتلقاها عن
الكلام والاستثمار ودخله الحكومي، كَوْن ثروة صغيرة مقدارها
٣٠٠٠٠٠ دولار .

وبالنظر إلى وضعه الحالي كرجل دولة كبير، ربما يصبح مفهوماً أن
دوجلاس لم يعد يسعى لتغيير ثوري في عالمه أو يستمر في إعادة صنع
نفسه، وقد حاج بعد مشروع إعادة البناء بأن "الحكومة أفضل من
الفوضى وأن الإصلاح الهاديء الصبور أفضل من الثورة العنيفة ."
كان ذلك انقلاباً عميقاً على موقفه كأحد دعاة التحرير الثوريين . وفي
الحقيقة أصبح حينذاك يقلل من جوانب ماضيه المتطرفة . ففي كتاب
سيرته الذاتية أعاد نشر كتاباته عن غارة جون براون لكنه ألغى

الجملة التي يقول فيها "أنه كان مستعداً دوماً للتنظيم والحشد، بل والمتآمر ضد العبودية."

عندما كان هناك "أول معقول للنجاح". لقد أصبح حينذاك شبيهاً بالنكون في منهجه التدريجي والحفاظ نسبياً تجاه الإصلاح. لم يكن تحول دوجلاس إلى ماضيه بعد الحرب أمراً فريداً. فهو يتوازي مع تراجع أغلب دعاة الإصلاح مثلهم حول العصر الذي يسوده المسيح، إذ أصبح أكثر علمانية في رؤيته للعالم ولم يعد يؤمن أن الله يمكنه التأثير في شئون العالم، وبالتالي فوجود جنة على الأرض تبدوله وهماً خطيراً. فالحقائق المادية وقوانين الطبيعة قهرت كل "صلواته المسيحية". وبعد معاينة أربع سنوات من الحرب المرعبة، أصبح أكثر اتساماً بالطابع البراجماتي وأدرك تكلفة تحقيق المثل الوطنية.

ظلت ذكرى صداقه للنكون تؤثر على حياته ومثله وسعى على نحو متزايد إلى مزيد ، فتزايد تشكيل نفسه على صورة لنكون . كان ولاؤه للحزب الجمهوري يشبه ولاء لنكون ، ومثل صديقه السابق فقد اعترض في حدود القانون وحزبه . ولم يؤيد دوجلاس بعد الحرب ولا مرة واحدة الوسائل غير القانونية لانهاء القمع . وكثيراً ما أشار دوجلاس في خطبته بعد الحرب إلى لنكون وصداقتهما ، وبعجلا العقد التاسع من القرن التاسع عشر استطاع

أن يتجاهل حقيقة أنه كان من أقسى نقاد لنكون وأصبح حينذاك
"اعظم رجل دولة"

في أغلب الوقت، لم يذكر دوغلاس تكلفة حرية السود على
أنفسهم، فرغم أنه الآن أصبح أكثر براجماتية، وقادراً على الموازنة بين
مثله ووقائع عالمه، إلا أنه ظل ناشطاً اجتماعياً لبقية حياته وكان
يقول: "عندما كان العبد عبداً طلبت تحريره؛ وعندما أصبح حراً،
طلبت بحريته الكاملة: كل أركان الحرية. ربما فشلت في أمور أخرى
إلا هذا فلم أفشل فيه." فقد طالب بحرية العبيد بعدة وسائل منها
الاعتراض ضد المحاكمات الرمزية والاعدام دون محاكمة، وإرهاب
عصابات الكوكلوكس كلان، وقوانين المستأجرين، وأساليب المزارعة،
والحث على إجراء إصلاح داخل الحزب الجمهوري وغالباً ما تم
استعادة ذكريات العبودية، وتحرير العبيد، بل ولنكون.

وقع دوغلاس في هوى بيته الجديد بتل التفاح في أنا كوستيا،
وكان يمشي خمسة أميال كل صباح يحملق بالكابيتول، وجرب
الرياضة باستخدام "الدمل" بانتظام. وكان أطفاله وأحفاده يزورونه
غالباً ويظلون عدة شهور في بعض الأحيان. كان أباً محباً خيراً وكان
يدلهم بالرعاية والمال. واشترك في نادي اتحاد المدينة لشكسبير وتم
تعيينه مسجلاً لسندات الملكية في مقاطعة كولومبيا التي تتطلب عملاً
أقل عبثاً من مهام منصب المارشال .



ماتت آنا عام ١٨٨٢ في سن السبعين من عمرها، وكان
دوجلاس في الرابعة والستين. ظلت تعاني آلام الروماتيزم الحادة التي
أبقتها بلا حراك، بل ومشلولة أحياناً. وفي شهورها الأخيرة، قدمت
لها الممرضات "رعاية صادقة ومستمرة" وماتت في هدوء. يذكرها
دوجلاس بأنها "كانت عمود المنزل الذي جمعنا معا."

وبعد ثمانية عشر شهراً تزوج دوجلاس من هيلين بيتس، وهي
امرأة بيضاء حاصلة على درجة جامعية وتصفه بعشرين سنة
وعملت كسكرتيرة له. أغضب خبر زواجه الكثيرين من البيض
والسود، ومن بينهم بعض أعضاء الأسرة لأنه لم يشرح ظروف ذلك
الزواج جيداً وقال: "بينما تمثل آنا لون أمي، كانت هيلين تمثل لون
أبي." مما أوحى لبعض الناس أنه انحاز حينذاك للجانب الأبيض من
هويته. وقد أصر - أيضاً - على أن النساء والرجال "بغض النظر
عن الجنس أو لون البشرة" يجب أن "يسمح لهم بالاستمتاع بالحقوق
الطبيعية العامة..." (فاللون) كان قضية مصنوعة لتبرير الخط من
شأن السود.

كان زواجهما رائعاً. وبينما كان بينه وبين آنا القليل مما
يتشاركان فيه بعد مغادرتهم بالتيمور، كان هناك الكثير من
الاهتمامات المشتركة مع هيلين من أول الأنشطة الاجتماعية إلى
عشقهما للموسيقى والأدب والسفر. في عام ١٨٨٨ ذهب في رحلة

كبرى إلى أوروبا وسط "موضة" الطبقة المتوسطة الأمريكية. وفي إنجلترا أقاما مع جوليا جريفيث كروفتس التي لم يرها دوجلاس منذ ست وعشرين سنة. وزارا روما وباريس واليونان ومصر وجلسا معاً لالتقاط العديد من الصور. مثلت الرحلة تناقضاً صارخاً بالنسبة لزوجاه من أُنَّا التي لم تكن تهوى السفر ولم تظهر معه في أية صورة.

كانت أوتيلي آسج تعيش في باريس عندما سمعت بزواج دوجلاس من هيلين بيتس. كانت منذ سنوات طويلة مضت، عندما هرب دوجلاس من أمريكا بعد غارة براون، قد ملاها الأمل في أن يقابلها في باريس - لكنه لم يفعل - والآن تأتيها الأنباء كالصاعقة فهيلين امرأة أصغر كثيراً منها وقد تزوجت بفردريك أمام الكاهن بالكيسة.

وذاث يوم مشمس، بعد الظهر، بعد زواج دوجلاس وهيلين بشهور قليلة تمنت أوتيلي آسج نحو غابة بولونيا على الجانب الغربي لباريس وجلست على مقعد كان مختفياً إلى حد ما عن أعين المارة على ممر المتنزه وأخرجت قنينة صغيرة من حقيبة يدها وفتحت غطاء الزجاجاة. ربما كانت تفكر في "فيرتر" بطل رواية جوته "آلام فيرتر" ثم جرعت كمية سيانيد البوتاسيوم الموجودة داخلها. تم اكتشاف جثتها فيما بعد تلك الليلة، وعندما وجدت الشرطة تلك

الزجاجة حددت سبب الوفاة بأنه الانتحار. عاش دوجلاس وهيلين كروجين متحابين لمدة إحدى عشرة سنة حتى وفاة دوجلاس عام ١٨٩٥، وقد استمتعا بضيوف مميزين وطلبة من جامعة هاوارد، وتليا أشعار بول لورنس دنبار والشعراء الآخرين، وأحياناً ما كانا يغنيان معاً، ويعزف دوجلاس على الكمان وهيلين على البيانو. لكنهما غالباً ما كانا يناقشان الحقوق المدنية ومحضران اجتماعات الإصلاح والمؤتمرات.

قبل أسابيع قليلة من وفاة دوجلاس بالأزمة القلبية في فبراير ١٨٩٥ سافر طالب أسود شاب إلى بروفنس في رود آيلاند حيث كان يزورها دوجلاس، وأراد أن يعرف ما النصيحة التي يمكن لدوجلاس أن يقدمها لشاب مثله. كان يفكر في احتراف مهنة ما وكان سؤاله: "ماذا يمكنك قوله لشاب زنجي يريد أن يبدأ حياته؟ وماذا يجب أن يفعل؟" هب دوجلاس واقفاً بأقصى طوله ونظر إلى الشاب ثم إلى السماء وأجاب بصوته الأجش العميق: "حرّض .. حرّض .. حرّض !"

تقدير

بدأ هذا الكتاب كجزء من مشروع أكبر يدور حول الصداقة فيما بين الأجناس، وقد نشرت عام ٢٠٠٥ مقالة عن دوغلاس ولنكولن في مجلة "التايم" وأدين بالشكر لحريها كريس فارلي وبرسلا بنتون وأندريا دورفمان لمساعدتي في صقل المقالة وأفكاري عن دوغلاس ولنكولن.

وكنتم محظوظاً للغاية أن أمكنني العمل مع جون كارب في مركز تويلف. وهو محرر وناشر لامع وسعيد من يعمل معه وشخص مثالي في التفكير وله عين وأذن مثالية في تذوق النشر. كانت رؤاه سواء حين تتناول الخطوط العامة أو الحبكة أو خطوات الدراما واختيار الكلمات والنهايات مذهشة ودائماً ما كانت في موضعها. وكان نات جراي في مركز تويلف أيضاً متعاوناً جداً ومشجعاً، وقد أتيحت لي منذ خمسة أعوام مضت فرصة الإشراف على رسالة نات في جامعة هارفارد حول "جون براون في المخيلة الأمريكية" وظلت واحدة من أفضل ما قرأت، وكانت حساسيته للغة غير عادية. كما أود أن أشكر - أيضاً - المراجع رولاند أوتويل وهو صانع آخر للكلمات، حذر وتفصيلي لدرجة وجدت نفسي شديد التواضع عند مراجعة ذلك الكتاب. والشكر واجب أيضاً للمحرر الإداري للمشروع

روبرت كاسيللو لاقتراحاته الحكيمة ومروته وصبره . كما قام عدد
منه الأساتذة بقراءة بعض أو كل المخطوطات الاولى وأمدوني
بملاحظات وتقذية حاسمة . كما أولت زو ترود المخطوطة عناية
كبيرة في القراءة، وقدمت لي اقتراحات مفصلة مفيدة لدرجة أنني
وجدت نفسي في هلع من كثرة تقاريرها الجيدة المنتظمة . كما قرأ
دان آرون المخطوطة كاملة وكانت انتقاداته النفاذة لا تقدر . وقدم
دافيد بلايت اقتراحات دورية وهامة وساعدني في توضيح
حججي، وكانت جيمي جونز متعاونة عظيمة أخرى وقارئة مدققة،
واقترحاتها لا يمكن الاستغناء عنها . وقام جاري روس بتشكيل
رؤيتي للنكون وتقنيات الحكمي بأساليب تصل لما وراء هذين
الموضوعين . وجعلت اقتراحات سالي جنكيز ومحادثاتها وأمثلتها
للاقتراب وتفسير الماضي مني كاتباً أفضل . وواصل دافيد برون
دافيز تشجيعه ليلهمني كل أنواع السبل . كما أن أسئلة ستيف مينتر
العميقة أجبرتني على إعادة التفكير أو إيضاح مظاهر مختلفة في
المشروع . وساعدني عدد آخر من الناس في أجزاء متعددة من
الكتاب منهم لاري بويل ، دافيد دونالد ، ليلاند دولا ديورانتى ،
ساتلي إنجرمان ، جيف فيرجسون ، بول فينكلمان ، سكيب
جيتس ، والتر جونسون ، راندال كينيدي ، موريس لي ، روبرت
ليفين ، تيم ماكارثي ، لوك ميناند ، ريتش نيومان ، بيتر نورينج ،

سوزان أو دونوفان ، تشارلز أوجلييري ، روبرت باكيت ، مانيشا
سينا ، بن سوسكيس ، جيمس برورستوارت ، روبرت والاس ،
وجون دود .

ومع ذلك هناك أساتذة لم أكن لأستطيع الحديث معهم مباشرة إلا
أن أصواتهم مازالت ترن في سمعي خلال البحث والتدوين وهم
روبرت أبزوج ، وبول آتجل ، وجين بيكر ، وروي باسler ، وجون
بلاسنبام ، وجابور بوريت ، وميشيل بيرلنجام ، وريتشارد كارواردين ،
وجيمس كالايكو ، وسالي ديتون ، وماريا ديتريش ، وإيريك فونر ،
وفيليب فونر ، وويليام فري ليج ، وإيرنست فيرجسون ، ودوريس
كيرتس جودوين ، وجون هاي ، وهارولد هولتز ، ومارجريت ليتش ،
وويليام ماك فيلي ، وجيمس ماكفرسون ، وجون نيكولاي ، وجيمس
أوكس ، وستيفن أوتس ، ولويد أوستندوف ، وبنجامين كوارلز ،
ودافيد رينولدز ، وكارل ساند بيرج ، وجيمس سيمون ، وميتشيل
فورنبرج ، ورونالد هوايت ، وجوچلاس ويلسون ، وجاي
وينيك . وحيث أنني كنت أعتمد بشدة على الأصول الأولى للمراجع
فإنني مدين بالشكر والعرفان لسجلات المحفوظات التالية شاملة
الناس الذين جعلوا مادتها متاحة : مكتبة بوسطن العامة ، ومكتبة
الكونجرس ، وسجلات المحفوظات القومية ، ومكتبة جامعة سيراكوزا ،
والجمعية التاريخية بنسلفانيا . ومكتبة جامعة روشيستر ، ومكتبات

كورنيل الجامعية بوسطون، ومكتبة نيويورك التاريخية، وجمعية
فيلسون التاريخية، ومكتبة جامعة إلينوي في أوربانا - شامبين،
ومكتبات جامعة هارفارد ومكتبات جامعة ييل.

كما أود أن أقر بالجميل لأعضاء عائلتي الذين خرجوا عن
مساراتهم لمساعدتي في إنهاء هذا المشروع: بيل وجين ستوفر،
وراشيل ستوفر وجيم لوسون، ومارك وبيكي وكونور لافافر، وبريان
وجين كاتينجهام، وكريستين كاتينجهام، وجيم وكاثryn هورديكين.
وقد جعلت ديورا كاتينجهام، وإيريك إيسايا ستوفر اللذين أهديهما
هذا الكتاب وجعلا كتابته أمراً ممكناً؛ الأولى تحريرها الرائع للكتاب
ودعمها ونصحها عند كل مرحلة، والأخير لفضوله وتساؤله
اللا محدود، ولكليهما لحيهما لي.

جون ستوفر

كامبردج - ماساتشوستس



المحتويات

٤	مفتح
٥	تمهيد
١٣	مقدمة - لقاء الرئيس
٤٦	الفصل الأول - عبدٌ مميّزٌ وأبيضٌ بانس
١١٥	الفصل الثاني خطيبٌ مطاردٌ . . . وسياسيٌ ريفي
٢١٥	الفصل الثالث داعيةٌ راديكاليٌ لالغاء الرق . . . وجمهوري
٣٢٩	الفصل الرابع - مقاتلٌ من دعاة الغاء الرق ورئيسٌ للحرب
٤٤٣	الفصل الخامس أصدقاء
٤٨٧	= خاتمة =
٥٠٤	تقدير